المجتمع العباسي
من خلال
كتابات الجاحظ

دكتور محمد عويس

١٩٧٧



المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ
د. محمد عويس
دار الثقافة للطباعة والنشر



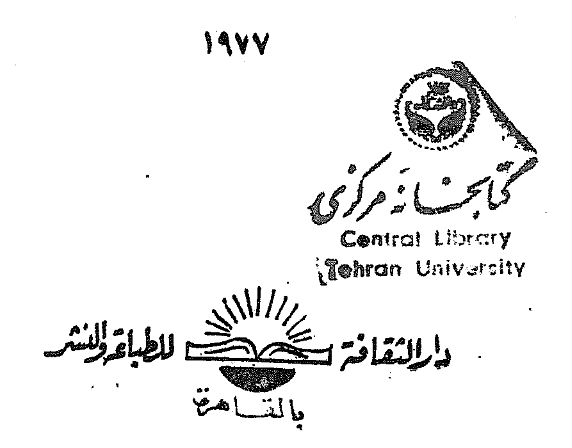
المجتمع العباسي
من خلال
كتابات الجاحظ

المجتمع العباسي
من خلال
كتابات الجاحظ

تأليف

دكتور محمد عويس

١٩٧٧



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

« الموضوع ، المنهج ، المصادر »

صنف الجاحظ كتبا ورسائل كثيرة ، حتى عُد بين القلائل فى عصره ممن اشتهروا بكثرة التأليف ، ولم تكن كتاباته تدور حول موضوع بعينه ، بل تناولت شتى فنون المعرفة فى عصره ، حتى غدت أشبه بدوائر المعارف الموسوعية ، تعرض على صفحاتها ما تفتق عنه الفكر العباسى من معارف منوعة . وهو لم يكن من الأدباء الذين يعيشون فى أبراج عاجية ، بعيداً عن خضم الحياة فى مجتمعهم ، فقد نبت فى قاع المجتمع ، ونمت شخصيته فيه بجوانبها الاجتماعية والأدبية والثقافية نموا مطردا ، ومن ثم وقع اختيارى على كتاباته أدرسها لعلى أستطيع أن أرسم من خلالها صورة للمجتمع العباسى .

وكان طبيعيا أن أضع بين يدى هذه الدراسة تمهيداً أدرس فيه حياة الجاحظ وثقافته وآثاره ، لكى أحدد موقفى إزاء ما يمكن استخلاصه من كتاباته عن واقع الحياة فى المجتمع العباسى ، ومن ثم أحدد مكانته باعتباره كاتبا اجتماعيا عبر بصدق وأمانة عن مجتمعه .. وسلكت فى سبيل الوصول إلى هذه النتيجة ثلاث خطوات : الأولى درس حياة الجاحظ من المولد إلى الوفاة ، حيث امتد به العمر نحو قرن من الزمان ، تهيأت خلاله الظروف لازدهار الحضارة العباسية

أزدهارا عظيما ، ولم يكن قصدي الترجمة للجاحظ إنما كان قصدي البحث في ظروف نشأته والكشف عن المؤثرات التي أثرت في تكوينه النفسي والاجتماعي ، ولم تكن غايتي في ذلك كله استطلاعية تكشف الجاحظ من الخارج إنما كانت تحليلية بقصد الكشف عن شخصيته من الداخل ، والنظر في خفايا نفسه وما بداخلها من مؤثرات يمكن أن تؤثر في مسلكه الخارجي الظاهر في كتاباته والخطوة الثانية : درس عقل الجاحظ ومحتواه ، وأعني بذلك ثقافته باعتباره المعين الذي نهل منه في كتاباته ، فبحثت عن الروافد التي صبت في هذا المعين ، ووقفت عند ألوان ثقافته المتباينة ، ثم قدمت تصورا لمنهجه في البحث وكيف أنه كان يقوم على أساس عقلي ، تأثر فيه بفكر المعتزلة من مثل النظام ، والخطوة الثالثة : أن أبين كيف أنه لم يكن مؤرخا يعني بالأحداث التاريخية وسير المبرزين في عصره ، ولا سياسياً يعني بالنظر في الحياة السياسية لمجتمعه وما يدور فيه من صراع سياسي بين أصحاب المذاهب المتباينة ، وإن كان لم يمنعه ذلك من أن يصور في بعض كتاباته رأى الدولة في مسائل بعينها من مثل ما هو ظاهر في كتاباته عن الامامة ، وقد عرضت للسمات الظاهرة في كتابات الجاحظ من حيث أسلوب عرض الأفكار فتحدث عن سمة الواقعية الغالبة على هذه الكتابات ، ووقفت عند شيوع الاستطرادات في جانب من هذه الكتابات وبحثت في الدوافع التي دفعته إلى ذلك .

ومضيت بعد ذلك إلى دراسة المجتمع العباسي ، وجعلت هذه الدراسة في بابين يتفرعان إلى عدة فصول ، الباب الأول خاص بدراسة طبقات المجتمع العباسي لأصور النسيج البشرى لهذا المجتمع ، وكيف كانت خيوطه وعناصره . وقد قسمت هذا الباب إلى فصول أربعة : الأول منها مدخل عام يحدد حجم هذا النسيج من الخارج قبل المضي في تشريحه من الداخل ، وجعلت هذا الفصل خاصا

بدراسة التقسيم الطبقى المجتمع العباسى ، وبحثت فى الأسس التى كان يقوم عليها هذا التقسيم ، وإلى أى حد كانت دعائمه تضرب فى أغوار الماضى وتتأثر بهيكل البنيان الاجتماعى لبعض المجتمعات التى ذابت أو كادت تذوب داخل المجتمع العباسى ، وانتهيت فى هذا الفصل إلى تقسيم المجتمع العباسى إلى ثلاث طبقات : الطبقة العليا والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا ، وأفردت لدراسة كل طبقة منها فصلا مستقلا صدرته بتحليل للظروف المحيطة بنشأتها والعناصر المتداخلة فى نسيجها ، ثم وقفت عند أبرز الطوائف والفئات الاجتماعية لكل طبقة ، ذلك أنه من الصعب تتبع كل طوائف المجتمع وفئاته وحرصت عند دراسة هذه الطوائف والفئات أن أبين المرتبة الاجتماعية لأصحاب كل طائفة ، والمقومات التى تقوم عليها مكانتهم الاجتماعية وأبرز ما يميز أفرادها من سمات ، ففى الطبقة العليا (الفصل الثانى) قمت بدراسة أحوال ثلاث فئات هى : فئة الخلفاء باعتبارأنهم على قمة السلطة فى المجتمع ، ثم فئة الأمراء والولاة والقواد ، ثم فئة الوزراء ، وفى الطبقة الوسطى (الفصل الثالث) درست أحوال خمس طوائف هى: التجار والشعراء والقضاة وكتاب الدواوين والمغنون ، وفى الطبقة الدنيا (الفصل الرابع) درست أحوال طوائف عامة الشعب وأهل الذمة والرقيق . وكانت دراستى لطبقات المجتمع وما تضمنته من بعض الملاحظات الاجتماعية، صورة مستخلصة من كتابات الجاحظ باعتباره أديبا عبر عن واقع مجتمعه وما كانت عليه أحوال طبقاته الاجتماعية ، وهو تعبير أدبى يختلف عن الدراسات الاجتماعية المتخصصة .

وخصصت الباب الثانى لدراسة « الحياة الاجتماعية » فى المجتمع العباسى لاتصالها بدراسة المجتمع وباعتبارها تصور الحياة فيه من الداخل ، وتكشف عن

العوامل المؤثرة فى مظاهر السلوك الفردى والجمعى فى المجتمع ، وما كان من هذه المظاهر سويا أو معتلا ، وافداً أو متوارثا متأصلا فيه ، وقد سبقت هذه الدراسة فى أربعة فصول : الأول اختص بدراسة « الحياة اللغوية » باعتبار أن اللغة هى أداة التعبير عن الفكر البشرى ، وقسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أقسام : الأول درست فيه « اللغة العربية الفصحى » ذلك أنها كانت أرقى مظاهر الحياة اللغوية، ثم وقفت فى القسم الثانى عند بعض اللهجات الشائعة فى أمصار بعينها ودرست وجهة نظر الجاحظ فى أسباب ظهورها ، ثم تحدثت عن بعض مظاهر عيوب النطق من الوجهة اللسانية والمتمثلة فى اللكنات واللحن ووقفت عند أمثلة منوعة من هذه المظاهر ، والثالث خصصته لدراسة سمات بعض اللغات الخاصة وأعنى بها لغات طوائف بعينها من مثل الأطباء والصناع وأصحاب المهن والحرف المتباينة وبعض طوائف عامة الشعب .

وإذ انتهيت من درس الحياة اللغوية ، مضيت فى الفصل الثانى إلى دراسة النشاط العلمى والفكرى باعتباره نتيجة التفاعل بين المفكرين وبين ما يعيشون فيه من ظروف ثقافية واجتماعية ودينية ، ووزعت هذه الدراسة على قسمين ، الأول : جعلته مظاهر ازدهار النشاط العلمى والفكرى فى المجتمع العباسى ، وتحدثت فيه عن العلماء وأبرز الموضوعات العلمية التى كانت مثارا للجدل والبحث العلمى فى العصر ، ثم وقفت عند واحدة من البيئات التى كانت تعكس بعض مظاهر ازدهار الحياة العلمية فى العصر وأعنى « بيئة المساجد » ، ذلك أن الجاحظ عنى بهذه البيئة عناية خاصة فى كتاباته ، بجانب أن المساجد اضطلعت بدور خاص فى النشاط العقلى ، ثم عرضت لفن المناظرات الذى استحدث فى العصر نتيجة لازدهار الحياة العقلية وحاولت أن أبين ظروف استحداثه وكيف أن المتكلمين كانوا وراء ذلك ، ووقفت عند جانب من المناظرات كانت غالبة على

كتابات الجاحظ ، محاولا الاهتداء إلى خصائص هذا الفن الجدلى العقلى الذى كان منتشرا فى بيئات الحياة العقلية ، والثانى : جعلته لدراسة طائفة خاصة ممن حملوا مشاعل النهضة العقلية فى المجتمع ، وأعنى طائفة المتكلمين ، وقد قسمت دراستى لهم ثلاثة أقسام ، جعلت أولها لدراسة المتكلمين بصفة عامة ومنهجهم فى التفكير العقلى وأبرز المسائل التى عرضوا لها ، بالبحث ، ثم وقفت فى القسم الثانى عند أخص فرقهم وأخطرها وأعنى فرقة المعتزلة ، وقمت بدراسة الأصول التى كان أقطابها يجتمعون عليها ، ووقفت عند مظاهر جدلهم مع الطوائف والفرق الأخرى ، وأما القسم الثالث فجعلته خاصا بدراسة أخطر مسألة عقلية فى عصر الجاحظ وأعنى مسألة القول بخلق القرآن وكيف تحولت إلى محنة حاقت بالمعتزلة وكادت أن تعصف بالدولة عاصفة تقتلع عهد الخلافة العباسية من جذورها .

وخصصت الفصل الثالث لدرس أحوال البلدان والدور والعادات والمشارب والأزياء ، فقمت بدرس ما يصور الحياة الإنسانية للناس فى البلدان والدور ، والنظر فيما بينهم وبين البلدان من صلات وثيقة فى الصـــور والأخلاق ، وفى المكاسب والصناعات ، وهو ما يمكن أن يسمى بتأثير البيئة فى الإنسان ، ثم وقفت عند أبرز العادات الشائعة فى المجتمع من مثل التزاور وعيادة المرضى والزواج والختان ومد الموائد ، ثم درست أحوال المطاعم وما داخلها من ألوان غير عربية ، ثم وقفت عند أحوال المشارب وإن كان حديث الجاحظ عنها قاصرا على الأنبذة والخمور ، واختتمت الفصل بدراسة مظاهر أزيائهم وألوانها ، وكانت غايتى فى هذه الأقسام الوقوف على صورة الامتزاج الحضارى فى المجتمع وأثر ذلك على تلون مظاهر الحياة المادية . وكان الفصل الرابع خاصا بدراسة نزعات الشعوبية والزندقة والمجون والزهد ، ووقفت عند كل منها بقصد بيان

الظروف والعوامل التي أدت إلى ظهورها وما استتبع ذلك من آثار على الحياة في المجتمع العباسي .

. . . . . .
. . . . . .

وتقوم دراستي المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ ، باعتبارها أصلا مباشرا يرسم صورة المجتمع ، ومن ثم اتخذت ما توفر تحت يدي من هذه الكتابات ، المخطوط منها والمطبوع ، مصادر أساسية لبحثي . وكان نظري في هذه الكتابات تحليليا يقوم على استنباط النتائج من النصوص ، دون غلو في التأويل ، مع الحرص على التحليل ، بالربط بين الأسباب والمسببات تبعا لما تقتضيه روح النصوص ولم تكن غايتي في هذا الصدد مناصرة الجاحظ ، بل أن أضع كتاباته في موضعها الصحيح ، وكان الفصل بيني وبينها فيما انتهيت إليه من نتائج هو النظر العقلي ، الذي كان يقدره أعظم قدر . وبجانب هذه الكتابات اقتضتني الدراسة استقصاء آراء وأقوال الجاحظ الواردة في بطون أمهات كتب التراجم والأدب واللغة والتاريخ ، خاصة عند دراسة حياة الجاحظ وثقافته وآثاره ، وكان من بين ما اعتمدت عليه من مصادر في هذا الصدد ماذكره ياقوت الحموي وابن قتيبة والخطيب البغدادي والمسعودي والسيد المرتضى وابن خلكان ، من بين المحدثين عولت بصفة خاصة على درسات الأستاذ أحمد أمين في «ضحى الاسلام» والأستاذ محمد كرد على في الجزء الثاني من « أمراء البيان » ، وأستاذي الدكتور شوقي ضيف خاصة في « الفن ومذاهبه في النثر العربي » و« العصر العباسي الأول » و « العصر العباسي الثاني » والدكتور طه الحاجري في تحقيقه كتاب « البخلاء » ودراسته عن « الجاحظ . . حياته وآثاره » وشارل بيلا « في أثر البيئة البصرية في تكوين الجاحظ » ، والأستاذ حسن السندوبي في «أدب الجاحظ» ، والدكتورة

وديعة طه النجم فى دراستها « الجاحظ والحاضرة العباسية » ، ومن المستشرقين نظرت بصفة خاصة فيما عقد البارون كرادى فو الفرنسى فى موسوعته عن مفكرى الاسلام فيما كتبه عن الجاحظ ، وافدت من دراسة « جيب » عن الأدب العربى وكذا المستشرق الألمانى كارل بروكلمان عن الجاحظ فى كتابه « تاريخ الأدب العربى » . وحاولت فى استقرائى لكتابات الجاحظ ورسم صورة المجتمع العباسى من خلالها ، أن أصف عما عساه أن يكون عذرا له حين كنت أقف منه موقف الخصومة ، خاصة أن طول صحبة الجاحظ تولد فى النفس ألفة لشخصيته ولكتاباته ، وإن كنت لم أرغب فى أن تحجب هذه الألفة أنظارى عن الحقيقة فى كل ما عرضت له من مسائل فى دراستى . واقتضانى هذا أن اعتمد على جملة من المصادر القديمة والمراجع الحديثة من تناولت أحوال المجتمع العباسى بالدرس والتحليل ، وقد حرصت ألا تطغى هذه المصادر على مصادرى الأساسية حتى لا تضيع كتابات الجاحظ ، مع كثرتها النسبية ، فى ثنايا الكتابات والمراجع القديمة والحديثة .

وأود أن أشير فى معرض الحديث عن مصادر دراستى ، أننى اعتمدت على جملة من المراجع الحديثة فى علم الاجتماع العام ودراسة الطبقات الاجتماعية ومفهوم البناء الاجتماعى ، وذلك بقصد الوقوف على تعريفات مستقرة تساعد على رسم صورة دقيقة الملامح عن المجتمع ، وبالمثل اعتمدت على جملة من مصادرى الدراسة اللغوية الحديثة عند النظر فى التعريف باللغة الأم واللغات الخاصة واللهجات واللكنات ، وإلى جانب هذه المصادر الفرعية فى العلوم الاجتماعية واللغوية اعتمدت على مصادر فرعية أخرى تتمثل فى جملة من المعاجم العربية والأجنبية وعلى مواضع متفرقة من دائرة المعارف الاسلامية ، إلى غير ذلك من المراجع التى أثبتها فى خاتمة البحث وأثناء عرض الموضوع .

. . . . . .

. . . . . .

ولا أظن أننى قلت الكلمة الأخيرة فى هذه الدراسة عن المجتمع العباسى من خلال كتابات الجاحظ، أو أننى أحطت علما بكل جوانب الموضوع، وحسبى أن أذكر أن هذا البحث محاولة حاولتها، ولم أدخر فى سبيلها ما وسعنى من الجهد، خاصة أن الجاحظ لا يمثل نموذجا من نماذج الترجمات الفردية بقدر ما يمثل مكتبة شاملة تتسم بالتنوع والشمول.

والله هو الموفق، وعلى الله قصد السبيل

« محمد عويس »

تمهيد

الجاحظ .. حياته ، ثقافته ، آثاره

(١) حياته .

(٢) ثقافته .

(أ) مناهلها :

١ ـــ التردد على حلقات الدرس فى الكتاب والمربد .

٢ ـــ ولعه الشديد بالقراءة .

٣ ـــ حب الرحلة .

(ب) تمثله لثقافات عصره .

(ج) منهجه فى البحث .

٣ ـــ آثاره .

(ا) كثرتها .

(ب) صعوبة تحديد زمن تأليفها .

(ج) آثار موضوعة .

(د) صعوبة تصنيف مؤلفاته .

(ه) تصوير كتاباته لمجتمعه .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الجاحظ : حياته — ثقافته — آثاره

(١)

حياته

ليس القصد هنا ، من درس حياة الجاحظ ، الترجمة له ، أنما البحث في ، ظروف نشأته ، والكشف عما أثر في تكوينه النفسي والاجتماعي من خلال النظر في طبيعة علاقاته ببعض الشخصيات النابهة في مجتمعه ، مما يكشف بعض دواخل شخصيته ، وخفايا نفسه ، وما يداخلها من مؤثرات يمكن أن تنعكس على مسلكه الخارجي الظاهر في كتاباته .

وقد ولد في البصرة حوالى عام ١٥٨ للهجرة[١] ، وعاش نحو ست وتسعين سنة[٢] ، وهو يرجع — فيما يظهر — إلى أصل غير عربي[٣] ، اذ يقال ان

---

(١) « الجاحظ : حياته ، وآثاره » د . طه الحاجري (ط . دار المعارف ١٩٦٩) ص ٨٩ — و « العصر العباسي الثاني » : د . شوقي ضيف (ط . دار المعارف ١٩٧٣) ص ٥٨٧ .

(٢) « معجم الأدباء » لياقوت الحموي (ط . دار المأمون ١٣٢٣ هـ) : ١١٣/١٧ .

(٣) « المنية والأمل » للمرتضى ، باب المعتزلة (ط . حيدر أباد ١٣١٦ هـ) ١٩٤/١ .

له جدا بعيدا اسمه « فزاره » ، كان أسود ، ويعمل جمالا لعمر بن قلع الكناني[1] ، ويذهب بعض القدماء إلى قول بعيد ، اذ يذكر هذه الصفات ، ويسندها إلى « محبوب» جده الأول » [2] .

ونشأ في كفالة أمه ، تتولى أمره ، وتنفق عليه[3] ، فكانت نشأة متواضعه يسعى فيها ليعيش بكسب يديه ، فيبيع الخبز والسمك بسيحان في البصرة[4] .

وتوطدت صلته بجملة من الأشخاص كان لهم أبعد الأثر في حياته وتدرجه في الصعود إلى المراتب الاجتماعية العليا ، ولعل من أول هؤلاء الأشخاص « مويس بن عمران » ، ويصف المرتضى كيف أن هذه الصلة أعانت الفتى ، وبعثت في نفسه ماخفف عنها أحساسه المرير بمطالب العيش ، ووجهته إلى سبيل العلم والأدب ، يقول : « كان (الجاحظ) في حداثته مشتغلا بالعلم وأمه تمونه ، فجاءته يوما بطبق عليه كراريس ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به ، فخرج مغتما ، وجلس في الجامع ومويس بن عمران جالس ، فلما رآه مغتما قال : ماشأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرب إليه الطعام وأعطاه خمسين دينارا ، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك وقالت : من أين لك هذا . قال : من الكراريس التي قدمتها إلى[5] » وكأن هذا الرجل ، كان رمزا مبكرا لماسيصيبه

---

(١) « معجم الأدباء » : ١٦/١٧ .

(٢) « الأنساب » للسمعاني (ط . ليدن ١٩١٢ م) : ١١٧ ب .

(٣) « المنية والأمل للمرتضى » ، باب المعتزلة (ط . حيدر أباد . ١٣١٦ هـ) ص ٣٨ .

(٤) « معجم الأدباء » : ١٦/٧٤ ، وسيحان نهر صغير بالبصرة .

(٥) « المنية والأمل » : ص ٣٨ .

من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء(١) ، ويجعل الدكتور الحاجرى هذه الصلة من الأحداث البعيدة الأثر فى حياته(٢) ، إذ كانت دار مويس بن عمران مثابة للأدباء والمتكلمين وخصومهم من أهل الحديث(٣) .

ثم توطدت صلته برجل آخر من المرموقين فى المجتمع ، ونعنى : « ثمامة أبن أشرس ، كان — بحق — شيخا من شيوخه أخذ منه(٤) ، وأعجبته بلاغته(٥) ، وقد حكى عنه فى « البخلاء » ما يوضح قدرته على الجدل(٦) ، وذكر أدبه وحسن افهامه ، وعنايته بأسلوبه حتى إنه يقول فيه : « وما علمت أنه كان فى زمانه قروى ، ولا بلدى بلغ من حسن الافهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه(٧) ، « فكان واسع النفوذ ، قوى الحجة ، عظيم السلطان ، وعلا شأن ثمامة أيام المأمون ، ويظن بعض الباحثين أن الجاحظ كتب كتابه عن أمامه معاوية « دفاعا عن رأى ثمامة ، ومحاجة عن صنيع الخليفة ، وتسفيها لرأى النابتة الذين أثارتهم استجابة المأمون للمعتزلة ،

---

(١) « العصر العباسى الثانى » د . شوقى ضيف ، ص ٥٥٨ .

(٢) « الجاحظ : حياته وآثاره : ص ١٦٤ .

(٣) « الحيوان » للجاحظ (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ط . الحلبى . الطبعة الثانية) ، ٣/٤٣ — ٤٤ فى حديثة عن فتى من أصحاب عبد الواحد بن زيد .

(٤) « شذرات الذهب » لابن العماد الحنبلى (ط . القدسى ١٣٥١هـ) ٢/١٢١ .

(٥) البيان والتبيين » للجاحظ (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون الطبعة الثانية ١٩٦٨) ١/١١١ .

(٦) « البخلاء » للجاحظ ، تحقيق د طه الحاجرى ، ط . دار المعارف ٢٠٩ .

(٧) « البيان والتبيين » الجاحظ ، ١/١١١ .

وركوب هـــذا المركب فى لعن بعض الصحابة(١) » ، ومن المحقق أن ثمامة « استطاع أن يفرض على الدولة رأيه فى توجيه سياستها الدينية(٢) » ومن ثم رأينا الجاحظ ينشط فى معالجة مسائل الامامة التى اشتجرت حولها الأهواء والعقول فى الكوفة والبصرة ، وكانت موضع اهتمام الخليفة المأمون خاصة(٣). وتمهد رسائله حول هذه المسألة طريقها إلى دار الخلافة ، وتعرض على المأمون وتنال الحظوة عنده ، حتى إنه يقول فى صفة واحدة منها : « وهـذا كتاب لا يحتاج إلى حضور صاحبه ، ولا يفتقر إلى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعانى ، واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل ، والمخرج السهل ، فهو سوقى ملوكى ، وعامى خاص»(٤) واستطاع بهذه الرسائل والكتب أن يحقق ما كان يطمح إليه من مكانة أدبية ، فاقتحم أرفع بيئة فى مجتمعه ، وأخذ مكانا فى مجالس الخليفة المأمون ، ودعى لحضور فى المناسبات الرسمية شأن الشخصيات البارزة كشهوده جلوس المأمون لعمه إبراهيم بن المهدى بعد أن ظفر به ، دعاه إليه ثمامة ابن أشرس ، كما يحكى هو ذلك عن نفسه(٥) ، كذلك كان فى حاشية المأمون فى إحدى غزواته كما تشهد بذلك كتاباته(٦) واختير لديوان الرسائل ، فتصدره ،

---

(١) « الجاحظ » : د . طه الحاجرى ، ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر : ص ١٩١ .

(٣) أنظر « عيون الأخبار » لابن قتيبة (ط . دار الكتب ١٩٢٦م) : ١٤٠/٢ ، حيث يذكر طرفا من حديث جرى بين المامون وعلى بن موسى الرضى عن الخلافة وأسباب استحقاقها .

(٤) « البيان والتبيين : ٣٧٤/٣ — ٣٧٥ .

(٥) « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى (ط . دار الكتب) : ١١٦/١٠

(٦) أنظر (مجموع رسائل الجاحظ) : تحقيق بأول كراوس ، د . طه الحاجرى (ط . لجنة التاليف ١٩٤٢م) ص ٣٧

وان كان لم يلبث فيه أكثر من ثلاثة أيام ، استعفى بعدها فأعفى ،[1] ويظهر أنه ترك عاصمة الخلافة ، فى أعقاب استعفائه من ديوان الرسائل — ورجع إلى البصرة لفترة من الزمن[2] .

واتصل من بعد « بمحمد بن عبد الملك الزيات » ، الذى صار وزيراً للمعتصم والواثق ، وربما كان الجاحظ أم أديب توثقت صلته بابن الزيات[3] ، وقد أقطعه أربعمائة جريب[4] ، وتشير الأخبار إلى أنه تيسرت أحواله فى هذه الفترة[5] . فيصبح كثير المال ، عظيم النفوذ ، يخدمه الحرس والخدم ، وفى ذلك يقول : كان عندنا حارس يكنى أبا خزيمة[6] ، ويذكر فى موضع آخر : « ابتعت خادما كان قد خدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك[7] » ، ويصرح فى « البيان والتبين » باسم غلام كان عنده يكنى « نفسيا[8] » ، وكانت داره من السعة بحيث تسمح له أن يزينها بانواع من النباتات قد يضع بعضها فى القواصر ،

---

(١) « معجم الأدباء » : ياقوت ، ٧٩/١٦

(٢) « تاريخ الأدب العربى » : كارل بروكلمان ، ترجمة د . عبد الحليم النجار ، (ط . دار المعارف ١٩٦٢م) ١٠٧/٣

(٣) « العصر العباسى الأول » : د . شوقى ضيف ، ط . دار المعارف ص ٥٦١

(٤) « أمراء البيان » : محمد كرد على ، (ط . لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٣٧م) ، ٣١٠/٢

(٥) « أدب الجاحظ » : حسن السندوبى (ط . الرحمانية ١٩٣١م) ص ٥٦١

(٦) « الحيوان » : ٣٨/٣

(٧) « البيان والتبيين » : ٣٣١/٢

(٨) البيان والتبيين : ٢٦/٤ — ٥٢٧

ويشفق من الجهد لحمايتها من الذر[1]

وأثر نكبة المتوكل لمحمد بن عبد الملك الزيات ، عاد الجاحظ إلى البصرة هاربا مما قد يصيبه من أذى بسبب صلته بالوزير المنكوب ، ولضعف صلته بأبى عبد الله أحمد بن أبى داود قاضى القضاه فى خلافة المتوكل ، وهو لم يخف ذعره من المصير الذى تصورة لنفسه ان هو ظل فى عاصمة الخلافة ، يقول حين سئل عن سبب هربه من بغداد « خفت أن أكون ثانى اثنين اذ هما فى التنور[2] » يريد بذلك ما صنعوه بابن الزيات من إدخاله تنورا فية مسامير محماة . وجد ابن أبى داود فى طلبه فجىء به ، وما لبث أن عفا عنه ، وأصبح مقربا منه بعد أن كان منحرفا عنه[3] .

ثم توثقت صلته من بعد . بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ، وكان الوزير يكثر من الثناء عليه عند الخليفة[4] ، فجعله من حاشيته حين سافر إلى الشام[5] . ويقال أنه ذكر للمتوكل لتاديب بعض ولده[6] ، فلما رآه استبشع منظره ، فامر له بعشرة آلاف درهم وصرفه ، ويظن أن ذلك حدث حوالى عام ٢٣٦

---

(١) « الحيوان » : ٤١٣/٥ — ٤١٤ فى حديثه عن واوع النمل بالأراك

(٢) « معجم الأدباء » : ٧٦/١٦

(٣) المصدر السابق : ٧٩/١٦ — ٨٠ .

(٤) « أدب الجاحظ » للسندوبى : ص ١٤٦ وما بعدها

(٥) « الجاحظ » . د . طه الحاجرى ، ص ٢٥٧

(٦) أنظر القصة وتفاصيلها فى « مروج الذهب » للمسعودى (ط . باريس ١٨٦١—١٨٦٧) ، ٢٢٢/٧ « ووفيات الأعيان » لابن خلكان (ط . باريس ١٧٣٨م) ، ٥٤٠/١

الهجرة[1] . ويظهر أنه ترك عاصمة الخلافة (سر من رأى) ، ليقر فى البصرة قبيل مقتل المتوكل عام ٢٤٧ للهجرة ، بعد أن علت سنه ، واشتدت وطأة علته[2]. فلم نسمع عن اتصاله بالخلفاء من بعد المتوكل ، وان كان قد اتصل بابن المدبر وزير المعتمد[3] ، والأرجح أن ذلك انما كان ابان تقلد ابن المدبر ولاية البصرة[4] .

ويشاء القدر أن تأتى نهاية الجاحظ الذى أفنى حياته فى صناعة الكتب ، وتاليف الرسايل ، وهو جالس بينها يقرأ ، ويستمتع بآثار الأصدقاء وأعزهم لديه[5] ، حين انهالت عليه أكداسها فقضت عليه ، وكانت نهايته كمولده ، فى البصرة عام ٢٥٥ للهجرة[6] .

---

(١) « الجاحظ » : د . طه الحاجرى : ص ٣٥٢ — ٣٥٣

(٢) « معجم الأدباء » لياقوت : ١١٣/١٦

(٣) المصدر السابق : ٩١/١٦ وما بعدها

(٤) « الجاحظ » : د . طه الحاجرى ص ٣٨٨

(٥) « الحيوان » : ٣٨/١ فى حديثه عن فضل الكتب

(٦) « شذرات الذهب » لابن العماد : ١٢٢/٢

(٢)

ثقافته

(أ) : مناهلها :

١ — التردد على حلقات الدرس في الكتاب والمربد :

نستطيع أن نتابع المناهل التي نهل منها ثقافته منذ صباه ، ذلك أن نشأته المتواضعة في كفالة أمه لم تكن لتعفيه من أن يمضي إلى « الكتاب » يتعلم ما كانت الكتاتيب تقوم بتعليمه لصبيان الطبقة الدنيا من أمثال أولاد القصابين (١)، وهو يذكر بعض من تعلم عليهم في صباه ، يقول : « وما كان عندنا بالبصرة رجلان أدرى بصنوف العلم ولا أحسن بيانا من أبي الوزير ، وأبي عدنان المعلمين ، وحالهما من أول ما أذكر من أيام الصبا »(٢) ، وفي هذه السن المبكرة أخذ نفسه بالتردد على حلقات العلم في مسجد البصرة الجامع ، ووصف نفسه أنه كان « يومئذ حدث السن (٣) » ولا يستطيع الدارس انكار أثر بيئة المسجد في ثقافة الجاحظ ، ذلك أن المسجد منذ العهد الأول للاسلام كان يقوم بدور تعليمي ، حتى ليقول ترتون : « ان المسجد كان المكان الذي يمنح العلم ، ليس فقط في الموضوعات الدينية ، بل أيضا في الموضوعات الدنيوية ، مثل الشعر

---

(١) « الحيوان » : ١٤/٣ .

(٢) المصدر السابق ١٧٠/١ .

(٣) المصدر السابق ٣٦٥/٣ .

والأدب »[1] ومن ثم نحن لا نشك فى أنه تلقى العلم شفاها عن العرب فى المربد[2].

واستمع من القصاص إلى أحداث الفتوح وسير الغزاة وأطوار الناسكين[3] مما زاد من تجاربه الانسانية كما تدل على ذلك الاستشهادات المنثرة فى كتبه ، ومن المحقق أن من هؤلاء القصاص من « أسهموا فى تكوينه الدينى ، وفتحوا عينيه بصورة عفوية على قضايا طرقتها الأساطير والأخبار العجيبة التى تسيرها بين الناس »[4] وليس بغائب عن الدارس ما كانت تضمه هذه البيئات ، وخاصة مجالس مسجد البصرة ، من ضروب الاختلاف فى الثقافة والاتجاه العقلى مما كان له أكبر الأثر فى تكوين شخصيته العقلية والأدبية ، ذلك أن مجالس الكلام فى المسجد أخذت تتناول شتى مسائل العلم ، وتدخل فى نطاقها مختلف المعارف .

٢ — ولعه الشديد بحب القراءة : —

كان من أهم مناهله الثقافية ولعه الشديد بحب القراءة والاطلاع ، إذ لم يكن يقع تحت يده كتاب إلا قرأه ، حتى إنه كان يكترى دكاكين الوراقين ليشبع نهمه بقراءة ما فيها من كتب وتصانيف ، يقول ياقوت فى ذلك : « يحدث أبو هفان عنه فيقول : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر

---

(1) Isiam, « Belief and Practices », A. S. Tritton, London 1951, PP. 118 — 119.

(٢) ذكر الجاحظ المربد فى « الحيوان » : ٢٥٨/١ ، ٢٦٠ .

(٣) « معجم الأدباء » : (ط . أمين هندية) ٢١٩/٧ .

(٤) الجاحظ فى البصرة : شارل بيلا، ترجمة د . ابراهيم الكيلانى ط . دمشق ١٩٦١ — ص ١٦٧ .

من الجاحظ فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى إنه كان يكترى « دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر »(1)، وهو لهذا عد أحد ثلاثة عرفوا بحب الكتب والاطلاع عليها ، يقول ياقوت : عن ابن عفان الوراق أقرب ما يكون إلى السكرتير فى عصرنا الحاضر . كان الأديب يملى عليه ما يريد أن يكتب له وكان الوراق بدوره يكتب ما كان يلقيه الأديب والعالم من أقوال فى ندواته ومجالسه . « لم أر قط ولا سمعت أكثر محبة للكتب من ثلاثة : الجاحظ والفتح بن خاقان ، واسماعيل بن اسحق القاضى(2)، ويذكرون أنه اتخذ لنفسه وراقين يملى عليهم ما يكتب، ويكتبون عنه ما يصنف من تأليف(3) كان من بينهم : « أبو يحيى زكريا بن يحيى »(4)، أو « ابن زكريا »(5)، وعبد الوهاب بن عيسى بن أبى حية الوراق»(6)، ولعلنا لا ندهش بعد ذلك إذا رأيناه يصف الكتب ، وفضل النظر فيها وتأليفها ، وما لها من أثر فى تثقيف النفس ، وصونها من مغبة الوقوف بأبواب المتكسبين بالتعليم والجلوس إلى البغضاء ، ومناظرة الأغبياء ، يقول فى نعت الكتاب وفضله : « وعرفت به فى شهر ما

---

(1) معجم الأدباء — 75/16 .

(2) « معجم الأدباء » 74/16 .

(3) لعل ذلك كان سببا فى أن طبعت بعض كتاباته بطابع المحاضرة ، وكتب الاملاءات من حيث الايجاز الشديد فى بعض المواطن ، والاطناب أحيانا دون ـ داع ، انظر هذا الرأى لأستاذنا الدكتور شوقى ضيف فى كتابه « البحث الأدبى » (ط . دار المعارف 1972 م) ص 70 .

(4) « معجم الأدباء » 106/16 .

(5) « الأمالى » لأبى على القالى (دار الكتب 1344 هـ) . 248/1 .

(6) « تاج العروس » للزبيدى . (الخيرية 1306 هـ) . 108/10 .

لا تعرفه من أفواه الرجال فى دهر مع السلامة من الغرم ، ومن كد الطلب ، ومن الوقوف بباب المتكسب بالتعليم ، ومن الجلوس بين يدى من أنت أفضل منه خلقا ، وأكرم منه عرقا ، ومع السلامة من مجالسة البغضاء ، ومقارنة الأغبياء(١)

٣ — حب الرحلة :

وبالمثل كان من مناهل ثقافته ، ما طبع عليه من حب الرحلة ، والضرب فى الأرض ، مما كان له أثر فى تكوين ثقافته الأدبية والاجتماعية ، وزاد من تجاربه ومعارفه ، ونستطيع أن نقف على هذا مما نراه منثورا فى تضاعيف كتبه من نصوص يصرح فى ثناياها برحلاته ، من مثل قوله فى معرض حديثه عن هروبة أنواع من السمك ، وغوصها فى الطين فترة من الزمن ، مع أنهم لم يميزوا عند نضوب الماء ، وانكشاف الأرض ، وظهور الطين جحراً قط ، ويقول : «ورأيت عجبا آخر ، وهو أنى فى طول ما دخلت البرارى ، ودخلت البلدان فى صحارى جزيرة العرب والروم والشام والجزيرة ، وغير ذلك ، وما أعلم أنى رأيت على لقم(*) طريق أو جادة أو شرك مصاقب ذلك ، وأنا جاريت الطرق ، وأمعنت فى البرارى ، وضربت إلى المواضع الوحشية ، وما أكثر ما أرى الجحرة ولكنى لم أر شيئا يسع الثعلب ، وابن آوى ، فضلا عن هذه الوحوش الكبار مما هو مشهور بالثولج(٢) ، أو إذا جانبت الطرق ، وأمعنت فى البرارى ، وضربت إلى

---

(١) «الحيوان» : ١/٥١

(*) لقم الطريق ، بالتحريك : متنه ووسطه ومعظمه . شرك الطريق : جوادّه وقيل هى الطريق التى لا تخفى عليك . ولا تستجمع لك ، فأنت تراها وربما انقطعت ، غيرانها لا تخفى عليك . والمصاقب : المجاور .

(٢) «الحيوان» : ٧/٤١ — ٤٢

الموضع [الوحشى — حجراً واحداً يجوز أن يدخله ضبع أو تيس ظباء ، أو بعض يتسع للثعلب وابن آوى ، فضلا على هذه الوحوش الكبار مما هو مذكور بالتولج والوجار ، وبالكناس والعرين . وحجر الضب يسمى عرينا ، وهو غير العرين الذى يضاف إلى الشجر »[1] . ويروى عنه البغدادى فى تاريخه أنه قال : «قد رأيت المدن العظام المذكوره بالاتقان والأحكام ، بالشامات ، وبلاد الروم ، وفى غيرها من البلدان[2] ، وهو يذكر فى حيوانه : «أنه رأى مسجد دمشق»[3] والثابت أنه طاف بأرض العراق والشام وفارس والروم والجزيرة وبلاد العرب[4] .

(ب) تمثله لثقافات عصره :

نستطيع القول باطمئنان ، أنه تمثل بصدق ثقافات عصره ، ونهل من روافدها الأجنبية والعربية ما استطاع عقله الواسع أن ينهل ، فتنوعت ألوان ثقافته ، واتسعت لما كان معروضا فى عصره من معارف ، وآداب ، وفنون ، وعلوم فاذا

---

(١) العرين جماعة الشجر والشوك والعصاه ، كان فيه أسد أو لم يكن النص الموجود فى الرسالة هو ما جاء فى نسخة كتاب الحيوان المخطوط والمصورة المحفوظه بدار الكتب المصرية برقم ٤٢٨٥ وأصلها فى مكتبة كوبريلى .

(٢) «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادى (ط . السعادة ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) ٧٧/١ .

(٣) «الحيوان» : ٥٦/١

(٤) «أمراء البيان» محمد كرد على ٤٠٧/٢

مضينا نبحث عن تمثله للثقافة الفارسية ، وكان لها شأنها العظيم فى عصره لغلبة العنصر الفارسى على مقادير الأمور آنذاك ، فاننا نجده ينثر فى كتاباته طائفة من الأخبار عن الفرس وحضارتهم القديمة ، ومعتقداتهم الجوسية[1] وكان يحقق دقيقا فى رواية هذه الأخبار حتى إنه « حين رتب العناصر المقدسة عند الفرس قدم النار على الماء ، وقدم الماء على الأرض ، وقدم الأرض على الهواء ، وهو نفس الترتيب التى تذكره كتبهم القديمة ، ويدينون به »[2] ، وبالمثل نجد فى كتاباته الكثير من الألفاظ الفارسية[3] ، وتعريبها تعريبا مستندا إلى فهمه لدلالاتها ومعانيها ولعادات أصحابها اللغوية ، وتسميتهم الأشياء بالاشتقاقات[4] وعد الدكتور إبراهيم أمين الشوارى هذه النبذ اللغوية الفارسية من « أول وأبين أمثلة للغة الفارسية أثناء سيطرة اللغة العربية عليها ، وأثناء توقف الأولى عن أن تكون لغة أدبية ، يصاغ فيها أدب ، أو تؤلف فيها كتب .»[5] ، والحق أننا لا نستطيع الجزم بأنه كان - يجيد اللغة الفارسية ، ويستحسنها ، حتى إنه كان قادرا على

---

(١) « الحيوان » . ١/١٥٠

(٢) « مجلة كلية الآداب » جامعة (فؤاد الأول) عدد ديسمبر ١٩٣٦، ص ١٧٤ : بحث فى تأثر الجاحظ بالثقافة الفارسية ، للدكتور إبراهيم الشواربى .

(٣) « البيان والتبين » ١/١٩ - ٢٠ ، فى ذكر الألفاظ الفارسية الشائعة فى البصرة و « البخلاء » (ط . دار المعارف) ص ١٨ .

(٤) « الحيوان » : ١/١٤٢ - ١٤٣ ، فى تفسيره لقولهم للزرافـــة . (اشتركاوبلنك) .

(٥) « مجلة كلية الآداب » (جامعة فؤاد الأول) . ديسمبر ١٩٣٦ص ١٧٧

الترجمة عنها[1] ، والا كيف نفسر ما جاء فى كتاباته من تحريف شديد فى كثير من الألفاظ الفارسية الواردة فيها[2] ، وأن بعض هذه الألفاظ كان مما يدور على ألسنة العوام ، من مثل حديثه فى « الحيوان » عن لحم الدجاج ، وأنه يطيب فى « البزماورد »[3] وهذا اللفظ كان العامة يعنون به « الزماورد »[4] ، وهو الرقاق الملفوف باللحم ، ويظن أنها لقمة القاضى ، ولقمة الخليفة ، وتسمى « نجراسان نوله ، وتسمى « نرجس المائدة »[5] ، وقيل هو ضرب من الخبز يحشى بشواء يضاف اليه خل[6] ، ومثل هذا اللفظ يحملنا على الظن بأن إلمام الجاحظ باللغة الفارسية لم يكن إلماما كاملا ولكن ذلك لا ينفى أطلاعه على مناهل الثقافة الفارسية فى مجتمعه ، وأنه قد تأثر بها فى كتاباته .

---

(١) أنظر مثل هذا الحديث فى « أمراء البيان » لكرد على ٢٠ . ١٣٧/٢ ، حيث يقر بأن الجاحظ كان يعرف الفارسية ، ومثل هذا الرأى ظاهر فى كتاب « أدب الجاحظ » لحسن السندوبى : ص ٣٩ — ٤٠ ، و « النقد المنهجى عند الجاحظ » (داود سلوم) ص ٢٠ — و « الجاحظ معلم العقل والأدب » لشفيق جبرى (ط . القاهرة ١٩٤٨م) ص ٧٨ — ٧٩

(٢) « الحيوان » ٣ . ١٥٥/٣ — وأنظر تعليق د . إبراهيم أمين الشواربى فى « مجلة كلية الآداب ص ١٧٣

(٣) الحيوان : ٢٤٩/٢

(٤) « المعرب » للجواليقى ، تحقيق أحمد شاكر ، ط دار الكتب ١٣٦١هـ ص ١٧٣ .

(٥) شفاء الغليل للخفاجى ، (ط. السعادة ١٣٢٥ هـ) ص ٩٨

(٦) كتاب الطبيخ للبغدادى ، (ط. الموصل ١٣٥٣ هـ) ص ٥٩

وهو لم يكن بعيدا عن مناهل الثقافة اليونانية فى عصره ، وتلقانا فى كتاباته اشارات إلى أعلام هذه الثقافة من مثل : أفلاطون ، وأرسطو ، واقليدس ، وفيثاغورس وغيرهم من أعلام اليونانيين(١) وأشار إلى بعض مؤلفاتهم من مثل « كتاب المجسطى » الذى وضعه بطليموس(٢) ، وبالمثل أشار إلى بعض نظمهم الحسابية وأدواتها من مثل ذكره « عمل الارثماطيقى »(٣) والارثماطيقى هو نوع من الحساب من وضع اقليدس(٤) ، وذكره « الاصطرلاب(٥) » وهو من اجهزة القياس اليونانية ، يقول شارل بيلا : ان اللفظ ترجمة الكلمة اليونانية (أسطرلاب) ، وأن « أسطر » بمعنى الاطوال والسطور Ies Linnes (٦) ، ويظن أن أصلها اليونانى هو (استرلا بومس)(٧) ، وذكره « القرسطون(٨) » . وهو نوع من أنواع الموازين الرومانية ينسب إلى صاحبه قارسيتون Charistion (٩)

---

(١) « التربيع والتدوير » : تحقيق شارل بيلا (ط . دمشق ١٩٥٥ م) ص ٤٥ و٨٢ .

(٢) « الحيوان » : ١/٨٠

(٣) « التربيع والتدوير » : ص ١٤٧ ، ١٩٢ ،

(٤) انظر فى « التربيع والتدوير » تفسير الكلمات ص ١٠٨

(٥) المصدر السابق : ص ٧٨ .

(٦) انظر تفسير الكلمات الغربية ص ١٠٩ .

(٧) انظر مادة (أسطرلاب) فى دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثانى ص ٣٠٠ ، وانظر فى مادتها ابن خلكان فى « الوفيات » (ط . فستنفيلد) ص ٧٧٩ .

(٨) « التربيع والتدوير » : ص ٧٨ ، ١١٢

(٩) Index des nomes porpres , p. 185

وبالمثل سقطت في كتاباته ألفاظ يظن أنها من أصل يوناني من مثل لفظ (الهيولى)(١) ، يذكر الخفاجي أنه « لفظ يوناني بمعنى الأصل والمادة »(٢) ، ومن الألفاظ اليونانية لفظ (فلز)(٣) ، أشار استينجاس في معجمه أنه « لفظ يوناني يعني جواهر الأرض كلها(٤) » وقد دفعت هذه الاشارة وغيرها مما هو ظاهر في كتابات الجاحظ ، بعض الباحثين الغربيين إلى القطع بأن الجاحظ كان يعلم تماما علوم اليونان القديمة »(٥) ، وأنه « من أوائل المعتزلة الذين درسوا فلاسفة اليونان ، وخاصة الطبيعيين منهم (أرسطوطاليس) »(٦) ، ومن الحق أنه على الرغم من أن ألوان الثقافة اليونانية في كتاباته ظاهرة واضحة ، إلا أننا لا نستطيع القطع بتأثره بها تأثر الناقل لها دون أعمال فكر ، ومن ثم فان متصفح « كتاب الحيوان » يجده يشفع ما نقله عن أرسطو من آراء برده ونقده لها، بل وتخطئتها ، والاعتذار لصاحبها، انظر اليه يقول: «وقد ذكر صاحب المنطق (أرسطو) أنه قد أبصر ثورا وثب بعد أن خصى ، فنزا على بقرة فاحبلها » ، ويصحح هذا الزعم بقوله : « ولم نجد هذا عن معاينة ، والصدور تضيق بالرد على أصحاب النظر ، وتضيق بتصديق هذا الشكل »(٧) ، ويقول في موضع

---

(١) « التربيع والتدوير » : ص ٢٥

(٢) « شفاء العليل » : ص ٢٠٧

(٣) « الحيوان » : ٥/ ١٠١

(٤) « المعجم الفارسي الانجليزي » ص ٩٣٧

(٥) les penseurs de I Islam, Carra de Vaux, paris 1921 V. I, p. 304 .

(٦) « دائرة المعارف الاسلامية » : المجلد السادس ، ص ٢٣٦

(٧) « الحيوان » : ٥/ ٥٠٢

آخر : « وقال أرسطو فى الفيل هو أجرد الجلد ، فلذلك يشتد جزعه من البرد » ويرد عليه بقوله : « فان كان أجرد الجلد ، فما قولهم فلان على الفيل الأسود »[1] ونراه يعتذر فى موضع ثالث عن أرسطو ، بان المترجمين لكتابه لم يحسنوا النقل ، ولم يتوخوا عنه »[2] وكان فى كثير من الأحوال يضيف إلى مثل هذه الردود على أقوال أرسطو بعض الشواهد التى يحتج بها من الشعر العربى الدالة على خلاف ذلك من مثل قول دريد بن الصمة :

وكلّ لجوج فى العنان كأنّها ... إذا اغتمست فى الماء فتخاء كاسر

لها ناهض فى الوكر قد مهدت له ... كما مهدت للبعل حسناء عاقر[3]

وبالمثل كان على دراية بمناهل الثقافة الهندية فى عصره ، يدلنا على ذلك مايعرضه فى بيانه لخصائص البلاغة الهندية ، وقد أورد هناك خبرا طويلا ضمنه ذكر صحيفة هندية توضح هذه الخصائص ، وذكر أن الصحيفة كانت — كما أخبر عن معمر أبى الأشعث — عند بهلة الهندى أحد أطباء الهند ممن اجتلبهم يحيى بن خالد البرمكى لعهد الرشيد[3] ، وبما كان من أصداء المؤثرات الثقافية الهندية ما جاء فى كتابات الجاحظ من اشارات إلى بعض المسائل الفلكية ، من مثل اشارته فى « التربيع والتدوير » إلى كتاب « السند هند »[4] ، وهو مؤلف

---

(١) المصدر السابق : ٧/ ٢٢٨

(٢) « الحيوان » : ٥٢/٢ — وانظر نفس المصدر : ١٩/٦

(٣) المصدر السابق : ٣٧/٧ — عنى الفرس ، اغتمست فى الماء أى عرقت عرقا شديدا من الجرى ، والفتخاء للعقاب ، سميت بذلك للين جناحيها . والكاسر المنقضة . والناهض فرخ العقاب الذى وفر جناحاه ونهض للطيران .

(٤) « البيان والتبيين » : ٩٢/١

يحتوى مذهب الهند فى الحسابات الفلكية ، وقد عرفه العرب قبل معرفتهم « كتاب المجسطى »[1] لبطليموس ، ويذهب نالينو فى كتابه « علم الفلك » إلى أن هذا المؤلف مختصر لكتاب باللغة السنسكريتية اسمه « براهمسبهطسدهانت » فى علم الفلك ، وحركات النجوم ، وحسابها على مذهب علماء الهند ، اختصره فلكى رياضى هندى يدعى : « برهمكبت » بتكليف من الخليفة المنصور ، ثم تولى الفزارى بامر من الخليفة ترجمة هذا المختصر إلى العربية ، واستخراج كتاب منه تتخذه العرب أصلا فى حساب حركات الكواكب ، ومايتعلق به من الأعمال ، وصار هذا المختصر يعرف بين العرب باسم « السند هند [2] » ، وبالمثل نظن أن من مظاهر تأثره بالثقافة الهندية حديثه عن إيمان غلاة الشيعة بمسألة تناسخ الأرواح[3] خاصة وأن هذه المسألة كانت ذات أثر عميق فى إيمان بعض فرق الشيعة الذين كانوا يعتقدون أن جزءا من الآلة قد حل فى الامام على ابن أبى طالب كرم الله وجه ، وأن الجزء الآلى يتناسخ فى الائمة من بعده[4] .

ومن الحق أن كتابات الجاحظ تدلنا على تمثله ثقافات عصره ، حتى إنها غدت صورة صادقة لهذه الثقافات ، مما جعلها تبدو « أشبه ما يكون بدوائر المعارف الواسعة التى تأخذ من كل علم وفن بطرف »[5] ، وإن الدارس حين

---

(١) انظر « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » تأليف دى بور — ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريده ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ م) ص ١٣

(٢) أنظر هذا الرأى فى كتات « أدب المعتزلة » : د . عبد الحكيم بليع (ط . القاهرة ١٩٦٩ م) ص ٩٤

(٣) « التربيع والتدوير : شارل بيلا ، ص ٧٩ .

(٤) « الملل والنحل » للشهرستانى ، (ط . القاهرة ١٣١٧ ه) ٩٠ ، ١١ .

(٥) « الفن ومذاهب فى النثر العربى » : د . شوقى ضيف (ط . دار المعارف) ص ١٥٨ .

يتأمل ما تفيض به رسالة « من أسئلة واحتجاجات طرحها الجاحظ في أسلوب ساخر، متهكما من أحمد بن عبد الوهاب ، أحد أصحاب محمد بن عبد الملك الزيات(١) ، ليجد نفسه أمام ما عده بعض الدارسين الغربيين « برنامجا كاملا لدائرة معارف موسوعية عن معارف القرن التاسع الميلادي »،(٢) وإن كان هذا « البرنامج » يضم رءوس المسائل العلمية في عصر الجاحظ ، فإن كتاباته تكفل لنا تفصيل جانب من هذه المسائل ، أنظر إليه يقول في خاتمة رسالته ناصحا ابن عبد الوهاب بمثل قوله : « فان أردت أن : تعرف حق هذه المسائل وباطنها ، وما فيها محال ، وما فيها صحيح ، وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي »(٣) ، ولعل تلك السمة الموسوعية في ثقافته ، والتي ظهرت بوضوح في كتاباته ، كانت سبباً في تشعث موضوعاتها وتنوعها تنوعا إن كان يظهرها بصفة عامة « غير مترابطة ككل ، لكنها مليئة بالحقائق والأفكار »(٤) ولعل هذا التشعث كان وراء اتهام بعض الدارسين الغربيين هذه الكتابات أنها لا تقدم لنا فلسفة ، لكنهم على الرغم من ذلك لا ينكرون أننا نجد فيها « أعلى درجات الفكر الفلسفي ، والتذوق الهائل للحياة الفكرية في عصره »(٥) ،وذلك أدعى في نظرنا — إلى تقدير هذا الأديب المتسع الثقافة والفكر ، والذي استطاع أن يجعل من كتاباته مرآة تعكس على صفحتها صورة ثقافات عصره المتباينة وفرق ما بين أن نرى في المرآة صورة عامة ، وبين أن نطلب من المرآة العاكسة

---

(١) الأغاني (ط . ساس) : ٢١ / ٣٢ .

(2) Les Penseurs De L:Islam, Carra De Vaux, 1/308

(٣) « التربيع والتدوير » ، تحقيق شارل بيلا ، ص ٩٧ .

(4) Lse peneeurs De L ‘Islam: 1/307

(5) Les penseurs De .L : Islam,. I/297

تفاصيل دقيقة لملامح الصورة ، فهذا مالا نتوقعه من مرآة الأديب ، إنما نجده عند المتخصصين فى فنون المعرفة ، كل يعكس لنا فى آثاره صورة ما تخصص فيه وعلى الرغم من ذلك فإننا نعتقد أن القول بأن كتابات الجاحظ لا تقدم لنا فلسفة ما ، يحجب جانباً من ضوء الحقيقة فى هذه الكتابات ، وما كان لها من أثر فى الفكر الاعتزالى ، حتى إننا أصبحنا بفضل ما حوته من آراء أمام فرقة من فرق المعتزلة تحمل اسمه هى « الجاحظية »(١) . ضمت أنصارة وتلاميذه ومريديه .

(ج) منهجه فى البحث :

نحاول هنا أن نقف على طوابع منهجه فى البحث ، ونتعرف على المنابع التى أمدته بأصوله ومقوماته ، بقصد أن نتبين سمات أسلوبه فى التفكير الذى يعد سمة بازرة فى ثقافته ، ذلك أن هذا المنهج كان يحكمه فى تناول موضوعات كتاباته ، وترتيب الأفكار التى يعرضها على صفحاتها . والذى لا شك فيه أنه كان لاتصاله ببيئة المتكلمين عامة والمعتزلة خاصة ، فى عصره ، أكبر الأثر فى تكوين منهجه فى البحث ، وطبعه بطوابع عقلية خاصة « فمن الثابت أنه تأثر بإثنين من كبار المعتزلة هما : — أبو الهزيل العلاف « و « النظام » . أما الأول فكان « واحد دهره فى البيان ومعرفة الكلام(٢) » ، متصلا بالفلسفة اليونانية ، قرأها مترجمة ، حتى يقول عنه « النظام » : — « لما ناظرته خيل إلى أنه لم يكن متشاغلا قط الا بها(٣) » وهو يعد بحق من أول المفكرين الاسلاميين » الذين

---

(١) « الملل والنحل » للشهرستانى ، (ط . ليبسك ، ١٩٢٣ م) ص ٥١ ، ٥٣
(٢) « الانتصار » لابن الخياط (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٦٧
(٣) المصدر السابق : ص ٢٦ .

افسحوا للفلسفة مجال التأثير فى مذاهبهم الكلامية »[1].

وكان من أهم تأثره به ما نجده عنده فى أسلوب التدليل على ما يذكر من حقائق وأخبار فى كتاباته باستشهاده بالشعر العربى شأنه فى ذلك شأن أبى الهذيل[2]، وفى ولع أبى الهذيل بالاستشهاد بالشعر وحفظه، يقول المرتضى : -

« كان يحفظ كثيرا من الشعر العربى، ويستشهد به فى مجالسه، قال المبرد : - ما رأيت أفصح من أبى الهذيل، والجاحظ وكان أبو الهذيل أحسن مناظرة، شهدته فى مجلس واحد، وقد استشهد فى جملة كلام بثلاثمائة بيت »[3]، وبالمثل كان الجاحظ يعتمد اعتمادا كثيرا على الشعر العربى، وهو يصرح بذلك فى « الحيوان »، يقول : - « وقل معنى سمعناه فى باب معرفة الحيوان من الفلاسفة، وقرأناه فى كتب الأطباء والمتكلمين إلا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه فى أشعار الأعراب »[4].

وإن كان تأثره بأبى الهذيل يأتى من جهة كثرة الاستشهاد بالشعر العربى، فإن تأثره بالنظام كان أعمق من ذلك، إذ أنه يتعلق بمنهج البحث نفسه.

---

(١) « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » دى بور، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة (الطبعة الثالثة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٦) ص ٨٤.

(٢) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » د. شوقى ضيف (ط. دار المعارف) ص ٦٧.

(٣) « المنية والأمل ». ص ٢٦.

(٤) « الحيوان ». ٣ / ٢٦٧ — وانظر « فهارس الحيوان » للاستاذ عبد السلام هارون ٨ / ١٦ وما بعدها.

فالنظام ، وهو تلميذ أبى الهذيل ، كان « آية فى النبوغ : حدة ذهن ، وصفاء قريحة ، واستقلالا فى التفكير وسعة إطلاع ، وغوصا على المعانى الدقيقة ، وصياغة لها فى أحسن لفظ ، وأجمل بيان »(١) وبلغ من قوة الحجة أنه فاق أستاذه ، حتى أن الجاحظ روى فى حيوانه : — « قيل لأبى الهذيل : أنك إذا راوغت واعتللت وأنت تكلم النظام فأحسن حالاتك أن يشك الناس فيك وفيه » . وقال : — « خمسون شكا خير من يقين واحد(٢) » ، ويروى فى موضع آخر كيف أنه نازع أبا شمر(٣) فى مجلس أبى أيوب ، واضطره بالحجة ، وبالزيادة فى المسألة إلى أن حل حبوته ، وحبا إليه حتى أخذ بيديه ، وكان ذلك سببا فى انتقال أبى أيوب من قول أبى شمر إلى قول النظام(٤) ، ووصفه فى « الحيوان » بالشدة فى تحرى الحق حتى إنهم كانوا « لا يرتابون بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان »(٥) ، وامتدح فيه جودة القياس والاستنباط ، وإن عاب عليه أنه كان « لا يتحرى الدقة فيما يقيس عليه ، فهو يظن ثم يقيس عليه وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فلو كان بدل تصحيحه القياس يلتمس تصحيح الأصل لكان ذلك أولى ، فكان يحكى حكاية المستبصر المتيقن ، ولكنه كان لا يقول سمعت

---

(١) « ضحى الإسلام » — الأستاذ حمد أمين ، ٣ / ١٠٦ .

(٢) « الحيوان » ، ٣ / ٦٠ .

(٣) يقول الجاحظ فى نعت أبى شمر عند المناظرة . إنه كان إذا نازع لم يحرك يديه ولا منكبيه ، ولم ينقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صدع صخرة ، « البيان والتبين » ، ١ / ٩٧ .

(٤) (البيان والتبين) ١ / ٩١ .

(٥) (الحيوان) ٤/ ٣٢٠ .

وكان النظام مثل أبى الهذيل العلاف ، متصلا بمناهل الفلسفة اليونانية فى عصره ، حتى ليقول « كارادى فو » بعد بيانه لآراء النظام : « كان النظام ، عالما يجهد فكره فى مسائل شاقة واسعة وعلى الرغم من أن آراءه وآراء أبى الهذيل قد وصلت إلينا موجزة جداً فهى تبين لنا مذاهب اليونان فى الجدل ، وفى الطبيعة وما بعد الطبيعة فى أثناء نفوذها بين المسلمين »[1] ، ويذهب دى بور إلى أن كثيرا من أقوال النظام مستمد مما كان يعرب بين أهـــل الشرق على أنه فلسفة أنبا ذوقليس ، وأنكساغوراس »[2] ، وقيل أنه وافق الفلاسفة فى « نفى الجزء الذى لا يتجزأ »[3] ، ومثل هذا القول فى اتصال النظام بالفلسفة اليونانية نجده عند القدماء ، يقول الشهرستانى بعد أن عرض لمذهب النظام فى الكون ، معقبا على تأثره بالفلاسفة : « وإنما أخذ هذه المقالة من أصحاب الكون والظهور من الفلاسفة ، وأكثر ميله أبدا إلى تقرير مذاهب الطبيعيين منهم دون الالهيين »[4]

وبالمثل لم يكن الجاحظ بعيدا عن مناهل الفلسفه اليونانية ، وفى ذلك يقول الشهرستانى ، بعد أن عده من فضلاء المعتزلة : — « وقد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة ، وخلط وروج بعباراته البليغة ، وحسن براعته اللطيفة »[5] ، ووصفه

---

(1) Avicenne, Carra de Vaux, Paris, 1900, P. 27

(٢) تاريخ الفلسفة فى الاسلام « دى بور » ترجمة د . أبو ريدة ، ص ٨٦

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة وكذلك ص ٩٣ — وانظر ص ٩٣ — وانظر كتاب النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية : د . أبو ريدة (ط . لجنة التأليف ١٩٤٦ م) ص ١٣٩ وما بعدها .

(٤) « الملل والنحل » : ص ٣٩ .

(٥) « الملل والنحل » على هامش الفصل لابن حزم (ط . الفتوح الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ ﻫ) : ١ / ٩٤ .

دى بور أنه كان فليسوفا طبيعيا ، إذ كان يلزم العالم الحق بأن « يضم إلى دراسته علم الكلام دراسة العلم الطبيعى »(١) .

ويظن أن الصلة بين الجاحظ والنظام بدأت فى البصرة فى مجلس أبى الهذيل العلاف(٢) ، وأنها كانت — فى مراحلها الأولى — صلة التلميذ بأستاذه يقول المسعودى : — « وكان الجاحظ غلام إبراهيم بن سيـــار النظام ، وعنه ومنه تعلم »(٣) . ومن المحقق أن الأستاذ أخرجه لنا جدلا يعرف كيف يحاور ويداور وكيف يستعين بالمنطق ليدعم رأيه ، وينصر فكرته ، وتشبث بطريقة الحوار والجدل ، وما يتعلق بهما من مغالطة وسفسطة(٤) .

وقد وجد التلميذ فى أستاذه عالما واسع آفاق الفكر ، ولعلنا لا ندهش حين نرى ذلك التطابق فى منهج البحث عند الرجلين ، وأنه كان يقوم على ركنين أساسيين هما : — الشك والتجربة(٥) ، ولنقف وقفة خاصة عند كل من الركنين:

أما الشك ، ففرق بين نوعين منه : — أولهما يقضى بالتوقف « عن إصدار حكم ما » وهو « الشك الحقيقى المطلق » ، وثانيهما « يزاوله صاحبه بإرادته أمعانا فى النزاهة ، ورغبة فى البعد عن التأثر بأفكار سابقة حتى يصل العقل وحده إلى المعرفة اليقينية ، وهو « الشك المنهجى العلمى »(٦) ونجد صورة من هذا الشك

---

(١) « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » : — دى بور (الترجمة) ، ص ٨٨ .

(٢) « الجاحظ فى البصرة : — شارل بيلا ، ص ١١٨ .

(٣) « مروج الذهب « للمسعودى ، ٧ / ٣٥ .

(٤) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » : د . شوقى ضيف ، ص ١٧٣ .

(٥) « ضحى الاسلام » : — الأستاذ أحمد أمين ، ٣ / ١١٢ وما بعدها .

(٦) أنظر « مقال عن المنهج » : ديكارت ترجمة محمود الخضيرى (الطبعة الثانية ١٩٦٨ م) فى الحديث عن القاعدة الأولى : ص ١٣٠ — ١٣١ — وانظر « أسس الفلسفة » د . توفيق الطويل (الطبعة الثانية ١٩٥٤ م) فى فرق ما بين القياس الأرسطاطاليسى ، والاستنباط الرياضى ، ص ١٠٠ .

العامى عند النظام ، إذ كان يعده الأساس فى البحث عن اليقين ، والنظر فى صدق المعتقد ، يقول : ـ « الشك أقرب إليك من الجاحد ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى غيره حتى يكون بينهما حال شك[1] » ، ومثل هذا الفهم لمعنى الشك نجد أصداءه مفصلة عند تلميذه الجاحظ ، أنظر إليه يقول فى الشك ، وفرق ما بين عقل العوام وعقل الخواص ، وأن الشك من سمات تفكير الخواص ، به يعرفون مواضع اليقين ، يقول : ـ « اعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ، لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن فى ذلك ألا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه »[2] ثم أنظر إليه يصف حال الشك بأنها « الحال الثالثة » بين التصديق المجرد والتكذيب المجرد ، ولعلنا نذكر فى هذا المجال أن أول قواعد منهج الاستنباط الديكارتى ، وهى قاعدة اليقين ، تنص على ألا يقبل الباحث شيئا ما على أنه حق ، ما لم يعرف يقينا أنه كذلك[3] ، ولا نبالغ أن قلنا أن عبارة « التكذيب المجرد » عند الجاحظ تكاد تطابق فى معناها الشك الحقيقى المطلق الذى حار به ديكارت وهذه الحال فى رأى الجاحظ ، مميزة فى تفكير الخواص دون ـ العوام ، يقول : ـ « والعوام أقل شكوكا من الخواص ، لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب ، ولا يرتابون بأنفسهم ، فليس عندهم إلا الاقدام على التصديق المجرد ، وألغوا الحال الثالثة من حال الشك التى تشمل على طبقات الشك ، وكذلك على قدر سوء

---

(١) « الحيوان » . ـ ٦ / ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) المصدر السابق . ـ ٦ / ٣٦ .

(٣) « مقال عن المنهج » . ديكارت ، ترجمة محمد الخضيرى ، ص ١٣٠ .

الظن ، وحسن الظن بأسباب ذلك ، وعلى مقادير الأغاب[1] وكان الشك عندهما وكل أقرانهما من مفكرى المعتزلة ، فى طبقات من حيث القوة والضعف ، على عكس اليقين ، يقول الجاحظ :ـــ « أعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم ، ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف »[2] ونظر بعين الشك فيما كان يلقى إليه من أخبار متخذا من الشك منهجا فى الوصول إلى اليقين ، من ذلك أنه روى فى بيانه خطبة من خطب معاوية ، وعقب عليها بما يفيد تشككه فى صحتها، وأنها ربما تكون من منيع أصحاب الأخبار[3] ، وبالمثل كان من أثر قاعدة الشك عنده رفضه التسليم بالأوهام الشائعة فى مجتمعه بحكم التقليد والعادة ، من مثل الايمان بالمسخ فانه حارب هذه الأوهام[4]، ولعلنا نذكر أن ديكارت رفض ألوان الشطط والسخرية ، وكل ما يخمد فى الفكر النور الفطرى، وينقص من القدرة على التعقل[5]، ذلك أنه رفض أن يسلم إلا بما هو حق ويقين لا يعتريه أى ضرب من ضروب الشك ، وبذلك نقض احترام الآراء الموروثة ، وكل ما يدخل فى الأوهام ، ولم يعتد إلا بالمعارف البديهية وما يماثلها من اليقينات والحق أننا إن كنا رأينا الجاحظ يتخذ من الشك العلمى منهجا فى البحث عن الحقيقة والوصول إلى اليقين ، إلا أننا نفتقر إلى ما توصل إليه ديكارت من منهج يتضمن قواعد تحال المعضلات المطروحة للبحث إلى أجزاء على قدر المستطاع

---

(١) « الحيوان » . ـــ ٦ / ٣٦ ـــ ٣٧ .

(٢) « المصدر السابق » ص ٣٥ .

(٣) « البيان والتبيين » . ـــ ١ / ٥٩ ـــ ٦١ .

(٤) « الحيوان » . ـــ ٦ / ٧٩ .

(٥) « مقال عن المنهج » . ـــ ديكارت ، ص ١١٩ ـــ ١٢٠ .

ثم الأخذ بالتأليف والتركيب بين أبسط هذه الأجزاء وأسهلها معرفة متدرجة إلى معرفة أكثرها تركيبا ، ثم يخضع ذلك كله للاستقراء التام ليكون على ثقة من أنه لم يغفل شيئا في بحثه وعلى الرغم من ذلك فان الجاحظ اهتدى إلى حقيقة أن الشك العلمي يعد وسيلة من وسائل البحث والنظر ، وهو قد تأثر في هذا بأستاذه النظام .

أما الركن الثاني في منهج البحث عند النظام والجاحظ ، فهو التجربة بقصد الاستنتاج العقلي المشفوع بالدليل العلمي ، ومن الحق أن قيمة التجربة كانت معروفة لدى اليونان من قبل ، ولكن معرفتهم بهذه القيمة كانت معرفة نظرية « دون أن — يعرفوا كيفية إجراء التجارب ، ولعل هذا لم يكن ناشئا لديهم من أنهم كانت تعوزهم الآلات التي تصطنع في أجراء التجارب فحسب ، وإنما هو راجع أيضا إلى أنه لم تكن لديهم فكرة ما عن الآلات التي تستخدم في دراسة المادة ، يضاف إلى هذا أنهم كانوا يسرفون في الإيمان المباشر ، أو الملاءمة المباشرة ، بين العقل والأشياء التي يدركها هذا العقل(١) » ، ونظن أن التجربة عند النظام والجاحظ كانت هي الأخرى تجربة نظرية تلائم بين العقل وبين مايدركه من أشياء ، ولم تتوفر في عصرهما الآلات التي يمكن أن تخرج من تجاربهما عملا علميا يقوم على تحقيق الفروض التي تفسر الظواهر التي تكون موضع الدراسة ، ومن ثم يمكن استخلاص قوانين عامة نتيجة لاختيار هذه الفروض ، وأن شئت أنظر إلى جملة من التجارب قام بها النظام ، وأخرى قام بها الجاحظ لتتبين صدق هذا القول ، أما النظام فانه شارك في تجربة أجريت في دار الأمير

---

(١) « مقال عن المنهج » — ديكارت ، التقديم الذى أعده د . محمد مصطفى حلمى ، ص ٧ .

محمد بن علي بن سليمان لإثبات فعل الخمر في أجناس الحيوان، إذ أنهم سقوا الخمر لكل عظيم الجثة من الحيوانات، فجربوها على الإبل، والجواميس، والبقر، ثم على الخيل العتاق، والبرازين، ثم على الظباء والشاء، ثم على النسور، والكلاب، وابن عرس، ثم أنهم أتوا بأحد الحوائين فكان يحتال على الأفاعي حتى يصب الخمر في حلقها بالأقماع. وتقدموا في عملهم شوطا أبعد، إذ أنهم احتالوا على أسد مقلم الأظفار فسقوه ليعرفوا مقداره في الاحتمال. وخلص النظام من هذه التجربة إلى نتيجة تقرر أن « الظباء أملح الحيوان سكراً » (١)، وهذه النتيجة تم استخلاصها من محصلة مشاهداته للآثار الظاهرية على أجناس الحيوانات والطيور التي سقوها الخمر، فهي إذن تجربة نظرية تعتمد أساساً على المشاهدة، فيها شيء من الترفه والطرافة، ويصعب أن نخلص منها إلى قانون عام أو نظرية عامة، ذلك أن المشاهدة في هذه التجربة، وبهذا المسلك لا تؤدي إلا إلى تفسير نظري للظواهر الخارجية لأثر الخمر على أجناس الحيوان والطير، وذلك بالقطع لا يعد تفسيراً علمياً وعملياً لهذه الظواهر، يجمع «بين التجربة وبين الطريقة القياسية، أو بعبارة أدق يجمع بين الإستقراء القائم على التجارب، وبين القياس العقلي المحكم» من مثل ما هو ظاهر في منهج الإستقراء التجريبي الذي وضعه فرنسيس بيكون (٢)، وعلى هذه الشاكلة نجد للنظام تجربة أخرى غايتها عنده أن يقيم بنفسه الدليل على بطلان زعم العوام بالتطير والتشاؤم من خلال تجربته الخاصة التي واجه فيها كل ما يبعث على التطير والتشاؤم دون أن يحدث ذلك في نفسه ما كان يظن العوام (٣)، وهو في هذه التجربة جعل من شكه في الإيمان بالأوهام

---

(١) التجربة في « الحيوان » : ٢ / ٢٣٠ .

(٢) « أسس الفلسفة » : ـ د . توفيق الطويل، ص ١٠٨ ـ ١١١ ـ والبحث الأدبي للدكتور شوقي ضيف ، ٨٤

(٣) أنظر التجربة في « الحيوان » : ـ ٣ / ٤٥١ وما بعدها .

الشائعة لدى العوام حول التطير التشاؤم أساساً ينطلق منه لإثبات ما يؤمن به ، ومن ثم إنطلق يجرب بنفسه كل ألوان التطير وما يبعث على التشاؤم ليثبت أن ظن العوام فى هذا الباب لا يقوم على يقين يقتنع به عقلياً ، إنما قول العوام وظنهم من قبيل الايمان بالأوهام الشائعة ، وهذه التجربة تثبت لنا الجانب النظرى فى تجارب النظام ، ذلك الجانب الذى يقوم على المشاهدة وتسجيل الظواهر الخارجية والملائمة بينها وبين مايؤمن به العقل . وبالمثل لدينا تجربة ثالثة حاول فيها النظام الوقوف على قدرة ابتلاع الظليم للجمر حتى ينفذ إلى جوفه ، فيكون جوفه هو العامل فى إطفاءه (ولايكون الجمر هو العامل فى إحراقه[1] . والحق أن هذه التجربة تختلف عما سبق فى أنه استطاع — بالمشاهدة — أيضا أن يسجل ملاحظة علمية معروفة فى باب ما يساعد على الاشتمال والاحتراق ، ومهما يكن من بساطة هذه التجارب فقد كان النظام — على حد قول الدكتور عبدالهادى أبو ريدة « يصل منها إلى بعض الحقائق ، وهى على كل حال من وسائل المنهج التجريبى »[2]، وإذا مضينا إلى الجاحظ فإننا نحس عنده بمثل هذه النزعة العلمية القائمة على استخلاص الحقائق من التجارب العملية حتى إنه جعل التجريب فوق كل نقل ، وأداه ذلك إلى أن يجرب بنفسه فى الحيوان والنبات مما نجده مبثوثا فى كتاباته ، ومن مثل قوله: — « إن الناس يقولون أن الأفاعى تكره ريح السذاب والشيح ، وتستريح إلى نبات الحرمل ، وأما أنا فانى ألقيت على رأسها وأنفها من السذاب ما غمرها فلم

---

(١) أنظر التجربة فى « الحيوان » : — ٤ / ٣٢٠ — ٣٢١ .

(٢) النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية : — د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٥٠ .

أجد على ما قالوا دليلا(١) ، وبالمثل فانه لم يجد غضاضة فى بحثه وتصحيحه للمعارف والأوهام الشائعة عند الناس أن يسأل الجزارين عن مثل بحثه فى أعاجيب الجمل ، وما إذا كان يختفى شىء من أعضائه عند نحره ، فانه استقص الأمر عند شيخ من جزارى باب المغيرة بالبصرة ، وتيقن من خطأ هذا الزعم بعد ان شهد عدم نقصان شىء من أعضاء الجمل المنحور(٢) .

والحق أن مثل هذه التجارب التى تعتمد أساسا على المشاهدة والملاحظة ، مبعثها فيما نحسب ، إيمان الجاحظ بالشك الحقيقى فى الأفكار المعروضة بقصد التيقن من صدقها أو كذبها ، فلو لم يكن هذا الشك لما عرض الجاحظ لتجربة تأثر الأفاعى بريح السذاب ، أو لتجربة نحر الجمل وبيان إن كان قد نقص شىء من أجزائه بعد النحر أم لا ؟ .

أن نزعة الشك عنده مرتبطة بالتجربة ، وكأن الشك عنده غاية أما التجربة فكانت من وسائل اليقين الذى يريد الاقتناع به .

---

(١) « الحيوان » : — ٦ / ٣٩٩ .

(٢) المصدر السابق : ٦ / ٤٣٩ — ٤٤٠ .

آثارة

(٣)

(ا) كثرتها : —

اشهر الجاحظ بكثرة التأليف ، وهو عند المسعودى[١] ، أحد أربعة من معاصريه ممن اشتهروا بهذه الصفة ، هم : - هشام الكلبى وله نحو تسع وثلاثين ومائة مؤلف[٢] ، وأبى عبيدة وله نحو مائتى مؤلف[٣] ، والمدائنى وكتبه نحو المائتين[٤] بينما تبلغ كتب الجاحظ زهاء ثلاثمائة وستين مؤلفا ، وقيل أن سبط ابن الجوزى رأى أكثرها فى أول القرن السابع فى مشهد أبى حنيفة النعمان ببغداد[٥] ، ويظن البعض أن العدد الصحيح لمؤلفاته ثلاثمائة وخمسون مؤلفاً[٦] بينما يذكر ابن حجر أن عددها يزيد على مائة ونيف وسبعين مؤلفا ، استناداً إلى إحصاء ابن النديم لها[٧] ، وقد أثبت ياقوت من هذه المصنفات مائة وثمانية وعشرين

---

(١) « مروج الذهب » . - (ط . باريس) ، ٤ / ١٩٥ .

(٢) « الفهرست » . - لابن النديم (ط . الرحمانية ١٣٤٨ هـ) ص١٤٩ .

(٣) المصدر السابق ص ٧٩ - و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، ٢/١٠٦

(٤) « أمراء البيان » : - كرد على ، ١ / ٣٣٤ .

(٥) المصدر السابق : ٢ / ٤١٩ .

(٦) « أمراء البيان » - ٢ / ٤١٩ .

(٧) « لسان الميزان » لابن حجر : (حيدر أباد ، ١٣٣٠ هـ) ، ٤ / ٣٥ .

مصنفا (١) ذكر الجاحظ منها في حيوانه أربعين مصنفا(٢)، وما تحت أيدينا من هذه الآثار ينقسم قسمين :- الأول المجموعات المطبوعة من رسائله التي عني بنشرها محمد ساسي (٣) ، والأستاذ حسن السندوبي (٤) ، وبتحقيق المستشرق فان فلوتن (٥) ومجموعة رسائل بتحقيق المستشرق يوشع فنكل(٦) ومجموعات رسائل بتحقيق باول كراوس والدكتور طه الحاجري (٧) واحدث هذه المجموعات تلك المجموعة التي قام بنشرها وتحقيقها الاستاذ عبد السلام هارون (٨) وقد نشرت بعض

---

(١) « معجم الأدباء » : - (مرجليوث ١٩٢٣ م) ، ٦ / ٧٥ - ٧٨ .

(٢) « فهارس الحيوان » .- الأستاذ عبد السلام هارون ، ٢٣٦/٨ وما بعدها

(٣) وهي المعروفة باسم « مجموعة رسائل لمؤلفها العلامة الشهير والفهامة الكبير الأستاذ أبي عثمان عمر بن محبوب المعروف بالجاحظ » (ط . التقدم بمصر ١٣٢٥ هـ) وتضم ١١ رسالة .

(٤) « عنوانها « رسائل الجاحظ » (ط . الرحمانية ١٣٥١ هـ ١٩٣٣) وتضم ١٣ - رسالة .

(٥) عنوانها « ثلاث رسائل لأبي عثمان بن بحر الجاحظ البصري » (ط ـ ليدن بهولاندا ١٩٠٣ م) .

(٦) عنوانها « ثلاث رسائل لابن عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » (ط . السلفية ١٣٤٤ هـ) .

(٧) عنوانها « مجموع رسائل الجاحظ » (ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٣ م) . وتضم ٤ رسائل .

(٨) عنوانها « رسائل الجاحظ » (نشر مكتبة الخارجي ١٩٦٤ م) وتضم ١٦ رسالة في جزءين .

رسائله على هوامش بعض الكتب ، من مثل هامش الكامل للمبرد (١) وبعضها نشر مستقلا ، من مثل رسالة «التبصر بالتجارة» (٢) ، ورسالة «التربيع والتدوير» (٣) ، ومن آثاره المطبوعة بعض الكتب وفى مقدمتها : — « الحيوان »، و « البيان والتبيين » ، و « البخلاء » و « العثمانية » (٤) و «المرجان والبرصان(٥)» وهناك جملة من كتاباته مبثوثة فى بطون الكتب من مثل : — « ثمار القلوب » للثعالبى ، و « شرح نهج البلاغة » لابن أبى الحديد ، و «زهر الآداب» للحصرى .

أما القسم الثانى من آثاره فهى المجموعات المخطوطة ر ، ومن أبرزها « الفصول المختارة من كتابات الجاحظ » ، والمحفوظة فى المتحف البريطانى ، ومنها نسخة مصورة فى مكتبة جامعة القاهرة (٦) ، وهى تضم جملة من الرسائل لم تنشر بعد من أهمها فصول من كتابه فى «الأوطان والبلدان» ، وسطور من صدر

---

(١) عنوانها « اختيارات عبيد الله بن حسان » هامش الكامل للمبرد (ط . التقدم العلمية بمصر ، ١٣٢٣ هـ - ١٣٢٤ هـ) وتضم فصولا من عشرين رسالة ، وكتاب للجاحظ .

(٢) نشرها حسن حسنى عبد الوهاب التونسى (للمرة الثانية فى القاهرة

(٣) حققها شارل بيلا ، ونشرت مطبوعة فى دمشق ١٩٥٥ م .

(٤) تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ونشر فى القاهرة ١٩٥٥ م .

(٥) حققه الأستاذ محمد مرسى الخولى ، ونشر عن دار الاعتصام فى القاهرة وبيروت ١٩٧٢ .

(٦) هذه المخطوطة تقع فى مجلدين ، وتحمل رقم ٢٤٠٦٩ (مخطوطات جامعة القاهرة) .

رسالته فى «البلاغة والايجاز» (١) ، وفصـل من صدر كتابه فى «التنبل ، التوتل وذم الكبر» .

ب : — صعوبة تحديد زمن تأليفها : —

واذا كان من الصعب إيجاد حصر دقيق لآثاره ، فانه من الصعب ايضا تحديد زمن تأليفها ، الا فى بعض الاعمال التى نص بنفسه على زمن كتابتها ، وهو فى الغالب زمن تقريبى ، من مثل صنيعه «فى كتب الامامة» ، ويظن أنها كانت أول أعماله قاطبة (٢) ، ويزيد من تعقيد هذه المسألة أنه — فيما يظهر — كان فى المرحلة الاولى من انتاجه ينسب بعض تآليفه الى غيره من المؤلفين والادباء المشهورين من مثل ابن المقفع ، والخليل بن أحمد ، وسلم صاحب بيت الحكمة ، ويحيى بن خالد البرمكى والعتابى ، ومن على شاكلتهم من مؤلفى الكتب ، وقد نص على ذلك صراحة قاصدا بذلك الرواج لكتبه ورسائله (٣) ، ومع ذلك فان محاولة قيمة قام بها الأستاذ الدكتور طه الحاجرى قد أثمرت إلى حد بعيد فى تحديد زمن معقول لكثير من هذه الكتابات ، استنادا إلى أن الدارس لحياة الكاتب يلحظ تأثره فى الكثير من تآليفه وكتبه بما عقده من صلات ربطت بينه وبين بعض الشخصيات المعروفة فى مجتمعة ، ومن ثم نستطيع - فى أحيان كثيرة أن نحدد زمنا معقولا ، صدرت فيه كتابات بعينها ، وتآليف خاصة صدرت عنه ، تكاد

---

(١) المخطوطة ثانى : — ص ١٩٩ — ٢٢٠ .

(٢) المصدر السابق . — ٢٢٨ — ٢٣٩ .

(٣) «الجاحظ فى البصرة» . - شارل بيلا ، ص ٢٩٣ .

(٤) «فصل ما بين العداوة والحسد» . - مجموع رسائل الجاحظ ، تحقيق بياول كراوس ود . طه الحاجرى ، ص ١٠٨ — ١٠٩ .

تكون موافقة للاحداث السياسية التى عاصرها والاتجاهات الفكرية التى كانت تثور فى مجتمعه خلال سنى حياته ، وعلى الرغم من ذلك فان الباحث يجد نفسه أمام عقبة كئود إزاء محاولة الوصول إلى تقدير صحيح للزمن الذى ألف فيه الجاحظ جملة من كتاباته ، خاصة تلك التى صدرت إستجابة لنوازع خاصة فى نفسه لا تكشفها مقارنة النصوص بالأحداث التاريخية التى عاصرها ، من ذلك كتابه « الحجاب »(١)، وهو من الكتب التى لم يرد ذكرها فى «الحيوان» ونظن أنه ألفه فى عصر المتوكل أو بعد ذلك ، إذ جاء فيه ذكر الحسن بن مخلد ابن الجراح(٢) الذى كان يخلف إبراهيم بن العباس الصولى على ديوان الضياع فى عصر المتوكل(٣) ثم صار وزيراً للمعتمد(٤) .

(ج) آثار موضوعة : —

وجملة من الكتابات ألحقت باسمه ، والثابت عندنا أنها لا تمت إليه بصلة ، من ذلك كتاب « المحاسن والأضداد » نسب خطأ إليه ، وقد أقام أستاذنا الدكتور شوقى ضيف الدليل القاطع على ذلك بمقابلة موضوعية بين نص هذا

---

(١) نشر فى مجموعة « رسائل الجاحظ » . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ٠ ٢ / ٢٧ ٠

(٢) المصدر السابق : - ٢/٦٩ ٠

(٣) « أعتاب الكتاب » لابن الابار ، تحقيق د . صالح اشتر (ط. دمشق ١٣٨٠) ص ١٥١ ٠

(٤) المصدر السابق ص ١٦٢ التنبيه والإشراف «للمسعودى ز ، (ط الصاوى ، ١٣٥٧) ص ٣٢٠ ٠

الكتاب وكتاب آخر هو « المحاسن والمساوىء » للبيهقى[1] ويظهر فى هذه المقابلة أن واضع « المحاسن والأضداد » حرص على تأكيد نسبة الكتاب إلى الجاحظ بمثل صنيعه فى فاتحة الكتاب قائلا « قال . - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » ثم تتوالى نقوله عنه فى فضائل الكتب ووصف فوائدها ، مما نجده مبثوثا فى كتاب الحيوان ، ولعل هذا الاستهلاك هو الذى جعل القدماء يظنون أن الكتاب من تأليف الجاحظ ، والحق أن من يعرف أسلوبه « المطرد فى كتبه يعرف توا أن الكتاب ليس له »[2] بجانب ما يحويه الكتاب من أخبار وأشعار لمن جاء وأبعد عصره من مثل عبد الله بن المعتز[3] ، وبالمثل فان الكتاب يصدر فى بعض جوانبه عن نزعة شعوبية[4] ، وموقفه من الشعوبية والرد على مطاعنها مشهور ومعروف ، والأرجح أن مؤلف الكتاب هو البيهقى صاحب كتاب « المحاسن والمساوىء » وكان « البيهقى ألف الكتاب الاول واقحم فيه ما أقحم من أفكار الشعوبية والفحش فى القصص ، ثم رأى أن يخرجه إخراجا جديدا وينسبه إلى نفسه منحيا منه ما يصور شعوبيته ، وما ينبو عن الأذواق السليمه من القصص المفحش »[5] ومن هذه الكتب المنحولة على الجاحظ كتاب سحر البيان الحاكى قطع البيان . ومنه نسخة خطية بمكتبة جامعة القاهرة مصورة عن مخطوط بكوبريلى[6] ، ويدعى ناسخ الكتاب أنه لشخص يدعى عبد الله الجاحظ ، بجانب

(١) « العصر العباسى الثانى » : - د . شوقى ضيف ، ص ٥٤٠ وما بعدها
(٢) المصدر السابق .
(٣) « المحاسن والاضداد » (ط . دار مكتبة العرفان - بيروت) ص ١٢٨
(٤) أنظر مثلا « الحديث فى محاسن الضيافة » فى الكتاب .
(٥) « العصر العباسى الثانى » : - د . شوقى ضيف ، ص ٥٤٧ .
(٦) مخطوط مصور عن نسخة خطية بكوبريلى تحمل رقم ١٣٨٤ ، ورقمها فى مكتبة جامعة القاهرة ٢٦٠٠٩ مخطوطات .

ما يحويه من أخبار عصور متأخرة عن عصره ، وعلى هذه الشاكلة نسب إليه خطأ كتاب « سلوة الخريف بمناظرة الربيع والخريف » ، نشره صاحب مطبعة الجوانب بالقسطنطينية عام ١٣٠٢ هـ ، وهو ملحق بكتاب « الشباب فى الشيب والشباب » تأليف الشريف المرتضى ، عن أصل يرجع إلى عام ٤٤١ هـ و لم يصف لنا الناشر اصل المخطوطه أو اسم كاتبها، ولم يلتفت إلى تحقيق نسبتها إلا أنه فيما يظهر قد وقد بصدرها اسم الجاحظ فطبعها منسوبة إليه دون بحث هذه النسبة وظاهر أن الكتاب ليس للجاحظ ، وإن شئت أنظر إلى خاتمته حيث الإشارة إلى ألقاب ومسميات لم تكن مألوفة فى عصره من مثل . — قوم الملك ، ونظام الدين ، وبالمثل احتوى الكتاب على أشعار لابن المعتز ولابن الرومى ولغيرهما من الشعراء والكتاب ممن لم يدركهم ، ويظن السندوبى أن هذا الكتاب « وضع فى أواخر القرن الرابع ، وأوائل الخامس الهجرى »(١) وبالمثل نسب إليه خطأ كتاب « الدلائل والاعتبار على — الخلق والتدبير » طبعه وصححه محمد راغب الطباخ الحلبى عام ١٩٢٨ م فى مطبعته العلمية بحلب عن نسخة عثر عليها فى مكتبة المدرسة العثمانية بحلب يرجع تاريخها إلى عام ١٠٢٣ هـ ، وهو كتاب فى جملته دعوة إلى العلم والعقل ، ويتضمن فصـــولا يتحدث فيها المؤلف عن خلق الإنسان ، ووظائف أعضاء البدن ، ووصول الغذاء إليها وحكمة التدبير فى تركيب البدن ، والحواس ، وما إلى ذلك من موضوعات ، ويظن الأستاذ السندوبى أن هذا الكتاب من صنع الحارث بن أسد المحاسبي الواعظ(٢) ، كذلك نستطيع أن نجمل بين ما حمل خطأ على اسمه من كتب وتآليف . — « رسائل أبى عثمان عمرو

(١) « أداب الجاحظ : — حسن السندوبى ص ١٥٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٥٣ .

ابن بحر الجاحظ فى ذم العلوم ومدحها (١) » وظاهر خطأ نسبتها إليه ، ذلك أننا لم نعرف أنه أشار فى كتاباته إلى ذم للعلوم بأصنافها .

ه — صعوبة تصنيف مؤلفاته . —

ليس من اليسير على الباحث فى هذه الآثار والكتابات أن يصنفها حسب موضوعاتها وإن شئت أنظر الى « كتاب الحيوان » فانه يضم مسائل كلامية وأدبية تستأهل أن تكون أصولا بذاتها تضمها تأليف خاصة بها لا أن تكون فروعا من المبحث الاساسى وهو مسائل الحيوان ، ومن ثم فإننا لا نقبل صنيع البعض فى تصنيف هذه الآثار من حيث الموضوع فجعلوا على سبيل المثال — « كتاب الحيوان » على شاكلة « كتاب الابل »(٢) ، وكتاب البغال «من الكتب التى اختصت بموضوع الحيوان(٣) » وهذا أمر لا يعطى هذه التآليف حق قدرها ، وهو أشبه بصنيع من كان يضع « كتاب الحيوان » بين التآليف التى تبحث فى الطبيعيات(٤) » مما يتنافى مع واقع الأمر بالنسبة لهذه الاثارة وماعرف عن صاحبها من كثرة الاستطراد فى أبوابها وموضوعاتها — كما سنرى بعد قليل — خاصة أنها تعد ، فى الواقع ، من حيث الموضوعات التى تناولتها ، « أشبه

---

(١) منها نسخة مخطوطة مصورة لجامعة القاهرة تحمل رقم ٢٢٩٨٥ فى ٣٣ لوحة

(٢) ينكر ياقوت نسبة هذا الكتاب للجاحظ أنظر « معجم الأدباء » (ط . القاهرة) ١٦ / ١٠٦ .

(٣) أنظر « الجاحظ » : للاستاذ محمد عبد المنعم خفاجى ، ص ٣٠٢ .

(٤) أنظر ما كتبه الأستاذ عبد السلام هارون فى تقديم تحقيقه لكتاب الحيوان ١ / ٣٥ عند الاشارة إلى النسخة التيمورية من أصل الكتاب .

(٥) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » — د . شوقى ضيف ، ص ١٦٧ .

ما تكون بدوائر معارف « وأنها لتشبه تمام الشبه » معارضنا الحديثة « من حيث أنها تعرض « تحت بصرك جميع ألوان الثقافة التى عاصرته من هندية ، وفارسية ويونانية ، وعربية وهو يجمع ذلك فى شكل مشمث إذ بينما تراه يتحدث إليك عن حديث شريف ، أو آية قرآنية إذا هو يتحدث عن حكمة يونانية ، وبينما يحدثك عن زرادشت والمانوية ، إذا هو يحدثك عن نظرية الكمون عند المعتزلة أو عن نظريته فى أن المعارف طباع وحتى هو إن كتب فى « البيان عند العرب تجده يبحث لك عن رأى الهند ، واليونان والفرس فى البلاغة »(1)، وهذا التنوع فى الموضوعات تجده - فى الغالب - عاما فى المؤلف الواحد والرسالة الواحدة ، ذلك أنه كان يميل - كما ذكرنا من قبل - إلى الإستطراد والتشعث فى التأليف فتراه فى المؤلف الواحد ينتقل من موضوع إلى آخر ومن باب ألى غيره ومن خبر إلى خبر ، ومن دين إلى فلسفة ، ومن شعر إلى حديث وهو يشير إلى هذا الميل صراحة فى كتبه ، ويصرح أنه اتخذه منهجا فى تأليفه منعا لغفلة القارىء وضجره ، ويشير إلى أنه منهج مألوف فى كتب من سبقوه ، وهو ليس مألوفا فقط - فى الفنون التى تتطلب طول معاناة من أصحابها مثل تأليف الكتب والرسائل بل مألوف فى فنون سهلة الأداء مثل فن الطرب والغناء الذى يؤدى وقت راحة المستمع ، يقول فى هذه المعانى : - « وعلى أنى قد عزمت - والله الموفق - أنى أوشح هذا الكتاب (الحيوان) ، وأفصل أبوابه « بنوادر من ضروب الشعر ، وضروب الأحاديث ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإنى رأيت الاسماع تمل الأصوات المطربة ، والاغانى الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها وما ذلك إلا فى

(1) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى : - د . شوقى ضيف ، ص ١٦٧ .

طريق الراحة ، التى إذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كانت الأوائل . قد سارت فى صغار الكتب هذه السيرة ، كان هـذا التدبير لما طال وكثر أصلح ، وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيراً »(١) ، ثم أنظر إليه يفصل القول فى هذه القضية مشيراً إلى منافع الاستطراد فى الكتابة ، مؤكدا أن هذا المنهج نهجه من قبل الحكماء فى سيرتهم ، والعلماء فى آدابهم ، ولا ندرى أى حكماء أو علماء يقصد. وإن كان أستاذنا الدكتور شوقى ضيف يرجح أنه يشير إلى بعض ما ترجم العرب من كتب الهند (٢) ويقول الجاحظ فى نعت كتابه « الحيوان » : - « وإن كان كتابا واحدا فانه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها فهو أم على حدة ، فان أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثانى ، ولا الثانى حتى يهجم على الثالث ، فهو أبداً مستفيد مستطرف وبعضه يكون جماما لبعض ، ولا يزال نشاطه زائدا ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل ، والملال إليه أسرع ، حتى يفضى به إلى مزح وفكاهة ، وإلى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفا ، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء ، وآداب العلماء(٣) » .

ومن الحق أن ظاهرة الاستطراد فى كتاباته تعد شيئا ملفتا للنظر حتى ليقول

---

(١) « الحيوان » : ٣ / ٧٠ .

(٢) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » : - ص ١٦٧ .

(٣) « الحيوان » : - ١ / ٩٣ - ٩٤ .

كارادى فو : ـ « أن الموضـــوع بالنسبة له (للجاحظ) لا يعد سوى حجة الاستطراد فهو بدون توقف ينتقل من فكرة ألى أخرى غير غائب عنه مطلقا روحه الفكهة الحية الجميلة(١) » ويبرر « جيب » هذه الاستطرادات بأنها وليدة الأفكار المتدفقة المتلاحقة فى كتاباته ، يقول : ـ « غلبت على كتابات الجاحظ ما كان يتسم به من إعمال فكر وحيوية ، مع ميل إلى الاستطراد بما يبدو وكأن الأفكار تتدفق من فكره إلى حد أنه كان يتجاوز الحدود الشكلية للعبارات ، ساعده على ذلك حصيلته من الثقافة والآداب العربية الفياضة . . . فقد كان موسوعى الثقافة يحسن مزج الجد بالمزح ، وإن كان ينم فى هذا عن كثير من المغالاة »(٢) ، وعد صاحب مقال الجاحظ فى دائرة المعارف الإسلامية هذه الاستطرادات من عيوب كتاباته ، يقول : ـ « وعيوب مصنفات الجاحظ كلها تقريبا افتقارها إلى حسن النظام فى التحرير والتبويب ، وكثرة استطرادها ووالعه البين بذكر النوادر ، والحقائق القائمة بذاتها(٣) » .

والحق أنه كان يحس بوطأة الاستطرادات فى كتاباته ، وكثيرا مانراه يبرز هذا الصنيع ، وأن ذلك مرده إلى تأثره بمنهج السابقين عليه فى تأليف كتبهم ، وإلى حرصه على ألا يهجم الملل على قارىء كتبه إذا ما استقرأ موضوعا واحدا متصلا ، إلا أننا نجد لهذه الظاهرة بعض مايفسرها بخلاف ماذكر ، ذلك أن

---

(١) Les Penseurs De L, Islam, V. 1, P. 295 — 296

(٢) Arabic Literature, *H*. A. R. Gibb, 2nd, edition, Oxford, 1963, P. 75.

(٣) « دائرة المعارف الاسلامية » : ـ المجلد السادس ، ص ٢٣٨ .

الملاحظ في «كتاب الحيوان» ، وهو من خير ما يمثل لنا هذه الظاهرة كان المؤلف يتعرض بالبحث لموضوع جديد متشعب الأطراف(١) ، ومن ثم كان الاستطراد من موضوع لآخر يكاد يكون غاية لتحقيق هدف الكاتب في عرض ما لديه من معارف ، وما وقع تحت ناظريه من معلومات يحقق عرضها في الكتاب الغاية منه ، ويصعب على الباحث أن يظن أن الجاحظ إلتبس عليه الأمر واختلط عليه الفكر في عرض ما يريد في حيوانه ، ذلك أننا لو نظرنا في صدر الجزء السادس من الكتاب لوجدناه يقدم للقارىء — منهجه في التأليف ، وما يريد أن يصل إليه في هذا الجزء من كتابه وأسلوبه في ذكر الشواهد على ما يقول(٢) ، ومثل هذا صنعه في كتابه «البيان والتبيين» وكان حين يحس بأنه قصر عن تحقيق ما وعد ، اعتذر للقارىء من مثل صنيعه عند الكلام عن البيان : «وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول هذا الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير(٣)» .

ومن الممكن أن نلتمس له العذر في استطراداته خاصة في تلك الآثار التي ألفها خلال سني مرضه ، ذلك ان حاله كان بالغ السوء ، حتى إنه يقول في شكاية مرضه : — «أنا في جانبي الأيسر مفلوج ، فلو قرض بالمقاريض ما علمت به ، ومن جانبي الأيمن منقرس ، فلو مر به الذباب لألمت(٤)» ثم انظر اليه

---

(١) وفي ذلك يقول الاستاذ عبد السلام هارون في تقديمه لهذا الكتاب : — «ان أعوزه بعض الترتيب والتهذيب فهو شأن كل كتابة جديدة ، في أمر متشعب الاطراف ممدود النواحي» — مقدمة محقق الحيوان ، ص ١٨ .

(٢) «الحيوان» : — ٣/٦ وما بعدها .

(٣) «البيان والتبيين» : — ٧٦/١ .

(٤) «معجم الأدباء» : — (ط . القاهرة) ١١٣/١٦ .

يصف حاله أبان تصنيفه « كتاب الحيوان » : — « وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الارادة فيه : أول ذلك العلة الشديدة[1] » فهو يقدم علته ومرضه على كل ماعداها من علل سببت ما اعتور كتابه من نقص في بلوغ الغاية منه ، وقد تعجب صاحب « جمع الجواهر » من قدرة الجاحظ على تأليف كتاب الحيوان « وهو في هذه الحال ، حتى أنه عد ذلك من العجائب[2] » ، ولا عجب أن نراه — وحاله في مثل ماوصفنا — أن يكثر من الاستطرادات في كتاباته ، إذ اضطره المرض ألا يستقر عند موضوع يعرضه ، فكثر عنده الحال في الكلام وكثر تقطيع نظامه ، وكثر اضطراب نسقه وسياقه ، والظاهر أنه كان يحس بوطأة هذا العيب في كتاباته ، ومن ثم رأيناه يتجه إلى القارىء راجيا أن يحمل مايرى فيها من عيب على محمل الخير ، حتى إنه يقول في « الحيوان » : — « فان نظرت في هذا الكتاب فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب التعنت ومذهب من إذا رأى خيرا كتمه ، وإذا رأى شرا أذاعه ، وليعلم من فعل ذلك أنه قد تعرض لباب ان أخذ بمثله وتعرض له في قوله وكتبه أن ليس ذلك إلا من سبيل العقوبة والأخذ منه بالظلامة[3] .

هـ : — تصور كتاباته للمجتمع : —

هناك سؤال نجد لزاما أن نطرحه في هذا التمهيد ، هو : — هل يمكن أن تقدم لنا كتابات الجاحظ وآثاره ، صورة صادقة للمجتمع العباسي ؟ الحق أننا نستطيع القول أن هذه الكتابات يمكن وأن تتخذ مثالا صادقا نرسم من خلاله صورة للمجتمع

(١) « الحيوان » : — ٤/٢٠٨ .
(٢) « جمع الجواهر للحصري : — (ط . الرحمانية ١٣٥٣ هـ) ص ١٦٥ .
(٣) « الحيوان » : — ٤/٢٠٩ .

العباسى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وبشىء من التحديد إلى وفاته عام ٢٥٥ للهجرة ، وذلك أنه لم يترك موضوعا من الموضوعات الاجتماعية ، والعقلية ، واللغوية ، والاقتصادية ، والدينية ، التى تصور حياة مجتمعه من كل جوانبها إلا وألف فيه رسالة أو كتابا ، فهو قد ألف فى « المعاد والمعاش » « الجد والهزل » ، وفى « الترك والسودان » وفى « المعلمين والقيان » وفى « الجوارى » و « الغلمان » ، وفى « العشق » و « النساء » وفى « النبيذ » ، وفى « الشيعة » و « والعباسية » ، وفى « الزيدية » ، و « الرافضة » ، وفى « الرد على النصارى » « وعلى اليهود » ، و « نظم القرآن » وفى « البيان والتبيين » ، وفى « حيل لصوص النهار » « وحيل سراق الليل » ، وفى « البخلاء » واحتجاج الأشحاء » ، وحقا إنه « خطا بالكتابه الفنيه عند العرب خطوة جديدة نحو التعبير عن جميع الموضوعات فى خلابة ، وبيان عذب ، وكأنى به لم يكن يفهم أن الكتابة الأدبية ألفاظ ترصف ، وإنما كان يفهمها على أنها معان تنسق فى موضوع خاص مما يتصل بالطبيعة أو بالانسان . وكان لذلك صبغته الخاصة فى كتاباته ، فانها كتابات ذات موضوع قبل أن تكون ذات أسلوب وليس معنى هــــذا أنه كان يهمل ألفاظه وتراكيبه ، بل لقد كان يعنى بهما عناية شديدة[1] » .

وقد لفتت هذه الظاهرة الفنية المميزة لكتابات الجاحظ أنظار الدارسين الغربيين ، وإذ عده كارادى فومن بين « الكتاب غير التقليدين » Pen Soucieux Dse Systémes المتمتعين بروح متحرره حقا ... وهو من المفكرين الذين لا يهتمون كثيرا بالتقاليد الفنية للكتابة العربية[2] » ، وعده « جيب » أكبر كاتب فى عصره ان لم يكن فى الاداب العربية قاطبة ، وذلك أنه من بين الذين

---

(١) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » : — د . شوقى ضيف ، ص ٠ ١-١٦١

(٢) Les Penseurs De L, Lslam, V. /293 .

« خرجوا بالكتابة الفنية من دائرة أدب كتاب الدواوين ، إلى تحرير العلوم الأدبية ، وتحريرها من العزلة التى يفرضها الأسلوب الفنى البحت ، بأن دفع بالكتابة الفنية الأدبية إلى علاقات إيجابية تنطوى على اهتمام بحياة الناس ، ومعالجة مظاهر الحياة الاجتماعية للعصر(١) » .

وتؤكد لنا كتابات الجاحظ هذه الحقيقة ، ذلك أنه لم يخص طبقة بعينها من طبقات المجتمع فى كتاباته ، إذ نجده يصرح فى كتابه « الحيوان » بأنه موجه إلى كل طبقات المجتمع وطوائفه ، يقول : ـ « كتاب معناه أنبه من اسمه ، وحقيقته آنق من لفظه ، وهو كتاب يحتاج إليه المتوسط العامى ، كما يحتاج إليه العالم الخاصى ويحتاج إليه الريض ، كما يحتاج إليه الحاذق»(٢) ، ثم أنظر إليه يفصل القول فى صفة كتابه ، يقول : ـ « وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيا أعرابيا ، وإسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة ، واشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة ، وإحساس الغريزة ، ويشتهيه الفاتك كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه المجد ذو الحزم ، ويشتهيه الغفل ، كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبى ، كما يشتهيه الفطن(٣) » ولعلنا لا ندهش بعد ذلك أن عدت كتاباته وما حوته من درس لشتى طبقات المجتمع من « كتب علم الأخلاق ، وهو العلم الذى أوجده الجاحظ(٤) » .

---

(١) Arabic Literature, P. 75.

(٢) « الحيوان » : ـ ١ / ١٠ .

(٣) « الحيوان » : ـ ١/١١ .

(٤) Les Penseurs De L. Islam, V. I/307

وأداه ذكاؤه ، وما اتسم به من دقة ملاحظة إلى تناول موضوعات جديدة من مثل تناوله موضوعات أدخل فى « سيكولوجية » الأجناس من مثل صنيعه فى رسالته « فخر السودان والبيضان » ، ورسالته « مناقب الترك » ، حتى ليعده كارادى فو « أول كاتب يتحدث بهذا التوسع بما يلقى الضوء على هذا الجنس البشرى (الترك) الذى لم يكد يظهر بالكاد على مسرح الاحداث السياسية فى عصره[1] » ، ووصفه بعض الدارسين بأنه كان عالماً بالطبيعة والانسان ، وإن كان لم يقصد فى كتبه إلى وضع قواعد هذين العلمين ، إنما كان همه إثارة اهتمام القارىء بهما ، وذلك بتحبيبهما إليه ، ومن تحديده أيضا أن كتاباته تناولت موضوعات أدخل فى علم النفس من مثل كتابه « فرق مابين الذكر والأنثى »[2]، وهو وإن كان لم يتخذ علم تقويم البلدان صناعة له ، إلا أن ملاحظاته عن البلدان « كانت منصبة على الشعوب أكثر منها على أحوال البلدان[3] » .

والحق أنه لم يترك طائفة ذات شأن فى مجتمعه إلا وتناولها بالذكر فى كتبه ورسائله إن لم يكن خصها بتآليف منفردة ، من مثل ما نراه فى كتابه « المعلمين » وكتابه « فى طبقات المغنين »[4] وكتابه عن « الحجاب » [5] ورسالته فى « مدح التجار وذم السلطان »[6] ورسالته فى « القيان »[7] ورسالته فى « ذم أخلاق

---

(١) S.S.
(٢) دائرة المعارف الاسلامية : ـ « مقال الجاحظ » ، المجلد السادس ص ٢٣٧ .
(٣) المصدر السابق : ص ٢٣٦ .
(٤) دائرة المعارف الاسلامية : المجلد السادس ، ص ٢٣٦ .
(٥) هامش الكامل « للمبرد : ١ / ١٧
(٦) المصدر السابق : ١ / ١٢٠
(٧) « رسائل الجاحظ » تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون : ٢ / ٣٥

الكتاب » (١) ورسالته في « صناعات القواد » (٢)، وهو غافل عن الظواهر المبتذلة والسليمة في كل هذه الطوائف، ومن ثم نراه ينهج في كتاباته نهجا يتسم بالواقعية في التعبير، وحكايته ما يريد حكايته (٣)، مما جعل كتاباته تحكي عصره وتمثله دون تستر أو تخف نرى فيها الحقائق عارية دون أن يسدل عليها أي ستر أو أي حجاب، حتى إنه ليذكر السوءات والعورات في غير مواربة ولا مداجاة، مؤمنا بمنهجه الواقعي غير متحرج منه، وهو لا يجد غضاضة من نقل كلام المجانين والموسوسين، وكلام أهل الغفلة من النوكى من مثل صنيعه في « البيان والتبيين » ونراه يدافع عن هذا المنهج مرارا في كتاباته، من مثل قوله في « البيان والتبيين » « ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك ان غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير. وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام، وملحة من ملح الحشوة والطغام، فإياك أن تستعمل فيها الاعراب، وأن تتخير لها لفظا حسنا، أو تجعل لها من فيك مخرجا سريا فان ذلك يفسد الامتاع بها، ويخرجها من صورتها، ومن الذي أريدت له، ويذهب استطابتهم اياها واستملاحهم لها (٤) »، وأنظر إليه يقول في « البخلاء »: — « وأن وجدتم في هذا الكتاب لحنا، أو كلاما غير معرب، ولفظا معدولا عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الاعراب يبغض هذا

---

(١) المصدر السابق: ٢ / ١٨٣

(٢) المصدر السابق: ١ / ٣٧٥

(٣) « الفن ومذاهبه في النثر العربي »: د. شوقي ضيف، ص ١٦٢-١٦٣

(٤) « البيان والتبيين »: ١/ ١٤٥.

الباب ، ويخرجه من حده »(١) ويرد على من ينكر عليه إستخدامه الألفاظ التى تصف العورات دون مواربة ، يقول : — « ولو كان ذلك الموضع موضع كناية هى المستعملة . وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأى ألا يلفظ بها ، ولم يكن لأول كونها معنى إلا على وجه الخطأ ، ولكان فى الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها ، وقد أصاب كل الصواب ، الذى قال : — « لكل مقام مقال »(٢) .

ومن المحقق أن هذه الواقعية فى كتاباته هى التى دفعته إلى التدقيق فى ألفاظه وانتخابها بحيث تلائم ما يصفه ويصوره ، مع عدم العناية بالتشبيهات والاستعارات إلا ما جاء عفو الخاطر ، أو كان الغرض منه تمثيل الواقع ، « وحقا ان الكتابة عنده « ليست زخرفا خالصا يراد به الوشى والحلى وما يندمج فى ذلك من صور وتشبيهات واستعارات ، بل هى معان تؤدى فى دقة تفسر الوقائع والأحداث تفسيرا لاتستره أسجاف الاستعارات والأخيلة ، ومعنى ذلك أنه إنما عزف عن الأخيلة ، لما تضع أمام القارىء من مبالغات ، أما بعد ذلك فانه كان مصورا عظيما ، إذ كان يعرف كيف ينقل المشاهد بجميع تفاصيلها ودقائقها تسعفه فى ذلك قدرة غريبة على الملاحظة ، وهى قدرة جعلته يحسن التصوير من جهة ، كما يحسن القصص من جهة أخرى(٣) » والحق أنه على قدر ما اتسمت به كتابات الجاحظ من رونق وطلاوة ، فان أسلوبه الفنى الخاص به مكنه من معالجة ،

---

(١) « البخلاء » : — (ط دار المعارف) ، ص ٤٠

(٢) « الحيوان » ٤٣/٣ — وانظر « البيان والتبيين » ١٣٨/١ — وانظر المثل فى الأمثال للميدانى ١٣١/٢

(٣) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » : د . شوقى ضيف ، ص ١٦٣-١٦٤

« موضوعات تمس الأدب — العام»[1] ، وقد امتازت الصنعة الجاحظية وما انطوت عليه من جدل عقلي في المسائل اللغوية والفقهية ، بقدرة معقولة على التعبير عن الموضوعات الواقعية، والخيالية ، والعقلية، ملفوفة بقدر عظيم من الدقة والتحديد مما شكل أرهاصا بسمات جديدة للغة العربية[2] .

ولا نخطىء إذا قلنا ان كتاباته — تعد موضوعيا — صالحة لاستخلاص صورة صادقة للمجتمع العباسي ، لكنه لم يكن مؤرخا يعنى « بذكر الحروب ، ووصف الملوك في عدلهم ، وجورهم، ومواليدهم ، وتوليهم ، وموتهم ، وحديث أعدائهم، وفتن بلادهم ، ومشاغبهم ، ومتاعبهم ، ومؤامراتهم ، ودسائسهم ، وطبقات الرجال، في مواليدهم ، ووفياتهم ، وما صرفوا فيه عقولهم ، وأعمارهم، وما خلفوه من مآثرهم[3] » ، إذ أنه كان أديبا يسجل مشاهداته ، وما يدل على مواطن الحسنات والسيئات في عامة من تألف منهم مجتمعه .

وبالمثل لم يكن كاتبا سياسيا ، وان كانت طائفة من كتاباته وضعت لتحقيق أغراض سياسية بعينها ، نجده فيها أقرب مايكون إلى صفة « الكاتب شبه الرسمي المكلف بإذاعة ونشر أو تفسير إرادات حكومية ، أو تبسيط أفكار دينية ، أو الدفاع في بعض الأحوال عن رجال السلطة من العباسيين ، وعن دين الدولة وهو الاسلام ، وعن العنصر العربي[4] ، وهو في هذ ينهج نهجا نراه الآن عند بعض الصحفين والكتاب السياسيين المعاصرين يصدرون عن اتجاهات رسمية

---

(١) Arabitc Literature, Gibbe , P. 76 .

(٢) المصدر السابق : ص ٧٧

(٣) « أمراء البيان » : كرد على ، ٢/٤٠٤ — ٤٠٥

(٤) « بيئة البصرة في عصر الجاحظ » : شارل بيلا ، ص ٣٣٤

بذاتها ، ومن ثم فان كتاباته - من هذه الوجهة - تعد محاولة لشرح مواقف وقضايا بذاتها، وهو يصرح بأن ما يحكيه في كتاباته عن أصحاب المذاهب المتباينة لا يعد موافقة منه على آرائهم ، وإلا فإنه إذا حكى قول العثمانية فإنه يكون من أنصارها ، وكذلك إذا حكى قول الرافضة صار من المتشيعين يقول: «وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية ، وأنت تسمعني أقول في أول كتابي . - وقالت العثمانية والضرارية ، كما سمعتني أقول . قالت الرافضة والزيدية فحكمت على بالنصب لحكايتي قول العثمانية ، فهلا حكمت على بالتشيع لحكايتي قول الرافضة وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتي حجج الغالية . كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة »(١) .

وقد نضيف إلى ما سبق أن ما تحت أيدينا من آثاره لذريسير بحق ، ومن ثم نستطيع أن نفهم تلك الهنات التي حاول البعض من معاصريه ، أو ممن جاء بعد عصره من كتاب ، أن يلحقها بهذا الكاتب القدير ، إذ أن بعض هذه الهنات جاء نتيجة معارضة البعض لمذهبه العقلي ، فقد كان إماما من أئمة المعتزلة « ويعد من الطبقة السابقة فيها »(٢) وألف كتبا كثيرة في الاعتزال ضاعت كلها أو معظمها ، أو عُمِل على ضياعها بمعرفة فريق من المعارضين له ولها ، وكان منها كتابة « فضيلة المعتزلة »(٣) لم نعثر على أثر له ، وكتاب « خلق القرآن(٤) ، بقيت

---

(١) « الحيوان » : ١ / ١١

(٢) « مروج الذهب » للمسعودى ٤٠ / ١٩٦ - وأنظر « أمراء البيان » محمد كرد على ، ٢ / ٣٢٢

(٣) « الحيوان » ١٠ / ٥ ، ومعجم الأدباء » (ط . دار المأمون) ١٦/ ١٠٧

(٤) أنظر « المصدر السابق » ١٠ / ٤ ، ٩ - « وتاريخ الأدب العربى لكارل برو كلمان (الترجمة العربية) ٣ / ١١٤

منه صفحات مبتورة ، أشار الدكتور طه الحاجرى إلى أنها ألحقت بطريق الخطأ بكتابه « حجج النبوة »(١) .

وكان من أثر مذهبه ومنهجه العقلى أن صارت كتاباته مطبوعة بطابع عقلى مشفوع « بضروب من التحاسين العقلية ، وهى ليست تحاسين فنية فى أصلها إنما هى تحاسين منطقية وفلسفية »(٢) ، وذلك أنه كان يعتمد على العقل دون الحواس فى الحكم على الأمور ، فالعقل عنده هو الحجة »(٣) وحتى قيل فى نعت كتاباته أنها : « تعلم العقل أولها والأدب ثانيا» وكان من شأن هذا المنهج أن يسوقه إلى جدال مع أصحاب المذاهب المنحرفة التى ظهرت فى عصره فأطال فى حجاج الزنادقة(٥) والمجوسين(٦) ، وأنكر الأوهام الشائعة عند العامة من مثل أن يكون عند الجن والشياطين شىء من علم الغيب(٧)، وإنكاره لإمكان رؤيتهم أو سماع صوتهم(٨) ، وتهكم بخرافة الحوت الذى يحمل الأرض(٩) ، ومن قول

(١) أنظر « الجاحظ ، حياته وآثاره » . د . طه الحاجرى ص ٣٣٤ - وانظر مخطوط « مختارات فصول الجاحظ » مصورة عن الأصل بالمتحف البريطانى ورقة ١٢١ — ١٢٩ — وأنظره هامش الكامل للمبرد ٦ / ١١٧ ما بعدها ورسائل الجاحظ (نشر السندوبى) ص ١٤٧-١٥٤

(٢) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » . د . شوقى ضيف ، ص ١٧٢ .

(٣) « الحيوان » : ١ / ٢٠٧

(٤) هذا الرأى لابن العميد ، أنظر (وفيات الأعيان) لابن خلكان . ١/ ٣٨٩ ومعجم الأدباء » . ٣ / ١٤٢ ، ١٦ / ١٠٣

(٥) « الحيوان » . ٤ / ٤٤٧

(٦) المصدر السابق . ٥ / ٩٨

(٧) المصدر السابق . ٤ / ٩٢

(٨) نفس المصدر السابق ٦ / ٤٨

(٩) نفس المصدر . ٧ / ١٠٩ و ١١٠

بعض المفسرين أن السنور خلق من عطسة الأسد ، وإن الخنزير خلق من سلحة الفيل[1] ويلوم من لا يعنون بصحة مقدماتهم وصدقها فيما يعرضون من أدلة[2]، وامتاز من كتاب عصره باستخدام المنطق استخداما واسعا فى تضاعيف أسلوبه ، فهو دائما يعرض أفكاره فى صورة حجاج يقوم على براهين وأدلة ومقدمات وأقيسة[3] ، وهو يعد بحق « أهم كاتب فى العصر العباسى الأول حكم المنطق فى كل ما يصنع »[4] . ومن هذه الصفة كان يخاصم الفرق والمذاهب ممن ينكرون منزلة العقل فى الحكم على الأمور ، وممن تعرضوا لنقده ، ونذكر من هؤلاء على سبيل المثال خصومته مع رجال الحديث الذين رماهم - صراحة - بالقصور ووصفهم بأنهم جماعون لا يعملون عقولهم فيما يرون[5] ، أيضا نذكر خصومته مع المفسرين الذين لم يسلموا من نقده[6] . وكان طبيعيا أن يكون عرضه لنقد الكثيرين ومن بينهم أهل السنة وكتابها ، من مثل « ابن قتيبة » . فى كتابه « تأويل مختلف الأحاديث[7] ، ومثل هذه الخصومة لا تنال حقا من مكانته فى شىء ، بل أن خصومه لم يملكوا سوى الاعتراف بجلال قدره ، وإن شئت أنظر إلى رأى المسعودى ، يقول فى وصف كتب الجاحظ إنها : -

---

(1) « الحيوان » . ٥ / ٣٤٧

(2) نفس المصدر . ٣ / ٣٧٩

(3) « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » د . شوقى ضيف ، ص ١٧٣ .

(4) المصدر السابق . ص ١٧٤

(5) « الحيوان » ١ : ١٦٦ - و « رسائل الجاحظ »
(نشر السندوبى) ص ١١٧

(6) المصدر السابق . ٤ / ٤٠ ، ٥ / ٣٤٧ ، ٦ / ٢١١ حيث ناقش الكثير من أقوال المفسرين .

(7) « ضحى الاسلام » . الأستاذ أحمد أمين ، ١ / ٤٢٥

« تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ »(١) ، وحسبك أن كتبه ورسائله ذاع صيتها ، وطارت سمعتها فى الآفاق ، حتى قيل لأبى هفان - وهو من معاصريه - وقد طال ذكر الجاحظ له . « ولم لاتهجو الجاحظ وقد ندد بك ؟ فقال . أمثلى يخدع عن عقله ، والله لو وضع رسالة فى أرنبة أنفى لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طن منها بيت فى ألف سنة»(٢). ولهج الكتاب ، والأدباء فى وصف كتبه ليقولون حتى: «إن كتبه رياض زاهرة ورسائل مثمرة »(٣) .

---

(١) « مروج الذهب للمسعودى » . ٤ / ٤٧ .

(٢) « معجم الأدباء » : ١٦ / ٩٩ .

(٣) المصدر السابق . ١٦ / ٩٨ .

الباب الأول

طبقات المجتمع العباسى



الباب الأول

طبقات المجتمع العباسى

الفصل الأول . التقسيم الطبقى للمجتمع

الفصل الثانى . الطبقة العليا .

١ — نشأة الطبقة العليا

٢ — الخلفاء

٣ — الأمراء والقادة ، والولاة ، والقواد .

٤ — الوزاره

الفصل الثالث . — الطبقة الوسطى .

١ — نشأة الطبقة الوسطى فى المجتمع العباسى

٢ — التجار

٣ — الشعراء

٤ — القضاء

٥ — كتاب الدواوين

٦ — المغنون

الفصل الرابع . — الطبقة الدنيا .

١ — عامة الشعب

٢ — أهل الذمة

٣ — الرقيق

الباب الأول

طبقات المجتمع العباسى

الفصل الأول

« التقسيم الطبقى للمجتمع العباسى »

١ — ثلاث طبقات اجتماعية :—

لا شك أننا نجد الأفراد فى كل مجتمع إنسانى ، يسيرون فى مختلف شئون حياتهم ، وفق أساليب خاصة وقواعد وأوضاع ، رسمها وصاغها لهم المجتمع ، فلا يحيدون عنها ، وذلك يؤكد ضرورة وجود درجة معينة من الأطراد والاتساق فى الحياة الاجتماعية ، فالناس يعرفون نوع السلوك الذى يرتقبه الآخرون منهم وكذلك نوع التصرفات التى يتوقعونها هم أنفسهم من الاخرين فى مختلف مواقف الحياة الاجتماعية وهم ينظمون نشاطهم تبعا لقواعد مرسومة وحسب قيم معينة متعارف عليها ، ومن ثم كان « لكل مجتمع صورة أو نمط يسمح لنا بأن نتكلم عنه على أنه نسق أو بناء يعيش فيه أفراده ، وينزلون على مستلزماته . واستخدام كلمة (بناء) بهذا المعنى يتضمن وجود نوع من التماسك والتوافق بين أجزاء المجتمع على أى حال إلى الحد الذى يمكن معه تجنب التناقض الصارخ أو الصراع المكشوف بحيث يتمتع بدرجة من البقاء أكبر عما تحظى به معظم الأشياء العابرة

الصريمة فى الحياة الإنسانية[1] .

والحق أن هذا القول ، لا يعد فى الواقع تعريفاً استقر الرأى عليه ، بالنسبة لمفهوم « البناء الإجتماعى » ، ذلك أن العلماء لم يتفقوا حتى ، على تعريف واحد « للبناء الإجتماعى Social Structure يقول ردفيلد Redfield : « ليس هناك أجماع بين العلماء على إستخدام ذلك الاصطلاح بمعنى واحد بالذات والحق أنه يبدو أنهم يستخدمون لا فكرة واحدة وإنما عدة أفكار وتصورات مختلفة وإن يكن بينها قدر مشترك لتقييد خصائص المجتمعات الصغيرة وتحليلها[2] » .

وعلى ذلك فاننا حين ننظر إلى البناء الاجتماعى المجتمع العباسى نجد أنفسنا ملزمين بملاحظة أن هذا البناء غير منفصل عما سبقه من مجتمعات ، لكنه ليس بالضرورة ، على شاكلتها من حيث تفاصيل وحداته وعناصره وطبقاته .

ومعروف أنه حين انتقلت الخلافة من أيدى الأمويين إلى أيدى العباسيين وانتقلوا بعاصمتها من دمشق إلى بغداد التى ابتنوها لهذا الغرض ، فان ذلك كله لم بقوة السلاح ،مما كان له أثره فى تحول المجتمع العربى بما احتوى من مركز حضارى إلى مركز حضارى جديد بعيد عن شبه الجزيرة العربية وعن الشام ، وما تبع ذلك من آثار فى البلاد التى دخلت فى الإسلام .

ومن المحقق أن هذا التحول السياسى تبعه تغير فى البناء الاجتماعى للمجتمع ،

---

(١) أنظر « الأنثروبولوجيا الاجتماعية » : تأليف أيفانز بريتشارد ، ترجمة د. أحمد أبوزيد (ط . منشأة المعارف بالاسكندريه عام ١٩٦٠م) : ص ٨٤ .

(٢) أنظر The Little Community, Redfield, R., Chicago 1956, P. 111

نستطيع أن نصفه بأنه على شاكلة التغير الاجتماعي الذي تحدثه الانقلابات أو الثورات والحروب والازمات ، وما يتبعها من مظاهر اضطرابات داخليه ومن ثم رأينا الطبقات الاجتماعية تتهيأ لها ظروف ظهورها ونموها بشكل تختلف عما كانت عليه فى المجتمعات السابقة للمجتمع العباسى ، ذلك أن التغير السياسى أعقبه تغير اجتماعى فى تقسيم الطبقات الاجتماعية التى يتألف منها المجتمع وترتيب منازل فئاته ، تبعا لتغير الوظائف الاجتماعية التى تؤديها الفئات والطوائف والطبقات .

ونستطيع أن نميز فى المجتمع العباسى ثلاث طبقات اجتماعية هى : — الطبقة العليا ، والطبقة الوسطى ، وطبقة العامة ، وهذا التقسيم الطبقى للمجتمع العباسى يقدمه لنا الجاحظ فى صورة مقررة لاخلاف عليها بين أفراد المجتمع أنفسهم ، حتى إن أحد الامراء أوصى حاجبه بمراعاة من يحجب لديه ، بمثل قوله : — « إن اجتمع الاعلون والاوسطون والادنون فدعوت بواحد منهم دون من يعلوه فى القدر ، لامر لابد من الدعاء به له ، فأظهر العذر فى ذلك لئلا تخبث نفس من علاه ، فان الناس يتغالبون لمثل ذلك عليهم سوء الظنون »(١) .

٢ — التقسيم الطبقى فى المجتمعين الساسانى والرومانى : —

والملاحظ أن هذا التقسيم الطبقى للمجتمع العباسى يختلف عن التقسيم الطبقى فى كل من المجتمعين الساسانى والرومانى ، أما المجتمع الساسانى فان الخلاف بينه وبين المجتمع العباسى يظهر فى أمرين : — الاول توزيع أفراد المجتمع على

---

(١) كتاب الحجاب : رسائل الجاحظ ، تحقيق الاستاذ عبدالسلام هارون ٢/٣٥

طبقات بعينها ، والثانى الحدود الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية فى كل من المجتمعين .

وفيما يخص الأمر الأول فإنه كان هناك تقسيم ادارى للمجتمع الساسانى يضع أفراده فى إطار تقسيم طبقى محدود ، ويجعلهم على ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين (آثروان Athravan ، وطبقة رجال الحرب « راثشتر Rathaestar » وطبقة الزراع (واستريوفشويانت Vastryofosouyant) وهذا تقسيم إدارى يسمو إلى الزمن الغابر (١) ، وقد يسلك مع هذه الطبقات الثلاث طبقة رابعة هى طبقة الصناع (هوبتى Huito) (٢) ، غير أن هذا التقسيم الادارى يختلف عن التقسيم الاجتماعى لهيكل البناء الاجتماعى للمجتمع الساسانى والذى يعد أحدث تاريخا فى نشأته من التقسيم الادارى ، حيث أصبحنا أمام أربع طبقات اجتماعية محددة تكون فيه طائفة كتاب الدواوين طبقة اجتماعية مستقلة هى الطبقة الثالثة فى المجتمع ، بينما تنضم فئتا ، الزراع والفلاحين لتكونا طبقة واحدة فى قاع المجتمع ، وفى ذلك يقول كريستنسن : ـــ « ونجد فى أيام الساسانيين تقسيما جديدا إلى أربع طبقات ، فقد أصبح الكتاب (ديوبران ، دبيران) الطبقة الثالثة . وكون الصناع والزراع الطبقة الرابعة . وهكذا كان التقسيم الاجتماعى متمشيا مع الوضع السياسى ، فكان هناك الطبقات الأربع الآتية : ـــ

طبقة رجال الدين آثروان ، وطبقة رجال الحرب (أرتشتاران) ، وطبقة الكتاب ، كتاب الدواوين (دبيران) وطبقة الشعب « الفلاحين » (وشتريوشان)

---

(١) « إيران فى عهد الساسانيين » تأليف كريستنسن ، ترجمة د. يحى الخشاب ط . الدار القومية للترجمة والنشر ، القاهرة عام ١٩٥٧م ، ص ٨٥

(٢) إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٨٥

والصناع (هوتخشان(١)) والملاحظة أن هذا التقسيم الطبقى يجعل على رأس المجتمع طبقة أجتماعية لم يعرفها المجتمع العباسى ونعنى بها طبقة رجال الدين، لكننا نستطيع أن نجعل الطبقة الثالثة من المجتمع الساسانى جزءا من الطبقة الوسطى فى المجتمع العباسى، أما الطبقة الرابعة فهى تكون ركنا أساسيا من أركان الطبقه الدنيا فى المجتمع العباسى .

وأما من حيث الحدود الفاصلة بين الطبقات فى المجتمع الساسانى فانه لما كان هذا المجتمع قائما على عمادين أساسيين هما : — النسب والملكية(٢)، حتى إن القوانين «كانت تصون شرف النسب فى الأسرات كما تحفظ أملاكهم الثابتة(٣)»

فاننا أصبحنا امام ظاهرة إجتماعية راسخة فى هذا المجتمع قوامها التمييز الواضح بين أفراد الطبقات الاجتماعية فى المركب والملبس، والمسكن، والبستان، والنساء، والخدم فقد «ميز الأشراف عن المحترفة والمهنة باللباس» والمركب، والزينة كما ميزت أزواجهم بثياب الحرير، والقصور العظيمة والسراويل وغطاء الرأس، والصيد وبكل مزايا الأشراف، وكان رجال الحرب يتمتعون بدرجة أعلى من تلك الجماعات كلها(٤) .

---

(١) «إيران فى عهد الساسانيين» كريستنسن . ترجمة د . يحى الخشاب ص٨٥

(٢) «إيران فى عهد الساسانيين» : — كريستنسن، ترجمة د يحى الخشاب، ص ٣٠٢ .

(٣) المصدر السابق : ص٣٠٣ .

(٤) «إيران فى عهد الساسانيين» ص٣٠٢ .

ولم تكتف النظم الإجتماعية بهذا التمييز بين أفراد المجتمع ، إنما وضعت حدوداً صارمة أمام الأفراد فكان لكل فرد مرتبته الإجتماعية ، ومكانة المحدد فى الجماعة ، وبلغ من دقة هذا التحديد أن « كان من القواعد السياسية الساسانية المحكمة ألا يطمع أحد فى مرتبة أعلى من المرتبة التى يخولها له مولده[1] » وغلفوا هذا التحديد لدور الفرد فى المجتمع وحرمانه من حقه الطبيعى فى الارتقاء الإجتماعى إلى الطبقة الأعلى بغلاف دينى مقدس فكان « لكل فرد مكانه المحدد ، وحرم على الواحد منهم أن يشتغل بغير الصناعة التى (خلقه الله لها)[2] » ، ولكن هذه القاعدة الاجتماعية كانت عرضة للتجاوز ، ومن ثم فإنهم مع إيمانهم بأن الانتقال من طبقة إلى أخرى أعلى منها كان محظورا ، بوجه عام ، كان حين يقع ما يجعلهم يفعلون ما يشذ عن هذه القاعدة كأن يظهر أحد العامة موهبة خاصة فانهم فى تلك الحالة يسلكون سبيلا شاقا ، يقول كريستنسن : « فى تلك الحالة يرفع الامر إلى الملك وبعد أختبار الموابذة والهرابذه إياه (الفرد الذى ينتقل من طبقة إلى أخرى أعلى) ، وطول مشاهدتهم له ، فاذا رأوه مستحقا أمر الملك بالحاقة بغير طبقته . فاذا كان يمتاز بالتقوى المحققة فانه يدخل فى سلك رجال الدين ، وإذا كان موهوبا بالقوة والجسارة الحق بطبقة رجال الحرب ، وإن أمتاز بالذكاء وكانت له ذاكرة قوية ألحق بالكتاب . وعلى كل حال كان هذا الترقى إلى طبقة أعلى محاطا بحدود قوية . وكذلك لم يكن رفع العوام إلى طبقة النبلاء ممنوعا ، فقد كان للملك فى هذه الترقية وسيلة لادخال دم جديدة فى دماء

---

(١) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٢) «إيران فى عهد الساسانيين » كريستنسن ، ترجمة د . يحيى الخشاب ص ٣٠٥ .

النبلاء ، ولكن هذا الحادث كان نادرا جدا(١) » .

ومن المحقق أن هذه الحدود الفاصلة بين أفراد المجتمع الساساني ، لم تكن ظاهرة في المجتمع العباسي ولم يكن عند العباسيين ذلك التحديد الصارم للوظيفة الاجتماعية للفرد، بحيث لم يكن من حقه أن يجاوز حدود مرتبته الاجتماعية ويسمو إلى مرتبة إجتماعية أعلى ، ونستطيع القول بأطمئنان أن الامتزاج بين الطبقات الاجتماعية في المجتمع العباسي يكاد يكون من الأمور المقررة ، وكان لتقرير مبدأ المساواة بين المسلمين أثره في هذا الامتزاج . وقد أفاد الموالي من سلالة الساسانيين من هذه المساواة في المجتمع العباسي حتى إننا رأينا منهم الوزراء ، والقادة ، والولاة ، ولم يكن أي منهم يحتاج إلى ما يشبه «التفويض الالهي» ليجيز له الارتقاء إلى أعلى المراتب الاجتماعية ، أو أن يعاني ما كان يعاني في المجتمع الساساني من أجل تحقق هذه الغاية .

أما المجتمع الروماني فانه مر بأربعة أنماط من التقسيم الطبقي ، تبعا للظروف السياسية والحالة الاجتماعية بهذا المجتمع ، ففي عصر الملكية (٧٥٤ ق . م — ٥١٠ ق . م) لوحظ أن المجتمع أنقسم إلى طبقتين متميزتين من حيث الانتماء إلى جنس معين من الأجناس المكونة للمجتمع ، وهما : — طبقة الأشراف ، وطبقة العامة(٢) .

وكانت الفروق حادة بين الطبقتين ، فالأشراف وحدهم كانوا يتمتعون بكل حقوق المواطن في المدينة ، وهم دون غيرهم أصحاب حق تملك الاراضي.

---

(١) « إيران في عهد الساسانيين ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٢) « القانون الروماني » : — تأليف د. محمود سلام زناتي (ط القاهرة ١٩٦٤م) ص١٤ .

وعلى الرغم من ذلك فإن المجتمع أعترف للعامة ببعض الحقوق في التعامل والالتجاء إلى القضاء، وكان الملوك يوزعون عليهم بعض الأراضي العامة.

Ager Publicns ويظهر أنه أعترف لهم بحق المساهمة في نشاط المجلس الشعبي وإن كان ذلك لا ينفي أنهم ظلوا خلال العصر الملكي «في مراكز أدنى بكثير من مركز الأشراف سواء من الناحية الاقتصادية أم بالنسبة للحقوق السياسية والمدنية[1]».

وفي عصر الجمهورية (٥١٠ق.م — ٢٧م) أختفى التقسيم الجنسي لأفراد المجمع الروماني وتوزيعهم على طبقتين، وحل محله تقسيم طبقي جديد يقوم على أساس تفاوت الثروة، فاذا بنا أمام طبقتين متميزتين، من حيث الثروة، الأولى: الطبقة الأستقراطية، وهي الطبقة الحاكمة الحديثة ويسلك فيها كبار الملاك الزراعيين «المنتمين إلى طبقة الأشراف القديمة، وكبار أصحاب الأموال من التجار ومتعهدي النقل البحري وأصحاب البنوك، والصيارفة، وملتزمي الجمارك والضرائب من طبقة العامة»[2]. وهكذا أرتقت بعض فئات من طبقة العامة في المجتمع السابق بفضل ما تحقق لها من ثراء رفعها إلى الطبقة الارستقراطية في المجتمع الجديد مع الفئات ذات الثروة والنفوذ ومكن ذلك لافراد هذه الطبقة «أحتكار المناصب العامة وعضوية مجلس الشيوخ وأحتفظوا فيما بينهم، بمعظم الأراضي المستولى عليها من البلاد المفتوحة»[3]. وكان في

---

(١) «القانون الروماني» تأليف د. محمود سلام زناتي (ط، القاهرة ١٩٦٤م ص٢٥).

(٢) المصدر السابق. ص٢٧.

(١) «القانون الروماني». — د. محمود سلام زناتي ص٢٨.

مقابل هذه الطبقة ، طبقة (البروليتاريا) ، وتضم «صغار الملاك السابقين الذين هجروا الريف لعدم رغبتهم فى العودة إلى مزاولة الزراعة بعد انقطاعهم عنها مدة طويله ، وأولئك الذين أضطروا إلى بيع أملاكهم بسبب عجزهم عن مواجهة تغيير نوع الاستغلال الزراعى»[1] .

وطرأ تغير جديد على هذا التقسيم الاجتماعى للمجتمع الرومانى بانتقاله إلى عصر الامبراطورية العليا (٢٧ق ٠ م — ٢٨٤ م) ، إذا اختفت الطبقة « الارستقراطية القديمة وحلت علها طبقة« أروستقراطية »جديدة قوامها كبار موظفى الامبراطور وأكثرهم من المثقفين ، ومن كبار التجار ، ومن بينهم عدد كبيرمن تجار الأقاليم ، وهى طبقة « تدين بالولاء والاخلاص للامبراطور والنظام السياسى الجديد[2] » . وكان من تحت هذه الطبقة العليا ثلاث طبقات : — الأولى طبقة الجيش ، والثانية طبقة الفلاحين ، وأصحاب الحرف ، والثالثة طبقة «البروليتاريا » وهى «طبقة بائسة يعيش أفرادها فى مدينة روما فى حالة بطاله دائمة ، وتعتمد على الاحسان العام من جانب الدولة التى كانت توزع عليهم القمح ثم النبيذ والملح واللحوم[3] » .

وما لبث أن تغير هذا التقسيم الطبقى فى المجتمع الرومانى « خلال عصر الامبراطورية السفلى (٢٨٤م — ٥٦٥م) ، وأصبحنا أمام » ظاهرة توارث

---

(١) « القانون الرومانى : د. محمود سلام زناتى ، ص٢٨ .
(٢) المصدر السابق : — ص٤١ .
(٣) « القانون الرومانى » ص ٥١ .

الطبقات الاجتماعية فى المجتمع ، بمعنى أنه لم يعد من الممكن للفرد الانتقال من طبقة إلى أخرى بل « كان أفراد كل طبقة يرثون حالتهم الاجتماعية أبا عن جد »(١) وذلك من مثل ماشاهدنا فى المجتمع الساسانى ، وهو مالم يعترف به المجتمع العباسى . وقد تشعب المجتمع الرومانى فى هذا العصر إلى أربع طبقات مميزة — الأولى الطبقة الأرستقراطية وتتكون من كبار الموظفين وكبار الملاك الزراعيين وقدضم إليهم فيما بعد كبار رجال الدين(٢) وكانت هذه الطبقة تحتكر الثروة العقارية بمالها من امتيازات مالية وقضائية خصت بها(٣) والثانية . — الطبقة الوسطى وتضم عددا من أعيان المدن فانه كان يختار من بينهم حكام البلديات ، وهم موظفون مرتبطون بوظائفهم وليس فى وسعهم التخلى عن هذه الوظائف(٤) ، والثالثة : — طبقة العامة ، وتضم أصحاب الحرف فى المدن ، وكانوا مندرجين فى نقابات ، تضم الزراع فى الريف ، وكان أفرادها محرومين من كل أمل فى تحسين مركزهم الاجتماعى ، حيث أنه « لم يكن من حقهم تولى الوظائف »(٥) وتأتى فى قاع المجتمع الطبقة الرابعة : — وهى طبقة الجيش ، ويتكون من أشخاص يلتزم الملاك الزراعيون بتقديمهم ، كما يضم عددا كبيرا

---

(١) المصدر السابق . — نفس الصفحة .

(٢) المصدر السابق . ص٥٢ .

(٣) « القانون الرومانى » . ص٥٢ .

(٤) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٥) المصدر السابق ونفس الصفحة .

من الشعوب المتأخرة على الأخص من الجرمان . ولم يعد الجنود يتناولون مرتبات نقدية بل حلت محلها جرايات عينيه وأقطاعات صغيرة من الأرض (٢) .

ومن الحق أن المجتمع العباسى قد اختلف عن المجتمع الرومانى فى اطواره الاربعة سواء من حيث التقسيم الطبقى ، أو من حيث حقوق الافراد فى المجتمع، خاصة أولئك الذين كانوا فى أدنى المراتب الاجتماعية إذ لم يضع المجتمع العباسى أمام طموحهم الحدود الصارمة التى رأيناها فى المجتمع الرومانى ، وفى المجتمع الساسانى ، إذ كانت هذه الحقوق مصونه بتعاليم الدين الحنيف الذى يبغض الفرقة بين المسلمين ، خاصة أن حكام الدولة العباسية الجديدة أقاموا دولتهم مستمدين قوتهم من أولئك الذين ظلموا من الحكام الأمويين السابقين بسبب الاضطهاد الجنسى والتعصب الشديد للعنصر العربى ، وكأننا أصبحنا أمام قوة جديدة تشد من أزر أولئك الذين كانوا فى قاع المجتمع سواء فى ظل الحكم الساسانى القديم ليسلكوا طريقهم إلى أعلى المراتب الاجتماعيه فى المجتمع الجديد الذى ساهموا فى قيامه بقسط وافر من العرق والدم ، فلم يكن مقبولا من هؤلاء دينيا ونفسياً أن يظلوا محصورين داخل الحدود « الفولاذية » الطبقية ، ومن ثم حين سقطت عنهم هذه الحدود إذا بهم ينخرطون فى كل طبقات المجتمع الجديد ، ومنهم من تولى الوزارة ، وقيادة الجيوش ، وولاية البلدان ، وكثير منهم احتكر مهنا بعينها من مثل كتاب الدواوين كما سنرى بعد قليل .

٣ — العوامل المؤثرة فى تكوين طبقات المجتمع العباسى : —

يصعب على الباحث أن يوزع فئات المجتمع العباسى ، شأن أى مجتمع على طبقاته الإجتماعية ، ذلك أن تكوين الطبقة الاجتماعية يقوم على عدة عوامل متباينة ، « تحملها على درجة كبيرة من التعقيد ، تغدو أمامها الحقائق التى تعرف

---

(١) « القانون الرومانى » د . محمود سلام زناتى ، ص٥٢ .

بها طبقة اجتماعية ما ، مختلفة من حيث طبيعتها أشد الاختلاف ، بالاضافة إلى أنها تتفاوت تفاوتا كبيرا من حيث أهميتها[1] ، وعلى الرغم من ذلك فاننا نستطيع الوقوف على جملة من — العوامل المؤثرة فى تكوين طبقات هـذا المجتمع هى : —

(أ) العامل المـادى : —

نستطيع أن نضع فى مقدمة العوامل التى تؤثر فى التقسيم الطبقى للمجتمع العامل المـادى ، ونعنى الثروة التى يمتلكها الفرد ، وقد أشار الجاحظ إلى هـذا العامل ، فى كتاباته ، وبين أهميته فى تحديد نوع الطبقة الاجتماعية للشخص ، ذلك أنه لاحظ أن أصحاب الحرف السفلى لم يستطيعوا أبدا أن يثروا الثراء اللازم الذى يرفع من منزلتهم الاجتماعية يقول : — « ولم أر سقاء فقط بلغ حال اليسار والثروة ، وكذلك ضراب اللبن ، والطيان والحراث ، وكذلك ماصغر من التجارات والصناعات ، ألا ترون أن الأموال كثيرا ما تكون عند الكتاب ، وعند أصحاب الجوهر ، وعند أصحاب الوشى والأنماط ، وعند الصيارفة والحناط ، وعند البحريين والبصريين ، والجلاب أبدا ، والبيازرة أيسر ممن يبتاع منهم[2] » ، ومن المحقق أن التقدير الاجتماعى الذى يقوم على الثروة قد اتضح فى المجتمع العباسى ، لاسيما فى المراكز التجارية كالبصرة والأبلة ، ويؤكد لنا الجاحظ هذه الحقيقة فى كتاباته إذ يقول : — « سمعت شيخا من مشايخ الأبلة يزعم أن فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبلة . فقلت : — بأى

---

(١) أنظر « طبقات المجتمع » : — أندريه جوسان ، ترجمة د . السيد محمد بدوى العدد ١٠٥ من سلسلة الألف كتاب ، ص ١٧ .

(٢) « الحيوان » : ٤/٣٣٤

شيء فضلتهم ، قال : — هم أشد تعظيما للأغنياء وأعرف بالواجب[1] » ، وانظر إلى حادثة أخرى يرويها الجاحظ لتستدل على أثر الثروة فى تحديد المرتبة الاجتماعية للفرد ومايتبع ذلك من تعظيم الناس له ، ولاحساسهم بقيمة المرتبة الاجتماعية التى تسببها ثروته ، وان ذلك كان أمرا واقعا يؤمن به أفراد المجتمع وينعكس أثره على أحوالهم العادية يقول : — « وقع بين رجلين أباين كلام فأسمع أحدهما صاحبه ، كلاما غليظا ، فرد عليه بمثل كلامه، فرأيتهم قد أنكروا ذلك انكارا شديدا ، ولم أر لذلك سببا . فقلت : لم — أنكرتم أن يقول له مثل ماقال ؟ . . . قالوا : — لأنه أكثر منه مالا ، وإذا جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا ، ففى هذا الفساد كله[2] » .

(ب) المهنة : —

وبالمثل فاننا نستطيع أن نضع بين العوامل التى تؤثر فى تحديد نوع الطبقة التى ينتمى إليها الفرد ، عامل المهنة ، وأن كانت المهنة وحدها ـ فى الواقع ـ لا تحدد الطبقة التى ينتمى اليها الفرد فى مجتمعه ، إذ أن الطبقة سابقة على المهنة ، فالانسان يولد فى طبقة معينة على حين أنه يختار مهنته فيما بعد ، أضف إلى ذلك أن الطبقة كثيرا ما تؤثر فى اختيار المهنة ، فهناك مهن يقتصر فى ممارستها على التوارث، وقد أشار علماء الاجتماع إلى أهمية عامل المهنة فى تحديد المرتبة الاجتماعية للفرد وفى ذلك يقول لاندمان Landtman : — « مع تقسيم العمل تتعين درجات متفاوتة من المراتب الاجتماعية للجماعات المختلفة من العاملين ، فتكون قيمة حرفة ما أعلى من غيرها ، ونتيجة لذلك يتمتع من يمارس تلك الحرفة باهتمام كبير[3] » وإلى مثل

---

(١) « البخلاء » : تحقيق د . طه الحاجرى ، ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة

(٣) أنظر The origin of Inqualiity Social Clases . Landtmau, London, 1938, P. 81.

هذا المعنى يشير الجاحظ فى كتاباته، مبينا أثر الطباع التى أوجدها الله فى النفوس وأهميتها فى المهنة التى يتخذها الفرد دون الأخرى، مما يؤثر — دون شك — على مكانته الاجتماعية فى المجتمع، يقول: ـ « فالذى حبب لهذا أن يرصد عير حمار أو ورشان أو حية، أو ضب، هو الذى حبب إلى الاخر أن يكون صيادا للأفاعى والحيات يتتبعها ويطلبها فى كل واد، وموضع، وجبل للترياقات. وسخر هذا ليكون سائس الأسد والفهود، والنمور، والببور، وترك من تلقاء نفسه أن يكون راعى غنم!. فأما الصناعات فقد تقصر الأسباب بعض الناس على أن يصير حائكا، وتقصر بعضهم على أن يكون صيرفيا، فهى وأن قصرته على الحياكة. فلم تقصره على خلف المواعيد، وعلى إبدال الغزول، وعلى تشقيق العمل دون الإحكام، والصدق، وأداء الأمانة، ولم تقصر الصيرفى على التطفيف فى الوزن والتغليط فى الحساب، وعلى دس المموه، تعالى الله عز وجل عن ذلك علوا كبيرا»(١).

ثم أنظر إليه فى موضع آخر يفصل القول فى أثر الطباع فى الدور الاجتماعى الذى يؤديه الفرد فى مجتمعه، وأن حدود الزمن لا وجود لها فى تحريك الطباع لدى الإنسان، إذ قد يتحول الفرد من مهنة إلى أخرى وهو فى سن الكهولة، يقول: — « وصار طلب الحساب أخف على بعضهم، وطلب الطب أحب إلى بعضهم وكذلك النزاع إلى الهندسة، وشغف أهل النجوم بالنجوم. وكذلك أيضا بما تحرك له بعد الكبرة، وصرف رغبته إليه بعد الكهولة على قدر قوة العرق فى بدنه وعلى قدر الشواغل وما يعترض عليه، فنجد واحدا يلهج بطلب الغناء واللحون

---

(١) « الحيوان » : —١/١٤١/—١٤٢ —وأنظر مثل هذا المعنى فى رسالته « حجج النبوة » هامش الكامل للمبرد ٢/٢٣—٢٤.

وآخر يلهج بشهوة القتال ، حتى يكتتب مع الجند، وآخر يختار أن يكون وراقاً وآخر يختار طلب الملك»(١) . ونراه يؤمن بأن هناك من يحذ عن هذه القاعدة وهو يرى ذلك من عجيب الأمور ، وأنه وجد الفشل يصيب أصحاب المهن التي تخالف طباعهم ، أنظر إليه يقول متعجبا « ولكن العجب ممن يموت مغنيا وهو لا طبع له في معرفة الوزن ، وليس له جرم حسن ، فيكون أن فاته أن يكون معلما ومغنى خاصة أن يكون مطربا ومغنى عامة»(٢) .

وقد ترفع المهنة صاحبها ، ولعل من خير ما يمثل لنا ذلك أصدق تمثيل فئة الكتاب ، كان من ينبغ منهم في مهنته وعمله يرقى إلى أعلى المراتب الاجتماعية حتى كان منهم الوزراء ورؤساء الدواوين ، فمحمد بن عبد الملك الزيات بهره العمل في الدواوين ورغب عن مهنة أبيه وهي التجارة(٣) ، إذ نشأ يحب الادب فأقبل ينهل منه ، كما ينهل من علوم اللغة ، ومن ينابيع الآداب الاجنبية الشائعة في عصره ، حتى شدا الشعر ونبغ فيه كما نبغ في النثر(١٨) ، وكان طموحا في غايته الادبية ، ومن ثم ظل يختلف إلى الدواوين يعمل فيها حتى ولى المعتصم مقاليد الخلافة فقربه منه ولم يلبث أن أستوزره ، فكان عمله في الدواوين وما يتطلبه من علم وأدب من بين أسباب استوزاره لأكثر من خليفة .

---

(١) الحيوان : ـ ٢٠٣/١

(٢) الحيوان : ـ ٢٠٣/١

(٣) أنظر « تاريخ الطبرى (ط . الاستقامة ، ١٩٣٩ م) ٢٣٤/٧ ، حيث ذكر أنه كان يتولى للمأمون عمل المشامس والفساطيط وآلة الجمازات .

(٤) العصر العباسي الأول : ـ د . شوقى ضيف (دار المعارف) ص٥٥٩

(ج) العامل الثقافى : —

ونستطيع أن نضيف إلى ما سبق عاملا ثقافياً تولد مما كان للعلم والثقافة من أثر فى الفرد وفى المجتمع ، إذا أنهما يرفعان من شأن صاحبهما ، حتى إنه كان يقال . « أربع خصال يسود بها المرء : — العلم ، والأدب ، والعفة ، والأمانة[1] » . وانظر إلى الأصمعى يشير إلى فضل العلم عليه ، وأنه رفع من قدره فى المجتمع ، يقول : — « وصلت بالعلم ، ونلت بالملح »[2] .

وحين يتحدث الجاحظ عن العامة فإنه كان ينبه إلى فرق ما بين عامة المثقفين وعامة الأجناس ، ويجعلنا أمام فئات تمتاز بثقافتها المتوسطة وتسمو فى مرتبتها الاجتماعية على فئات أخرى ، يقول . « وإذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين والحشوة ، والصناع ، والباعة ، ولست أعنى الأكراد فى الجبال وسكان الجزائر فى البحار »[3] ولعلنا من أجل هذا نلاحظ أن الطبقة الاجتماعية الواحدة تضم بين ثناياها فئات تتنوع أشد التنوع فهى قد تضم أناسا يمارسون مهنا مختلفة ، أو يتفاوتون من حيث درجة الثراء ، وبالمثل فاننا قد نجد أبناء طائفة بعينها ينتمون إلى طبقتين متباينتين ، ومن ثم فنحن لا ندهش حين نرى الجاحظ يفرق بين أفراد طائفة المعلمين — مثلا — فيجعل بعضهم فى طبقة اجتماعية أسمى من طبقة البعض الآخر ، إذ يسلكهم فى طبقتين : — خاصة

وعامة تبعا لأصناف من يتلقون العلم عليهم ، وتبعاً لقدر العلم الذى يلمون به يقول : — « والمعلمون عندى على ضربين : منهم رجال ارتفعوا عن

---

(١) « البيان والتبين » ٣ / ٢١٧ .
(٢) المصدر السابق : ١ / ١٩٩ .
(٣) « البيان والتبين » : — ١ / ٢٥٠ — ٢٥١ .

تعليم أولاد الخاصة ، إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة ، فكيف نستطيع أن نزعم أن مثل على بن حمزة الكسائى ، ومحمد بن المستنير الذى يقال له قطرب وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى ؟ ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التى دونهم . فإن ذهبوا إلى معلمى كتاتيب القرى فان لكل قوم حاشية وسفلة ، فما هم فى ذلك إلا كغيرهم(١) » .

والحق أننا سنجد مثل هذا واضحا جليا فى طوائف وفئات أخرى فى طبقات المجتمع العباسى ، فكل طبقة إجتماعية تخضع لحقيقة واضحة هى أن أفرادها « يتشابهون فيما بينهم فى نواح معينة كنوع الحياة ، أو الحرفة ، أو الثروة ، أو التعليم والثقافة ويختلفون عن غيرهم فى هذه النواحى نفسها داخل نطاق المجتمع الواحد . وكل طبقة تنشأ من تمايز تلقائى يحدث من ضغط الحاجات وتنوع أوجه النشاط فى المجتمع وتتأثر بالزمن الذى يعيش فيه أفراد المجتمع . وهذا التمايز أساسه تقسيم العمل الاجتماعى ، وتوزيع الثروة ، واختلاف العادات باختلاف ظروف المعيشة التى يعيشها الأفراد(٢) » وبداهة فإننا نستطيع أن نتوقع ذيوع صيت طائفة معينة فى المجتمع بشكل يرفعها إلى طبقة أعلى من الطبقة الاجتماعية التى يضعها فيها ، ذلك أن المهنة التى تؤديها هذه الطائفة تؤثر فى مكانتها الاجتماعية من خلال قيمة الخدمات التى تؤديها ، والعائد المادى الذى تحصل عليه من ممارستها ، والمظاهر الجمالية التى تولدها فى نفوس من يقدرونها ومن ثم فان شهرة اجتماعية معينة تتوقف على ما تؤديه من بريق ينجم عن ممارسة

---

(١) « البيان والتبيين » : — ١ / ٢٥٠ — ٢٥١ .
(٢) « طبقات المجتمع » : — ص ٣٠ .

هذه الوظائف ، رأينا ذلك واضحاً في طائفة العاملين ، وستراه في طائفة الجوارى وكذا الكتاب ، وبالمثل فانه سيكون واضحا في طوائف وفئات أكثر تحديدا ، كأن تختص أسرة بعينها بدور اجتماعي يرفعها إلى مرتبة إجتماعية أعلى من تلك التي تسلك فيها أقرانها من مثل صنيع أسرة البرامكة التي بدأ مجدها في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وبرز في عهد الخليفة المهدى ، ثم بلغت أوج شهرتها في عهد إبنه الخليفة الرشيد ، ثم انهار مجدها فجأة إذ نكبها الرشيد ونكل بها .

وبالمثل فإننا نجد ذلك واضحاً في دور كل عنصر من العناصر البشرية التي تكون منها المجتمع العباسي ، خاصة أنه « قد تتفوق فئة اجتماعية تفوقا موضوعيا نتيجة مالها من قوة مادية تكمن في ثروتها ، أو قوة واقعية فعلية كأن تكون قوة عديدية أو قوة السلاح »(١) ، ونحن نجد في وصف الجاحظ لعناصر المجتمع العباسي ما يثبت لنا هذا القول ، فأهل خراسان — مثلا — يقولون عن أنفسهم : — « نحن فتحنا البلاد ، وقتلنا العباد ، وأبدنا العدو بكل واد . ونحن أهل هذه الدولة وأصحاب هذه الدعوة ، ومنبت هذه الشجرة . ومن عندنا هبت هذه الريح »(٢) ، وذلك يبرز لنا إلى أي حد يحس أفراد هذه الطائفة بميزتهم في المجتمع — ولو لفترة زمنية محدودة — استناداً إلى دورهم في إنشاء النظام العباسي . أنظر إليهم يقرنون ، مكانتهم وفضلهم على الدولة بما كان للأنصار من أهل المدينة الذين نصروا نبي الله محمداً صلى الله عليه وسلم وهم في ذلك يقولون : — « الأنصار أنصاران : — الأوس والخزرج ،

---

(١) « طبقات المجتمع » : — ص ٤٧ .

(٢) « رسالة في مناقب الترك » : — رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ١ / ١٥ .

نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في أول الزمان ، وأهل خراسان نصروا ورثته في آخر الزمان »[1] .

والذى لا شك فيه أن إحساس طائفة معينة فى المجتمع بتفوقها نتيجة الدور العسكرى أو السياسى الذى قامت به أو تقوم به يحملها تسمو تلقائياً إلى مرتبة اجتماعية أعلى من مرتبة أقرانها ، ومن ثم فانه من الطبيعى أن نجد طائفة من أهل خراسان على الأقل — فى العهد الأول من الدولة العباسية يرتفعون إلى أعلى المراتب والمنازل الاجتماعية — وليس هذا بغريب ، إذا أخذنا بظاهرة تقسيم العمل الاجتماعى بين أفراد وطوائف المجتمع . وهذه الظاهرة وهى عامة بالنسبة لجميع المجتمعات لها نصيب كبير فى هذا التمايز الطبقى ، لأن « تنوع الحاجات الاجتماعية ، وتوزيع الأعمال الضرورية ، لإرضاء هذه الحاجات توزيعاً تلقائياً أو مفروضاً يؤدى بالضرورة إلى تمايز بين الأفراد بحسب اختلاف الأعمال »[2] .

---

(١) مناقب الترك : ١ / ١٥ .
(٢) « طبقات المجتمع » : — ٦١ .

الفصل الثانى

الطبقة العليا

(١) نشأتها : —

نشأت الطبقة العليا فى المجتمع العباسى بتكوين جديد يخالف تكوين الطبقة العليا فى المجتمع الأموى، ذلك أن الثورة العباسية السياسية ، اتخذت من الموالى وسيلة لتحقيق غايتها ، ثم اعتمدت عليهم ، بعد ذلك ، فى توطيد أركان حكمها للدولة الإسلامية وحقا أصبح من سمات الدولة الجديدة أنها «عجمية خراسانية» على خلاف دولة الأمويين . والمروانيين كانت «عربية أعرابية وفى أجناد شامية» كما يقول الجاحظ(١) . ولا ريب فى أن نجد أهل خراسان خاصة والموالى من الفرس عامة هم عمد الثورة العباسية للتخلص من حكم الأمويين الذين حرموهم المساواة بالعرب فى الحقوق ، مخالفين نظرية الاسلام وما يدعو إليه من تسوية مطلقة بين العرب وغير العرب .

ومن المحقق أن بعض فئات من هذه العناصر التى أيدت الثورة العباسية انخرطت فى طبقات اجتماعية غير تلك التى كانوا يسلكون فيها من قبل ، بفضل الخدمات والوظائف الاجتماعية التى أدوها للحكام الجدد . ونستطيع أن نتمثل السمات الاجتماعية لهذه الطبقة من خلال أهم فئاتها ونعنى : الخلفاء ، والأمراء والولاة ، والقواد والوزراء .

---

(١) « البيان والتبين » : ٣ / ٣٦٦ .

(٢) الخلفاء : —

ولد الجاحظ على الأرجح ، فى أواخر عهد المنصور (١٣٦ هـ — ١٥٨ هـ) أو أوائل عهد المهدى (١٥٨ هـ — ١٦٩ هـ) ، اكتملت مقومات شخصيته الثقافية ، والأدبية ، والاجتماعية لعهد الرشيد (١٧٠ هـ — ١٩٣ هـ) والأمين (١٩٣ هـ ١٩٨ هـ) والمأمون ، (١٩٨ هـ — ٢١٨ هـ) والمعتصم (٢١٨ هـ — ٢٢٧ هـ) والواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) والمتوكل (٢٣٢ هـ ٢٤٧ هـ) . ونظن أنه كان فى أشد حالات مرضه بعيداً عن عاصمة الخلافة فى عهد المنتصر والمستعين ، (٢٤٧هـ — ٢٥٥هـ) حتى إن كتاباته تلوذ بالصمت عن ثلاثتهم ، ولعل من أسباب ذلك لزومه البصرة تجنبا لمكاره الأحداث التى عصفت بالدولة خلال هذه السنين ، ولم يكن فى البلدان أكثر هدوءاً واستقراراً من البصرة وإن كانت عواصف ثورة الزنج قد اعتصرت حياتها بعد وفاة الجاحظ بعام .

وهو يحدثنا عن الخلفاء باعتبار أنهم رأس الطبقة العليا فى المجتمع ، وعنده أنه لا يصح أن يكون للأمة غير خليفة واحد ، وهو الرئيس الذى يجمع شملها ، ويكفيها ويحميها من عدوها ، يقول : « قضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع شملهم ، ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ، ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم »(١).

ويردد مثل هذا القول فى موضع آخر ، « ولا بد للناس أن يقوم فيهم — فرض ذلك عليهم — رجل يصلح لجباية خراجهم ، وإقامة صلاتهم ، وسد ثغورهم ، وتنفيذ أحكامهم »(٢) . ويرى أن هذه القضية الواجبة تقوم على أساس

---

(١) « كتاب النساء » هامش الكامل للمبرد . ١ / ١٤٩ .

(٢) « العثمانية » تحقيق عبد السلام هارون . ص ٢٦٥ .

طبيعى مؤيد من حكمة الله فى خلق الكون ، لأن الله سبحانه وتعالى « لو لم يقم للناس الوزعة من السلطان والحماة من الملوك وأهل الحياطة عليهم من الأئمة لصاروا نشراً لا نظام لهم ، ومستكلبين لا زاجر لهم ، ولكان من عزيز ، ومن قدر قهر ولا يزال اليسر راكداً ، والهرج ظاهراً حتى يكون التغابن والبوار ، وحتى تنطمس منهم الآثار »(١) .

ويصف الجاحظ هؤلاء الخلفاء بأنهم سادة الناس ، كلفهم الله أن يحوطوا رعيتهم « بالحراسة لها ، والزيادة عنها ، ويرد قويها عن ضعيفها ، وجاهلها عن عالمها ، وظالمها عن مظلومها ، وسفيهها عن حليمها ، فلولا السائس ضاع المسوس ولولا قوة الراعى لهلكت الرعية »(٢) .

وهو يؤكد وجوب إنفراد الرئيس بالرياسة ، لا يشركه فى حكم الأمة رئيس آخر لأن ذلك يجنبها « مغبة التنازع ، وأدعى إلى أن تجتمع كلمتها ، وتكون الألفة ويصلح شأن الجماعة ، وإذا كانت الجماعة ، انتهت الأعداء ، وانقطعت الأهواء »(٣) . والخلفاء مفضلون على سائر الأمة ، وفى ذلك يسوق الجاحظ أدلة تشير إلى المنبع الدينى الذى يعتمد منه الخليفة على قوام سلطانه ، يقول : ـــ « إن الخلفاء والأئمة أفضل من الرعية ، وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم ، لأنهم أفقه فى الدين ، وأقوم بالحقوق ، وأرد على المسلمين ، وعلمهم بهذا أفضل من عبادة العباد ، لأن نفع ذلك لا يعدو قمم رءوسهم ، ونفع هؤلاء يخص ويعم »(٤) .

---

(١) « كتاب النساء » هامش الكامل للمبرد : ١/ ١٤٩ — ١٥٠

(٢) المصدر السابق : ١ / ١٥٠

(٣) المصدر السابق : ١ / ١٥٠ .

(٤) « البيان والتبين » ٢ / ٣٤٩ .

ويعقد فصلا طويلا فى كتابه « العثمانية » يناقش فيه ، قضية اختيار الناس إمامهم وخليفتهم ، ونلاحظ أنه ، فى هذا الفصل ، يمزج صفة الامامة بصفة الخلافة ، ومن رأيه أن معنى الامامة وتأويل الخلافة ، أمر تدركه الخاصة ، ولا تعرفه العامة ، ذلك أن العامة « مع كل ريح تهب ، وناشئة تنجم ، ولعلها بالمبطلين أقر عينا منها بالمحقين »(١) وعنده أن العامة أداة للخاصة ، تبتذلها للمهن ، وتزجى بها الأمور ، وتطول بها على العدو ، وتسد بها الثغور » . وهو بذلك يؤكد ، ما سبقت الإشارة إليه ، من تقسيم الوظائف الاجتماعية بين طبقات المجتمع ونراه يفصل القول فى هذا الرأى مؤكداً أن « العامة لا تعرف قصد القادة ولا تدبير الخاصة ، ولا تروى معها ، وليس يخرجها من ذلك من طاعة عزمها ، وما أبرمت من تدبيرها »(٢) . وهو يرى أن « العامة إذا انكفت بالخاصة ، وتنكرت للقادة ، وتهزنت على الراضة ، كان البوار الذى لا حيلة له والفناء الذى لا بقاء معه » ويخلص إلى أن « صلاح الدنيا ، وتمام النعمة من تدبير الخاصة ، وطاعة العامة »(٣) ، وإلى أن « الخاصة تحتاج إلى العامة كحاجة العامة إلى الخاصة »(٤) .

ونراه يعلل قيام الخاصة باختيار الإمام والخليفة بأنه « ليس فى الاعمال أقل من الاختيار ، ولا من الاختيار أقل من الصواب ، فلباب كل عمل اختياره ، وصفوة كل اختيار صوابه ، ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب . فأكثر الناس

---

(١) « العثمانية » : ص ٢٥٠
(٢) « العثمانية » : ٢٥١ .
(٣) العثمانية : ٢٥١ .
(٤) المصدر السابق : ص ١٥٢

اختياراً أكثرهم صوابا ، وأكثرهم أسبابا موجبة أقلهم اختيارا أقلهم صوابا»[1] وينقل القول في طبيعة المعرفة عند الخاصة وعند العامة ليدعم ما يقول به من أن اختيار الخليفة أدخل في اختصاص الخاصة منه في اختصاص العامة ، لأن معرفة الخاصة أرفع قدراً من معرفة العامة[2] ، ويقول أن طبائع العوام أقل قدراً من طبائع الخواص على مراتب طبائعهم ، فالرسل طبائعهم فوق طبائع الخلفاء ، وطبائع الخلفاء فوق طبائع الوزراء[3] .

ويظهر أن عمل هؤلاء الخلفاء كان يورثهم الكد والنصب ، فليس في الارض عمل أكد لاهله من سياسة « العوام » ، ذلك أن سياسة العوام تستلزم أموراً تولد سخطهم على الحكام حتى أن عامتهم « لم يكن من شأنهم أن يردوا الناس إلى أهوائهم ، وإلى الانسياق لهم ، بعنف السوق ، وبالحرب في قود ، بل كانوا لا يؤثرون الترهيب على الترغيب ، والخشونة على التليين ، وهم مع ذلك قد هجوا بأقبح الهجاء »[4] .

ومن المحقق أن الخلفاء على الرغم من كدهم في سياسة أمور الرعية ، كانوا يحيون حياة مترفة احتاجوا فيها أن يداووا أنفسهم بالسماع الحسن ، ويشدوا متنهم بالشراب»[5] .

وقد صور الجاحظ في كتاباته طرفا من ألوان هذه الحياة ، ذلك أن بعضهم

---

(١) « العثمانية » : ص ٢٥٢

(٢) « العثمانية » : ص ٢٥٦

(٣) « العثمانية » :ص ٢٥٧

(٤) « الحيوان » : ٢ / ٩٢

(٥) المصدر السابق : ١ / ٢٨٧

اتخذ لنفسه سمارا ، من مثل ما يذكره عن أبي العباس السفاح ، أول خلفاء العباسيين ، كان يتخذ سمارا من بينهم خالد بن صفوان الاهتمى . الذى كان من أهل المنزلة عنده(١) ، وهؤلاء السمار كانوا غير المضحكين وأهل النادرة الذين كانوا من بطانة بعض الخلفاء إذ كان للمنصور مضحكا ، هو عبد الله بن حياش المنتوف(٢) ، قيل انه كان ينادمه ويضحكه(٣) ، وكان للمهدى مضحكا يقال له أبو حبيب(٤) كان يروى له ما يحفظ من نوادر المضحكين من أمثال مزيد(٥) وبالمثل يظن أن أبا الحارث جمين كان من بين من اتصل بالرشيد من أصحاب النادرة(٦) ، وقد روى الجاحظ طرفا من نوادره فى البخلاء خاصة(٧) ، لكننا لا نجد عصرا حفل بالمضحكين ، ومصطنعى النادرة أكثر من عصر المتوكل حتى ليقول المسعودى : — « ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه العبث والهزل والمضاحك وغير ذلك مما قد استفاض فى الناس ذكره إلا المتوكل ، فإنه السابق إلى ذلك والمحدث له ، وأحدث أشياء من نوع ما ذكرنا فأتبعه فيها الأغلب من خواصه والأكثر من رعيته »(٨) وكان بلاطه يزخر

(١) « البيان والتبين » : ١ / ٣٣٩
(٢) المصدر السابق : ١/٢٦٠
(٣) « لسان الميزان » لابن حجر (ط . حيد أباد ١٣٣٠ هـ) ٣/ ٣٢٢ .
(٤) « جمع الجوامع » للحصرى (ط . القاهرة ١٣٥٣ هـ) ص ٢٥٤ .
(٥) ذكره الجاحظ فى « البخلاء » ص ٧ مع أصحاب النوادر ، وروى له نادرة فى البيان والتبين : ٢/١٠٢
(٦) أنظر تعليقات د . الحاجرى على « البخلاء ص ٢٦٦ .
(٧) أنظر البخلاء ص : ١٧ ، ٧٢ ، ٩٧ ، ١٩٧
(٨) « مروج الذهب » للمسعودى : (ط . باريس) ، ٧ / ١٩١

بهؤلاء المضحكين من أمثال أبى العبر[1] ، وأبى العنبس الصيمرى[2] ، والجماز[3] وكان ممن اتصل ببعض الخلفاء من باب النادرة والضحك أبو المبارك الصابى الخصى ، كانوا يسمعون منه الحديث عن « خصيان الصابئة » ، ويسمر عندهم للذى يجدونه عنده من الفهم والافهام ، وطرف الاخبار ، ونوادر الكتب[4] ولعلنا لاندهش بعد ذلك إذ رأينا من بين المصنفات والكتب فى هذا العصر ألواناً من « كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهى والفكاهات »[5] .

وأحاط الخلفاء أنفسهم بالشعراء يخصونهم بمكافآتهم وجوائزهم من ذلك منحة السفاح لأبى دلامة الشاعر وإقطاعه مائتى جريب[6] ، وأن أبا نخيلة صنع أرجوزة فى المنصور يغريه فيها بخلع عيسى بن موسى ، ويعقد العهد لابنه محمد المهدى ، فوصله المنصور بألفى درهم[7] .

---

(1) هو محمد بن أحمد بن الله الهاشمى ، يذكر له ابن النديم كتاباً فى فن النادرة سماه : جامع الحماقات ومأوى الرقاعات » : الفهرست (ط . الرحمانية ١٣١٨ ﻫ) ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(2) كان وهو من القضاة لا يجد بأساً فى أن يترك القضاة ليصطنع اللهو بالنادرة ، أنظر : الفهرست لابن النديم ص ٢١٦ .

(3) ذكره الجاحظ فى « البيان والتبيين » ٢ / ١٠٤ ، ٣ / ١٢٩ — وفى البخلاء ص ٧٣ .

(4) « الحيوان » : ١ / ١٢٥

(5) « الحيوان » : ١ / ٢٥

(6) « الحيوان » : ٢ / ١٧٠ — ١٧١

(7) المصدر السابق : ٢ / ١٠٠ — أنظر « الحواشى » .

ويظهر أن المنصور كان ذواقا للشعر عالما بأحكام نظمه(١) ، مدحه بعض الشعراء من مثل ابراهيم بن هرمه ، وفيه يقول : —

له لحظات عن حفافى سريره إذا كرها فيها عقـــاب ونائل
فأم الذى أمنت آمنه مة الردى وأم الذى أوعدت بالشكل ثاكل(٢)

وبالمثل خصه ابن ميادة بشىء من شعره(٣) . وكان الهادى فيما يظهر ، مسرفا فى العطاء يتردد الشعراء على بابه ، وينشدونه بشعرهم وقد يقترح عليهم أحيانا موضوعه(٤) ، وقد أنشده ابن دأب أبياتا فى الشعر أجازه عليها بثلاثين ألف درهم(٥) واستحسن أبياتا لسلم الخاسر فوصله بثلاثمائة ألف درهم ، وقال . إنما وصلته لقوله فى هذه الأبيات .

لولا هداكم وفضل أولكم لم تدر ماأصل دينها العرب(٦)

وبالمثل نادم بعض الشعراء المهدى ، وكان ممن نادمه ابن أبى أمية(٧) .

---

(١) «الحيوان» : ٥ / ٥٩٦ .
(٢) المصدر السابق : ٣ / ١٣٤ .
(٣) المصدر السابق : ٣ — ٤٨٠ .
(٤) أنظر قصة عمر بن معد يكرب الزبيدى فى « الحيوان » : ٥ / ٨٧ .
(٥) أنظر الوزراء والكتاب للجيشارى . تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى (ط . الحلبى ١٣٥٧ ه) ص ١٧٢ .
(٦) الوزاره والكتاب للجهشيارى ص ١٧٣ .
(٧) « البيان والتبيين » : ١ / ٤٠٤

وكان الرشيد على هذه الشاكلة محوطا بالشعراء ، والسمار ، والمادحين ، ذواقا لما ينشدونه ، حتى إنه يعد من أحسن الرجال حظا ، باعتبار أن أفضل النعم في الدنيا بعد الخلافة والولاية ، أن يكون الانسان ممدوحا[1] ، وقد أطنب في مديحه كثير من الشعراء من مثل العتابي[2] ، وسلم الخاسر[3] ، وأبي الشيص الأعمى[4] ، وقد مدحه أشجع بن عمرو السلمي مدحة أجازه عليها بعشرين ألف درهم ، وفيها يقول : —

وعلى عدوك يابن عم محمد رصدان : ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبه رعته وإذا هدا سلت عليه سيوفك الأحلام[5]

ويذكرون أنه كان يحب الشاعر إذا أنشده شعراه أن يضع على رأسه عمامة عظيمة الكور ، ويرتدي خفا مستديرا ، يدلنا على ذلك مايرويه الجاحظ في بيانه ، يقول : « أخبرني إبراهيم بن السندي قال : دخل العماني الراجز على الرشيد لينشده شعرا ، وعليه قلنسوة طويلة وخف ساذج ، فقال : « إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان دمالقان[6] » :

---

(١) « الحيوان » : ٤ / ٣٨١ - ٣٨٣ .
(٢) « البيان والتبيين » : ٣ / ٣٥٣ .
(٣) « المصدر السابق » : ٣ / ١٥١ هـ — ٢٥١ .
(٤) « المصدر السابق » : ٣ / ١٢٣ .
(٥) « البيان والتبيين » : ٣ / ٣٢٥ — وانظر في ترجمته « الاغاني » ١٧ / ٣٠ ومابعدها .
(٦) « البيان والتبيين » : ١ / ٩٥ — والدمالق: المستدير الأملس .

وكانوا يؤثرون أسلوباً خاصة فى توجيه الكلام إليهم، والدعاء لهم، وفى ذلك يذكر الجاحظ كلاما للفضل بين الربيع يشرح مثل هذا الضرب من السلوك، يقول الفضل: « مسألة الملوك عن حالهم من تحية النوكى، فإذا أردت أن تقول كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبح الله الأمير بالكرامة والنعمة. وإذا أردت أن تقول كيف يجد الأمير نفسه: فقل أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة. والمسألة توجب الجواب، فان لم يجبك اشتد عليك، وأن أجابك اشتد عليه (١) ».

وأحاط بعض الخلفاء أنفسهم بالمغنين، والملهين، والقيان، وأجزلوا لهم العطايا والمنح حتى ليقال أن اسحق الموصلى غنى للهادى فأطربه، وأدخله بيت مال الخاصة، ليأخذ منه مايريد، « فدخله وأخذ خمسين ألف دينار »(٢)، ومن ذلك أن المهدى كان محبا للقيان، وسماع الغناء وكان فيه غزل، وشدة حب للخلوة بالنساء، يدلنا على ذلك تعلقه بجارية يقال لها « جوهر »، وبأخرى، كان معجبا بها اشتراها من مروان الشامى، وأن مروان هذا دخل على المهدى وجوهر تغنيه فامتدح غناءها ببيتين من الشعر غضب منهما الخليفة حتى أنه طرده من مجلسه، وعاود السماع إلى غناء الجارية، فأنشدته أبياتا لامرأة من قوم ابن الدمينة، يقال لها « أميمة »، كان هويها وهاج بها مدة، فلما وصلته تجنى عليها وجعل ينقطع عنها، ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلا، وكان بينهما مجاوبة شعرية ومضى الجاحظ فروى أبياتا من الشعر نظمها المهدى يجيب فيها ماقالته الجارية، ويذكر مفاتنها وأن الله قد أكلها بحسن الدل والمنظر، وإن كانت

---

(١) « البيان والتبيين »: ٢ / ٢٥٦.

(٢) انظر « الوزارء والكتاب » للجهشيارى: ص ١٧٥ — ١٧٦.

هذه الأبيات فيما يظهر من أشعار مطيع بن اياس ، يذكر صاحب الأغانى أن المهدى كان يرددها[1] ، والأبيات عند الجاحظ تختلف قليلا فى ألفاظها عن الأبيات فى الأغانى ، انظر إلى ما جاء فى نعت جوهر وتدليلها : —

ألا يا جوهر القلب ... لقد زدت على الجوهر

وقد أكملك الله ... بحسن الدل والمنظر

إذا ما حليت ، يا أحسن خلق الله ، بالمزهر[2]

وبالمثل كان المأمون يميل إلى اللهو مع النساء ، ويذكر الجاحظ فى « كتاب القيان » خبراً يفيد تعلقه بجارية تسمى « سكر »[3] .

ويظهر أن مجالس اللهو فى دور الخلافة كانت تضم الشعراء[4] ، والمغنين والملهين ، وضاربى العود ، وأصحاب المزمار[5] ، وقد يلهون بلعب الشطرنج ، ويجلسون معهم من يلعبه أمامهم ، حتى إن رجلاق لعب قدام بعضهم بالشطرنج « فلما رآه استجاد لعبه وفاوضه الكلام ، قال له : لم لاتوليني نهربوق ؟ ! (من سواد بغداد) ، قال : « أوليك نصفه » ! كتبوا له عهده على بوق ! »[6] ، ويظهر أن بعض الخلفاء قد شغل باللهو بالجارح من الحيوان والطير من مثل : —

---

(١) « الأغانى » دار الكتب : ٣١٤/١٣

(٢) « البيان والتبين : ٣ /٣٧٠ — وانظر « الأغانى » ٣١٤/١٣ .

(٣) « كتاب القيان : رسائل الجاحظ » تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون » ١٥٧/٢ .

(٤) الحيوان » : ٥ /١٣٧

(٥) المصدر السابق : ١٦/٦ — ١٧

(٦) « البيان والتبيين » : ٤ /٦

الباز ، والفهد ، والشاهين والصقر والزرق ، واليؤيؤ ، ولم يكن من آداب لهوهم بالباز أن تراهم يحماون البازى ، أو الصقور أو الشواهين ، وغيرها من الجوارح(١) ، ومن ذلك ما يروى عن الأمين — وكان فيما يظهر قد غلب عليه الهوى واللعب فى حياته الخاصة(٢) ـ من أنه شاهد مجلس أصحاب قمار ونرد ونبيذ ، وأنه استمع إلى حديثهم(٣) .

وأنفق بعضهم أموالا طائلة على بناء القصور ، ويظهر أن الخلفاء كانوا يستأنسون فى قصورهم وبساتينهم الحمر الوحشية ، قيل أنها كانت هكذا مستأنسة فى بساتين المعتصم ، والواثق بالله(٤) ، ويروى الجاحظ فى حيوانه أن محمد بن عبد الملك الزيات أخبره : أن أمير المؤمنين المعتصم بالله ، أبرز للاسد جاموسين فغلباه ، ثم أبرز له جاموسة ومعها ولدها فغلبته ، وحمت ولدها منه ، وحصنته ، ثم أبرز له جاموسا وحده فواثبه ، ثم أدبر عنه(٥) .

ومنهم من كان يستأنس الفيلة من مثل صنيع المنصور وغيره من الخلفاء ، يقول الجاحظ : — « والفيلة التى كانت مع الفرس » ، حكمها حكم الفيلة التى كانت عند أمير المؤمنين ، وعند سائر الخلفاء من بعده ، وكلها جرد مغضبه ، ولم نلق أحداً رآها وحشية قبل أن تصير فى القرى والمواضع التى يذكرها »(٦) .

---

(١) « الحيوان » : ٦ / ٤٧٨ .
(٢) « تاريخ الخلفاء » للسيوطى ص ٢٠٢ — والطبرى ١٠/٢١٥—٢١٦ .
(٣) « الحيوان » : ٣ / ٣٨١ — ٣٨٢ .
(٤) المصدر السابق : ٤ / ٤٢٢ .
(٥) « الحيوان » ٧ / ١٣١ .
(٦) « الحيوان » : ٧ / ١٠٠ .

ويظهر أن الفيلة كانت ذات مكانة خاصة عندهم إذ كانوا لا يدعون « الاستكثار منها ، والتجمل بها ، والتهويل بمكانها عندهم ، ولا يدعون ركوبها في الحرب ، وفي الأعياد وفي الزينة »(1) ، وقد اتخذوا لها الفيالين ، والساسة ، أوقفوهم على تربيتها في المروج خاصة ، وكانوا يأمرون بتزيينها في الأعياد بأفخر أنواع المقطعات ، والثياب الموشاة ، ومن حولها الحرس والشرط(2) ، ويظهر أن الفيلة كانت تؤدب تأديباً خاصا حتى ليقال : « أن أول شيء يؤدبونه به السجود للملك »(3) .

وكان بعضهم مولعا بالخيل وسباقها ، ويذكرون أن المأمون كانت عنده فرس بلقاء سبقت غيرها من الخيل في الحلبة(4) ، أما الإبل فقد يضعون الريش في أسنمتها ، لأنهم كانوا يجعلون الريش « علامة لحباء الملك ، تحميها بذلك ، وتشرف صاحبها »(5) .

وجمع الخلفاء من حولهم العلماء والحكماء ، من ذلك ما هو معروف عن المأمون كان محبا للعلم ، مقدرا للعلماء والحكماء دورهم في بناء مجتمعهم ونراه يردد أقوالهم في مجالسه من مثل قوله لسهل بن هارون : « قال بعض العلماء : اقصد أصناف العلم إلى ما هو أشهى إلى نفسك ، وأخف إلى قلبك ، فإن نفاذك

---

(1) « الحيوان » : ٧ / ١٠١ .

(2) المصدر السابق : ٧ / ٢٠١ — ٢٠٢

(3) المصدر السابق : ٧ / ٢٠٥ .

(4) المصدر السابق : ٣ / ٢٥٢ — وأنظر ٥ / ١٦٦ .

(5) « البيان والتبين » : ٣ / ٢٧٣ — ٢٧٤ .

فيه على حسب شهوتك له ، وسهولته عليك »(1) وذلك يشير إلى تعلقه بالعلم ، وشغفه بالحكمة ، ويظهر أنه كان صاحب رأى فى بعض المسائل العلمية(2) وكان يجلس — إليه بعض الأطباء من مثل بختيشوع بن جبريل وسلمويه ، وابن ماسويه(3) .

(1) « الحيوان » : ٥ / ٣١٠ .

(2) المصدر السابق ٥ / ٣٦٤ .

٣ — الأمراء والولاة والقواد :

نستطيع أن نسلك الأمراء، والولاة، والقواد فى مرتبة اجتماعية تلى مرتبة الخلفاء فى الطبقة العليا من المجتمع العباسى، ذلك أن من الأمراء من شغل منصب الولاة، حرصا من الخلفاء العباسيين أن يخصوا أفراداً من البيت العباسى بأمارات ومدن بعينها وبالمثل كانوا يولون كبار قادتهم، وأعوانهم، وان شئت انظر فى تاريخ اليعقوبى إلى أسماء الولاة فى خلافة أبى العباس — مثلا — وهم : أبو جعفر المنصور على الجزيرة، وأرمينية، وأذربيجان ؛ وداود بن على العباسى على الحجاز، واليمن، واليمامة، وعبد الله بن على العباسى على بلاد الشام؛ وسليمان ابن على العباسى على البصرة، وما يليها من البحرين، وعمان، واسماعيل بن على العباسى على كور الأهواز، وأبو مسلم الخراسانى على خراسان، وأبو عون على مصر وشمالى إفريقية (١)، وذلك يثبت «حرص الخلفاء العباسيين أن يولوا الولايات الاسلامية بعض أفراد البيت العباسى، وأكابر القواد»(٢).

وتضم كتب التاريخ أمثلة كثيرة من القادة ممن ولوا ولاية الامصار والولايات من مثل هرثمة بن أعين الذى كان قائداً أيام الرشيد، ووليا على الشام، والحجاز من المأمون حين قضى على ثورة أبى السرايا، ومنهم طاهر بن الحسين الذى وطد الملك للمأمون العباسى وقتل الأمين، وعقد البيعة المأمون فولاه شرطة بغداد، ثم جعله واليا على خراسان (٣)، ومنهم عبدالله بن طاهر بن الحسين الذى ولى له

---

١ — «تاريخ اليعقوبى» (ط، النجف ١٩٣٩م) : — ٣/٨١ — ٨٩

٢ — «العصر العباسى الاول» : عبدالعزيز الدورى (بغداد، ١٩٤٥م) ص ٦٣

٣ — «ثمار القلوب» للثعالبى، ط. الظاهر ١٣٢٦م ص ٢٠٧

امارة مصر حين نجح فى اخماد ثورة أهلها ضد المأمون (١) ، ثم ولاه خراسان . والحق أن هذا الصنيع من جانب الخلفاء العباسيين لم يكن غريبا ، على الأقل فى عهود خلافتهم الأولى ، فإنهم كى يستتب لهم الأمر لابدأن يكون ولاتهم من ذويهم أو ممن يأمنون جانبهم ، ومن ثم رأينا عناصر غير عربية بدأت تأخذ مكانها فى ارتقائهم سلم البنيان الاجتماعى تبعا لنوع الوظيفة الاجتماعية التى يقومون بها ، وكأننا بذلك أمام صورة من المكافأة ، أو التكليف من الخليفة إلى أفراد بعينهم لهم عنده منزلة خاصة ، ويملكون هم فى أنفسهم قدرات خاصة توائم ما يناط إليهم من أعمال .

وحرص الخلفاء العباسيون أن يخصوا إمارة مدن بعينها أفراد البيت العباسى من مثل صنيعهم فى إمارة البصرة ، كان من ولاتها فى زمن الجاحظ جعفر بن سليمان ابن على (٢) ، ومحمد بن سليمان الهاشمى (٣) ، واسحاق بن سليمان بن على (٤) ، وعيسى بن جعفر حفيد المنصور وصهر الأمين (٥) .

ويعرض لنا الجاحظ فى كتاباته ، بعض الجوانب الخاصة التى تصور مظاهر المرتبة الاجتماعية التى حظى بها الأمراء ، والولاة ، والقواد فى المجتمع العباسى من مثل حديثه عن بعض الأمراء ، والولاة من البيت العباسى وتفوقهم الثقافى الذى ، يرفع من شأنهم ، فهم — على حد قوله — لا يوازون « فى أصالة الرأى ، وفى الكمال والجلالة ، وفى العلم بقريش والدولة ، وبرجال الدعوة ، مع البيان

---

١ — « تاريخ الاسلام السياسى » د. حسن ابراهيم : — ٢/ ٧٠

٢ — « تاريخ الطبرى » : (ط. أوربا) ، ٣ / ٧٤٠

٣ — « رسائل الجاحظ » : (السندوبى) ، ١١٥

٤ — « لسان الميزان » : ١ / ٣٦٤

٥ — « المعارف » لابن قتيبة : ص ١٥٦ ، وما بعدها

العجيب ، والغور البعيد ، والنفوس الشريفة ، والأقدار الرفيعة » ويجعلهم الجاحظ « فوق الخطباء وفوق أصحاب الأخبار » [1] ، ويعد من المبرزين منهم : — « عبدالله بن صالح والعباس بن محمد ، واسحاق بن عيسى ، واسحاق بن سليمان ، وأيوب بن جعفر » ويقول عنهم : « أنهم كانوا أعلم بقريش ، وبالدولة » و برجال الدعوة » ، ويصفهم بأنهم « من المعروفين برواية الأخبار [2] » ، ونراه يخص اثنين من الأمراء بمكانة خاصة فى هذا السبق الثقافى والأدبى هما : عبدالله بن على وداود بن على ويذكر أنهما « يعدلان بأمة من الأمم » [3] .

ويصور لنا الجاحظ اسحاق بن سليمان الهاشمى ولعا بالحياة الأدبية والعلمية ، حتى إنه حين دخل عليه بعد عزله عن احدى الولايات التى كان يليها « إذا هو فى بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط ، والرقوق ، والقماطير ، والدفاتر والمساطر ، والمحابر » ، ذلك أن عزله عن الولاية لم يؤثر فى مكانته الأدبية والثقافية حتى إننا نحس أن هذا الأمير ملك اعجـــاب الجاحظ به آنذاك ، انظر إليه يسجل هذا الاعجاب بمثل قوله : « فما رايته قط أفخم ، ولا أنبل ، ولا أهيب ، ولا أجزل منه فى ذلك اليوم ، لانه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع الود الحكمة » [4] ، واسحاق هذا هو الذى وصفه الجاحظ بأنه « من معادن العلم » [5]

وبالمثل صور ولع الأمير جعفر بن سليمان الهاشمى بالمسائل الأدبية والعلميه حتى غدى مجلسه أشبه بالمنتدى الأدبى تناقش فيه هذه المسائل ، ويتناظر حولها

---

١ — « البيان والتبين » : ١ / ٣٣٤ — ٣٣٥
٢ — « البيان والتبين » : ١ / ٣٣٥
٣ — « البيان والتبين » : ١ / ٣٣٥
٤ — « الحيوان » : ١ / ٦١
٢ — « الحيوان » : ٦ / ٣٤

العلماء من مثل ما حكاه عن مناظرة دارت فى مجلسه بين الأصمعى والمفضل الضبى حول تحقيق بيت من شعر أوس بن حجر يقول فيه :

وذات هدم عار نواشرها ... تصمت بالماء تولبا جدعا(١)

كما نراه يذكر عن جعفر ما يثبت اهتمامه بالبحث فى مشتقات الألفاظ من مثل سؤاله أحد جلسائه ، وهو أبو المخش عن إبنه المخش ، وكان جزع عليه جزعا جزعا شديداً ، فقال له ، حسب رواية الجاحظ فى بيانه : — « صف لى المخش . فقال كان أشدق خرطمانيا ، سائلا لعابه ، كأنما ينظر من قلتين ، وكأن ترقوته بوان ، أو خالفه ، وكأن منكبه كركرة جمل ثقال . فقأ الله عينى إن كنت رأيت قبله ، أو بعده مثله(٢) » وذكر الجاحظ قولا من أقوال جعفر بن سليمان عده من الكلام الموزون الذى يمدح به يقول : «قال جعفر بن سليمان : ليس طيب الطعام بكثرة الإنفاق ، وجودة التوابل ، وإنما الشأن فى إصابة القدر »(٣) .

وكان أيوب بن جعفر من عنوا بالمسائل العقلية والأدبية ، وكانت داره من أهم المنتديات الحافلة بالعلماء والأدباء ، إذ كان يعقد فى داره المناظرات بشأنها بين المتكلمين خاصه(٤). وأيوب هذا قال عنه مويس بن عمران فى وصفه له أنه « كان من أنطق الناس ، لم ير أنطق منه ، ومن يحيى بن خالد »(٥) .

وبالمثل كان داود بن جعفر ، وقد عده الجاحظ فى خطباء بنى قريش ،

---

(١) « الحيوان » : — ٤ / ٢٥ — ٢٦ .

(٢) « البيان والتبيين » : — ١ / ١٢١ .

(٣) « البيان والتبيين » : — ١ / ٢٢٧ :

(٤) « البيان والتبيين » : — ١ / ٩١ .

(٥) « البيان والتبيين » : — ١ / ١١٥ .

مهتما بالحياة الأدبية والعقلية ، وصوره أنه « فى خطابته كان مسحنفراً ، لا يرده شىء وكان فى لسانه شبيه بالرُّتَّة ، وكان إلى جانب قدرته على الخطابة محدثا جيد الحديث يملك قلب سامعه ، ويصوره لنا بأنه « كان كأخيه جعفر من أصحاب البيان الذين يعنون بجمال اللفظ ، وقوة العبارة ، وبلاغة التأثير »(١) .

واهتم بعضهم بالحياة العلمية والعقلية من مثل ما يذكره الجاحظ عن محمد بن على بن سليمان الهاشمى من أن أبا إسحاق إبراهيم النظام شيخ المتكلمين كان من جلسائه(٢) ويحكى الجاحظ عنه ما كان يجريه فى داره على بعض الحيوانات من تجارب(٣) .

واتخذ الولاة حجابا لهم ، وعدوا ذلك من تمام هيبتهم حتى ليقول الفضل ابن يحيى : — « أن حاجب الرجل عامله على عرضه ، وأنه لا عوض لحر من نفسه ، ولا قيمة عنده لحريته وقدره(٤) » ويظهر أن من هؤلاء الولاة من كان متشددا فى الحجاب يدلنا على ذلك أشعار أنشدها بعض المحدثين فى ابن المدبر يرجونه تخفيف قيود حجابه ، يقول الجاحظ : وأنشدنى بعض المحدثين فى ابن المدبر . —

لولا مقارفة الريب ما كنت من يحتجب

---

(١) « البيان والتبيين » : — ١ / ٣٣٣ اسحنفر الخطيب : اتسع فى كلامه ومضى ـ الرته : العجمة والحكلة فى الكلام .

(٢) « الحيوان » : ٢ / ٢٢٩ .

(٣) « الحيوان » : ٢ / ٢٢٨ ، وما بعدها .

(٤) « كتاب الحجاب » — « رسائل الجاحظ » (تحقيق الأستاذ هارون) ٢ / ٤١ .

أولا فتىً منك أو
بخل على أهل الطلب

فاكشف لنا وجه الحجا
ب ولا تبالى من عتب(١)

وكان يذم فى الوالى تردده وضعفه ، ومن أجل ذلك عزل المنصور سلم بن قتيبة من ولاية البصرة ، حين أكثر من سؤاله ، واستفساره عما يفعل حين أمره الخليفة بهدم دور بعض المارقين ، وعقر نخلهم (٢) .

والحق أن حياة الأمراء والولاة لم تكن جادة غلب عليها العلم ، والأدب ، والنظر ، ذلك أنهم كانوا بجانب حياتهم الجادة فى منتدياتهم الأدبية والعلمية ، يحيون لونا من الحياة المترفه اللاهية ، من ذلك أن سليمان بن داود الهاشمى كان محبا لرحلات الصيد حتى إنه اتخذ لنفسه كلبا من كلاب الصيد أحسن تربيته وتدريبه منذ الصغر ، إلى أن أتم سبعة شهور من سنه ، وتم بلوغه ، عرفه حينئذ معنى رموز الصيد من إيماء وصفير وإشارة بالكف حتى أتقن أسلوب تلبيتها فصار يصحبه فى رحلات صيده ، وكان هذا الكلب خاصا بصيد الأرانب والثعالب ، والظباء وقد خصه أبو نواس بطردية من طردياته التى رواها صاحب « الحيوان »(٣) وكان منهم من يشهد مجالس الشراب من مثل محمد بن الجهم البرمكى ، وقد ولى للمأمون عدة ولايات ، وكان مكثرا للشراب ، حتى عرف عنه أنه « لم يكن يتأثر بالشراب »(٤) بينما اعتاد بعضهم مطاعم بعينها من مثل

---

(١) كتاب الحجاب : — ص ٣٧ ، وأنظر أشعارا أخرى ص ٨٤ من نفس المصدر .

(٢) « البيان والتبين » : — ٢ / ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٣) « الحيوان » : — ٢ / ٣٠ — ٣٢ .

(٤) « الحيوان » : — ٢ / ٢٢٦ .

ما يرويه الجاحظ عن أيوب بن جعفر بن سليمان العباسى «كان ولعا بأكل الضباب، ويظهر أن داره كانت بجوار مربد البصرة، وأن سوقا للضباب كانت تقام بجانب هذه الدار»(١)، ومع ذلك كان أبوه جعفر بن سليمان، يقول: — «ليس طيب الطعام بكثرة الانفاق، وجودة التوابل، وإنما الشأن فى إصابة المقدر»(٢). ومن غريب مطاعم بعض الولاة صنيع الفضل بن يحيى البرمكى، كان يوجه خدمه فى طلب فراخ الزنانير ليأكلها وكان يضعها على مائدته بعد أن يتخذوا له منها نوعا من الحلوى، يقال لها: «بزماورد»(٣).

ويحدثنا الجاحظ فى كتاباته عن بعض القواد، وما بلغوه من مرتبة اجتماعية فى المجتمع العباسى، من مثل حديثه عن أبى مسلم الخراسانى، وصفه بأنه «صاحب الدعوة العباسية»(٤)، وكان لغلبته على أهل خراسان ما مكن له من نشر الدعوة، وتوطيد أركان الدولة(٥)، وعده من بين أصحاب اللكنات، وأن كان حسن اللفظ، يقول فيه: «كان حسن الألفاظ، جيد المعانى، وكان إذا أراد أن يقول: «قلت لك»، قال: «كلت لك(٣)»، وكان من المقربين إلى الامام ابراهيم بن محمد أخى أبى العباسى السفاح رأس الدولة العباسية، وينقل أبو مسلم عن الامام ابراهيم، يقول. «يكفى من حظ البلاغة أن لا يؤتى السامع

---

(١) «الحيوان»: — ٦ / ٧٨.

(٢) «البيان والتبين»: — ١ / ٢٢٧.

(٣) «الحيوان»: — ٦ / ٩٠ — ٩٢.

(٤) «البيان والتبين»: ص ٧٢.

(٥) «كتاب البغال»: (رسائل الجاحظ، تحقيق الأستاذ هارون)، ٢ / ٢٦٤ — ٢٦٥.

(٦) البيان والتبين» ١ / ٧٣:

من سوء افهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع (١) » ، مما يدلنا على اهتمام القائد بحسن الخطاب والحديث ، ولابد أنه كان يتسم بجانب ذلك بما يدل على قوة شخصيته ، وحزمه للامور ، يشهد له بذلك رسالة بعثها إليه عبدالله ابن معاوية من الحبس ، رواها الجاحظ فى بيانه ، وفيها يظهر الأسير مستعطفا مسترحما القائد الذى يجمع بين يديه سلطانا واسعا مما يدلنا على علو منزلة أبى مسلم الخراسانى ، وسطوته ، وجبروته ، وحزمه فى سياسة أمور الرعية ، وضربه بيد من حديد على كل من تسول نفسه الوقوف فى طريق الدعوة العباسية ، مما يدلنا على لون الحياة الاجتماعية فى هذه الحقبة الاولى من تاريخ الدعوة العباسية ، والتى لعب فيها أبو مسلم الخراسانى دورا هاما ، انظر إلى كلمات الأسير ، وماتحمله من معانى الاستعطاف والاسترحام : « إليك بعد الله نرفع كربة الشكوى ، وتشكو شده البلوى ، فمتى تمل إلينا طرفا ، وتولنا منك علقا ، تجد عندنا نصحا صريحا وودا صحيحا لايضيع مثلك مثله ، ولاينفى مثلك أهله ، فأرع حرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلجت بحجته ، فأن الناس من حوضك رواء ، ونحن منه ظماء ، يمشون فى الأبراد ونحن نرسف فى الاقياد ، بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة . (٢) وعلى الرغم من هذه المكانة والسطوه فإن الجاحظ يقرن أبا مسلم مع الجلادين والذين يضربون الأعناق بين يدى الملوك ، وهؤلاء لاينمو لواحد منهم شيء ، ولايجعل الله من نسلهم عقبا مذكورا ، ولاذكرا نبيها ، وذرية طيبة (٣)

وكان من القواد الولاه يزيد بن مزيد الشيبانى من قواد الرشيد وولاته على

١ — « البيان والتبين » : ١ / ٨٧
٢ — « البيان والتبين » : ٢ / ٨٦
٣ — « الحيوان » : ٤ / ٤٣٠
٤ — « البيان والتبين » : ١ / ٣٤٢

أرمينية ، يذكر الجاحظ أنه كان « يكنى فى السلم بأبى خالد ، وفى الحرب بأبى الزبير (١) » ، وكانت له مواقع مشهورة ، انتصر فيها على الثائرين من الخوارج، وفى ذلك يقول مسلم بن الوليد الأنصارى ، مشيدا بشجاعة يزيد ، وقد ذكر كتيبته فى الحرب ، مشيرا إلى حربه للوليد بن طريف الشارى والضحاك بن قيس الشيبانى ، يقول مسلم : —

لولا سيوف أبى الزبير وخيله ... نشر الوليد بسيفه الضحاكا (٢)

ومن أشعار مسلم بن الوليد التى رواها الجاحظ ما يدلنا على أن هذا القائد كان سنداً للخلافة العباسية زمن الرشيد ، فكان هو سيف الخليفة المسلط على رقاب المارقين ، والمعتدين ، يقول مسلم : —

لولا يزيد وأيام له سلفت ... عاش الوليد مع الغاوين أعواما
سل الخليفة سيفاً من بنى مطر ... يمضى فيخترق الأجسام والهاما
إذا الخلافة عُدّت كنت أنت لها ... عزاً وكان بنو العباس حكاما

---

(١) « البيان والتبيين » ١ / ٣٤٢ .
(٢) « البيان والتبيين » ١ / ٣٤٢ الضحاك هو الضحاك بن قيس الشيبانى ، أحد زعماء الخوارج الشجعان . سار إلى العراق واستولى على الكوفة سنة ١٢٧ هـ وبلغ جيشه مائة وعشرين ألفاً وبايعه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن هشام بن عبد الملك وهذا البيت يدلنا على تاريخ هذا القائد من حيث أنه رجل حرب مارس المعارك منذ زمن بعيد ، فهو رجل أهل لخوض المعارك وليكون قائداً يعد من أزر حكام العباسيين ، ويدلنا على علاقته السيئة بالخوارج، فالوليد هو الوليد بن طريف الشارى ، خرج على الرشيد سنة ١٧٨ وقتله يزيد بن مزيد سنة ١٧٩ .

وكان يزيد بن مزيد من الخطيبين بالشعر والشعراء (١) ، ويظهر أنه كان من العارفين بقدر الترك فى الحرب ، وجلدهم على خوض غمارها ، بعد أن واجه فرسانا منهم ، حتى ليقول فى نعتهم : — « ليس لبدن التركى على ظهر الدابة ثقل ، ولا لمشيه على الأرض وقع ، وانه ليرى وهو مدبر ما لا يرى الفارس منا وهو مقبل . وهو يرى الفارس منا صيدا ، ويعد نفسه فهدا ، ويعده ظبيا ، ويعد نفسه كلبا . والله لو رمى به فى قعر بئر مكتوفا لما أعجزته الحيلة »(٢) ، ومثل هذه الملاحظات والآراء فى نعت الفرسان والجنود تشكل - دون شك - ركنا أساسيا فى فكر القائد ، ذلك أنه يسجل بها خلاصة تجاربه فى الحرب والقتال .

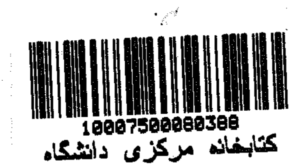
وقد يلى القواد منصب الوزارة ، من مثل ما هو معروف عن طاهر بن الحسين ذى اليمينين ، وهو الذى وطد أركان الحكم للمأمون بعد أن هزم جيوش الأمين(٣) ويظهر أنه كان لطاهر بن الحسين ولع بالشعر ونظمه ، ومن أشعاره قوله : —

ومقعص تشخب أوداجه قد بان عن منكبه الكاهل
فصار ما بينهما هوة يمشى بها الرامح والنابل (٤)

وكان من هؤلاء القواد من يضرب بهم المثل فى تدبير الخدع والمكايد من مثل خازم بن خزيمة من قواد المنصور ، وهرثمة بن أعين من قواد الرشيد ، والأمين (٥) .

---

(١) « البيان والتبيين » : ١ / ٣٤٢ .
(٢) « رسائل الجاحظ » : — (تحقيق هارون) ، ١ / ٥٨ — ٥٩ .
(٣) « الحيوان » : — ٣ / ٣٢٧ .
(٤) « الحيوان » : — ٦ / ٤١٣ — والمقعص الذى ضرب فمات مكانه ، والرامح ذو الرمح ، والنابل ذو النبل وهى السهام .
(٥) « البخلاء » : — ص ٩٩ .





٤ — الوزراء :

تعد الوزارة فى المجتمع العباسى ركنا من أركان نظم الحكم التى اتخذهـــا العباسيون عن الفرس ، إذ كان معظم الوزراء فى عصر الجاحظ من عناصر غير عربية وكثرتهم ممن ينحدرون عن أصل فارسى ، وكانوا فى غالب أمرهم يختارون من بين من يعملون فى الدواوين ، من ذلك أن أبا العباس السفاح قلد وزارته خالد بن برمك وكان من قبل على ديوانى الخراج والجند (١) ، وإن كان بعض الوزراء اختيروا من غير بيئة الدواوين من مثل محمد بن عبد الملك الزيات ، إذ نشأ فى بيئة التجار وكان أبوه من وجوهها (٢) . ويظن أن سلطات الوزارة لم تحدد بصورة واضحة فى أول عهد العباسيين لها ، وأنها « اتخذت شكلها النهائى فى أواخر العصر العباسى الأول » (٣) حين حظى الوزير بمكانة رفيعة فى المجتمع تقارب مكانة من ينصب « رئيس الوزراء فى أيامنا » (٤) إذ كثيراً ما كان الوزير ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد أو يولى العمال، ويشرف على الضرائب، ويجمع فى شخصه السلطتين : المدنية والحربية بجانب الواجبات العادية من نصح الخليفة، ومساعديه (٥) .

---

(١) « الوزراء والكتاب » للجهشيارى ص ٨٩ .

(٢) « الطبرى » (ط ، الاستقامة ، ١٩٣٩ م) : ٧ / ٢٣٤ .

(٣) « تاريخ الاسلام السياسى » : — د . حسن ابراهيم ، ٢ / ٢٥٧ .

(٤) « حضارة العرب » : — د . غوستاف لوبون، ترجمة محسن عادل (ط ، الحلبى ١٩٤٥ م) ص ١٩٢ .

(٥) « مقدمة ابن خلدون » : (ط ، بيروت ١٨٨٦ م) ص ٢٠٧ .

وقد صنف الجاحظ كتابا فى « أخلاق الوزراء » لم يصل الينا شىء عنه سوى اشارة عابرة فى صدر رسالة « فصل مابين العداوة والحسد » تنص على أن هذه الرسالة مسبوقة بكتاب ـ « فضل الوعد » ، وهو من الكتب التى أشـار إليها الجاحظ فى مقدمة حيوانه(١) وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب « أخلاق الوزراء» ويذكر فى صفة هذه الكتب جميعا أنها « انما نبلت وحسنت وبرعت ، وبذت غيرها ، لمشاكلتها شرف الأشراف ، بما فيها من الاخبار الأنيقة الغريبة ، والآثار الحسنة اللطيفة ، والأحاديث الباعثة على الاخلاق المحمودة ، والمكارم الباقية المأثورة ، مع ماتضمنته من سير الملوك والخلفاء ووزرائهم وأبنائهم ، وماجرت عليه أحوالهم (٢) ، ويرجح البعض أن هذه الكتب مما ألفه الجاحظ وقدمه لعبيد الله بن يحى بن خاقان (٣) .

ومن المؤكد أن منزلة الوزراء عند الخلفاء الأول من بنى العباس لم تكن واضحة ، حتى إننا نراهم شديدى القلق على مصيرهم غير آمنين على أنفسهم من تقلب أحوال الخلفاء عليهم ، ويقدم لنا الجاحظ صورة واحدمنهم ، هو أبوأيوب المورياني ، يظهره قلقا على مصيره فزعامن بطش الخليفة حين أتاه رسول المنصور ، وهو فى مجلسه ، فلاحظ الجالسون بين يديه تحـول حاله ، وأن الذعر ملك كل مشاعره ، وكأنه مقبل على أسوأ لحظات حياته ، لكنه مالبث أن عاد من عند الخليفة منشرحا وحين سئل عن سبب تغير حاله حين طلبه الخليفة ضرب لهم مثلا بأسطورة معايرة البازى للديك فى عدم الوفاء ، مدللا بذلك على أنه بالرغم من

---

١ ـــ « الحيوان » : ـــ ١ / ٩ .

٢ ـــ « رسائل الجاحظ » . (نشر وتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون) ، ١ | ٣٣٦ .

٣ ـــ « الجاحظ » . (د . طه الحاجرى) ص ٣٧٨ .

نشأته فى دار الخلافة الا أنه لا يأمن قط بطش الخليفة وغدره (١) ، ووقع ما كان يترقبه أبو أيوب ، اذ كشف المنصور أمورا أغضبته من وزيره ، وأخذ أمواله وخرب دياره ، حتى غـــدت عبرة لمن يعتبر. (٢)

وكان الوزراء ـــ فيما يظهر ـــ يعيشون شأن سادتهم حياة مترفه ، فكان لكثير منهم الاقطاعات ، وقيل أنه كانت للربيع بن يونس وزير المنصور قطيعة فيها خصى أثير عنده ، عظيم المنزلة « وكان يثق فى ملك يمينه ، وفى حرمه من بنت ، وزوجة وأخت ، لايخص شيئا دون شيء »(٣) ، وكان لابنه الفضل ، وزير الرشيد ، ثم الأمين دار عظيمة بإزاء درب السقائين ببغداد ، قيل أنه لما عزم على بنائها وهب له الرشيد من مال الأهواز « خمسة وثلاثين ألف ألف درهم ، معونة له على بنائها »(٤) مما يظهر لنا أى ترف ورونق كانت عليه تلك الدار . وتجمع على أبواب كثير منهم الشعراء ينالون من عطاياهم ، وكان لكثرة الشعراء عند باب الفضل بن يحى البرمكى أن دهش أحد سكان المدينة ، فلم يهدأ أن يعبر عن دهشته إلا بذلك البيت من الشعر يقول فيه :

مالقينا من جود فضل بن يحى .:. ترك الناس كلهم شعراء (٥)

وبالمثل كان الشعراء يفدون على باب محمد بن عبد الملك الزيات مادحين وكان من بينهم أبو تمام (٦) ، وبلغ من رقى ذوق كثير منهم أن سنوا سننا خاصة

---

(١) «الحيوان» : ـــ ٢ | ٣٦١ ـــ ٣٦٣ .

(٢) انظر وصف ديار الموريانى ، وما ألم بها من خراب «البيان والتبيين» : ٣ | ١٤٩ .

(٣) « الحيوان » : ـــ ١ | ١٧٢ .

(٤) « الوزراء والكتاب » . ـــ للجهشيارى ص ٢٨٩

(٥) « الحيوان » . ـــ ٣ | ١١٧

(٦) المصدر السابق . ـــ ١ | ٦٧ .

بأدب الحديث مع السادة، من ذلك أن الفضل بن الربيع وزير الأمين؛ وكان ملماً عارفاً بأصول أدب الحديث والمثول بين يدى الخلفاء، لم يعجبه مسلك قطرب النحوى حين دخل على الخليفة الأمين حدثه وهو مبتسم قائلا : — « يا أمير المؤمنين، كانت عدتك أرفع من جائزتك »، فاغتاظ الفضل لهذا القول الجافى (١) .

ويظهر أنهم كانوا يتخذون لأنفسهم المواكب الحافلة فى غدوهم ورواحهم من ذلك ما يذكره الجاحظ عن محمد بن عبد الملك الزيات من أنه كان يصحب فى موكبه بعض جند يسميهم الجاحظ : — « الشاكرية »، كانوا يمتطون الدواب (٢) . وتحولت مجالس كثير منهم إلى منتديات علمية وأدبية، إذ كان الفضل بن الربيع يعقد فى داره مجالس للعلم والأدب شهدها النظام، وأحمد بن يوسف، وقطرب النحوى وغيرهم من أدباء الناس وعلمائهم (٣)، ويحدثنا الجاحظ عن محمد بن عبد الملك الزيات بما يدل على حبه للعلم، واصطناع الكتب، وحسن السامة (٤) بما جعله « خبيراً بمفاتيح الأمور، ومواقع المنافع والمضار، ثم بمصالح العباد والبلاد » (٥) . وبالمثل كانت دار الفتح بن خاقان وزير المتوكل مجمعاً لفصحاء العرب، وعلماء الكوفيين والبصريين(٦)، حتى قيل عنه إنه « كان

---

(١) « البيان والتبيين » : — ١ / ٣٤٦ .

(٢) « الحيوان » : — ١ / ١٢٩ — ١٣٠ .

(٣) « البيان والتبيين » : — ٢ / ٣٣٠ .

(٤) رسالة « فى الجد والهزل » : — رسائل الجاحظ (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون)، ١ / ٢٤٧ .

(٥) نفس المصدر : — ١ / ٢٤٩ .

(٦) « معجم الأدباء » لياقوت، (ط، القاهرة)، ١٦ / ١٧٤ .

من أكبر الأسباب فى تلوين مجلس المتوكل بلون أدبى خالص يتميز به ، وكان اللون الكلامى هو الغالب على مجلس المأمون ومن بعده [1] .

ويظهر أن الوزير كان يجمع فى شخصه آنذاك السلطة العسكرية بجانب الواجبات الأخرى ، ويحدثنا الجاحظ عن جانب مما كان يعقده الفتح بن خاقان فى داره من مجالس فى رسالته « فى مناقب الترك » إذ يصور لنا مناظرة بين أهل الخبرة فى الأمور العسكرية وأحوال خصال الجند ومناقبهم، وتكاد تكون هذه المناظرة، التى استغرقت معظم صفحات الرسالة أشبه بمجمع عسكرى يناقش قدرات الجند ويدقق النظر فى فعاليتها نحو مواقف حربية يقدرون حدوثها ، وكأننا فى هذه المناظرة أمام مجلس من قادة الجند يناقش خططا حربية ، وهو ما اصطلح على تسميته باسم « المشروعات والمناورات العسكرية » فى عصرنا الحديث ، ونحن فى هذا المجلس الذى تعرضه الرسالة أمام « مشروع عسكرى » على مستوى قادة الجيوش ، يحددون فيه قدر جند الخلافة ، كذلك يصور لنا فى هذه المناظرة بطلان الزعم بأن جند الخلافة متباينون ، وأنهم موزعون على « خمسة أقسام :- خراسانى ، وتركى ، ومولى ، وعربى ، وبنوى » [2] ، ويذكر أن ذلك طرح أمام الفتح بن خاقان أثناء مجالسته أخلاطا من جند الخلافة [3] ، مما خشى معه أن يفرق بين عناصر الأمة ، ولم يفت ذلك ابن خاقان ، إذ أنه اعترض على صاحب هذا الزعم المستبد استنادا إلى أن عناصر الأمة لا خلاف بين أعراقها ، وأنهم على الرغم من خلافهم فى بعض الوجوه فإنهم من أعراق ، إن لا تكن

---

(١) « الجاحظ » : — (د . طه الحاجرى) ص ٣٥٥ .
(٢) « مناقب الترك » : — (رسالة الجاحظ) تحقيق هارون ، ١ / ٩ .
(٣) نفس المصدر : — ١ / ٨ .

راسخة فى أصلها فقد كانت متشابهة (١) . كما فند أسانيد معارض الوزير ، وبين الأسباب التى دعت إلى اتفاق عناصر الأمة وألفت بين قلوبهم (٢) .

وكان لبعضهم ألوان خاصة من اللهو ، من ذلك ما يذكره الجاحظ عن يعقوب بن داود وزير المهدى ، وولعه بتربية الحمام (٣) ، وما كان من تعلق عبيد الله بن يحيى وزير المتوكل بجارية يقال لها « سماع » ، بلغ من تعلقه بها أن جعل ذلك مشاكلا فى قيمته ما يحلم به الوزير من ولاية كسكر (٤) .

---

(١) « مناقب الترك » : — ١ / ٩ — ١٠ .
(٢) » » . — ١ / ٢٩ .
(٣) « الحيوان » : — ٣ / ٢٢٦ .
(٤) « الحيوان » : — ٥ / ١٩٥ — ١٩٦ .

الفصل الثالث

الطبقه الوسطى

١ — نشأة الطبقة الوسطى في المجتمع العباسي : —

نستطيع أن نتبين عاملين أساسيين كانا سببا فى ظهور الطبقة الوسطى فى المجتمع العباسى ، أحدهما إقتصادى ، والآخر اجتماعى :

أما العامل الإقتصادى فيتمثل فى ذلك الترف المسرف الذى عاشت فيه الطبقة العليا الحاكمة فى المجتمع العباسى ، بسبب تدفق الأموال فى خزائن الدولة ، حتى قالوا أن المنصور خلف حين توفى أربعة عشرمليونا من الدنانير ، وستمائة مليون من الدراهم(١) ، وأن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين مليونا من الدنانير(٢) ، ومن ثم عم الثراء والبذخ على أفراد هذه الطبقة ، وحواشيها ومن يلوذون بها . وقد هيأ هذا الترف المسرف « لنشوء طبقة وسطى فى بغداد

---

(١) « مروج الذهب » : — للمسعودى ، ٣ / ٢٣٢ .

(٢) « مقدمة ابن خلدون » : — (ط . المطبعة البهية) ص ١٢٧ — وانظر الجهشيارى ص ٢٨٨ ، حيث جعل هذا الدخل نحو خمسمائة وثلاثين مليوناً من الدراهم .

ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته[1] » .

ومن المحقق أن هذا العامل الاقتصادى أثر فى التكوين الطبقى للمجتمع بسبب الإرتقاء الحضارى الذى أصاب العرب فنقلهم إلى طور حضارى أعلى من حضارة أسلافهم بما عدل من أمزجتهم ، وأضعف من مناعتهم الصحراوية ، وخلق فيهم أذواقاً ، ومن ثم حاجات جديدة ، ولكى يشبعوا هذه الحاجات عمد بعض الجريئين منهم إلى البحث عن موارد إضافية كنا نود معرفتها بالتفصيل ، وكانت هذه الأقلية بالنسبة لضخامة العنصر العربى مجردة من أية مواهب خاصة ، مما اضطرها إلى مزاولة أعمال غامضة وثانوية فألفت بذلك طبقة وسطى ، يتردد شارل بيلا فى إطلاق صفة « البورجوازية » عليها[2] .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا العامل الإقتصادى ، وما تبعه من آثار حضارية عاملا اجتماعيا ، يتمثل فى الارتقاء الاجتماعى الذى أصاب طائفة الموالى فنقلها من قاع المجتمع فى العصر الأموى إلى الطبقة الوسطى ، وقد رأينا فئات منها تصل إلى الطبقة العليا في سلم الارتقاء الاجتماعى . ويرجع هذا الارتقاء إلى ما طرأ على أفراد هذه الطائفة من تغير فى الوظائف الاجتماعية التى يؤدونها بعد دورهم المشهور فى نجاح الثورة العباسية ، وإقامة الدولة الجديدة . ولعل ذلك مما دفع شارل بيلا إلى اعتبار أفراد طبقة الدواوين Bureacratia فى المجتمع الساسانى جزءاً من الطبقة البورجوازية فى المجتمع العباسى بعد دخولهم فى الإسلام ، يقول : — « أما طبقة الدواوين التى تتشعب إلى كتاب ، ومحاسبين ، وكتاب

---

(١) « العصر العباسي الأول » : ـ د . شوقى ضيف ص ٥٢ .

(٢) « الجاحظ » : ـ شارل بيلا ، ص ٣١٩ .

أحكام وأجازات وعقود، ومؤلفى تراجم، وأطباء، وشعراء ومنجمين، فهى تؤلف عندما تعتنق الاسلام جزءاً من الطبقة البورجوازية[1]. ومن ثم فإننا سنجد هذه الطبقة الوسطى مزيجاً من العناصر العربية، وغير العربية فى المجتمع العباسى، ونستطيع أن نتمثل صورة واضحة لهذه الطبقة من خلال ما يعرضه الجاحظ — فى كتاباته — عن طوائفها وفئاتها، من مثل حديثه عن: ـ التجار والشعراء، والقضاة، وكتاب الدواوين، والمغنين.

٣ — التجار:

من المحقق أن طائفة التجار توفرت لها وظيفة اجتماعية مرموقة وضرورية فى المجتمع العباسى، بعد ما أصاب حياة بعض طوائفه، وعلى وجه الخصوص فى طبقتيه العليا، والوسطى، من ترف فى الحياة وكل أسبابها المادية، من دور مزخرفة وفرش وثيرة، وثياب أنيقة معطرة، ومطاعم، ومشارب، ولهو من كل لون، والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفننا يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة. فقد هيأ هذا الترف لنشوء طائفة التجار الذين كانوا يقومون على مطالب هذا الترف وأدواته وكل المطالب الأساسية للحياة فى المجتمع. ويظهر أن هذه الوظيفة الاجتماعية كانت فى وقت من الأوقات، مستهجنة من بعض فئات المجتمع من مثل: ـ الكتاب والعاملين فى خدمة الخلفاء والولاة والوزراء، يدلنا على ذلك صنيع الجاحظ فى رسالته «مدح التجار، وذم عمل السلطان»، التى بقيت لنا فصول قصيرة منها[2] وهو يدافع فيها عن وظيفة التجار الاجتماعية، وما تضفيه على أصحابها من مركز اجتماعى وكيف أن هذه

---

(١) «الجاحظ»: — شارل بيلا، ص ٣٢٣.

(٢) أنظر «رسائل الجاحظ»: ـ (نشر ساسى)، ص ١٥٦ — ١٦٠.

الوظيفة اتخذها الأشراف من العرب ، وعلى رأسهم سادة قريش ، وأن طعن الطاعنين على التجار تلهيهم تجارتهم عن تحصيل العلم لا يقوم على أساس بدليل ما نراه من لفيف العلماء الثقات الذين فاقوا الأقران فى تحصيل العلم والمعرفة على الرغم من أنهم كانوا تجارا يسيحون فى الأرض وراء تجاراتهم . ويظن أن هذه الرسالة صنفها الجاحظ دفاعا عن محمد بن عبد الملك الزيات (١) ، بوصفه ممن ينتمون إلى طائفة التجار ، فكان توليه لمنصب الوزارة ، وهو من غير أفراد طائفة كتاب الدواوين ، مثار حقد الحاقدين ، وطعن الطاعنين ممن وصفهم الجاحظ بأنهم من « حشوة أتباع السلطان »(٢) . كما نراه يلتقط دفاعه عن التجار وعن وظيفتهم الاجتماعية من خلال اعتراف النابهين من أتباع السلطان بما للتجار من فضل حتى إنهم كانوا يتمنون حالهم ، وما يعيشون فيه من ترف ونعيم دون أدنى ضيم أو منة من أحدهابهم ، فهم « يعترفون بفضيلة التجار ، ويتمنون حالهم ، ويحكمون لهم بسلامة الدين ، وطيب الطعمة ، ويعلمون أنهم أروع الناس يدا ، وأهنأهم عيشا ، وآمنهم سرا ، لأنهم فى أفنيتهم كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة فى مكاسبهم ولا يستعبدهم الفزع لمعاملاتهم(٣) » ، ثم أنظر إليه يفصل القول فى وصف أحوال التجار من حيث معيشتهم ، وفرق ما بين أحوالهم ، وأحوال المقربين إلى السلطان وممن يعملون فى خدمته ، وكيف أن التجار يتمتعون بوفرة فى المال تسلمهم من غوائل الدهر ، وتحقق لهم الدعة ، وأسباب الترف ، وأنهم

---

(١) أنظر « الجاحظ : حياته ، وآثاره » (د . طه الحاجرى) ، ص٢٨٤

(٢) أنظر « رسالة فى مدح التجار » : - (نشر الساسى) ، ص ١٥٥ .

(٣) « مدح التجار » : ص ١٥٦ .

يصيبون ذلك دون منة من أحد عليهم، وليس كذلك حال عمال السلطان، فأولئك « لباسهم الذلة، وشعارهم الملق، وقلوبهم ممن هم لهم طول مملوءة قد لبسها الرعب، وألفها الذل، وصحبها ترقب الاحتجاج، فهم مع هذا فى تكدير، وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس، وتنكيل الصاحب، وتغيير الدول، واعتراض حلول المحن فإن هى حلت بهم وكثير ما تحل، فناهيك بهم مرحومين يرق لهم الأعداء فضلا عن الأولياء فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره، وغاية تحصيله، وبين من قد نال الوفاء عنه، والدعة، وسلم من البوائق، مع كثرة الإثراء، وقضاء اللذات، من غير منة لأحد ولا منة يعتد بها، وكم بين من قد استرقه المعروف، واستعبده الطمع، ولزمه ثقل الضيعة، وطوق عنقه الافتنان واسترهن بتحمل الشكر[1] » .

كذلك يعرض فى فصل آخر من رسالته، تصوره للاصول التى تستمد منها طائفة التجار مكانتها الاجتماعية، ومنها ما تدين له الدولة بسلطانها، ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو خيرة الله تعالى من خلقه كان من أهل بيت من بيوت التجار فضلا عن أنه عليه السلام، اتخذ من التجارة مهنة قبل بعثه، وهذا أمر يعرفه سائر المسلمين، وبالمثل فإنهم يعرفون ما تحقق لقريش فى الزمن القديم من مكانة إجتماعية بين القبائل العربية بفضل اتخاذ سادتها ورؤسائها التجارة مهنة لهم، يقتاتون منها، حتى أنه اشتق إسمها من التجارة والتقريش[2] .

وبالمثل يجعل الجاحظ من الاصول التى قامت عليها المكانة الاجتماعية لطائفة التجار أن من بين أفرادها من نبه فى العلم حتى يعد « أى صنف من العلم لم يبلغ

---

(١) « مدح التجار » : — ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٢) « المصدر السابق : — ص ١٥٦ .

التجار ، أو يأخذوا منه بنصيب ، أو يكونوا رؤساء أهله وعليتها(١) » وهو بذلك يرد على الطاعنين فى مكانة التجار الاجتماعية ، والقائلين بأن مهنة التجارة تدنى صاحبها إلى العامة .

ومن المحقق أن التجارة راجت فى العصر رواجاً عظيماً ، مما يظهر لنا أهمية الوظيفة الاجتماعية لمهنة التجار إذ غمرت الأسواق ألوان منوعة من البضائع جلبها التجار من أطراف الدنيا لتوفر ما كانت تتطلبه مظاهر الحياة لطبقات المجتمع العباسى وما صاحب هذه المظاهر من ترف وبذخ . ونستطيع أن نتمثل ذلك من خلال رسالة صنفها الجاحظ فى « التبصر بالتجارة » ، تدلنا على ما كان يجلب إلى العراق من أطراف الدنيا ، وما يصدر منه إلى سائر الآفاق من أحجار كريمة ، وأعلاق نفيسة وطرائف ثمينة ، ورياش غالية وما كان منها معمولا من الجواهر واليواقيت وبيان المغشوش من العطور والعقاقير ، وفرق ما بين قيمة العالى منها والمتوسط ، والردىء ، وكيف أن مهنة التجارة فى هذا العصر كانت تقوم على أسس بعينها فى العلاقات والمعاملات التجارية ونراه يسوق حديثه عن : – « أوصاف ما يستطرف من البلدان من الأمتعة الرفيعة ، والاعلاق النفيسة ، والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب ، وعونا لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب(٢) » . ويطرح فى صدر رسالته مسألة « العرض والطلب » لمناقشتها ، وبيان أثرها على قيمة السلع التجارية ، مبيناً كيف أن هذه القيمة ترتفع إذا مست الحاجة الاقتصادية إلى السلعة المعروفة وندر عرضها ، بينما تقل القيمة حين يكثر

---

(٣) المصدر السابق : – ص ١٥٧ .

(٤) « التبصر بالتجارة : – (الطبعة الثانية ، الرحمانية ١٩٣٥ م) ، ص ٩

المعروض من السلعة ، يقول فى ذلك : — « زعم بعض المحصلين من الأوائل أن الموجود من كل شىء رخيص بوجدانه ، غال بفقدانه إذا مست الحاجة إليه[1]» ، ويعرض ما يؤكد صحة هذا الزعم من خلال تجارب الشعوب الأخرى المسجلة فى أقوالهم المأثورة من مثل قول الهند « ما من شىء كثر إلا رخص ، ما خلا العقل فانه كلما كثر غلا »[2] ، ولعل قناعة التجار بهذا القانون جعلتهم يقومون فى مهنتهم على جملة من الأسس من مثل أنهم كانوا لا يشترون ما ليست إليه حاجة خشية ألا تتآكل رؤس أموالهم ببيعهم ما لا يستغنون عنه ، وهم فى ذلك يخططون لاستثمار رأس المال الخط الاقتصادى السليم ليحقق لهم أكبر عائد ممكن ، فقد كان يقال لهم : — « لا تشتروا ما ليس لكم إليه حاجة فيوشك أن تبيعوا ما لا تستغنون عنه »[3] ، وهم كانوا يشقون ويكدون فى عملهم ، ذلك أن مهنتهم تطالب منهم السعى وراء تجارتهم فى البلدان يتجولون مع أرزاقهم من بلد إلى آخر ، ومن أرض إلى أخرى ، وهم قد يغيرون نوع تجارتهم إلى ما يوافقهم من أنواع التجارات الأخرى ، ويدلل الجاحظ على ذلك بمثل قول الروم : — « إذا لم يرزق أحدكم فى أرض فليتحول إلى غيرها »[4] ، وبمثل قول العجم : — « إذا لم تربحوا فى تجارة فاعتزلوا إلى غيرها ، وإذا لم يرزق أحدكم بأرض فليستبدل بها »[5] وبالمثل كان الشائع بينهم أن القليل الدائم من الربح خير من الكثير المنقطع ، وأن من ينفق من كده وماله على تجارته يجنى أكثر مما لا ينفق

---

(١) « التبصر بالتجارة » : — ص ٩ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) « التبصر بالتجارة » : — ص ١٠ .

(٤) « التبصر بالتجارة » : — ص ٩ .

(١) نفس المصدر السابق .

فى سوقها إلا القليل ، ذلك أن « الرابح فى كل سوق هو البائع لما ينفق فيها » (١) وذلك لا ينفى إيمانهم بأن عائد أموالهم وان قل يجب أن يحسن استثماره ، وبلغ من إيمانهم بذلك أن قيل لبعض المياسير : — « بم كثر مالك ؟ قال : — ما بعت نسيئة ، (أى مؤجلاً) قط ولا رددت ربحا وإن قل ، وما وصل إلى درهم إلا وصرفته فى غيرها » (٢) ، ولم يكن عندهم أفضل من الحواس الخمس فى النظر فى بضائعهم ، وبيان فرق ما بين الطيب منها والردىء (٣) .

ومن الحق أن التجار كانوا يجلبون من البلدان طرائف السلع والامتعة ، والجوارى ، والاحجار ، وغير ذلك ، مما يوضح أنهم كانت تربطهم علاقات اقتصادية ببلاد الهند ، والصين ، والروم ، والمغرب ، واليمن ، ومصر ، والخزر ، وخوارزم ، وبلخ ، وبوشنج ، ومرو ، وجرجان ، وآمد ، وكرمان ، والرى ، وأصفهان ، وقومس ، والجور ، ونصيبين ، وفارس ، وعمان ، وسواحل البحر ، وميسان ، والاهواز ، والسوس ، والموصل ، وحلوان ، وأرمينية ، وأذربيجان ، وكانوا يجلبون من هذه البلدان أشياء شتى ، من مثل : — الاردية ، والعقاقير ، والعطور ، والجواهر والخدم ، والجوارى ، والصناع ، والبنائين ، وأصناف الحيوان ، وبالجملة كل ما يحتاج إليه المجتمع فى حياته اليومية ، وفى بناء حضارة زاهرة ، حتى إننا نستطيع رصد قائمة بما كان يباع فى الاسواق ، ويجلب إليها من البلدان ، وفى ذلك يقول الجاحظ : — « يجلب من الهند الببور ، والنمور ، والفيلة ، وجلود النمور ، والياقوت الاحمر ، والصندل الابيض ، والابنوس ،

---

(١) « التبصر بالتجارة » : — ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر السابق .

( ) المصدر السابق : — ص ٣٧ .

وجوز الهند ، ويجلب من الصين الفُرِنْد ، والحرير ، والغضائر (١) ، والكاغد ، والمداد ، والطواويس ، والبراذين الفرة ، والسروج ، واللبود ، والدارصيني ، والروند الخالص (٢) ، ويجلب من الروم : أواني الفضة والذهب ، والدنانير الخالصة القيصرانية ، والعقاقير ، والبزيون والأيرون ، والديباج ، والبراذين الفره ، والجواري ، وطرائف الشبة ، والأقفال المحكمة ، واللاذ (٣) ومهندسو الماء ، وعلماء الحراثة ، والأكارة ، وبناة الرخام والخصيان ، ومن أرض العرب : الخيل العراب ، والنعام ، والنجائب ، والقانة (٤) والأدم ؛ ومن البربر ونواحي المغرب : — النمور ، والقرظ (٥) ، واللبود ، والبزاة السود ، ومن اليمن : — البرود ، والأدم ، والزرافات ، والجواميس ، والعقيق ، والكندر (٦) والخطر (٧) والورس ؛ ومن مصر : — الحمر الهماليج ، والثياب الرقاق ، والقراطيس ودهن البلسان ، ومن المعدن الزبرجد الفائق ، ومن الخزر : ـ العبيد ، والإماء والدروع ، والبيضات ، والمغافر ، ومن أرض خوارزم : ـ المسك ، والقاقم ، والسمور والسنجاب ، والفنك ، وقصب الطيب ، ومن سمرقند : ـ الكاغد ، ومن بلخ

---

(١) نوع من الصحون (كما في تاج العروس) .

(٢) أنظر في تفسيرها . هامش التبصر بالتجارة ، ص ٢٦ .

(٣) نوع من الثياب .

(٤) شجر جبلي تتخذ منه القسي (لسان العرب) .

(٥) ورق السلم تدبغ به الجلود ، وقيل هو السنط يعتصر منه الأقاقيا ، وهو مما يتداوى به ، أنظر « لسان العرب » .

(٦) نوع من العلك ، وهو اللبان ، أنظر « تاج العروس » . ـ ٣ / ٥٢٩ .

(٧) نبات يجعل ورقة في الخطاب الأسود يختضب به ، أنظر « تاج العروس » ٣ / ١٨٣ .

ونواحيها: العنب الطيب . . . ومن مرو : ـ الضرابون بالبرابط ، والبرابط الجياد ، والطنافس والثياب المروية . . . ومن آمد : ـ الثيات الموشية، والمناديل، والمقارم ، والرقاق والطيالسة من الصوف . . . ومن الرى : ـ الخوخ ، والزئبق، والهمق ، والأسلحة والثياب الرقاق ، والأمشاط ، والقلانس الملكية ، والقسيات الكتان ، والرمان ، ومن أصفهان : ـ العسل ، والسفرجل ، والكمثرى الصينى ، والتفاح ، والملح ، والزعفران : والأسنان ، والاسفيذاج ، والكحل ، والسرر المطبقة ، والأثواب الجياد ، والشراب من الفواكه . . . ومن نصيبين : ـ الرصاص ، ومن فارس : ـ الثياب الكتان التوزى والسابرى ، وماء الورد ، ودهن النيلوفر ، ودهن الياسمين ، والأشربة . . . ومن الأهواز ونواحيها : ـ السكر ، والديباج الخز . . . ومن السوس : ـ الأترج ، ودهن البنفسج ، والهاسبرم ، والجلال ، والبرازع ، ومن الموصل : ـ السنور ، والمسوح ، والدرّاج ، والسمانى ، ومن حلوان : ـ الرمان ، والتين والكامخ (١) » .

وجعلوا ما يجلب إليهم من هذه الأشياء على مراتب ، وكانت قيمة كل شىء تحدد حسب مرتبته من الجودة ، من مثل ما يحدثنا به الجاحظ عن الذهب ، زعموا أن خيره « العقيان »(٢) ، وأن قيمة سبيكه وغير سبيكه ثابتة لا تتغير بفعل الزمن ، أو أى مؤثر آخر(٣) ، وكانت تضرب الدنانير من الذهب ، وكان خيرها الدنانير العتق الحمر إلى الخضرة، وزعم بعض الأوائل إنما يمتحن الدينار بالصوقه

---

(١) « التبصر بالتجارة » . ـ ٢٥ / ٣٤ .

(٢) » » . ـ ص ١١ .

(٣) » » . ـ » ١١ .

الشعر واللحية ، وصعوبة استمراره فيهما ، والنبهرج [1] من الدنانير يعتبر بخفته وثقله[2] ؛ وكانوا يتجرون فى الجواهر النفيسة ، وعد منها اللؤلؤ، والياقوت ، والزبرجد ، والفيروزج ، والعقيق ، والبيجازى ، والبلور، وخبروا أصنافها ، ومراتبها ،وقيمتها حتى قيل ان «حبة اللؤلؤ المدحرجة المعتدلة فى التدور إذا بلغ وزنها نصف مثقال ربما بلغت فى الثمن ألف مثقال ذهباً »[3] ، وأنه وربما بلغ ثمن فص الياقوت الأحمر البهرمانى الصافى خمسة آلاف دينار إذا بلغ وزنه نصف مثقال ، وقيل إن فص الخاتم الذى يسمى « الجبل » وكان من الياقوت بلغ وزنه مثقالين ، قوم بمائة ألف دينار ، وكان قد اشتراه المنصور بأربعين ألف دينار [4] ، وقد يتخذون من الزبرجد فصوصا لخواتمهم ، وكان فص الخاتم الذى يسمى « البحر » مصنوعا من الزبرجد ، وبلغ وزنه ثلاثة مثاقيل، اشتراه أبو جعفر المنصور بثلاثين ألف دينار »[5] .

وبالمثل كانوا يتجرون فى أنواع الطيب ، والعطر ، والروائح ، من مثل : ـ العود ، والمسك ، والعنبر [6] ، كما كانوا يتجرون فى الفرش ، والأكسية ، والأردية واللباس ، وربما بلغ ثمن القطعة من بعض ثيابهم خمسين دينارا [7]

---

(١) معرب نبهرة الفارسية ، وهو الدينار أو الدرهم المموه المزيف الردىء.

(٢) أنظر « التبصر بالتجارة » : ص ١١ .

(٣) « التبصر بالتجارة » : — ص ١٣ .

(٤) « « : — ص ١٣ .

(٥) « « : — ١٤ .

(٦) « « : — ١٦ ، وما بعدها .

(٧) « « : — ص ٢٢ .

ومنهم من كان يتجر في العاج ، وبالمثل كانوا كذلك يتجرون في أنواع من الحيوان ، من مثل : ـ السنجاب والثعالب ، والنمور ، وكان ثمن جلد الواحد من نمور البربر ومقداره ما يغشي سرجا مفردا خمسين دينارا(١) .

وكان من بين التجار من اتجر في الكلاب ، والسنانير ، والحداء ، وأنواع الضأن ، حتى إن الجاحظ يقول : « وللسنور تجار وباعة ودلالون وناس يعرفون بذلك ، ولها راضة »(٢) فهم لم يقفوا عند بيعها فقط بل راضوها وعرفوا أصول ذلك ، ويظهر أن هذا الصنف من التجار والدلال والراضة كان يميل إلى الغش والخداع ، يدلنا على ذلك ما رواه في حيوانه عن السندي في هؤلاء التجار(٣) ، ولم يكن السنور يسوى شيئا من حيث « قيمته الشرائية » ، إذ أنه كان « يسوى في صغره درهما ، فإذا كبر لم يسو شيئا »(٤) ، وبالمثل اختلفت قيمة الماعز والضأن حسب نسلها ، وقدر لبنها ، وكذلك اختلفت قيمة جلودها حسب أنواعها وسلالاتها(٥) . وبالمثل اتجروا في جوارح الطير فكان منهم من اتجر في الدجاج ، وعرف أنه « إذا كثر الدجاج في دار أو اصطبل أو قرية ، لم يكن عدد بيضها ، وفراريجها على حسب ما كان يبيض القليل منها ويفرخ،(٦) ذلك أن في تداني الدجاج ، وتضاغطها ، وأنفاسها ، وأنفاس أبدانها يحدث لها

---

(١) « التبصير بالتجارة » : ص ٢٤ .

(٢) « الحيوان » : ٥ / ٣٣٩ .

(٣) « الحيوان » : ٥ / ٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٤) « الحيوان » : ٥ / ٣١٥ .

(٥) « الحيوان » : ٥/ ٤٧٧ .

(٦) « الحيوان » : ٢/ ٣٣٢ .

فساه ، ومن هذا السبب صار الدجاج إذا كثر قل بيضه وفراخه »(١) ، ويظن أنهم اتخذوا مراعى للدجاج ولعل أصل ذلك أتاهم من مصر ، ذلك أن الجاحظ يذكر أن — الدجاج بمصر « ترعى كما يرعى الغنم ، ولها راع وقيم »(٢) ، ولم يكن عندهم فى هذا الباب أشهر من تجارة الحمام وتربيته ، وبلغ من عنايتهم بها أن صنفوا فى أنساب الحمام الكتب وقيل أن «دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التى تضاف إلى بعض النسابين »(٣) « والحق أن أصحاب الحمام كان « لا يخفى عليه نسب الحمام ، وجنسها ، وبلادها إذا رآها »(٤) ، وذلك كله من شأنه أن يؤثر على أثمانها ، وللحمام فى ذلك ، من الفضيلة والفخر ، أن الحمام الواحد يباع بخمسمائة دينار ، ولا بلغ ذلك باز ، ولا شاهين ، ولا صقر ولا عقاب ولا طاووس ، ولا تدرج ، ولا ديك ، ولا بعير ، ولا حمار ، ولا بغل »(٥) ، وقيل أن مبلغ الفرخ الذكر من الحمام من حمام الغاية يقدر بعشرين دينارا أو أكثر ، والأنثى بعشرة دنانير والبيضة بخمسة دنانير « فيقوم الزوج منها فى الغلة مقام ضيعة ، وحتى ينهض بمؤنة العيال ، ويقضى الدين ، وتبنى من غلاته ، وأثمان رقابه الدور والجياد »(٦) .

ومن الحق أن كل شىء كان له ثمنه فى سوق التجارة ، حتى الفضلات والنفايات كانت لها قيمتها ، ويعرض الجاحظ لنا فى بخلائه صورة لسبل الإفادة

---

(١) « الحيوان » : ٢ / ٢٣٥ .
(٢) « الحيوان » : ٢ / ٢٣٠ .
(٣) « الحيوان » : ٣ / ٢٠٩ .
(٤) « الحيوان » : ٣ / ٢١١ .
(٥) « الحيوان » : ٣ / ٢١١ .
(٦) « الحيوان » : ٣ / ٢١٢ .

من كمساحة البيوت ، توضح لنا تقديرهم لقيمة كل شيء مهما كان نوعه ، أو ما يعود عليهم من ورائه من عائد[1] ، ولا نظن أنهم تركوا شيئا إلا واتجروا فيه ، حتى إنه كان من بينهم البقالون يقومون على ابتياع الحوائج اليومية[2]، وكانوا يتخذون فى أكثر الأحوال سنانير قالوا لها : « السنانير البقالى » ، لأنها أصيد للفيران من غيرها[3] ، وأنه كانت هناك أنواع من السويقات خصت بالاتجار فى سلع بعينها ، ومن ذلك ما كان عند شط دجلة من سويقات يبتاع فيها التمر والسمك[4] . وكان يقوم على الفصل ما بين الباعة والمشترين فى هذه الأسواق رجال عرفوا باسم « المساحة »[5]، وكانوا يقومون على حراسة الطرق داخل البلدان والأمصار من مثل البصرة[6] .

والذى لاشك فيه أن هذه الألوان المتباينة من التجارات كانت فى حاجة إلى رؤوس أموال اختلفت هى الأخرى قلة وكثرة وضيقا وسعة حسب نوع التجارة ، فمن التجار من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار[8] ، ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ، ومليونين وستمائة ألف من الدراهم »[2] ، وكان

---

(١) « البخلاء » : ١٤٢ / ١٤٣ .

(٢) « الحيوان » : ١٤٢ : ١٤٣ .

(٣) « الحيوان » : ٢ / ١٧٩ .

(٤) « الحيوان » : ٥ / ٣١٨ .

(٥) « الحيوان » : ٥ / ٥٩٨ .

(٦) « الحيوان » : ٥ / ٣٤٠ — ٣٤١ .

(٧) « الحيوان » : ٥ / ٣٣٩ .

(٨) « الحيوان » : ص ١٠١

(٩) « البخار » : ص ٣٤ .

أكثرهم ثراء، التجار البحريين ، والبصريين ، وكان الثراء متفاوتا بين تجار الصنف الواحد ، من ذلك أنه قيل : « ليس فى الأرض تجار شراب ولا غير ذلك أيسر من تجار شراب العسل الذى ينتبذ بمصر »(1) .

ومن الحق أنهم أدركوا قيمة المال وأثره فى المعاملات ، وعنده أن « الدرهم هو القطب الذى تدور عليه رحا الدنيا . . »(2) ، وكان من أثر رواج الحياة الاقتصادية أن رخصت تكاليف المعيشة ، وأثمان الأشياء ، فى البلدان ، ذلك أنه كلما انتعشت الحياة الاقتصادية فى بلد ما أثر ذلك على تكاليف الحياة فيها يدلنا على ذلك ما يعرضه الجاحظ فى كتابه « البلدان » من أن الأثمان بالبصرة ممكنة ، والمثمنات ممكنة بمقارنتها بالأثمان ، والمثمنات ببغداد ، أو بالكوفة ، أو بالأهواز ، وذلك بسبب وفرة العروض التجارية بالبصرة بفضل موقعها التجارى ، أنظر إليه يضرب لذلك المثل بقوله : « ولو أن رجلا إبتنى دارا يتممها ويكملها ببغداد ، أو بالكوفة ، أو بالأهواز ، أو فى موضع من هذه المواضع ، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم ، فان البصرى إذا بنى مثلها بالبصرة لم ينفق خمسين ألفا لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين ، والآجر ، والساج ، والخشب والحديد والصناع ، وكل هذه يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن فى غيرها»(3)

٣ — الشعراء :

تزخر كتابات الجاحظ بمادة وفيرة عن الشعر والشعراء فى عصره وقبل عصره ، حتى إننا نستطيع تمثل صورة واضحة للمكانة الاجتماعية للشعراء

---

(1) « البخلاء » : ٥ / ٤٢٩ .

(2) « الحيوان » : ص ١٧٠ .

(3) « كتاب البلدان » للجاحظ : مخطوطة فصول الجاحظ بالمتحف البريطانى (ثانى ص ٢١٩) .

فى هذا العصر . والثابت أن الشعراء تحققت لهم فى المجتمع العباسى مكانة اجتماعية مرموقة ، وذلك أن الشعر حظى باهتمام خاص آنذاك ، فأصبحنا أمام سيل متدفق من الشعراء ، رسموا بحق صورة نابضة لحياة مجتمعهم ، وغدا الشعر أشبه ما يكون بالصحف السيارة فى عصرنا الحالى ، بما يكتنفها من تنوع ، وتطور ، وتخصص ، فاذا بنا أمام طائفة من السادة ، ومن النابهين فى فنون المعرفة والعلم ، يتركون بين آثارهم شيئا من القصيد يؤكد قدرتهم على نظم الشعر ، من مثل ما هو معروف عن الخليفة المهدى ، والوزير محمد بن عبد الملك الزيات[1] ، وكان الجاحظ نفسه من بين هؤلاء الذين تركوا بين آثارهم أشعارا من نظمهم[2] وكان هناك جمهور كبير من الشعراء مثل أبى العتاهية ، وسمع يقول : « لو أنه أراد أن يكون كلامه كله شعراً موزونا لكان »[3] ، وقيل أنه كان لا يسمع كلمة من بعض من يجالس معهم تصلح أن تكون شعراً إلا نظمها توا على البديهة[4] ، وصنع أبان ابن عبد الحميد اللاحقى كتاب « كليلة ودمنة » شعرا ، وأهداه إلى جعفر بن يحيى البرمكى فوهب له مائة ألف درهم[5] ، وبلغ من عناية بعضهم

---

(١) أنظر فى أشعار ابن الزيات (الأغانى — ساسى) ٢٠/٥٥ — وأنظر « العصر العباسى الأول » ، د . شوقى ضيف ، ص ٥٦٠ .

(٢) أنظر مثلا فى مديحه لابن أبى داود . « البيان والتبيين » ، ١ /٢٢٣ ، ومن أشعاره فى إبراهيم بن المدبر ، أنظر « رسائل الجاحظ » (السندوبى) ص ٣١٤ .

(٣) « البيان والتبيين » : ١ / ١١٥ .

(٤) « الحيوان » ٥ . / ١٢٧ .

(٥) « الوزراء والكتاب » . للجهشيارى ، ص ٢١١ .

بلغة شعرهم أن جالسوا علماء اللغة والفصحاء ، يعرضون عليهم أشعارهم ليجيزوها لهم ، بل أن منهم من كان يأخذ اللغة من الأعراب الفصحاء حتى تصدر أشعارهم محتفظة بكل ما يمكن من صحة ، وسلامة ، ودقة ، من مثل صنيع أبى نواس ، كان ممن يفدون على مربد البصرة بالواحة للقاء الأعراب الفصحاء[1] .

وبلغ من علو المنزلة الاجتماعية للشعراء فى هذا العصر أن رأينا كثيرا منهم يرتادون دور الخلفاء والأمراء ، والوزراء ، وكانت مجالس هؤلاء السادة مباحة لهم ، وتحول جانب منها إلى ما يشبه الندوات الأدبية النقدية ، تناقش فيها الأعمال الأدبية ، وينتقد أصحابها ، من مثل ما كان عليه مجلس عقبة ابن سلم ، وما دار فيه من جدل بين عقبة بن رؤبة ، وبشار بن برد حول بعض الأراجيز[2] ، ويظهر أن علاقة بعض الشعراء توثقت بنفر من هؤلاء السادة حتى سمعنا أن أبا العتاهية أهدى الخليفة المأمون جملة من العصى وصفها الجاحظ فى بيانه[3] . وكان الشعراء ينالون من هؤلاء السادة المنح والعطايا الكثيرة ، من ذلك ما يرويه الجهشيارى عن الجاحظ من أن أبا قابوس النصرانى الشاعر كان منقطعا إلى البرامكة ، وأنه كتب إلى جعفر بن يحيى البرمكى شعرا يستهديه بعض الملابس ، فوجه الوزير إلى الشاعر من كل صنف ذكره عشر قطع ، ومن أشعار أبى قابوس قوله .

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا رأيت مباهاة لنا فى الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخزجبة لباهيت أصحابى به فى المجالس

---

(١) « الحيوان » : ٦ / ٢٣٩ .
(٢) « البيان والتبين » : ١ / ٤٩ — ٥٥ .
(٣) المصدر السابق . ٣ / ١٢١ .

فلا بد لى من جبة من جبابهم ومن طيلسان من جياد الطيالس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس(١)

ولعلنا من أجل هذا رأينا كثيرا منهم يحيون حياة مترفة ، فكان بعضهم مولعا برحلات الصيد ، من مثل ما نراه عند أبى نواس من ولع لهذه الرحلات والحديث عن كلاب الصيد إذ كان « لعب بالكلاب زمانا ، وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب »(٢) ، وبالمثل كان منهم من يشهدون مجالس الخمر ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن ابن مياده وشعره فى نعت الخمر ومجالسها(٣) ، وبلغ من ترف حياتهم أن لبسوا الوشى والمقطعات الحريرية(٤) .

وكان من أثر الحياة المترفة لهؤلاء الشعراء ، وما صاحبها من رقى ذوقهم وتحضرهم ، أن دفعهم ذلك التحضر إلى « استحداث أسلوب مولد جديد ، وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسطة بين لغة البدو الزاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الزاخرة بالكلمات المبتذلة »(٥) ، وعد الجاحظ فى طليعة الشعراء الذين أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد ، بشار بن برد ، والسيد الحميرى ، وأبا العتاهية ، وابن أبى عيينة ، وأبان بن عبد الحميد اللاحقى ، وعنده أن بشار بن برد « أطبع المولدين على الشعر » وأنه « لم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار ، وابن هرمة(٦) .

(١) الوزراء والكتاب الجشيارى ٢١٠ .
(٢) « الحيوان » : ٢ / ٢٧ .
(٣) « البيان والتبيين » : ٣ / ٣٤٩ — ٣٥٠ .
(٤) « البيان والتبيين » : ٣ / ١١٥ .
(٥) « العصر العباسى الأول » : (د . شوقى ضيف) ، ص ١٤٦ .
(٦) « البيان والتبيين » : ١ / ٥٠ — ٥١ .

وكان الشعراء يسايرون روح العصر من حبب العالم والمعرفة ، يتلمسونها ، عند العلماء ، وفى مجالسهم ، وفى الكتب المترجمة ، وما كانت تهوى من كنوز المعرفة والعلم ، حتى إن بعضهم من مثل محمد بن يسير حرص أن تكون فى داره مكتبته الخاصة تحوى من كنوز الأدب ما يغذى به عقله ونفسه معرفة وعلما ، يقول فى نعت ما يحوط به نفسه من كتب :

هم مؤنسون وآلاف غنيت بهم فليس لى فى أنيس غيرهم أرب
فأيما آدب منهم مددت يدى إليه فهو قريب من يدى كتب(1)

وبالمثل رأينا بعضهم يمتدحون فى شعرهم فضل الأدب والعلم(2).

ومن الحق أن الشعراء العباسيين صوروا بيئتهم الاجتماعية بجميع مظاهرها وعناصرها الصامتة والمتحركة أصدق تصوير بشكل لم ينفذ إليه الشاعر العربى القديم فى وصفه للصحراء وحيوانها الأليف والوحشى(3)، ومن ثم رأينا كثيرا من الشعراء يتحدثون فى أشعارهم عما يشيع فى عصرهم من معارف شتى مثل معارفهم عن الحشرات ، وأصناف الحيوان ، واتخذ بعضهم من عرضه لمثل هذه المعارف ما يدلل به على حكمة الله البالغة فى خلق الكون ، من مثل صنيع بشر ابن المعتمر المعتزلى(4)، والحكم بن عمرو البهرانى وأشعاره عن غرائب الخلق(5) وأشعار هرون مولى الأزد فى وصف الفيل ، وصورة خلقه وتركيبه(6) ، وما

---

(1) « الحيوان » : ١ / ٩٥ ، وما بعدها .

(2) « البيان والتبيين » : ١ / ٢٦٣ .

(3) « العصر العباسى الأول » : د . شوقى ضيف ، ص ١٨٥ .

(4) « الحيوان » : ٦ / ٢٨٣ — ٢٩٧ .

(5) « الحيوان » : ٦ / ٨٠ — ٨٤ .

(6) « الحيوان » : ٧ / ٧٦ .

جاء في شعر خلف الأحمر في نعت الحيات(١)، وقول جهم بن خلف في نعت الحمامة ونوحها(٢)، وتحدث كثير منهم عن بعض المعارف العلمية في عصرهم من مثل أشعار صفوان الأنصاري في فضل الأرض، وما تحمل من كنوز ومعادن كريمة(٣)، ومثل هذه الأشعار تدل على ما أصاب الشعراء في هذا العصر من رقي مما يجعلنا أمام فن شعري جديد، هو «الشعر التعليمي»، وكان مما دفع إلى ظهوره النشاط العقلي في العصر.

وبالمثل تناول بعض الشعراء في قصائدهم موضوعات تصف الحياة اليومية من مثل ما جاء في أشعار طارق بن أثال الطائي في نعت بغداد وزحامها بالموالي يقول:

ما إن يزال ببغداد يزاحمنا ... على البراذين أشباه البراذين
أعطاهم الله أموالا ومنزلة ... من الملوك بلا عقل ولا دين
ما شئت من بغلة سفواء ناجية ... ومن أثاث وقول غير موزون(٤)

ومنهم من تحدث عن النزاع بين المصدقين (جامعي الزكاة) والمتصدقين، ويظهر أنه كان دائما، يتخذ مظهرا قاسيا في بعض الأحوال، وفي ذلك يقول العماني:

---

(١) «الحيوان»: ٤ / ٢٧٩ — ٢٨٠.
(٢) «الحيوان»: ٣ / ٢٤٢ — ٢٤٣.
(٣) «البيان والتبين»: ١ / ٢٧، وما بعدها.
(٤) «البيان والتبين»: ١ / ٢٢٧ سفواء. خفيفة سريعة.

هات يرى ضرب الرجال مغنما | إذا رأى صدقا تجهما
وهز فى الكف، وأبدى المعصما | هراوة نبعية أو سلما
تترك مارام رفاتا رمما(1)

ووقف كثير منهم على تحليل دقيق لمشاعر النفس الإنسانية حين يفجعها القدر، ويصيب صاحبها بما لا يطيق من الضرر والغم، كأن يصبح ضريرا بعد أن عاش سنة، من مثل ما حدث لأبى يعقوب الخريمى، وصنيعه فى أبيات فى نعت حاله مصورا أحاسيسه، وقد غاب بصره حين طعن فى السن، فصدرت كلمات أبياته عن نفس مفعمة بالأسى، يتفجع صاحبها تفجعا مرا، يقول:

أصغى إلى قائدى ليخبرنى | إذا التقينـــا عمن يحيينى
أريد أن أعدل السلام وأن | أفصل بين الشريف والدون
أسمع ما لا أرى فأكره أن | أخطىء والسمع غير مأمون
لله عينى التى فجعت بها | لو أن دهرا بهـــا يواتينى
لو كنت خيرت ما أخذت بها | تعمير نوح فى ملك قارون(2)

٤ — القضاة :—

حظى القضاة، فى المجتمع العباسى، بمكانة اجتماعية مرموقة إذ كان القاضى فى مرتبة أعلى من الوالى من حيث النظر فى الشكايات والمظالم، يدلنا على ذلك ما يرويه الجاحظ فى حيوانه من أن رجلا استدان ولم يرد الدين لأصحابه، ولما رفعوا أمره إلى الوالى، ادعى الجنون، فما كان من الوالى إلا أن رفعه مع شاكيه إلى

---

(1) «البيان والتبيين»: ٣ / ٧٣ المصدق: الذى يتولى جمع الصدقات، وهى الزكاة. نبعية: من النبع، وهو شجر تتخذ منه القسى. السلم: ضرب من الشجر الرفات: الحطام من كل شىء تكسر.

(2) «الحيوان»: ٣ / ١١٣.

الوالى ، ادعى الجنون ، فما كان من الوالى إلا أن رفعه مع شاكيه إلى القاضى ليقضى فى أمره(١) ، وكان من القضاة من ينزل منزلة خاصة لدى الخلفاء ، من مثل ما هو معروف عن يحيى بن أكثم ، كان فقيها عالما ، وغلب على المأمون فترة من الزمن ، فولاه قضاء القضاة ، وتدبير أهل مملكته ، فكانت الوزراء لا تعمل شيئا فى تدبير الملك إلا بعد مطالعته(٢) ، ويظهر أن المأمون كان يوكل إليه تصريف أمر بعض الدواوين(٣) ولم يكن ينافسه الأثرة لدى المأمون غير ثمامة بن أشرس المعتزلى .

وكان أفراد المجتمع ينزلون القضاة منزلة عالية ، يدلنا على ذلك ما يرويه الجاحظ فى بيانه ، من أن أهل البصرة كانوا لا يشكون أنه لم يكن بها رجل أعقل من قاضيها عبيد الله بن الحسن(٤) . ولعل ذلك يجعلنا نميل إلى أن ما امتاز به القضاة من مكانة اجتماعية ، إنما جاء بفضـــل علمهم وتفقههم فى أمور الدين التى يستمدون منها أحكامهم .

ويظهر أنه كان يشترط فى القاضى ألا يكون عيا لا يحسن التعبير عما يريد الافصاح عنه ، وعابوا أن تكون به حدة فى طباعه ، وكانوا يفضلونه أن يكون حسن الشكل(٥) .

---

(١) « الحيوان » ٣/١١٣ .

(٢) « الحيوان » : ٢/١٧١ — ١٧٢ .

(٣) انظر تاريخ بغداد « : ١٤/١٩٧ — ١٩٨ ، وترجمته فى « وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/٢١٧ — ٢٢٤ .

(٤) انظر « رسائل الجاحظ » : تحقيق عبد السلام هارون ٢٠/٢٠٨ .

(٥) « البيان والتبيين » : ١/٢٧٥ .

وكان من واجباتهم — فيما يظهر — القيام على خطب الجمع في المساجد الجامعة ، تأكيد الفضل علمهم وفقههم ، ويظهر أن هذا كان شأنهم منذ العصر الأموى ، إذ يذكر الجاحظ طائفة من الفضلة ممن ولوا منبر البصرة ، بعضهم كان من قضاتها فى زمن الأمويين ، من مثل بلال بن أبى برده(١) ، وبالمثل كان من بين واجباتهم الفصل فى مسائل الخلافات الزوجية(٢) ، ونظن أن عملهم فى العصر كان يقوم فى بعض جوانبه على أعمال العقل والفطنة فى إصدار أحكامهم ، فرفض بعضهم أقوال لفيف من الفقهاء والأئمة وأفتى بعضهم بالرأى من مثل القاضى عبد الرحمن بن أبى ليلى ، روى له الجاحظ خبرا فى الحيوان يدلنا على أنه كان فقيها مفتيا بالرأى ، مناظرا فيما يستفتى فيه بقصد الوصول إلى رأى مصاب(٣) وبلغ من فطنة بعض القضاة أن كشفوا عن حيل شرعية كان المتقاضون يتخلصون بها من بعض الأحكام ، أو من بعض المحظورات ، وألف بعضهم تصانيف فى مثل هذه الحيل ، من مثل صنيع أبى يوسف قاضى المهدى والرشيد ، جاء فى «الحيوان» ذكر كتاب له فى هذا الباب(٤) الذى يقدم صورة لعمل القاضى ازاء اختلاط ألوان الحياة الإجتماعية فى مجتمعه .

وتوثقت صلة الجاحظ ببعض القضاة فى عصره ، من مثل القاضى أبى عبد الله أحمد بن أبى دواد الذى ولى القضاء للمعتصم ثم للواثق ، وكان له مجلس علم يشهده من أطباء العصر وعلمائه سلمويه ، وابن ماسويه ، وبختيشوع

---

(١) « البيان والتبيين » : ٢٩٤/١ .
(٢) « الحيوان » : ٥٦٧/٥ .
(٣) « الحيوان » : ١٧/٣ .
(٤) « الحيوان » : ١١/٣ .

ابن جبريل ، يذكر الجاحظ أنه شهد هذا المجلس حين كانوا يناقشون مسألة « ما إذا كان ينفع الترياق من نهشه أم لا »[1] ويظهر أن أبا دواد كان محبا للعلم والعلماء ، وأنه كان بجانب توليه منصب قاضى القضاة ينظر فى المظالم ، وفى ذلك يقول الجاحظ فى رسالة يقوم له فيها كتابه « الفتيا » : (وأنت أيها العالم معلم الخير وطالبه ، والداعى إليه وحامل الناس عليه — من موضع السلطان بأرفع المكان ، لأن من جعل الله اليه مظالم العباد ، ومصالح البلاد ، وجعله متصفحا على القضاة ، ومتقادا على الولاة ، ثم جعله الله منزع العلماء ، ومفزع الضعفاء ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بأرفع المنازل ، وأسنى المراتب[2] ، « وانظر إليه يصف عمله » : أنه السوق التى لم ير فيها شيئا ينفق إلا العلم والبيان عنه ، وإلا العمل الصالح والدعاء اليه ، إلا التعاون على مصلحة العباد ونفى الفساد عن البلاد[3] » وأنها « سوق لا ينفق فيها إلا إقامة السنة وإماتة البدعة، ورفع الظلامة ، والنظر فى صلاح الأمة[4] . « وذلك العمل من شأنه أن يعمر الدنيا ويؤيد الملك[5] . وكان الجاحظ يمتدح ابن أبى دواد برجاحة العقل ، وحسن البيان ، وقوة الحجة ، وهو يسجل هذه الصفات فى مدحه له رواها فى « البيان »[6] ، ونراه يوثق صلته أيضاً بأبى الوليد محمد بن أحمد بن أبى دواد قاضى بغداد فى خلافة المتوكل ، ولى القضاء بعد أن فلج أبوه أحمد بن أبى دواد

---

(١) « الحيوان » : ١٢٣/٤ — ١٢٤ه
(٢) « رسائل الجاحظ » : (تحقيق عبد السلام هارون) ، ٣١٣/١ .
(٣) « رسائل الجاحظ » : (تحقيق عبد السلام هارون) ، ٣١٧/١.
(٤) «كتاب الفتيا » : رسائل الجاحظ ، (تحقيق عبد السلام هارون ٣١٧/١
(٥) المصدر السابق : ٣١٨/١ .
(٦) « البيان والتبيين » . ٢٢٣/١ .

وقد صنف الجاحظ لأبى الوليد رسالة فى « المعاد والمعاش » ، يدور فيها جملة من قواعد السلوك الاجتماعى . ومبادىء المعاملة بين الناس كما ينبغى أن يكون ما يراه الجاحظ مفيدا لرجل فى مركز أبى الوليد الاجتماعى ، ذلك أن القضاء جعله رجل دولة يلى من وظائفها العامة مايجعل صلاته بطبقات مجتمعه تأخذ صورة جديدة يرى الجاحظ أنها ذات سمات بعينها يبصره بها فى هذه الرسالة خاصة وأنها أمور لاتدرك بالعقل ، والفهم ، والطبع الكريم الذى يتمثل فى أبى الوليد ، ولكنها أمور فى حاجة إلى معاونة العقل المكتسب ، « وهذه حقيقة أجمع عليها الحكماء[1] » .

وأننا لنراه يعرض تصوره لهذه الآداب فى جملة من الوصايا يوصى بها صاحبه من مثل : « تقوى الله »[2] ، وأن يحذر مغبة « الاغترار به والأذعان فى أمره ، والاستهانة بعزائمه ، والأمن ، لمكره »[3] ، ويعهد إليه بأن يتخذ فى سياسة الناس مسلك الترغيب والترهيب ، وعنده أن ، « الرغبة والرهبة أصلا كل تدبير ، وعليها مدار كل سياسة ، عظمت أو صغرت ، فاجعلها مثالك الذى تحتذى عليه وركنك الذى تستند إليه »[4] ، ولابد له أن يقيم معاملته لمن بينهم وبينه مودة أو حرمة ، على حسن تقديره لمنازلهم وأقدارهم ، غير مؤثر فى ذلك أحدا منهم لموت ، لأن ذلك يوجب سخطهم عليه واستصغارهم لقدره[5] ، ثم

---

(١) « المعاد والمعاش » : رسائل الجاحظ ، (تحقيق عبد السلام هارون) ١ / ٩٦ .

(٢) المعاد والمعاش : ١ / ١٠٠ .

(٣) المصدر السابق : نفسه ١/١٠٠

(٤) نفس المصدر : ١ / ١٠٦ .

(٥) نفس المصدر : ١ / ١٠٧ .

هو يطلب منه أن يجعل العدل والنصفة في الثواب والعقاب حاكما بينه أخوانه، يقول : فمن قدمت منهم فقدمه على الاستحقاق ، وبصحة النية في المودة ، وخلوى نصيحته لك بماقد بلوت من أخلاقه وشيمه ، وعلمت بتجربتك له يعلم أن صلاحه موصول بصلاحك ، وعطبه كائن مع عطبك ففوض الأمر إليه ، وأشركه في خواص أمورك ، وخفى أسرارك ، ثم أعرف له قدره في مجالسك ومحاورتك ومعاملتك ، في كل حالاتك ، ومزاولاتك معه ، ويحضره جلسائك فان ذلك زيادة في نيته ، وداعية لمن دونه إلى التقريب إليه بمثل نصيحته(١) » .

٥ — كتاب الدواوين :

يسلك كتاب الدواوين ، بين فئات الطبقة الوسطى في المجتمع العباسي وكانوا كذلك — من مثل مامر بنا — في المجتمع الساساني . بين فئات طبقة الدواوين Bureacratie ، مع المحاسبين ، والأطباء ، والشعراء والمنجمين(٢) . ويدلنا الجاحظ على أن الفرس خاصة ، غلبوا على هذه الفئة ، ويظهر من حديثه عنهم أن هذه الغلبة كانت منذ العهد الأول للاسلام(٣) ، ومن الحق أن تحول الخلافة إلى العباسيين ، على سواعد الجيوش الخرسانية كان « ايذانا بغلبة الطوابع الفارسية على نظم الحكم السياسية والادارية الدولة العباسية ، فقد قامت في المجال الفارسي ، وعاشت تتنفس فيه (٤) » .

---

(١) « رسائل الجاحظ » : ١ / ١٠٧ ، ومابعدها .

(٢) « الجاحظ في البصرة » : شارل بيلا ، ص ٣٢٣ .

(٣) انظر ثلاث رسائل للجاحظ : تحقيق يوشع فنكل (ط . السلفية): رسالة في ذم أخلاق الكتاب في الحديث عن كتب من الفرس للرسول عليه الصلاة والسلام ، والخلفاء في عصر الاسلام والعصر الأموى ، ص ٤٠ ، ومابعدها .

(٤) « العصر العباسي الأول » : د . شوقي ضيف ، ص ١٩ .

وكان الكتاب يعملون فى الدواوين ، من مثل دواوين : الخراج[1] ، والجند[2] ، والرسائل[3] ، وكان من بينهم المحررون يقومون على تحرير كتب الخلفاء[4] ، وقد ينزل المحرر فى أقرب المواطن من الخليفة [5] ، وبالمثل يسلك بين أفراد هذه الفئة كتاب الرسائل[6]، والنساخ كانوا ينسخون الرسائل والكتب بخط جميل [7] ، وكانوا يستخدمون فى تسطير كتاباتهم الورق ، والكاغدة ، وأنواع من الجلود ، والأدم ، وكان اعتمادهم على الجلود فى حساب الدواوين، وفى الصكاك ، والعهود ، وفى الشروط ، وصور العقارات ، وفيها تكون نموذجات النقوس ، ومنها تكون خرائط البرد »[8] ، وعلى الرغم من أن الوراقين كرهوا أن يخطوا خطوطهم على الجلود لما فيها من حيث من عيوب أنها « جافية ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن كان يوم الحجم ، لثق استرخت » [9] .

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ : ٤٧ .

(٢) المصدر السابق : ص ٤٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٨ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٥) المصدر السابق ص ٤٦ .

(٦) « « ص ٤٦ .

(٧) « « ص ٤٦ .

(٨) رسالة فى « الجد والهزل » : مجموع رسائل الجاحظ (تحقيق باورل كراوس ، د . طه الحاجرى) ص ٧٨ .

(٩) المصدر السابق . ص ٧٧ .

ولاحظ الجاحظ أن الكتاب فى هـذا العصر كانوا مزهوين بكل ماهو فارسى ، يشيدون فى مجالسهم بسياسة أرد شير بابكان ، وما كان عليه تدبير كسرى أنو شروان ، وكيف استقامت الأمور فى البلاد زمن آل ساسان (١) ، ثم أنهم اتخذوا من الثقافة الفارسية طريقا إلى نبوغهم فى مهنتهم ، فكان الناشىء منهم يعتمد فى نفسه أن قوام نجاحه فى عمله يتمثل فى رواية شىء من أمثال ونوادر بزرجمهر أو عهد أرد شير أو شعر أو رسائل عبد الحميد الكاتب أو أدب ابن المقفع ، أو أن يتمسك بكتاب مزدك كأصل من أصول علمه ، وكتاب كليلة ودمنة كمنهل لمعرفته وحكمته .. (٢) ، وكان فى مقابل ذلك يستهجن كل ما هو عربى « فيكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه ، والقضاء عليه بتناقضه ، ثم بتناقضه ، ثم يظهر فيه ظرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين من نقل الآثار ، فان استرجع أحد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فتل عن ذكرهم شدقه ، ولوى عن محاسنهم كشحه ، وان ذكر شريح جرحه ، وان نعت له الحسن استثقله ، وان وصف له الشعبى استحمقه ، وان قيل ابن جبير استجهله ، وان قدم عنده النخعى استصغره (٣) ، « وعلى الرغم من ذلك فإنهم عنوا عناية خاصة بألفاظهم وحسن اختيارهم لها فى كتاباتهم ، حتى إنه يقول « : أما أنا فلم أر قط أمثل طريقة فى البلاغة من الكتاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ، ولا ساقطا سوقيا (٤) » .

(١) « ذم أخلاق الكتاب » : ص ٤٣ .

(٢) « ثلاث رسائل الجاحظ » : ص ٤٢ .

(٣) « ذم أخلاق الكتاب » : ص ٤٣ .

(٤) « البيان والتبيين » : ٤ /٢٤ .

وحمل الجاحظ على الكتاب حملة شنعاء ، في رسالة صنفها في ذم أخلاقهم ، فهو يقرنهم بالتبعة والخدم ، حتى ليقول : « ان قبح الكتابة بنى على أنه لا يتقلدها إلا تابع ، ولا يتولاها إلا من هو في معنى الخادم »[1] ، وهم عنده في حكم الأرقاء ، فان كان العبد تجب له استزادة سيده بالشكوى وأن يستبدل به إذا به إذا راغب في ذلك ، فان الكاتب لا يحق له « التقاضي فاتته إذا أبطأ » ، ولا التحول عن صاحبه إذا التوى ، فأحكامه أحكام الأرقاء ، ومحله من الخدمة محل الاغبياء »[2] . وهو يصرح بغرضه من هذه الرسالة وذمه لهم ، وبأنه أراد بيان « ردامة مذاهب الكتاب وأفعالهم ، ولؤم طباعهم وأخلاقهم »[3] ، وينقب في تاريخ هذه الطائفة يخرج من ماضيهم ما يشينهم[4]؛ولم يكن حاضرهم في نظره أفضل من ماضيهم ، حتى انه ضرب المثل في السفه والمباهتة بعمر بن فرج[5] كان من أعيان كتاب الدواوين في أيام المأمون ، وأيام المتوكل[6] ، وفي الشره والرقاعة إبراهيم بن العباس[7] ، وفي الطيش والسخافة نجاح بن سلمة[8] ، كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل[9] وفي اللؤم والجاهلة أحمد بن

---

(١) « ذم أخلاق الكتاب » : ص ٤٢ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٤) « ذم أخلاق الكتاب » : ص ٤٠ — ٤١ .

(٥) « رسائل الجاحظ » : (هارون) ، ١٩٧/٢ .

(٦) « أعتاب الكتاب » : لابن الابار (تحقيق د . صالح الأشتر) ص١٤٥ .

(٧) « رسائل الجاحظ » : (هارون) ، ١٩٧/٢ .

(٨) نفس المصدر السابق :

(٩) جمع الجواهر للحصري : ١٢١ .

الخصيب[1] كاتب الواثق[2] .

ويظهر أن نفراً قليلا من الكتاب كانوا مزورّين عن الاسلام ، وعن كل ماهو عربي ، عرفوا بالميل إلى الزندقة والقول بالثنوية ، وحمل لواء الشعوبية ، وأن من هؤلاء من كان مقربا إلى الخلفاء ، من ذلك أن يونس بن أبي فروة « كان زنديقا فطلب ، فاختفى بالكوفة ، واغتيل وهلك[3] » ، وعده الجاحظ صراحة من الزنادقة وروى في حيوانه أبياتا لحماد عجرد يهجو فيها ابن أبي فروة هجاء مقذعا[4] ، ويذكر أنه « كتب ، كتابا لملك الروم في مثالب العرب ، وعيوب الاسلام بزعمه »[5] ، مما يدلنا على نزوع مثل هؤلاء الكتاب نزعة إلحادية أذكت جذورها لديهم عوامل متباينة ؛ ومن هؤلاء الكتاب الزنادقة « أزدا نقاذرار » ولي ديوان الخراج للرشيد ، وكان ثنويا[6] ، وكانت له لكنة نبطية ، وكان ممن ينطلقون الحاء هاء[7] .

ومن كتب للمأمون إبراهيم بن إسماعيل كان « شعوبيا » ، وكان يتهم بالثنوية ، ويقول الجاحظ معقبا على هذا الاتهام : « ان كان ذلك صحيحا فقد كانت صبابته بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش ، والاحتجاج

---

(١) رسائل الجاحظ : تحقيق (هارون) ١٩٧/٢ .
(٢) « اعتاب الكتاب » : لابن الآبار » ١٣٨ .
(٣) « رسائل الجاحظ » : (هارون) ٢٠٢/٢ .
(٤) « الحيوان » : ٤٤٦/٤ .
(٥) « الحيوان » : ٤٤٨/٤ .
(٦) « رسائل الجاحظ » : (هارون) ٢٠٣/٢ .
(٧) « البيان والتبيين » : ٧٢/١ .

فيها ، فهذه علة المرتد من سائر الكتاب »(١) ، ولعلنا لا ندهش بعد ذلك أن رأيناه يقرر أن عامة الكتاب كانوا يعزفون عن درس القرآن ، وتفسيره والتفقه في أمور الدين ، والحفظ للسنة والآثار ، حتى إنهم كانوا إذا « آثر الفرد منهم السعي في طلب الحديث ، والتشاغل بذكر كتب المتفقهين ، استثقله أقرانه واستوحشه الافه ، وقضوا عليه بالادبار في معيشته ، والحرفه في صناعته ، حين حاول ماليس من طبعه ، ورام ماليس من شكله(٢) » .

ولم يكن من بين كتاب الدواوين من هم أكثر شرها من كتاب ديوان الجند ، كان الشره علة قائمة فيهم(٣) ومن هؤلاء الكتاب إبراهيم الحاسب ، ولي للمأمون ديوان الخراج والجند ، يقول فيه الجاحظ : « لقن إبراهيم من سائر الآداب ، والعلوم علم الحساب فقط ، ولم يفزع إليه في قضية ولا رأي حتى هلك ، فكان الذي وضعه وأداه شرهه ، وهي علة قائمة في كتاب الجند خاصة »(٤) ، وعلى الرغم من ذلك كان من هؤلاء الكتاب من ثبتت وطأته ، ودامت ولايته ، وارتفعت همته ، وكرمت صحبته ، وجل مذهبه ، واشتدت محاماته عمن صحبه وتحرم به ، من مثل « المعلى بن أيوب » من ولاة ديوان الجند لعهد المأمون »(٥) .

ويدلنا الجاحظ على أن الكتاب كانوا لفرط مافي نفوسهم من غرور وصلف يتخذون مظهراً خاصا بهم فيما يرتدون من زي ، وفي حجامة شعورهم ، إذ كانوا

---

(١) « ذم أخلاق الكتاب » : رسائل الجاحظ (هارون) ٢/٢٠٤ .
(٢) المصدر السابق ٢/١٩٤ .
(٣) المصدر السابق ٢/٢٠٤ .
(٤) « رسائل الجاحظ » : هارون ٢/٢٠٤ .
(٥) المصدر السابق : ٢/٢٠٩ .

يعرضون جبابهم ، ويطيلون من ذيولها ويعقصون شعورهم على خدودهم ، حتى ليظن الواحد منهم فى نفسه أنه التابع والسيد ، وليس المتبوع والمُمتلك ، بقوله : « ثم هو (الكاتب) فى الذروة القصوى من الصلف ، والسنام الأعلى من البذخ ، وفى البصر الطامى من التيه والسرف ، يتوهم الواحد منهم إذا عرض جبته ، وطول ذيله ، وعقص على خده صدغه ، وتحذف الشابورتين على وجهه ، أنه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك»(١) .

وهو عاب ما كان بين كتاب الدواوين من بغض، وتفاخر ،وحقد ، وضغينة وأن هذه الصفات البغيضة لا يجدها المرء بين أهل الصناعة الواحدة ، تراهم يتعاطفون فيما بينهم ، ويتوادون لبعضهم ، ويمتدحون صنيع من يتفوق منهم فى عمله ، ولم يكن كذلك الكتاب « فان أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستهلاء على مثله ويسترجع رأيه إذا بلغ فى نكاية رجل من أهل صناعته»(٢) .

ومن المحقق أن هذه الصورة المشينة التى رسمها الجاحظ لفئة كتاب الدواوين كان من ورائها بعض الدوافع الشخصية فى نفس الجاحظ ، ذلك أنه كان فيما يظهر سيء العلاقة مع فئة من هؤلاء الكتاب ، ونراه يحدثنا فى إحدى رسائله عن طائفة منهم أضغنوا له الحقد والحسد ، وتوعدوه بالشر المستطير لقاء ما يسطر من كتاباته ، وتهددوه بالطعن على ما يؤلف ، إلا أن يشركهم معه فيما يعود عليه من أموال لقاء ما يؤلف من كتب ، وأنهم دفعوا إليه رقعة تحمل هذه المعانى ، يقول فى نعتها أنهم بثوا فيها « سهام الوعيد ، ومقدمات التهديد ، والتحذير ، والتخويف للطعن على ما ألف من الكتب ، إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما

---

(١) رسائل الجاحظ: ١٩١/٢ .

(٢) « المصدر السابق : ٢٠٠/٢ .

يجرى على »[1] ، ويذكر أنه حين عرض الرقعة على عشرة من الكتاب كانوا عنده ، أظهروا الاستخفاف بقول الحساد ، وضربوا الأمثال فى هوانهم عليه .

ويظهر أنه كان من بين فئة الكتاب من يحاول أن يتشبه بالعلماء ، ولم يكن صنيعهم يخلو من حسد لأهل العلم ، حتى إن منهم من كان يندس فى مجالس العلم ، ويعارض أهل العلوم وكتبهم ، ولم يكن سعى هؤلاء الفئة من الكتاب إلا استمالة قلوب ضعاف عامة الشعب والجهلاء من الحكام ، وأشار الجاحظ إلى أن ذلك من الأقدار التى لم يخل منها زمن من الأزمان[2] ، وهو يصف هؤلاء النفر بادعاء العلم والمعرفة فى كل شىء ، وهم فى الحقيقة يفتئتون على كل شىء ، وأن غرورهم لا حد له ، وهم لاخلاق لهم ، ولاحلم عندهم[3] ، والظاهر أن صناعة الكتابة الديوانية كانت تضفى على أصحابها من الغرور والتكلف والذهاب بالنفس والتعلق بالمظاهر ، ولا نعجب ان رأينا رجلا من مثل ثمامة بن أشرس ، يضيق بهم لهذه الخلال منهم ، حتى إنه سئل يوما وقد خرج من عند كبيرهم عمر بن مسعدة ، فقيل له : « يا أبا معن ما رأيت من معرفة هذا الرجل وبلوت من فهمه ، فقال مارأيت قوما نفرت طباعهم عن قبول العلم ، وصغرت هممهم عن احتمال لطائف التمييز ، فصار العلم سبب جهلهم والبيان علم ضلالتهم ، والفحش والنظر حائدا عنهم ، والحكمة معدن شبهتهم أكثر من الكتاب »[4] .

---

(١) «فصل مابين العداوة والحسد» : مجموع رسائل الجاحظ (تحقيق باول كراوس ود . طه الحاجرى) ص ١٣٠ .

(٢) «الحيوان» : ١ / ٩١ — ٢ — وانظر «رسائل الجاحظ «هارون» : ٣٣٨/١ — ٣٤٠ .

(٣) انظر رسالة فى «ذم أخلاق الكتاب» : رسائل الجاحظ (هارن) ٢/ ١٩١ - ١٩٤ .

(٤) المصدر السابق : ٢/ ١٩٥ .

ولا تحجب هذه الصورة المشينة لفئات من كتاب الدواوين أثر فئات أخرى منهم فى بلوغ اللغة العربية ما بلغته من تطور حضارى فى عصر الجاحظ حتى غدت لها سماتها البارزة من حيث تراكيبها اللفظية وما تعبر عنه من معان استحدثتها الحضارة العباسية بأصباغها العقلية ،إذ كان من بين هؤلاء الكتاب من عملوا على ازدهار حركة الترجمه ، ونقل لآثار اليونانية ، والفارسية ، والهندية إلى العربية ، ويعد من أبرزهم فى هذا الدور ابن المقفع ، إذ لم تكن اللغة التى كتب بها هى العربية القديمة ، بل كانت لغة شفافة مبسطة حسب أغراضها ، تكتفى — الى حد بعيد — بالتعبيرات العامة ، وتؤثر تصوير المعانى ، بعبارات مقاربة ، ويحرص فيها على التبسيط الموائم للغرض ، وعلى التركيب النحوى الواضح الشفاف وعلى تجنب الجمل التعبيرية المتنوعة الدلالة ، وصيغ التعجب والاستغاثة ، ويتفادى تصفيف الكلام ، والتداخل المسيء ألفهم ، وما شاكل ذلك مما يستفيض فى لغة أهل البادية(١) ، والحق أن كتاب الدواوين فى هذا العصر أولوا اللغة العربية عناية خاصة ، فحرصوا على التدقيق فى أختيار الألفاظ ، وتجنبوا ما يكون منها متوعرا وحشيا ، أو ساقطا سوقيا(٢) ، وهؤلاء الكتاب كانوا يصفون كلامهم ، ويتخيرون ما يجمع الجزالة ، والرصانة ، مع السلامة والنصاعة ، ومع الرونق والطلاوة ، وعنوا بانتخاب معانيهم لتكتمل عندهم صفات البيان الحسن ساعدهم على ذلك ما أصاب ذوقهم من ترف الحضارة ، شأنهم فى ذلك شأن نابهى الشعراء حسب ما يقرره الجاحظ فى بيانه(٣) .

---

(١) أنظر فى لغة ابن المقفع ، (العربية) ليوهان فك ، ص٥٦ وما بعدها .

(٢) « البيان والتبين » : ١٣٧/٢ .

(٣) « البيان والتبين » : ٢٤/٤ .

٦ — المغنون :—

كان لطائفة المغنين خاصة فى المجتمع العباسى ، تحققت لهم بفضل قيامهم على مظاهر الطرب ، واللهو ، وما كان يعقد فى دور السادة من مجالس الغناء ، واللهو والطرب . يحدثنا الجاحظ عن هذه الطائفة بما يوضح أن الغناء أصبح فنا يقوم على أسس علمية مقررة ، شأنه شأن أصول الآداب الأخرى ، ويمثل هذا الفن واحدا من هذه الأصول الأربعة ، وهى حسب ما قرره الفلاسفة المتقدمون : النجوم وبروجها وحسابها ، والهندسة والكيمياء ، والطب واللحون[١]. وهذا العلم يقوم على « معرفة اللحون وأجزائها ، وقسمها ، ومقاطعها ، ومخارجها ، ووزنها حتى يستوى على الايقاع ، ويدخل فى الوتر ، وغير ذلك[٢] . وأن كانت أصول الآداب الأخرى قد تقررت وحدد أهلها مناهجها وكشفوا عن غوامضها ، وسهلوا سبل معرفة دلائلها ، إلا أن « علم اللحون » لم يصادف من يقعد قواعده ، ويقيم أوده عند العرب حتى جاء الخليل بن أحمد البصرى ، فخلص معارف العرب عن اللحون من هواجس المؤثرات الفارسية وغيرها مما كان يصل اليهم من خارج مجتمعهم ، ذلك أن الخليل نظر فى الشعر ووزنه ومخارج ألفاظه ، وميز ما قالت العرب ، وجمعه ، وألفه ، ووضع فيه الكتاب الذى سماه « العروض »[٣] ، وكان هذا الصنيع من الخليل ، يعد فى نظر

(١) أنظر صدر رسالة الجاحظ فى «طبقات المغنين» رسائل الجاحظ (ساسى) ص ١٨٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) أنظر « فى طبقات المغنين » : رسائل الجاحظ (ساسى) ، ص ١٨٧ .

الجاحظ ، أول محاولة لوضع أصول فن اللحون في العربية ، هداه إلى هذا أنه حين عرض جميع ما روى من الشعر العربي على الأصول التي رسمها ، والعلل التي بينها ، فإنه « لم يجد أحدا من العرب خرج عنها ، ولا قصر دونها»(١) ومن هذا السبيل اهتدى الخليل إلى « تفسير النغم واللحون »(٢) . واستفاد من جهود الخليل من جاءوا بعده في المضي خطوات نحو وضع الأصول الكاملة لآداب النغم واللحون ، وَبدْءٌ من هذه الجهود كان اسحاق بن ابراهيم الموصلي أول من حذا حذو الخليل « فصنع الغناء بعلم فاضل وحذو راجح ، ووزن صحيح ، وعلى أصل مستحكم له دلائل واضحة وشواهد عادلة ، ولم نرا حداً وجد سبيلا إلى الطعن عليه والعيب له »(٣) ، ومكن اسحاق الموصلي من ذلك معرفته بالغناء، وكثرة أستماعه أياه ، وعلمه بحسنه من قبيحه ، وصحيحه من سقيمه ، وحذقه للعزف والايقاع ، ولا ريب أن نجد له بعد ذلك كتبا في هذا الفن معجبة(٤) .

ويظهر أن المغنين في عصر الجاحظ قد توزعوا على طبقات ، كان لكل طبقة منها ما يميزها من حيث أوصاف أفرادها و « آلاتهم وأدواتهم والمذاهب التي نسبوا اليها أنفسهم ، واحتمالهم أخوانهم عليها »(٥)

---

(١) أنظره في طبقات المغنيين » : رسائل الجاحظ (ساسي) ، ص ١٨٧

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٤) « في طبقات المغنيين » : رسائل الجاحظ (ساس) ، ص ١٨٧

(٥) المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

وكنا نود أن نعثر على بيان هذه الطبقات فى كتابات الجاحظ ، لكن كتابه فى « طبقات المغنيين » لم يحفظ لنا الزمن منه سوى صفحات من صدره ، وكان من بين هؤلاء المغنيين فى زمن الجاحظ « فتية أشراف ، وخلان نظاف »(١) ، مما يدل على أنهم رقوا وعاشوا حياة مترفة ، وسمت منزلتهم الاجتماعية بين الناس حتى إننا نجد إسحاق بن ابراهيم الموصلى مقربا إلى جعفر بن يحيى البرمكى ، كان يدخل عليه دون حجاب(٢) ، ويظهر أن أبا تمام كان يتردد على الموصلى ، إذ يروى الجاحظ بيتين من أشعار الطائى ينعت فيهما الموصلى ، بالكرم والجود ، مما يدلنا على أنه كان يعيش حياة ناعمة ، وأنه اتخذ لنفسه حجابا ، يقول الجاحظ: « وانشدنى الطائى فى إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ـ

يا أيها الملك المأمول نائله ... وجوده لمراعى جوده كثب

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب(٣)

ويظهر أن التنافس كان حادا بين رؤساء المغنيين من مثل ما يذكره الجاحظ عن علويه المغنى ، وكان « واحد الناس فى الرواية ، وفى الحكاية ، وفى صنعة الغناء ، وجودة الضرب ، وفى الاطراب ، وحسن الخلق » ، وعلى الرغم من ذلك فانه « كان إذا رأى مخارقا ذاب كا يذوب الرصاص عن النار »(٤)، وكان « مخارق خاصا بالخليفة هارون الرشيد »(٥) .

وكان من بين المغنين طائفة من القيان حذقن الغناء ، وإنشاد الشعر الفاضح

---

(١) « فى طبقات المغنيين » : رسائل الجاحظ (ساسى) ، ص ١٨٧ .

(٢) « كتاب الحجاب : رسائل الجاحظ (تحقيق الأستاذ هارون) ٢/٨٣ .

(٣) « كتاب الحجاب » . رسائل الجاحظ (تحقيق الأستاذ هارون)٢/٨٣

(٤) « البيان والتبيين » : ١ / ١٣٢ .

(٥) « الاغانى » . (ساسى) ، ٢١ / ١٣٣ .

المكشوف ، وكانت الحاذقة منهن تروى « أربعة آلاف صوت فصاعدا يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات عد ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا غفلة ، ولا ترهيب من عقاب ، ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا ، والقيادة والعشق والصبوة ، والشوق ، والغلمة »(١)، ومن هؤلاء القيان المغنيات «بذل»(٢) وهى بذل الصغيرة ، يقال أنها كانت تغنى ثلاثين ألف صوت ، وحظيت بمكانة خاصة عند الأمين والمأمون والمعتصم ، وقيل أنها عملت كتابا فى الأغانى يشتمل على إثنى عشر ألف صوت(٣) ، وهى غير « بذل الكبرى » جارية المراكبى(٤) وهو عبد الله بن اسماعيل المراكبى ، صاحب مراكب الرشيد ، كان ممن يقومون على تربية الجوارى ، وتأديبهن ، وتعليمهن الغناء ، وممن علمهن الغناء «عريب»(٥) غنت للأمين والمأمون ثم المعتصم (٦) ، ومن هؤلاء المغنيات المولدات « شارية البصرية » ، جارية ابراهيم بن المهدى(٧) ، و « زرياب الكبرى (٨) ، قيل أنها كانت ممن يتقن الغناء القديم(٩) ، و« عساليج » جارية الأحدب(١٠) ، و«فضل»

---

(١) « كتاب » القيان : رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) ، ٢ / ١٧٦ .

(٢) « كتاب البغال » : رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) ، ٢/ ٢٨١

(٣) أنظر أخبارها فى الأغانى . (دار الكتب) ٧/ ٣١و٣٧/١٥ — ١٤٠ .

(٤) « كتاب البغال » : رسائل الجاحظ ، ٢ / ٢٨٩ .

(٥) المصدر السابق : ٢ / ٢٨٨ .

(٦) أنظر أخبارها فى الأغانى (ساسى) ، ١٨ / ١٧٥ — ١٩٤ .

(٧) « كتاب البغال » : ٢ / ٢٨٩ .

(٨) المصدر السابق نفسه .

(٩) « الأغانى » : ٩ / ١٣٣ .

(١٠) « كتاب البغال » : رسائل الجاحظ ، ص ٢٨٩ .

جارية العبدى(١) .

ويظهر أنه كان من بين المغنين بعض السند ، كانوا أحسن القوم صوتا ، وفيهم يقول : « وفى السند حلوق جياد ، وكذلك بنات السند »(٢) كما يحدثنا كذلك عن بعض أدوات المغنين التى كانوا يعزفون عليها لحونهم ، من الآلات الوترية من مثـــل : العود ، وكان من آلاتهم الموسيقية ، وكذلك الطبول ، والدفوف ، والمزامير(٣) .

ويظهر أن مجالس الغناء كانت وثيقة الصلة بمجالس الشراب(٤) ، وكان من هذه المجالس ما يمتد بطول الليل إلى مطلع الفجر ، تدار فيها الكئوس على الشاربين ، ويقضون وقتهم لاهين فرحين ، يقول إسحاق بن إبراهيم الموصلى فى نعت أحد هذه المجالس : —

وصافية تعشى العيون رقيقة | رهينة عام فى الدنان وعام
أدرنا بها الكأس الروية بيننا | من الليل حتى انجاب كل ظلام
فما ذرقرن الشمس حتى كأننا | من العى نحكى أحمد بن هشام(٥)

---

(١) « كتاب البغال » : رسائل الجاحظ ، ص ٢٨٩ — ٢٩٠ .

(٢) « الحيوان » : ٣ / ٤٣٥ .

(٣) المصدر السابق : ١ / ٤٩ .

(٤) « طبقات المغنين » : رسائل الجاحظ (ساس) ص ١٨٧ .

(٥) « البيان والتبيين » : ١ / ٤٠٢ . أحمد بن هشام من أعيان الدولة العباسية وشعرائها .

الفصل الرابع

الطبقة الدنيا

تأتى فى أسفل البناء الاجتماعى ، للمجتمع العباسى ، الطبقة الدنيا ، وهى طبقة نالت من الجاحظ عناية خاصة من حيث تحديد الفاصل بينها وبين الطبقة العليا ، من مثل ما مر بنا من قبل ، إذ رأيناه واضحا فى الفصل بين ما يميز الخاصة فى طبقتهم العليا وبين العامة فى طبقتهم الدنيا ، سواء من حيث الثروة ، أو الثقافة ، أو قيمة الوظيفة الاجتماعية ، ومن ثم فانه يمكننا أن نحدد وصفا عاما يعرفنا بطوائف وفئات هذه الطبقة — عند الجاحظ — بأنها الطوائف ، والفئات الاجتماعية الأقل ثروة وثقافة فى مجتمعهم ، وأن أفرادها يقومون على أقل المهن الاجتماعية شأنا ، ونحن لا نستطيع أن نميز فى هذه الطبقة بين عنصر وآخر ذلك أنها مزيج من عناصر عربية ، أو أعجمية ، إسلامية ، أو مجوسية ، يهودية أو نصرانية(١) ، ولكننا نستطيع أن نتمثل صورة واضحة للسمات الاجتماعية لهذه الطبقة من خلال ماسجله الجاحظ فى كتاباته عن عامة الشعب ، وأهل الذمة ، والرقيق ، مما يشكل مادة خصبة تستأهل النظر بحق .

---

(١) « الجاحظ » : — شارل بيلا ، ص٣٢٧ ، (الترجمة) .

١ — عامة الشعب :

تسلك فى طبقة عامة الشعب طوائف وفئات إجتماعية عدة ومنوعة ، ومن ثم رجح البعض سبب تسمية هذه الطبقة باسم « العامة » إلى كثرة أفرادها وعدم إحاطة البصر بهم[1] ، وأطلق البعض على عامة الشعب اسم « السوقة » وفى ذلك يقول صاحب الصحاح : « السوقة من الناس من لم يكن ذا سلطان »[2] ويفسر ذلك ابن منظور بقوله : « السوقة بمنزلة الرعية التى تسوقها الملوك ، وسموها سوقة ، لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم . يقال للواحد سوقة وللجماعة سوقة »[3] وهم عند الجاحظ « حاشية » و « أعلاج » و « أكرة » و « نزال السواحل والآجام والغيوض والجزائر » من أكارو من صياد »[4] ويظهر أنهم كانت لهم منازل ينزلونها غير تلك التى كانت للخاصة ذلك أن « أهل الشرف » والعقل ، والعلم إنما ينزلون الواسطة ، ويقرب دار الملك »[5] .

---

(١) « نكت الهميان فى نكت العميان » : الصفدى نشر أحمد زكى (ط . القاهرة ١٩١١ م) ص١٠ .

(٢) « تاج اللغة وصحاح العربية الجوهرى » (ط . دار الكتاب العربى ١٣٧٧ هـ) ١٤٩٩/٤ .

(٣) « لسان العرب » لابن منظور : ١٧٠٠١٠ .

(٤) رسالة « فخر السودان على البيضان » رسائل الجاحظ (هارون) ٢١٢/١ .

(٥) المصدر السابق — وأنظر « الذخائر والتحف » لابن الزبير (ط . الكويت ١٩٥٧) ص١٣٢ و « المنتظم » لابن الجوزى (ط . حيدر أباد الدكن ١٣٥٧ هـ — ١٣٥٩هـ) ، ٢٨٥/٨ .

وعامة الشعب عند الجاحظ، من حيث قدر عقولهم : «أقل شكوكا من الخواص لأنهم لا يتوقفون فى التصديق والتكذيب، ولا يرتابون بأنفسهم، وليس عندهم إلا الاقدام على التصديق المجرد، أو على التكذيب المجرد، وألغوا الحال الثالثة من حال الشك، وذلك على قدر سوء الظن وحسن الظن بأسباب ذلك وعلى قدر مقادير الأغلب»[1]، ومن ثم رأيناه يستهجن كثيرا من معتقداتهم من مثل قولهم فى المسخ[2]، وضربهم المثل فى الشدة والقوة بالكركدن وزعمهم أنه «ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد وسط جبهته، فلا يشعر بمكانه ولا يحس به حتى ينقطع على الأيام»، ثم يعقب على مثل هذا الزعم بأن «هذا القول بالخرافة أشبه»[3].

وهو يؤكد أنهم من حيث ثقافتهم العقلية أقل مرتبة من الخواص[4]، وساق الأدلة المثبتة لتفوق الخاصة عليهم، وأن هذا ما يرجع ماركبه الله فى البشر من طبائع وقدرات، ذلك أن الخاصة أقلية من كل أمة «ومختارون فى كل زمان، وإن كثروا فهم أقل عدداً، وإن كانوا أكثر فقهاء»[5]، وعنده أن طوائف عامة الشعب أداة للخاصة، تبتذلها للمهن، وتزجى لها الأمور، وتطول بها على العدو، وتسد بها الثغور، ويشبه مقامها من مقام الخاصة بمقام جوارح

(١) «الحيوان»: ٦/٣٦ — ٣٧.

(٢) «الحيوان»: ٦/٧٩.

(٣) «الحيوان»: ٧/١٢٨.

(٤) «البيان والتبيين»: ١/١٣٧.

(٥) «إستحقاق الامامة»: رسائل الجاحظ، (ط: الرحمانية) ص٢٤٤.

الإنسان من الانسان، يقول : «كما أن الجوارح لا تعرف قصد النفس، ولا تروى فى الامور، ولم يخرجها ذلك من الطاعة للعزم، فكذلك العامة لا تعرف قصد القادة، ولا تدبير الخاصة، ولا تروى معها، وليس بخروجها ذلك من طاعة عزمها وما أبرمت من تدبيرها»(١).

ولكنه مع ذلك يؤكد حاجة الخاصة إلى العامة وأنها تعدل حاجة العامة إلى الخاصة، يقول : «لم يخلق الله تعالى أحدا يستطيع بلوغ حاجته بنفسه دون الاستعانة ببعض من سخر له : فأدناهم مسخر لأقصاهم، وأجلهم ميسر لأقلهم، وعلى ذلك أحوج الملوك إلى السوقة فى باب، وأحوج السوقة إلى الملوك فى باب، وكذلك الغنى والفقير، والعبد وسيده»(٢). وأنظر إليه يؤكد قوة العامة وقدرها فى المجتمع، حتى إنه يحذر من تصرفها إذا أساءت الخاصة التدبير، يقول : «وليست للخاصة قوة بالعامة، ولا للعلية قوة على الأرذال، فقد قالت الأوائل فيهم، وفى الاستفادة منهم : قال على بن أبى طالب رحمة الله عليه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا، وإذا تفرقوا لم يعرفوا». وقال واصل بن عطاء : «ما اجتمعوا إلا ضروا ولا تفرقوا إلا نفعوا» فقيل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع فما منفعة الافتراق، قال : «يرجع الطيان إلى تطيينه، والحائك إلى حياكته، والملاح إلى ملاحته، والصائغ إلى صياغته، وكل إنسان إلى صناعته. وكل ذلك مرفق للمسلمين، ومعونة للمحتاجين». وقال شبيب بن شيبة : قاربوا هذه السفلة

---

(١) «العثمانية» : الجاحظ، ص٢٥٠ — ٢٥١.

(٢) المصدر السابق ٢٥٤.

(٣) «الحيوان» : ١/٧٣ — ٤٤.

وباعدوها ، وكونوا معها ، وفارقوها ، وأعلموا أن الغلبة لمن كانت معه، وأن المقهور من صارت عليه » ، ثم أنظر إلى الجاحظ يؤكد أهميتهم ، يقول : «ولكنا كنا نخافهم نرجوهم ، وكنا نشفق منهم نطمع فيهم[1] » ، ونراه يعد من هذه الطبقة: أهل المهن[2] والفلاحين[3] ، والصيادين [4] ، وكان من بينهم المشمرين كانوا يصيدون بالسهام[5] .

ويرى أن من العوام: الحشوة،ورذال الناس،والصناع ، والباعة ،والأكراد في الجبال ، وسكان الجزائر في البحار ،والببر ، والطيلسان ، وموقان، وجيلان، والزنج ، وأشباه الزنج[6] . وبالمثل يعد من عامة الشعب في المجتمع العباسي : سقاء الخمر في مجالس اللهو[7] ، والزمار[8] ، والباعة الجوالين الذين يجوبون الدروب ،ويمرون على الدور بتجارتهم[9] ،والأكرة ،وكان منهم من يكرى دابته

---

(١) رسالة في « نفي التشبيه»: رسائل الجاحظ ، (هارون) ،١/٢١٣–٢٨٥

(٢) من رسالة في « وصف العوام » : الجاحظ : طراز المجالس للخفاجي، ط ، القاهرة ١٨٦٨ ، ص١٧٥ .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) « فخر السودان على البيضان » : رسائل الجاحظ (هارون) ، ١/٢١٣

(٥) « البيان والتبين » : ٣/٧٢

(٦) « البيان والتبين » : ١/١٣٧

(٧) « البيان والتبين » : ٢٤٧

(٨) « البيان والتبين » : /٩٤

(٩) « البخلاء » : (دار المعارف) في الحديث عن بائع الخوخ،ص١٢٦ .

بالأجر[1] ، والحمالين الذين كانوا يكرون بالأجر لحمل الأثقال[2] ، وأهل السجن ، والقوامين على السجن ، ومنهم أيضا حرس الأسواق ، وكانوا يتخذون الكلاب لضمان الحراسة[3] ، واشترط فيهم المامهم بالفارسية[4] .

ويسلك الجاحظ فئات الصناع من طوائف عامة الشعب[5] ، على الرغم من أننا أصبحنا أمام فئات من الصناع تخصصت فى حرف متنوعة ظهرت فى المجتمع العباسى كأثر من آثار الامتزاج الحضارى وما صاحبه من تقدم مادى وفكرى ، ومن الحق أن ظاهرة التخصص فى العمل والحرفة « بلغت مرحلة عالية من النضوج فى الحاضرة العباسية »[6] ، حتى إن ظاهرة التكتل المهنى قد « برزت فى كثير من المدن الاسلامية »[7] ، وكتابات الجاحظ ترسم لنا صورة لهذه الحرف ، وما كانت عليه من تنوع وتخصص فرأينا من الصناع « الصيدلانى » كان يقوم على بيع العقاقير ، والأدوية[8] ، وقد يصنع بعضها من سم الأفاعى[9] وبالمثل كان

---

(١) البيان والتبين : ٣/٦٨

(٢) البخلاء : ص١٢٥ .

(٣) الحيوان : ١/٣٠٣

(٤) « البيان والتبين » : ١/٩٥

(٥) « البيان والتبين » : ١/١٣٧ .

(٦) « الجاحظ والحاضرة والعباسية » : (د . وديعة طه النجم) ، ص ٤٤ .

(٧) المصدر السابق : ص٤٥ .

(٨) « الحيوان » : ٣:٤٣٥

(٩) « الحيوان » : ٤/١١٤

من بينهم الكيميائى(١) ، والحام ، الذى يلحم المفاصل المحزوزة(٢) ، وصانعو الثلج (٣) ، وصانعو البرادع ، والصباغون ، والدباغون ، وصانعو القوارير الزجاجية ، والطرازون ، والحدادون(٤) ، وصانعو الجرار ، والصياقلة الذين يشحذون السيوف ويجلونها(٥) ، والصفارون الذين يتخذون من الحجارة علاة دون الحديد ، لتعينهم فى صقل النحاس الأصفر لأن من الحجارة ما هو أصبر على دق عظام المطارق والفطاسات(٦) .

ومن الحق أن الصناع كانوا يقومون على سد حاجيات الحياة الاجتماعية بما تحت أيديهم من مواد يمكن تصنيعها ، فهم كانوا يصنعون من جلود الماعز : «القرب والزقاق ، وآلة المشاعل ، وكل نحى ، وسعن ، ووطب ، وشكية ، سقاء ومزادة ، مسطوحة كانت أو مثلوثة ، ومنها ما يكون الخون ، وعكم السلف ، والبطائن ، والجرب . ومن الماعز يكون أنطاع البسط وجلال الأثقال فى الأسفار ، وجلال قباب الملوك(٧)» .

---

(١) « الحيوان » : ٣/٣٨٥

(٢) « الحيوان » : ٢/٢٣٤

(٣) « الحيوان » : ٥/٥٢٦

(٤) « البخلاء » : ص ١٤٣

(٥) « الحيوان » : ٤/٣١٦

(٦) « الحيوان » : ٤ / ٣١١ — والعلاة هى السندان ، أما الفطيس فهو المطرقة العظيمة .

(٧) « الحيوان » : ٥/٤٨٥ — ٤٨٦ ، والنحى بالكسر : الزق ، وقيل للسمن خاصة ، والسعن ، بالضم والفتح : قربة تقطع من أسفلها ويشد عنقها

وفى ذلك ما يدلنا على تنوع الصناع مع تنوع ألوان صناعاتهم ، مما يجعلنا نطمئن إلى وجود نوع من التخصص بين الصناع الذين يعملون فى حرفة واحدة من مثل ما نجده فى فئة النجارين ، إذ كان تعليق الباب فى جدار الدار يحتاج إلى أكثر من نوع من النجارين فان من يحسن الثقب وتثبيت الباب غير الذى يحسن دق الرزة فيه ، فلكل صناعته يفهمها فهما تاما[1] ، ودعاهم هذا التخصص فى حرفهم إلى الوقوف على نوع من التدقيق فى عملهم ، والالمام بما يعينهم على اتقانه من ذلك ما يذكره الجاحظ عن أصحاب المعادن والحفائر ، وأنهم كانوا « إذا هجموا على فتق فى بطن الأرض ، أو مغارة فى أعماقها ، قدموا شمعة فى طرفها أو فى رأسها نار ، فان ثبتت النار وعاشت دخلوا فى طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك ، وإلا لم يتعرضوا له . وإنما دخولهم بحياة النار ، وامتناعهم بموت النار[2] » . وبالمثل عرف عن النجارين أنه كان من أسلس وأنفس أنواع الخشب عندهم خشب الساج[3] .

= وتعلق إلى خشبة أو جذع نخلة ثم ينبذ فيها . والشكية تصغير الشكوة ، بالفتح وعاء كالدلو أو القربة الصغيرة . المثلوثة : المزادة تكون من ثلاثة جلود ، الخون : جمع خوان بالضم والكسر ، وهى المائدة يوضع عليها الطعام . المكم والمكام ، بالكسر فيها : حبل يربط به . والسلف بالفتح ، الجراب أو الضخم منه . انطاع جمع النطع بالتحريك وبالكسر والفتح ، بساط من الأديم . جلال كل شيء : غطاؤه نحو الحجلة وما أشبهها ، والأصل غطاء الدابة .

(1) « الحيوان » : ٢٧٦/٣ .

(2) « الحيوان » : ١٠٦/٥ ، وما بعدها .

(3) « الحيوان » : ٤٨٢/٥

ويظهر أن هذه الفئات من الصناع قد تأثر نسيجها الاجتماعى بأصباغ غير عربية من أثر الامتزاج الحضارى والجنسى فى المجتمع العباسى، واختلاط العناصر الجنسية بعضها ببعض فى هذا المجتمع ، ومن ثم نظن أن صناعة الثلج فيما يظهر من الآثار الفارسية(١) .

وبالمثل يظن أنه من المؤثرات اليونانية ما كان من صناعة القرصطونات ، والقبانات(٢) والاسطرلابات(٣) وآلة الساعات ، وكالكونيا(٤) ، والشيزان ، والبركار(٥) وأصناف المزامير ، وبعض آلات الحرب كالمجانيق، والعرادات(٦) والرتيلات ، والدبابات ، وآلة النفاط ، وعلى هذه الشاكلة نظن أن بعض المؤثرات الصينية كانت ظاهرة فى عمل الكيميائين ، والصباغين ، والدباغين والخراطين(٧)

(١) « الحيوان » : ٥٢٦/٥ — رسائل الجاحظ فى حديثه عن صناعة الثلج فى خراسان ، ٦٧/١ .

(٢) « التربيع والتدوير » : « رسائل الجاحظ » (ساسى) ص ١٣٨ ، و « مناقب الترك » ، رسائل الجاحظ (هارون) ٦٧/١ فى الحديث عن اليونان وصناعاتهم .

(٣) « الحيوان » : ١/١

(٤) مقياس للزوايا القائمة يستخدمه النجارون .

(٥) آلة هندسية لقياس الدوائر ورسم الأقواس .

(٦) المنجنيق الصغير .

(٧) رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) ٦٧/١ .

وبالمثل نظن أن بعض الصناعات تأثرت بمؤثرات هندية من مثل صناعة السيوف(١) وكان من بين طوائف عامة الشعبة فئة « أصحاب الركايا » كانوا يعملون على الآبار(٢) ، وفئة « أصحاب السحور » كانوا يتكلفون إيقاظ الناس الناس للسحور(٣) وفئة « أصحاب الأذان » كانوا يقومون على التأذين الصلاة(٤) ، وفئات « صيادى السمك » وأصناف « الجزارين » و « القصابين » و « الهرائين » ، و « الطرائفين » ، و « الفهادين » الذين يصطادون بالفهود » و « البيازرة » القائمين بأمر البزاة و « الصقارين » و « الكلابين » و « الجلادين » و « ضاربى الأعناق بين يدى الملوك » (٥) و « القصارين » و « الفخاكرة » و « الدباغين »(٦) والقرداين وقد يستخدمون قرودهم فى طحن الطحين(٧) و « الملاحين » والمدادين » وكانوا يمدون قلس السفينة(٨) .

ويسلك الجاحظ بين طوائف عامة الشعب « الحجامين » ويظهر أن الحجام كان يقوم على حجامة الأمراء والسادة فى دورهم يدلنا على ذلك ما يرويه الجاحظ عن

---

(١) « مناقب الترك » : ٦٩/١ فى الحديث عن أهل الصين وصناعتهم .

(٢) « فخر السودان على البيضان » : ٢٢٣/١ — ٢٢٤ فى الحديث عن أهل الهند وصناعاتهم .

(٣) « الحيوان » : ٣١١/٢

(٤) المصدر نفسه .

(٥) « الحيوان » : ٤٢٣/٤ — ٤٣١ .

(٦) « البيان والتبين » : ٦/٢ .

(٧) « الحيوان » : ١٧٩/٢ — ١٨٠

(٨) « الحيوان » : ١٢٦/٢

فرج الحجام مملوك الأمير جعفر بن سليمان[1] ، وقد يقوم الحجام على مداوة من تلسعه العقارب ، بأن يحجم موضع الوخزة ويمسه ، قبل أن يتفشى فيه السم ويهلكه ، كما يروى أيضا أن الحجام كان لا يجيء إلى المصاب حتى يقبض دنانير كثيرة ، ذلك أن صنيعه بجانب أنه يحقق شفاء المريض كان يلحقه من ورائه شيء من الضرر يصيب مقاديم أسنانه ، ويغير من لون وجهه[2] .

وكان ينظر إلى بعض طوائف وفئات عامة الشعب نظرة ازدراء وتحقير من مثل ما يذكره الجاحظ عن الحاكة ، والطيانين ، والفلاحين[3] ، إذ رأيناه يصف الحاكة بالحمق[4] ، وهو يرى أن طوائف وفئات عامة الشعب مثل : الحاكة والنحاسين . والقلاسين ، والحجام ، والمسجونين تتشابه طبائعهم فى كل بلدة وفى كل عصر ، يقول . « أنك لا تجد بدأ فى كل بلدة ، وفى كل عصر للحاكة من أن يكونوا على مقدار وجهة واحدة ، من السخط واحمق ، والغبـــاوة ، والظلم ، وكذلك النحاسون طبقاتهم، من أصناف ما يبيعون ، وكذلك الساكون والقلاسون[5] ، وكذلك أصحاب الخلقـــان[6] كلهم فى كل دهر وفى كل

---

(١) « الحيوان » : ٢٦١/٧ — ٢٦٢

(٢) « الحيوان » : ٢٢٠/٤

(٣) « طراز المجالس » للخفاجى (من رسالة فى وصف العوام) ص ١٧٧ .

(٤) « البيان والتبين » : ١٤٦/١

(٥) القلاس . الضارب بالدف .

(٦) تجار الثياب البالية .

بلد على مثال واحد وعلى جهة واحدة . وكل حجام في الأرض فهو شديد الاستهتار بالنبيذ ، وان اختلفوا في البلدان ، والأجناس ، والأسنان . ولا ترى مسجونا ولا مضروبا عند السلطان إلا وهو يقول : « إني مظلوم ! »(١) . وبالمثل كانوا يستقذرون مهنة النياس ، وما كان يقوم به الكباش من بيع الكباش واتخاذها النطاح(٢) . ويؤكد لنا ذلك « أن التقدير الاجتماعي للحرف في المجتمع العباسي تأثر بعوامل خاصة ، فظهرت نتيجة ذلك درجات اجتماعية متفاوتة للحرف المتعددة»(٣) .

ووقف الجاحظ في بعض كتاباته عند فئات من سفلة عامة الشعب يكشف عن حيلهم ، وخدعهم من مثل حديثه عن « الحواثين » ، و « الراقين » ، يقول :— « الحواء والراقي يرى الناس أنه إذا رأى جحرا لم يخف عليه : أجحر حيه هو أم جحر شيء غيره ، فان كان جحر حيه لم يخف عليه : أهي منه أم لا ، ثم إذا رقى وعزم فامتنعت من الخروج ، وخاف أن تكون أفعى صماء لا تسمع ، وإذا أرادها ليأخذها فأخطأ لم يأمن أن تنقره لا يفلح بعدها أبداً ، فهو عند ذلك يستبدي بأن يشم من تراب الجحر فلا يخفى عليه . أهي أفعى أم حية من سائر الحيات(٤) .. » ثم أنظر إليه يصف عمل الرقاء وما يوهم به الناس من أنه يعرف أماكن الحيات ، يقوله . « والرقاء يوهم الناس إذا دخل

---

(١) « الحيوان » : ١٠٥/٢—١٠٦ .

(٢) « الحيوان » : ٤٧٣/٥ .

(٣) « الجاحظ والحضارة العباسية » : (د . وديعة طه النجم) ، ص ٥٢ .

(٤) « الحيوان » : ١٩٠/٤ .

دورهم لاستخراج الحيات أنه يعرف أماكنها برائحتها ، فلذلك يأخذ قصبة ويشعب رأسها ، ثم يطعن بها فى سقف البيت والزوايا ، ثم يشمها ويقول مرة : فيها حيات ، ويقول مرة : بلى فيها حيات ، على قدر الطمع فى القوم وفى عقولهم »(١) وهكذا يكشف لنا خدع الحواء والرقاء فى هذا الصنيع استنادا إلى ما يحدثه الصوت والجلبة من أثر فى الحية ، ويذكر أن « الحواء إذا دنا وصفق بيديه ، وتكلم رافعا صوته ، خرج إليه كل شىء كان فى الجحر ، فلاشك من لا علم له أن الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية ، وأن العازم أخرجها تعظيما للعزيمة ، ولأن المعتزم مطاع فى العمار » ويدلل الجاحظ بذلك على أن « العامة أسرع شىء التصديق(٢) » .

ومن الحق أن المجتمع العباسى كان كغيره من المجتمعات الانسانية يضم بين ثنايا فئات طوائفه الاجتماعية أولئك الذين كانوا سببا فيما يعتور حياة الجماعة من قلق واضطراب، ومن ثم كان من الطبيعى أن نجد من بين سفلة عامة الشعب فى هذا المجتمع فئات متنوعة كانوا وراء بعض ألوان من مظاهر التوتر فى حياة الناس من ذلك ما يحدثنا به الجاحظ عن فئة « الخناقين » ، وهم من روافض الشيعة(٣) ، كانوا لا يظهرون فى البلاد إلا جماعة ، ولا يسافرون إلا معا ، وبلغ من خطرهم على حياة الناس أنهم ربما استولوا على درب بأسره ، أو على طريق بأسره(٤) ، وكانوا لا يتخذون دورهم فى طريق نافذ ، إنما تخيروا تلك

(١) « الحيوان » : ٤ / ١٩٠ .

(٢) « الحيوان » : ٤/ ١٩٥ .

(٣) أنظر أخبارهم فى « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، ص ١٤٧ — و« العقد الفريد لابن عبد ربه : ١/ ٣٥٠ و٣٥٣ .

(٤) « الحيوان » : ٢/ ٢٦٤ — ٢٦٥ .

التى تقع من خلفها : أما صحارى، وأما بساتين، وأما مزابل ، وأشباه ذلك[1] ، لأن ذلك كان فيما يظهر آمن لهم ، وأيسر لسبيلهم فى الهرب عند اكتشاف أمرهم . واتخذوا فى دورهم الكلاب ، والدفوف ، والطبول ، يستعينون بها على ستر جناياتهم . وتراه يقول فى وصف دورهم : « وفى كل دار كلاب مربوطة ، ودفوف ، وطبول ، ولا يزالون يعملون على أبوابهم معلم كتاب منهم ، فاذا خنق أهل دار منهم انسانا ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلام فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا ؟ ، وأجابهم أهل كل دار بالدفوف والصنوج ، كما يفعل نساء أهل القرى ، وهيجوا الكلاب ، فلو كان المخنوق حمارا لما شعر بمكانه أحد »[2] .

ويظهر أن أفراد هذه الفئة أزعجوا حياة الناس فى بعض البلدان مثل الكوفة[3] ، والبصرة[4] ، وقد روى الجاحظ أبياتا من أشعار حماد الراوية ، ذكر فيها المرمين بالخنق من القبائل وأصحاب القبائل والنحل ، وصور صنيع الخناقين بضحاياهم ، ذلك أن منهم من كان يشدخ رؤس الناس بالحجارة[5] ، أو يخلطون السم بطعام من يريدون خنقه، أو يرمون أعناق ضحاياهم بحبال مفتولة فيها أنشوطات ، وسمى بعض رؤوس الخناقين وعرض لسلوكهم ، وكيف اتقاء شرورهم ، يقول حماد الراوية : —

---

(١) « الحيوان » : ٢/٥٦٤ .

(٢) المصدر السابق : ٢/٥٦٥ .

(٣) « الحيوان » : ٢/٢٦٦ .

(٤) « الحيوان » : ٢/٢٦٧ .

(٥) كانوا يعرفون بذلك .

إذا سرت في جحل فسر في صحابة | وكندة فاحذرها حذارك للخسف
وفي شيعة الأعمى زيار وغيلة | ونشب وإعمال لجندلة القذف
وكلهم شر على أن رأسهم | حميدة والميلاء حاضنة الكسف
متى كنت في حي بجيلة فاستمع | فان لهم قصفا يدل على حتف
إذا اعتوموا يوماً على خنق زائر | تداعوا عليه بالنباح وبالعزف(١)

وبالمثل يحدثنا الجاحظ عن فئة من اللصوص ، يذكر أنه صنف فيهم كتابا يصف حيلهم(٢) ، ولم يصل إلينا هذا الكتاب، ويظهر أن من أفراد هذه الفئة من كانوا يندسون في الأسواق ، ويوقعون في شراكهم الغفلة من الناس(٣)، وقد يقوم بعض هؤلاء اللصوص على قطع بعض الطرق والمسالك وتهديد الراحلين(٤) مما كان له أثره في اضطراب حياة الناس ، وعلى هذه الشاكلة من السلوك غير السوي كانت هناك فئة أخرى من سفلة العامة من الشعب ، ونعني بها فئة الساسانية أو من أسماهم الجاحظ المكدين ، أنفق أفرادها حياتهم في الاحتيال للمال ، غير عابئين بما يتخذون لذلك من وسائل وأساليب من مثل إستخدامهم القوة والاستلاب بالعنف والغلبة ، وإستغلال غفلة الناس ، وغرائز الرحمة والرقة التي تكمن في طبيعة كثير منهم .

---

(١) « الحيوان » : ٢٦٦/٢ .
(٢) « البخلاء » : ص ١ .
(٣) « الحيوان » : ٤٠٩/٣ .
(٤) أنظر حديث الجاحظ عن اللصوص في المحاسن والمساوىء للبيهقي : (ط، السعادة ١٩٠٦م) ، ١٤٣/٢ .

ونستطيع أن نتمثل السمات الاجتماعية التى تميز أفراد هذه الطائفة من خلال قصة وردت فى « البخلاء » عن مكدى يدعى خالد بن يزيد نزل فى منازل بنى تميم بالبصرة ، وجلس فى مجالسهم دون أن يعرفوا فيه صفة الكدية إلى أن وقف عليه سائل ، فأراد أن يخرج فلسا من فلوس البصرة فغلط بدرهم بغلى ، ولم يفطن إلى غلطه حتى وضع الدرهم فى يد السائل ، فاسترده واستبدله بفلس ، واستنكر من حوله هذا الصنيع باعتباره من الأمور القبيحة ، لكنه رد عليهم بأنه لا يرى رأيهم ذلك أن طالب الاحسان ليس من مساكين الدراهم، وإنما هو من مساكين الفلوس، وهو يعرف بما لديه من فراسة فرق ما بين سائل وآخر(١) .

وبمتابعتنا للقصة نراها تصور حياة هذا المكدى ، وحياة طائفته ، وكيف أن حصولهم على المال ألزمهم السفر الطويل ، ومعاناة المحن ، وملابسة الخدع، ومخالطة للعصابات المختلفة من الثوار وقطاع الطرق ، ومجالسة أصناف الناس على اختلاف طبقاتهم ، ذلك أنهم فى سبيل تحقيق ما يصبون إليه يضطرون إلى مجالسة أهل السلطة حين تلجئهم الظروف إلى ذلك ، بجانب مخالطتهم السفلة والحشوة وغير غائب عن الدراس أن ذلك يجعلهم يجارون كل من يخالطون فيما يتصفون به من خلال ، وبالمثل فان مهنتهم وكدهم فى طلب المال دفعاهم إلى تمثل ثقافة عصرهم تمثلا يناسب ما يحتاجون معرفته فى ضروب الصناعات، وفى أصول الضيافة والتنجيم ، وذلك لا ينفى أنهم كان يصيبهم فى سعيهم وكدهم ألوان من التنكيل والعذاب بسبب رفض المجتمع صنيعهم .

ونستدل من حديث المكدى عن نفسه ومن تفسير الجاحظ لما ورد فى كلامه من ألفاظ ، أن هذه الطائفة كانت تضم فئات وجماعات من السفلة اتسموا بسوء

---

(١) « البخلاء » ص٤٦ .

الحاق من مثل «الكاغاني» ويصفه الجاحظ بأنه «الذي يتجنن ويتصارع ويزبد، حتى لا يشك أنه بجنون لا دواء له لشدة ما ينزل بنفسه، وحتى يتعجب من بقاء مثله على مثل علته» ومنهم «القرسي»، يقول عنه الجاحظ: أنه «يعصب ساقه وذراعه عصبا شديدا، ويبيت على ذلك ليلة، فاذا تورم واختنق الدم، مسحه بشيء من صابون، ودم الأخوين، وقطر عليه شيئا من سمن، وأطبق عليه خرقة وكشف بعضه فلا شك من رآه أن به الأكلة، أو بلية شبه الأكلة» ومنهم «المشعب» وهو «الذي يحتال للصبي حين يولد، بأن يعميه، أو يجعله أصم، أو أعضد، ليسأل الناس به أهله: وربما جاءت به أمه وأبوه ليتولى ذلك منه بالغرم الثقيل، لأنه يصير حينئذ عقدة وعلة. فاما أى يكتسبا به، وأما أن يكرياه بقراء معلوم، ومنهم «الاسطيل»، وذكر الجاحظ فى صفته أنه «المتعامى: أن شاء أراك أنه منخسف العينين، وأن شاء أراك أن بهما ماء، وأن شاء آراك أنه لا يبصر، للخسف ولريح السبل»، ومنهم «المزيدى»، وهو الذى «يدور معه الدريهات، ويقول: هذه الدراهم قد جمعت لى فى ثمن قطيفة، فزيدونى فيها رحمكم الله، وربما احتمل صبيا على أنه لقيط» ومنهم كذلك «المستعرض» يقول عنه الجاحظ: هو الذى يعارضك وهو ذو هيئة، وفى ثياب صالحة. وكأنه قد مات من الحياء، ثم يعترضك أعتراضا، ويكلمك خفيا، أنظر إلى مثل هذه المعانى فى أقوال خالد بن يزيد يصف فيها حالة، وحال طائفته، يقول: —

«أنا كنت «كاجار» فى حداثة سنى، ثم لم يبق فى الأرض مخطرانى ولا مستعرض إلا فقته، ولا شحاذ ولا كاغانى ولا بانوان ولا قرسى ولا عواء ولا مشعب ولا فاور ولا مزيدى ولا اسطيل إلا وكان تحت يدى. ولقد أكلت الذكورى ثلاثين سنة. ولم يبق فى الأرض كعبى ولا مكد إلا وقد أخذت العرافة

عليه »(١) .

والحق أننا لا نملك أزاء أخبار هؤلاء النفر من سفلة عامة الشعب إلا التسليم بأنهم ليسوا من العرب جملة ، ونحن لا نستطيع أن نسلكهم تحت جنس واحد من الأجناس ، ويرى بعض الدارسين أنهم لا تحادهم فى روحهم ونزعاتهم ، وأساليب حياتهم القائمة على الترحال والمهاجرة ، يذكروننا بطائفة « النور » أو كما تسمى عند البعض « الغجر » Gypsy أو البوهيميين Bohemians والجيتان والساسانيين أو بنى ساسان أو غير ذلك من الأسماء التى تختلف باختلاف المنازل التى ينزلونها(٢) .

وعد بعض الباحثين المكديين خاصة غجرا حقيقيين ، وحاولوا أن يجعلوا قرابة وصلة بينهم وبين الزط الذين نقلوا من الهند إلى فارس ، واستقروا على شواطىء الخليج الفارسى وعند الفتح الاسلامى أعتنقوا الاسلام وأنزلهم أبو موسى الأشعرى البصرة(٣) . ويظن هؤلاء الباحثون أن الزط الذين نزلوا فى

---

(١) البخلاء ص ٤٦ وأنظر ص ٥١ ومابعدها حيث شرح الجاحظ معانى الكلمات الغريبة فى هذه الوصية .

(٢) أنظر تعليقات الدكتور الحاجرى على البخلاء ص ٣٠٥ وما بعدها وانظر كشف الظنون : حاجى خليفة : (ط استنبول ١٣١١ ه) ١ / ٤٥٥ — ٤٥٦ حيث عقد فصلا فى « علم الحيل الساسانية » وأنظر فى نفس الموضوع يتيمة الدهر للثعالبى (ط . الصاوى) ٣٢٣/٣ حيث روى القصيدة الساسانية لأبى دلف الخزرجى وفيها كثير من الكلمات الاصطلاحية المشابهة لما جاء فى قصة خالد بن يزيد فى بخلاء الجاحظ .

(٣) أنظر فتوح البلدان للبلاذرى ٣٤٧ وما بعدها .

ضواحى البصرة قد يكونون أجداد قسم من الغجر الحاليين باعتبار أنه كان يوجد فى « زمن الجاحظ غجريون حقيقون لم يشر الجاحظ إلى قرابتهم مع الزط ولكنه أطلق عليهم أسم المكدين ، ويعتبر الجاحظ أول من أدخل — فيما نعلم — هذه الطبقة الاجتماعية فى الأدب العربى والتى أصبحت بداية رواج نوع أدبى معروف هو « فى المقامات »(١) .

ونظن أن صنيع بعض الدارسين فى أعتبار طائفة المكدين صنفا من الغجر فيه شىء من الصحة ذلك أن الجاحظ فى بخلائه ، وفيما نقله عنه البيهقى (٢) ، يحدثنا عن صفات المكدين وأصنافهم بصورة تشابه مايتسم به الغجر من سمات اجتماعية من مثل أنهم « عرفوا خدع الكاهن ، وتدسيس العراف ، وإلى مايذهب الخطاط — والعياف ، ومايقول أصحاب الاكتاف ، وعرفوا التنجيم والزجر والطرق والفكر ، وهذه كلها سمات شائعة بين طوائف الغجر ، وبالمثل فانه تحدث عن مخالطة المكدين لطوائف أثبتت الدراسات أنها الأصل الحقيقى للغجر ، من ذلك ما نراه فى حديث مكدى الجاحظ عن مخالطة الزط ، وهؤلاء أنتشروا فى البصرة حيث أختار الجاحظ مكديه من بين من نزلوا فى ديار بنى تميم ، وقد قيل فى تفسير كلمة « الزط » أنها تعريب جت بالهندية(٣) وهؤلاء الزط تحدث المؤرخين عن سعيهم وقطعهم الطريق بين البصرة وبغداد ،

---

(١) الجاحظ : شارل بيلا ٧٤ ، ٧٥ وأنظر الجاحظ والحاضرة العباسية : وديعة النجم ١٨٨ .

(٢) المحاسن والمساوىء للبيهقى ٣/٦٢٢ — ٦٢٤ .

(٣) لسان العرب لابن منظور (ط بيروت) ٧/٣٠٨ وفى دائرة المعارف الاسلامية مادة (زط) يظن أنها مشتقة من الفارسية .

وأنهم أفسدوا البلاد(١) ، حتى إن المأمون ولى محاربتهم عيسى بن يزيد الجلودى ثم داود بن سحور(٢) وذلك كله يجعلنا على يقين من صدق ظن الباحثين في الربط ما بين المكدين وبين الفجر حتى أن الكديه أصبحت فى عصر الجاحظ صناعة خاصة بطائفة بعينها ، تميزها صفات خاصة تفرق بينها وبين المتطفلين عليها(٣) ، ونظن أن هؤلاء المكدين كانوا يتكلمون عدة لغات مثل الخراسانية واليمانية والأفريقية ، ومن المحقق أنهم كانوا يجوبون أفاق المملكة الإسلامية إذ تجدهم متى شاءوا فى أفريقيا ، وحتى شاءوا بين أهـــل فرغانة ، أو في أقصى بلاد اليمن(٤) .

٢ — أهل الذمة : —

أهل الذمة هم كل من مكثوا بين المسلمين على دينهم ، فى مقابل أن يقوم المسلمون بالكف عنهم ، والحماية لهم ، والأمان على نفوسهم(٥) ، بحيث يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، بشرط أن يدفعوا الجزية ، وهى ضريبة على الرأس ، كانت تقابل ما يدفعه المسلم من صدقة وهى فرض على الرجال فقط دون الصبيان

---

(١) العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون (ط بولاق ١٢٨٤ هـ) ٢٥٧/٣ .

(٢) الكامل لابن الاثير ١٤٢/١

(٣) أنظر ما يذكره صاحب المحاسن والمساوىء نقلا عن الجاحظ ٦٢٣/٣ .

(٤) أنظر البخلاء ٥٣ .

(٥) « الاحكام السلطانية » : ص ١٣٧

والنساء ، والمساكين ، وذوى العاهات ، والرهبان[1] ، ولم يكن الاسلام يقبل من عبدة الأوثان من العرب ، أو المرتدين عن الاسلام الجزية ، فهؤلاء مخيرون بين الاسلام والقتال فقط ، وكان من تقاليد الاسلام إنه إذا أراد المسلمون غزو إقليم وجب عليهم أن يطلبوا من أهله أعتناق الإسلام ، فمن استجاب طبقت عليه أحكام المسلمين . وأعطى العهد والامان والضمان[2] ومن امتنع فرضت عليه الجزية عملا بقوله عز وجل : — « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطو الجزية عن يدوهم صاغرون »[3] ، ومن ثم لم يكن يتمتع بهذا الامتياز سوى اليهود والنصارى والسامريين ، والصابئة ، والمجوس ، على اختلاف بين المؤرخين فى اعتبار المجوس من أهل الذمة[4] . وليس بصحيح ما يذكره بعض المستشرقين من أن دفع الجزية كان بمثابة عقاب لاهل الذمة على عدم اعتناقهم الاسلام .

(أ) النصارى :

وتحدث الجاحظ طويلا عن أحوال أهل الذمة فى المجتمع العباسى وبين

---

(١) الخراج « لابى يوسف ، ص٦٩ — ٧٠ .
(٢) « لسان العرب » لابن منظور (ط . بيروت) : — ٢٢١/١٢ .
(٣) سورة التوبة : آية ٢٩ .
(٤) « الآحكام السلطانية » ص١٣٧ — و « فتوح البلدان » ص٢٧٦ — و « والملل والنحل » ٨٤/١ .

أيدينا مختارات من كتاب له « فى الرد على النصارى[١] » ويظن أن له مصنفا خصة بالحديث عن « الرد على اليهود »[٢] وإن كان ذكر فى فهرس تصانيفه فى « الحيوان » أنهما كتاب واحد فى « الرد على النصارى واليهود »[٣] .

ويظهر لنا من كتاباته أن النصارى كانوا يتمتعون بحرية لاتشوبها شائبة ، وتوثقت صلتهم بكل طبقات المجتمع ، وكان منهم كتاب السلاطين ، وفراشو الملوك[٤] وأطباء الاشراف ، والصيارفة[٥] ، وأنهم تسموا بأسماء المسلمين مما يدل على شدة اختلاطهم بهم فكان منهم من تسمى بالحسن والحسين ، والعباس والفضل وعلى[١] ، وتحدث عن رئيسهم الدينى وهو « الجاثليق » فذكر أنهم كانوا ، يفضلونه جهير الصوت ، وافر اللحية عظيمها ، زاهدا فى الرياسة[١] ، وكان له زى خاص به[٢] .

وعلى الرغم من هذه الحرية فإن النصارى ، فيما يبدو ، كانوا يظاهرون

---

(١) اختيارات عبيد الله بن حسان : « هامش الكامل » للمبرد ، ٢/١٤٨ - ١٩٩ وثلاث رسائل للجاحظ (فنكل) ط . السلفية ، ص ١٧ , وما بعدها وانظر « معجم الأدباء » : ١٦/ ١٠٧ .
(٢) « معجم الأدباء » : ١٦ /١٠٨ — وانظر « أدب الجاحظ للسندوبى ، فصل مؤلفاته ص ١٣٢ — ١٣٣ .
(٣) « الحيوان » : ١/ ٩ .
(٤) « هامش الكامل » : ٢ / ١٦٩ .
(٥) « هامش الكامل » : ٢ / ١٧٠ .
(٦) البيان والتبين : — ١ / ١٢٥ .
(٧) البيان والتبيين : — ٣ / ٩٠ .

الروم على المسلمين ، ونظن أن ما حدث فى زمن الجاحظ من قلاقل وثورات - دينية مسيحية كانت من أثر الدسائس الرومية التى تديرها الامبراطورية الرومانية ضد الدولة الاسلامية ، ولعل ذلك يفسر ما ذكره فى « الحيوان » وهو يحدثنا عن سلطان « الجاثليق » من أنه « فى حكمهم (النصارى) أن من أعان المسلمين على الروم يقتل ، وإن كان ذا رأى سملوا عينه ولم يقتلوه »(٢) ، كما نراه يكشف جانبا من صنيع النصارى فى بث الفرقة بين المسلمين ساعدهم على ذلك ما امتازوا به من جدل « وما أبيحت لهم من حريات ، فاذا بهم يناقشون المسلمين فى المتشابه من آى القرآن الكريم والأحاديث الضعيفة الإسناد بقصد أن يشيع بين ضعاف العقول الشك والريبة فى معتقدهم ، يقول : ــ « إن هذه الأمة لم تبتل باليهود ، ولا المجوس ، ولا الصابئين كما أبتليت بالنصارى ، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا « والضعيف بالاسناد من رواياتنا ، والمتشابه من آى كتابنا ، ثم يخلون بضعفائنا ، ويسألون عنها عوامنا مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين ، والزنادقة، والملاعين ،وحتى مع ذلك ربما تبرؤا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا، ويشغبون على القوى ، ويلبسون على الضعيف . ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد»(١).

وكانوا يناظرون المسلمين فى أمور دينهم،ويطرحون عليهم مسائل يدخلونها بما هو معروف عنهم من جدل ، وما تعودوا عليه من مكابرة « حتى دربوا بها الدرب الذى لا يفطن له إلا ذو الفراسة الثاقبة ، والمعرفة الثاقبة »(٢) مما

---

(١) « الحيوان » : ــ ٤ / ٢٧ ــ ٢٨ .

(٢) « رسالة فى الرد على النصارى » ، هامش الكامل » : ٢ / ١٧٤ .

(٣) « الحيوان » : ٦/٢٠٢

كان يخشى أثره على أحداث المسلمين وضعفائهم من لبس ، ولعل ذلك مما دفع الدولة فى زمن المتوكل إلى الدعوة لتأليف الكتب فى الرد على النصارى ، وإبطال حججهم ودعواهم ، ومن ذلك أن الجاحظ ألف كتابه « فى الرد على النصارى » إجابة لطلب الفتح بن خاقان ، وزير المتوكل (١) ، وفى ذلك يقول موجها كلامه إلى الفتح بن خاقان : — « قرأت كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه من مسائل النصارى قبلكم ، وما دخل على قلوب أحداثكم وضعفائكم من اللبس ، والذى خفتموه على جواباتهم من العجز ، وما سألتم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حسن معونتهم بالجواب(٢) وهو يرد فى كتابه هذا على طائفة من المسائل التى كان النصارى يناظرون المسلمين فيها من مثل تهجمهم على بعض ما ورد فى القرآن الكريم من حقائق وأخبار عن اليهود والنصارى بحجة أن القرآن أدعى عليهم « مالا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه فيما بينهم ، ولا يعرفونه من أسلافهم »(٣) من مثل ما جاء فى قوله تعالى : — « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله(٤) » ، وما جاء فيه من أن اليهود قالت « عزيراً بن الله »(٥) ، وأن « يد الله مغلولة(٦) » ، « أن الله فقير »(٧) وأى

---

(١) « معجم الأدباء » فى ذكر كتاب الجاحظ فى « الرد على النصارى » ، ١٦ / ٩٩ — ١٠٠ .

(٢) « هامش الكامل » ، الرد النصارى : ٢ / ١٤٩ .

(٣) « هامش الكامل » ، الرد على النصارى : ٢ / ١٤٩ ، وما بعدها .

(٤) آية ١١٦ من سورة « النساء » .

(٥) آية ٣٠ من سورة « التوبة » .

(٦) آية ٦٤ من سورة « المائدة » .

(٧) آية ١٨١ من سورة « آل عمران » .

اليهود أغنياء ، ومن مثل دعواهم بأنهم لا يعلمون شيئا عما جاء فى الكتاب الكريم من أن فرعون قال لهامان : — « ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب[1]، أسباب السموات فأطلع إلى آله موسى »[2] ، ويدعون أن هامان لم يكن إلا فى زمن الفرس ، وبعد زمن فرعون بدهر طويل ، ومن مثل رفضهم لبعض ما جاء فى القرآن الكريم من آيات ومعجزات عيسى بن مريم ، وأنه تكلم فى المهد[3] وغير ذلك من مسائل ذكر الجاحظ أنه سيرد عليها « بالشواهد الظاهرة ، الحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية ثم أنه سيسأل النصارى عن « وجوه يعرفون بها انتقاض قولهم ، وانتشار مذهبهم ، وتهافت دينهم[4] » .

« ويذكر فى هذا الكتاب أن النصارى كانوا « أحب إلى العوام من المجوس وأسلم صدورا عندهم من اليهود » وأقرب مودة ، وأقل غائلة ، وأصغر كفرا ، وأهون عذابا »[5] وهو يعدد أسباب ذلك ويجعل أولها : — « أن اليهود كانوا جيران المسلمين بيثرب وغيرها » ومن ثم كانت العداوة بينهم وبين المسلمين ظاهرة أسبابها ذلك أن « عداوة الجيران شبيهة بعداوة الاقارب فى شدة التمكن وثبات العقد[6] ، أما النصارى فكانت لبعد ديارهم من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ومهاجره لا يتكلفون ضغنا ولا يثيرون كيدا ، ولا يجمعون على حرب » ، وبالمثل يجعل الجاحظ من أسباب مودة العامة النصارى أن المهاجرين

---

(١) آية ٣٦ من سورة « غافر » .
(٢) آية ٣٧ من سورة « غافر » .
(٣) « هامش الكامل » : — ٢ / ١٥٤ — ١٥٧ .
(٤) « هامش الكامل » : — ٢ / ١٥٨ .
(٥) « هامش الكامل » : — ٢ / ١٥٩ .
(٦) هامش الكامل ، ٢ / ١٥٩ .

الأولين من المسلمين اتجهوا إلى بلاد الحبشة، ودينها النصرانية [1] وبالمثل فإنه يذكر من بين أسباب هذه المودة ومن أمتنهاء تأويل آية غلطت فيها العامة حتى نازعت الخاصة، وحفظتها النصارى، واحتجت، واستمالت قلوب الرعاع والسفلة، وهو قول الله تعالى: — «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون [2]»، ويذكر الجاحظ أنه «في نفس الآية أعظم الدليل على أن الله تعالى لم يعن لا النصارى ولا أشباههم «الملكانية، واليعقوبية»، وإنما عنى ضرب بحيرا، وضرب الرهبان [3] ...» وبالمثل كان من هذه الأسباب: — «أن العرب كانت النصرانية فيها فاشية، عليها غالبة إلا مضر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية [4]».

وكذلك نراه في كتابه «الرد على النصارى» يفضح أمرهم أمام عامة الشعب حتى لا يقعوا في حبائل مكائدهم، ويذكر أنهم لا حكمة لهم، ولا بيان، ولا بعد رؤية وأن ما يدعون من حكمة ومنطق وعلم وفن إنما يرجع إلى اليونانيين، وهم ليسوا على دين النصارى، ولا قرابة لهم بالرومانيين، ومن ثم فإن مايدعونه لأنفسهم من حكمة وعلم باطل ولا يسنده التاريخ، وعنده أن العامة لو أدركت ذلك «لأخرجتهم من حدود الآداب، ولمحتهم من ديوان الفلاسفة والحكماء، لأن كتاب «المنطق» «والكون» «والفساد»، وكتاب «العدوى»، وغير

---

(1) المصدر السابق: ٢ / ١٦١ .

(2) آية ٨٢ من سورة المائدة .

(3) «هامش الكامل»: — ٢ / ١٦٣ .

(4) المصدر السابق: — ٢ / ١٦٤

ذلك لأرسطاطاليس ، وليس بروحى ولا نصرانى وكتاب « المجسطى » لبطليموس، وليس بروحى ولا نصرانى ، وكتاب « إقليدس » ، وليس بروحى ولا نصرانى ، وكتاب « الطب » لجالينوس ، ولم يكن روميا ولا نصرانيا ، وكذلك كتب ديمقراط ، وبقراط ، وأفلاطون . . ، وهؤلاء أناس من أمة قد بادوا ، وبقيت آثار عقولهم ، وهم اليونانيون . . ودينهم غير دين النصارى ، وأدبهم غير أدب النصارى ، أولئك علماء وهؤلاء صناع أخذوا كتبهم لقرب الجوار وتدانى الدار ، فمنها ما أضافوا إليه ، ومنها ما حولوه إلى ملتهم إلا ما كان من مشهور كتبهم ، ومعروف حكمهم فإنهم حين لم يقدروا على تغيير أسمائها زعموا أن اليونانيين قبيل من قبائل الروم ففخروا بأديانهم على اليهود ، واستطالوا بها على العرب ، وبذخوا بها على الهند ، حتى زعموا أن « حكماءنا ابتاعوا حكماءهم ، وأن فلاسفتنا احتذوا على مثالهم »[1] .

وهو يرميهم بأنهم سبب ما أصاب الأمة من فساد فى المعتقد فهم الذين أظهروا الزندقة ، وأشاعوا المذاهب الفاسدة من مثل : — الدهرية ، والمانية ، والمرقونية والديصانية ، ومن أن دين النصارى « يضاهى الزندقة ، ويناسب فى بعض وجوهه قول الدهرية » وهم « من أسباب كل حيرة وشبهة » وذكر : — « أن أكثر من قتل الزندقة ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ، على أنك لو عدت اليوم أهل الظنة ، ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك[1] » ، وهو ينص صراحة على أنهم بسبب ما بين دينهم ودين الزندقة من نسب ، وبسبب ميلهم إلى ذلك المذهب[2] فان « متكلميهم ، وأطباءهم

---

(١) « هامش الكامل » للمبرد . — ٢ / ١٦٦ — ١٦٨ .
(٢) « هامش الكامل » للمبرد . — ٢ / ١٦٨ — ١٦٩ .
(٣) المصدر السابق . — ٢ / ١٧٥

ومنهجيهم (كانوا) السبب في شيوع كتب المانية، والديصانية، والمرقونية، ويذكر أنه هؤلاء — النصارى — لكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها، ومحلاة بين أيدي ورثتها(١) ».

ولا ينكر الجاحظ، ما للنصارى من كثرة في الأموال، وحسن في الصناعة، إنما الذي ينكره عليهم، ويفضحه فيهم هو ما بدر منهم من « شدة المعاندة واللجاجة، والإرصاد لأهل الاسلام بكل مكيدة مع لؤم الأصول وخبث الأعراق(١) »، ويذكر أنهم « اتخذوا البراذين الشهرية، والخيل العتاق، واتخذوا الجوقات، وضربوا بالصوالجة، وتحدقوا المدينى، ولبسوا الملحم والمطابقة، واتخذوا الشاكرية ويصف ما كان لهم من حرية غير مشوبة في ظل المجتمع العباسي، وأن الدولة كانت متسامحة معهم، على الرغم من صنيعهم للريب في بث الفتنة بين المسلمين حتى « إن كثيرا منهم ترك عقد الزنانير، وامتنع كثير من كبرائهم من إعطاء الجزية وانفوا مع اقتدارهم من دفعها، وأنهم سبوا من سبهم، وضربوا من ضربهم من المسلمين » ويعقب الجاحظ على مثل هذا السلوك معارضا ما كان لهم من حرية غير محدودة بحدود حددها القرآن الكريم، وأقرتها السيرة النبوية الشريفة، أنظر إلى مثل قوله . — وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثر منه، وقضاتنا، وعامتهم يرون أن دم الجاثليق، والمطران، والاسقف وفاء بدم جعفر وعلى، والعباس، وحمزة ويرون أن النصرانى إذا قذف أم النبى صلى الله عليه وسلم بالفواية أنه ليس عليه إلا التعزير والتأديب(٢) .

---

(١) المصدر السابق : — ١٧٠/٢

(٢) « هامش الكامل » للمبرد : ١٧١/٢، وما بعدها .

وكان مما استرعى نظره من أمور النصارى العجيبة، أنه مع عزوف رؤسائهم عن الزواج، وعدم استطاعة النصرانى الاستبدال بزوجته أو الزواج بأخرى أو التسرى عليها، فانهم « غلبوا الامم بالعدد، وبكثرة الولد، وذلك مما زاد فى مصائبنا وعظمت به محنتنا » ثم يدلل على ذلك بما طبع فيهم من « أنهم يأخذون من سائر الأمم ولا يعطونهم[1] » وهو يصفهم بفساد القلوب وتحجرها مدللا على ذلك بأنهم « أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم »[2].

وبالمثل لاحظ أنهم «وإن كانوا لا يأكلون السمك أكلا ذريعا إلا أنه من عادتهم الاقلال من شرائه فى أيام بعينها، حتى إن ذلك كان سببا فى غلى أسعاره ولم يتحقق الاسترخاص فيها إلا فى أيام الخميس والسبت، والثلاثاء لأن حرامهم للسمك فى هذه الأيام كان يقل[3]، بالمثل كان من عادتهم الاكثار من الذبائح أيام الفصح[4]، على الرغم من أنهم كانوا يتظاهرون برفض« الذبائح، والبغض لاراقة الدماء، والزهد فى أكل اللحمان »، وهم فى هذا السبيل يضاهون سبيل الزنادقة، ويظهر أن الجاحظ لم يكن راضيا عن سلوك الرهبان من النصارى حتى إنه كان يرى فى الترهب وسيلة لابتزاز الإحسان من أهل الثروة فهو يذكر أن النصارى إذا أبغض أحدهم العمل « ترهب ولبس الصوف، لأنه واثق أنه متى

---

(١) المصدر السابق : ٢/٥٧٦.

(٢) « هامش الكامل » للمبرد : — ٢ / ١٧٦ — والحيوان : ٥ / ٤٠٥ وما بعدها.

(٣) « الحيوان » : — ٤/٤٣٠

(٤) (الحيوان) : — ٤/٤٢٨

لبس وتزيا بذلك الزى وتحلى بذلك ، وأظهر تلك السيما ، أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه ، ثم لا يرضى بأن ربح الكفاية باطلا حتى استطال بالمرتبة[1] » ، ويظهر أن من المتكلمين من كانوا يتصدون لكشف حيل بعض القساوسة وخدعهم ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن بعض المتكلمين وكشفهم لإدعاء أحد القساوسة أن الصليب الذى فى عنقه من خشب لا يحترق لأنه من العود الذى صلب منه المسيح ، ويظهر أن هذا القس كان يفتن بذلك بعض أهل النظر فأتاه بعض المتكلمين بقطعة عود من عود كرمان ، كان أبقى على النار من صليب القس[2] .

(ب) اليهود : —

وتحدث كذلك عن اليهود ، وعدهم من بين صغار الناس والانذال مع النصارى والمجوس[1] ، وذكر أنهم كانوا معرضين عن الفلسفة وعلوم الكلام ، ولا تجد بينهم من يؤمن بالطب ، أو بصدق المنجمين ، يقول « اليهود ترى أن النظر فى الفلسفة كفر ، والكلام فى الدين بدعة ، وأنه مجلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان فى التوراه وكتب الانبياء ، وان الايمان بالطب ، وتصديق المنجمين ، من أسباب الزندقة والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الاسلاف ، وأهل القدرة حتى إنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل

---

(١) « الحيوان » :— ٥/٢٠٩ — ٢٢٠

(٢) « الحيوان » : ٥/٣٠٠ .

(٣) « الحيوان » : — ٥/١٥٧

أولئك(١)» . ويظهر أن عزوفهم عن التنجيم لم يكن قاعدة مطردة ، ذلك أن الجاحظ ذكر من بين اليهود من كان يعمل في التنجيم ، من مثل صنيع « ماشاء الله المنجم اليهودى » ، الذى قال عنه سفيان الثورى : — لم يكن في الأرض أحد قط أعلم بالنجوم بالقرانات من (مشاء الله كان »(٢) .

وتدلنا كتابات الجاحظ على أن اليهود كانوا يقومون على المهن الوضيعة في المجتمع حتى أنه لم يجد اليهودى «الاصباغا ، أو دباغا ، أو قصابا ، أوشمايا(٣)» وقد يقومون شأن أهل الذمة على بيع الخمور(٤) ، وهم عنده — فيما يظهر — يسلكون بين الأجناس الذليلة المتكبرة ، وإن كانوا لقلتهم والذلهم لا يظهر كبرهم إلا لأهل النظر ، يقول : — « والكبر في الاجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم . ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة ، كعبيدنا من السند ، وذمتنا من اليهود(٥) » .

كما تدلنا كتاباته أيضا على أن العامة كانت تستخف بأمر اليهود ، وتحقر من شأنهم زعموا « أن الفارة كانت يهودية سحارة ، والأرضة يهودية أيضا عندهم ولذلك سيلطخون الاجذاع بشحم الجزور »(٦) ، والجزور (الإبل من الحيوانات المحرمة على اليهود ، وكأنهم بذلك تيقنوا من حقيقة ما يزعمون ، وأن صنيعهم

---

(١) « الرد على النصارى » : هامش الكامل ٢/١٦٦ .
(٢) « البيان والتبين » ٤/١٤ .
(٣) « هامش الكامل » ٢ / ١٦٩ .
(٤) « الحيوان » ١ / ٣٣٩ .
(٥) « الحيوان » ٦ / ٧١ .
(٦) « الحيوان » ٦ / ٤٧٧ .

ذلك سيحمى أجذاعهم من فتك الأرضة والفئران بها . وبالمثل كان عامة الشعب يزعمون أن الضب يهودى ، حتى ان بعض القصاص قال لرجل أكل ضبا : — « أعلم أنك أكلت شيخا من بنى إسرائيل[1] » ، وبلغ من استخفاف عامة الشعب بأمر اليهود أن الصبيان كانوا « يصيحون بالفهد إذا رأوه : — يا يهودى » [2].

ويظهر أن رئيسهم الدينى ، ويقال له « رأس الجالوت » كان له شىء من السلطان عليهم ، فهو وإن كان لا يملك أن يحبس أو يضرب أحد رعاياه فى دار الاسلام إلا أنه كان يغرم من يخطىء منهم ، بالمال ويحرم على اليهود مخاطبته ومحادثته وإن كان هذا الصنيع غير موجود فى كتبهم ودينهم[3] ، وكان رأس الجالوت إذا أراد أن يحرم كلام رجل منهم أمر بأن ينفخوا عليه بالشبور والشبور شىء مثل البوق[4] .

والجاحظ يرمى اليهود بالغى ، وعاب فيهم أنك لا تجد عندهم المعانى والأمثال التى يستحسنها أهل التجربة ، وأنهم لم يتمكنوا من طول لبثهم بين العرب أن يكتسبوا منهم ما يعدل من أخلاقهم وشمائلهم ، وعقولهم ، وأحلامهم وفطنهم وهو يعزو ذلك إلى حرص الاسرائيلى أن لا يزوج الا الاسرائيلى ، انظر إلى مثل هذه المعانى فى قوله : — « وكيف لا تقضى عليهم بالغى والجهل ، ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة أو معنى نبيه لا ممن كان فى المبدأ ، ولا ممن كان فى المحضر ، ولا من قاطنى السواد ، ولا من نازلى الشام ، ثم أنظر إلى أولادهم

---

(١) « الحيوان » ٦ / ٤٧٧ .

(٢) « الحيوان » : ٦ / ٤٧٦ .

(٣) « الحيوان » : ٤ / ٢٧ — ٢٨ .

(٤) « الحيوان » : ٤ / ٢٧ .

مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا ، هل غير ذلك من أخلاقهم ، وشمائلهم ، وعقولهم ، وأحلامهم ، وفطنهم ، فقد صلح فينا كثيراً أمور النصارى وغيرهم ، وليس النصارى كاليهود ، لأن اليهود كلهم من بنى إسرائيل إلا القليل ، فلم يضرب فيهم غيرهم ، لأن مناكحهم مقصورة فيهم ومحبوسة عليهم[1] » .

٣ — الرقيق :

تأتى فى أسفل السلم الاجتماعى فى المجتمع العباسى ، طائفة الرقيق وتشمل فئات : الجوارى ، والرقيق ، والخصيان ، ومن كانوا يقومون عليهم من مثل القوادين ، والناشدين الذين كانوا موكلين بإعاده الآبقين منهم ، كما تعاد الإبل الضالة[2] . وحظيت هذه الطائفة باهتمام خاص فى كتابات الجاحظ حتى إنه أفرد للحديث عن أحوالها بعض كتبه ورسائله ، من مثل كتابه « مفاخرة الجوارى والغلمان[3] » وكتابه فى « القيان »[4] ، وكتابه فى « النساء »[5] . وهو غير رسالته فى « العشق والنساء »[6] ، غير ما عقده فى حيوانه من فصول تحدث فيها عن الخصيان والنساء ومثل تناول جانبا من أقوال هذه الفئات فى كتاب « البغال » بما ضمنه من ملاحظات .

---

(١) « كتاب الحجة فى تثبيت النبوة » : — رسائل الجاحظ (السندوبى) ص ١١٧ ، وما بعدها .

(٢) « الحيوان » : — ٤/١٦٧ .

(٣) ذكره ياقوت فى « معجم الأدباء » ١٦/١٠٧ تحت اسم « كتاب الجوارى » وهو فى مجموعة الأستاذ هارون من رسائل الجاحظ : ٢/٩٠ — ١٣٧ .

(٤) جعله ياقوت تحت اسم كتاب المغنيين والغناء والصنعة « معجم الأدباء ١٦/١٠٨ وأنظر « رسائل الجاحظ » (تحقيق الأستاذ هارون) ٢/١٤٣ — ١٨١

(٥) « رسائل الجاحظ » : — (نشر سياسى) ص ١٦١ — ١٦٩

(٦) « رسائل الجاحظ » (نشر ساسى) ص ١٦١ ص ١٦٩

وكان للرقيق فى المجتمع العباسى تجارة[1] ، لها قواعدها وأصولها من حيث ما يحتاج إليه البائع المبتاع فى سوقها ، من مثل مقدار الحسن فيما يعرض ويحمل ، وفى ذلك يقول الجاحظ : — « إن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليها المساومات والمشارة بالثمن ، ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفي العلق ، ويتأملاه تأملا بينا يجب خيار الرؤية المشترط فى جميع البياعات ، وإن كان لا يعرف مبلغه بكيل ، ولا وزن ، ولا عدد ، ولا مساحة ، فقد يعرف بالحسن والقبح[2] » ويذكر بين آداب سوق الرقيق حق المبتاع فى مكالمة القيان المعروضة ، ومفاكهتهن ، ومغازلتهن ، ومصافحتهن للسلام ووضع اليد عليهن للتقليب والنظر ، ويعد ذلك من الأمور الحلال ما لم يشبها ما يحرم[3] .

وقد تعددت جنسيات الجوارى والقيان ، فمنهم الهنديات ، والسنديات والكوفيات ، والبصريات ، والمصريات ، والروميات ، والحبشيات ، والمكيات ، والزنجيات ، والتركيات . ولكل جنس منهم ما يميزه عن الجنس الآخر ، وفى ذلك يقول الجاحظ فى حديثه عن بعض سمات الجوارى الكوفيات : — « قد كان بالكوفة نتاج بين الخرسانية والهنديات ، وكن أصلح وأحسن قدودا من البغلات اللواتى بمصر ، وكانت ألوانهن تجىء ذهبية لها حلاوة الهندية ، وروعة الخراسانية[4] » ، وبالمثل يقول فى نعت الجوارى البصريات : — « إنهن الثمينات المرتفعات ، والغوالى الخطيرات[5] » ، أما « البغلات » . وعن جوارى

---

(١) « التبصر بالتجارة » : الجاحظ ، ص ٢٦ ، ٢٨ .

(٢) كتاب « القيان » : — رسائل الجاحظ ، تحقيق الأستاذ هارون ، ١٦١/٢٧

(٣) المصدر السابق : ١٦٣/٢ .

(٤) كتاب « البغال » : — رسائل الجاحظ (هارون) : ٢٧٧/٢ .

(٥) المصدر السابق نفسه

مصريات فكن نتاجا « ما بين الصقالبة وجنس آخره والواحدة منهن يقال لها « بغالة »، ولهن أبدان ، ووثارة ، وحدارة(١) »، وقد نتج من ازاوج هذه الأجناس المتباينة من الجوارى والرقيق ، ظهور أجناس جديدة من مثل « الخلاص » من الرقيق ، وهو الذى يتخلق بين الحبشى والبيضاء »، يقول الجاحظ فى نعتهم : — « أنهم يخرجون أعظم من آبائهم ، وأقوى » ومثل « البيسرى » « من الرقيق » وهو الذى يخلق من بين البيض والهند ، وهذا النتاج لا يخرج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما ، ولكنه يجىء أحسن وأملح»(٢).

وكانت هناك دور خاصة للقيان ، هى (بيوت الكشاخنة)(٣) غلب عليها مظهر الفساد الخلقى ، ويذكر الجاحظ أن القيان كن يحذقن أمورا خاصة بصنعتهن من مثل حذقهن الغناء ، والشعر الفاضح المكشوف(٤) ، ولا تقف القينة عند هذا الحد إنما لا تنفك تعمل فى الاستزادة منه حذقا لصنعتها ، ولم يكن هناك شاغل يشغلها غير حذق هذا الفن ، وسبك هذه الصنعة ، « لأن فكرها ، وقلبها ، ولسانها ، وبدنها مشاغل بما هى فيه وعلى حساب ما اجتمع عليها من ذلك فى نفسها لمن يلى مجالستها عليه وعليها(٥)»، وبالمثل كانت بعض الجوارى حريصات على التثقف والتعلم ، فهذه جارية سلموية طبيب المعتصم ، تنافس رجلا فى قراءة كتاب « إقليدس » ، فتفرغ من قراءته ، بينما الرجل لم يحكم بعد مقالة واحدة

(١) « كتاب القيان » ٢٠ / ٢٨١ .
(٢) « الحيوان » ١٠ / ١٥٧ .
(٣) كتاب « القيان » . — رسائل الجاحظ (هارون) ٢ / ١٧٥ .
(٤) « رسائل الجاحظ » . — (هارون) ، ٢ / ١٧٦ .
(٥) المصدر السابق . — ٢ / ١٧٧ .

منه(١)، ومن هؤلاء الجوارى من كن ينزلن من الخلفاء والسادة منزلة خاصة، فقد تقف الواحدة منهن على رأسه تذب عنه وتروحه، ومنهن من كن يدخلن على الخليفة، أو من فى منزلته وهو فى مجلسه العام مع الرجال دون أن يكن عليهن حرج، وفى هذا المعنى يقول الجاحظ: — «لم يكن يعدم من الخليفة ومن بمنزلته فى القدرة والتأنى أن تقف على رأسه جارية تذب عنه وتروحه، وتعاطيه أخرى فى مجلس عام يحضره الرجال(٢)».

كما أننا نراه يحدثنا عن المقين، وحذقه فى صنعته، وكيف أنه يأخذ الجوهر ويعطى العرض فى سوق القيان، وأن ما يعود عليه من كسب وفائدة يفضل ما يجنيه صاحب القيان نفسه(٢)، ويفصل القول فيما يصنعه المقين مع قيانه فى داره، وتغاضيه عن أمور كثيرة تحدث بينهن وبين الغادين والرائحين على داره عاشقين ومرابطين وهو يفرق فى استقبال ضيوفه بين من يأتيه راغبا من قبل ذوى السلطان، وبين من يأتى من عامة القوم، أنظر إلى مثل هذه الخصال فى صفة المقين، وتعامله مع قيانه، وما يدور فى داره، فيما يذكره الجاحظ يقول: «أن المقين كان يسقط الغيرة عن جواريه، ويعنى بأخبار الرقباء، ويأخذ أجرة المبيت، ويتناوم قبل العشاء، ويعرض عن الغمزة، ويغفر القبلة، ويتغافل عن الإشارة، ويتعامى عن المكاتبة، ويتناسى الجارية يوم الزيارة، ولا يعاتبها على المبيت، ولا يفض ختام سرها، ولا يسألها عن خبرها فى ليلها، ولا يعبأ

---

(١) «الحيوان» ١ / ٥٤.
(٢) كتاب «القيان»، رسائل الجاحظ (هارون)، ٢ / ١٥٥.
(٣) المصدر السابق. — ٢ / ١٧٨.

بأن تقفل الأبواب ، ويشدد الحجاب ، ويعد لكل مربوط عدة على حدة ، ويعرف ما يصلح لكل واحد منهم ، كما يميز التاجر أصناف تجارته فيسعرها على مقاديرها ، ويعرف صاحب الضياع أراضيه لمزارع الخضر ، والحنطة ، والشعير . فمن كان ذا مال ولاجاه له أستقرض منه بلاعينه ، ومن كان من السلطان بسبب كفيت به عادية الشرط ، والأعوان وأعلنت فى زيارته الطبول ، والسرانى(١) » .

وكان الغلمان ، على شاكلة القيان ، يباعون فى سوق الرقيق ، يعرض الواحد منهم بعشرة دنانير ، ولكن حسن وجهه ، وجودة قد تزيد الثمن إلى أضعاف هذا المبلغ(٢) . وكان الغلمان من جنسيات مختلفة من مثل :الروم (٣)، والسند(٤) ، ويظهر أن بعض السادة كانوا يحرصون أن يسير فى مواكبهم غلمانهم ، وبالمثل فإنهم كانوا يقيمونهم على طهى الطعام فى دورهم(٥) ، وخص الجاحظ أحد مصنفاته لمناظرة طريفة فى المفاخره بين الغلمان والجوارى، من مثل قوله أن عشق الغلمان هو« غاية الأدباء والظرفاء ، فقد قالوا فى الغلمان فأحسنوا

---

(١) كتاب « القيان » : ـــ رسائل الجاحظ ، (هارون) ٢ / ١٧٩ ـــ ١٨٠ والسرانى جمع سرنانى وهى كلمة فارسية معناها البوق ، ينفخ فيه الاجر ـــ انظر المعجم الفارسى الانجليزى لاستيينجاس (لندن ١٩٣٠م) ، ص ٦٧٨ .

(٢) « الحيوان » : ٦ / ٤١٠ .

(٣) البيان والتبيين » : ٤ / ١٣ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) الحيوان : ٦ / ٤٨٩ .

ووصفوهم فأجادوا، وقدموهم على الجوارى فى الجد منهم والهزل(١)»، ويستشهد صاحب الغلمان على قوله هذا بأشعار الشعراء من مثل أبى نواس(٢)، وأبى هشام الخزاز(٣)، ويوسف لقوة(٤)، وما أنشدوا من شعر فاضح فى مدح الغلمان وذم النساء.

وبالمثل كان بين طائفة الرقيق فئة ثالثة هى فئة الخصيان، تحدث عنها الجاحظ طويلا فى كتاباته، وبشكل يظهر — أحيانا — تأثره مما آلت إليه أحوال أفرادها بسبب خصائهم(٥)، وقد تحقق لديه أن نصارى الروم هم أول من ابتدع هذه الفعلة غير الانسانية(٦)، ويظهر أن سبب الخصاء عند الروم أنهم أقاموا الخصيان من أبنائهم على حراسة بيوت العبادة، وهم لذلك كانوا يخصون أبناءهم(٧)، على خلاف الصابئة، فإن العابد منهم «ربما خصى نفسه، فهو فى هذا الموضع قد تقدم الرومى فيما أظهر من حسن النية، وانتحل من الديانة والعبادة بخصاء الولد التام، وبادخاله النقص على النسل(٨)».

وكان الخصيان فى المجتمع العباسى، من أجناس عدة: فمنهم خصيان من الحبشان، والنوبة، يقول عنهم الجاحظ فى معرض المفاضلة بينهم وبين خصيان الصقالبة: — «ان الخصاء يأخذ منهم ولا يعطيهم، وينقصهم ولا يزيدهم،

---

(١) «مفاخرة بين الجوارى والغلمان» رسائل الجاحظ (هارون) ٢/١٠٥.

(٢) المصدر السابق: ٢/١٠٦—١٠٧—١١٠—١١١—١١٢—١١٣.

(٣) المصدر السابق: ٢/١٠٩.

(٤) المصدر السابق: ٢/١١٢.

(٥) «الحيوان»: ١/١٠٦ — ١٠٧.

(٦) «الحيوان» ١/١٢٤.

(٧) نفس المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق: ١/١٢٥.

ويحطهم عن مقادير إخوانهم ، كما يزيد الصقالبة عن مقادير إخوانهم ، وأن الحبشى متى خصى سقطت نفسه ، وثقلت حركته ، وذهب نشاطه ، ولا بد أن يعرض له فساد ، وذكر أن « أكثر ما تجد فيهم الألطع وذلك فاش فى شفاههم(١) » ، بالمثل يذكر الجاحظ أن من صفات الصقلبى بعد خصية : — « تزكية عقله ، وارهاف حده ، وشحذ طبعه ، وتحريك نفسه(٢) » ، وذكر أنهم خاصة دون خصيان الخراسانية ، والسودان من السند ، والحبشان يعرض لهم تغير الصوت(٣) ، أما خصيان خراسان وهم قليل — فانهم كانوا مقربين الملوك والخلفاء ، وفى هذا المعنى يقول : — « وملوكنا لمقول خصيان خراسان أحمد ، وهم قليل ، ولذلك لم نأت من أمرهم بشىء مشهور ، وأمر مذكور »(٤)

وكان من رقيق السند طباخون ، وطهاة مهرة ، حتى أنه كان يقال : — « لا يوجد فى العبيد أطبخ من السندى ، هو أطبع على طيب الطبخ كله »(٥) ، ولأمانتهم كان الصيارفة « لا يولون أكسيتهم ، وبيوت صروفهم إلا السند ، وأولاد السند لأنهم وجدوهم أنفذ فى أمور الصرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيس صيرفى ومفاتيحه ابن رومى ، ولا ابن

---

(١) « الحيوان » : ١ / ١١٩ .

(٢) « الحيوان » : ١ / ١١٧ .

(٣) « الحيوان » : ١ / ١١٣ .

(٤) « الحيوان » : ١ / ١١٨ .

(٥) « فخر السودان على البيضان » : رسائل الجاحظ (هارون) ١ / ٢٢٤ — ٢٢٥ .

خراسانى[1] » ، ويظهر أن ذلك كان شائعا فى البصرة بصفة خاصة[2] . ويظن أن السند عملوا كذلك مع الصيدلانية ، يقول الجاحظ . « كل صيدلانى عندنا الاوله غلام سندى ، فبلغوا أيضاً فى البربهار (التوابل) ، والمعرفة بالعقاقير ، وفى صحة المعاملة ، واجتلاب الحرفاء مبلغا حسنا[3] » .

أما الزنج فيظهر أن بعضهم عمل مع الرقاصين والزمارين وطوائف الملهين ، ذلك أنه يقول فى نعتهم أنهم « أطبع الخلق على الرقص الموقع الموزون ، والضرب بالطبل على الإيقاع الموزون من غير تأديب ولا تعلم[4] » ، ويظهر أن من هؤلاء الزنج من كانوا يعملون فى « الفشكرة » ، وهى زراعة الأرض وفلاحتها[5] وهم الكثرة ، ومنهم من كانوا يقومون على رعاية الإبل[6] ، وقد يعمل بعضهم فى الحجامة[7] ، ويظهر أن طائفة منهم جاءوا إلى المجتمع العباسى نتيجة لسبيهم وهؤلاء السبى كانوا فى نظر الزنج أنفسهم من سفلتهم ، وعبيدهم « ليس فيهم جمال ولا عقول »[8] .

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) « الحيوان » : ٣ / ٤٣٥ .

(٤) « فخر السودان على البيضان » : ١ / ١٩٥ .

(٥) « البيان والتبيين » : ١ / ٦٠ .

(٦) « الحيوان » : ٣ / ٢٣٤ .

(٧) « الحيوان » : ٣ / ٣٢

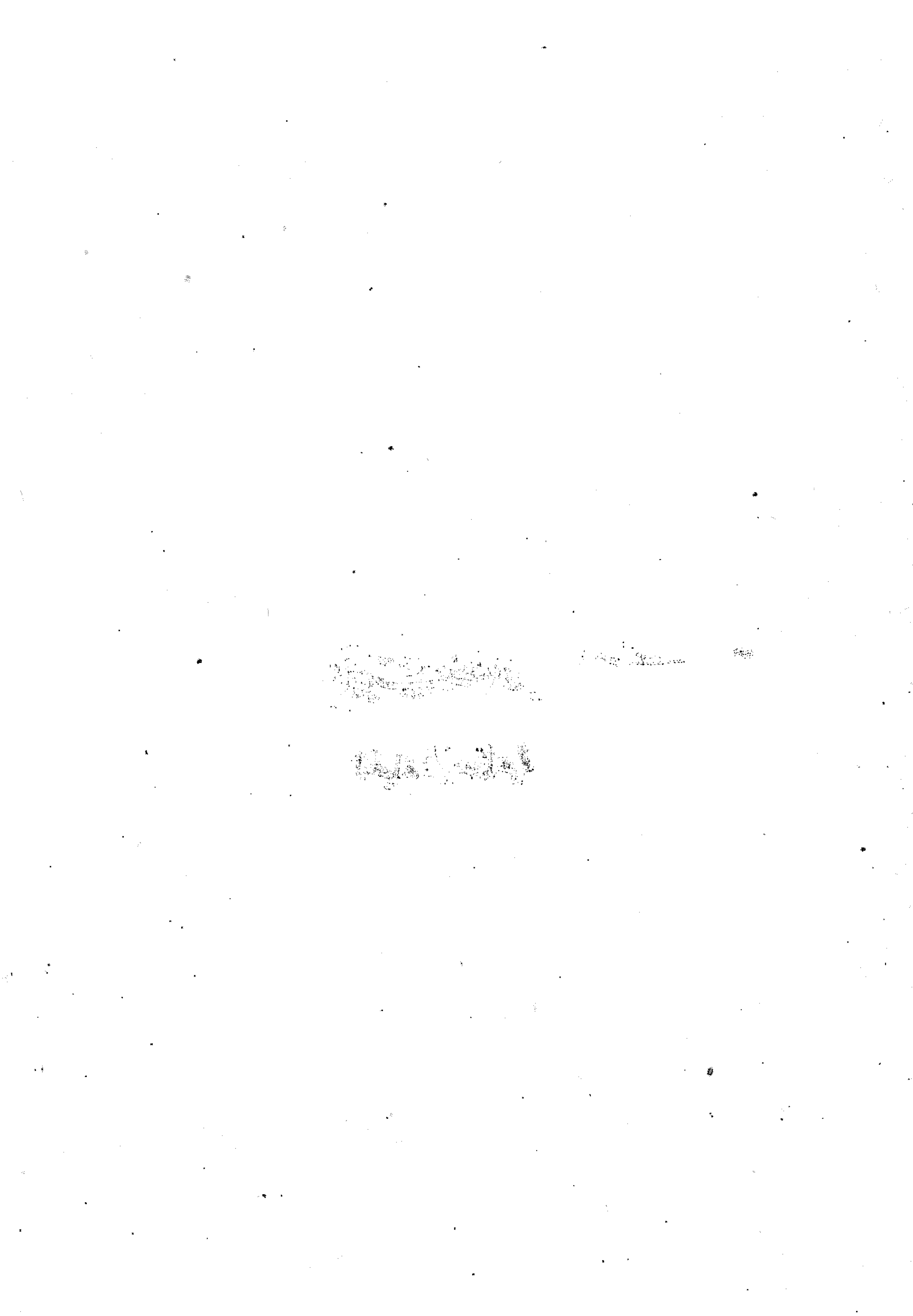
(٨) « فخر السودان على البيضان » : ١/١١٢ .

أما الروم فمنهم من كان يقوم على رعاية الإبل شأن صبيان الحبشان والنوبة من الزنج(١) ، وكان فيهم من يتعهد فرش الدور وأثاثها(٢) ، وقد فاقوا في ذلك السند ، وغيرهم من أصناف الخدم من الرقيق .

(١) « الحيوان » : ٣ / ٤٣٥ .
(٢) نفس المصدر السابق .

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية



«الباب الثانى»

الحيـــاة الاجتماعية

الفصل الاول : الحياة اللغوية .

١ ـــ اللغة الفصحى .

٢ ـــ اللهجات والـلكنات واللحن.

٣ ـــ لغات خاصة .

الفصل الثانى :الحركة العلمية وعلم الـكلام والاعتزال.

(١) الحركة العلمية .

(ا) ازدهار الحركة العلمية والأدبية .

(ب) النشاط العلمى فى المساجد .

(ﺟ) المناظرات

---

(٢) علم الـكلام والاعتزال .

(ا) المتـكلمون .

(ب) المعتزلة .

(ﺟ) مسألة خلق القرآن .

الفصل الثالث

العادات والتقاليد

١ ـ أحوال البلدان والدور .

٢ ـ العادات .

٣ ـ المطاعم .

٤ ـ المشارب .

٥ ـ الأزياء .

الفصل الرابع

النزعات الإجتماعية

١ ـ الشعوبية .

٢ ـ الزندقة .

٣ ـ المجون .

٤ ـ الزهد .

«الباب الثانى»

الفصل الاول

الحياة اللغوية

١ ـ اللغة الفصحى .

٢ ـ اللهجات والكنات واللحن.

٣ ـ لغات خاصة .

الفصل الأول

الحياه اللغوية

١ — اللغة الفصحى :

يقول ابن منظور أن كلمة « لغة » تعنى الأصوات التى يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وينقل صاحب اللسان عن الأزهرى قوله : — « واللغة من الأسماء الناقصة وأصلها لغوة من لغا إذا تكلم» ويقول ابن منظور : — « واللغة :اللسن وحدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهى فعلة من لغوت أى تكلمت[١] » ، ويقول أنطوان مييه Antoinne Meillet فى كتابه « لغات العالم » : — « أن كلمة اللغة تعنى كل جهاز كامل من وسائل التفاهم بالنطق المستعملة فى مجموعة بعينها من بنى الإنسان ، بصرف النظر عن الكثرة العددية لهذه المجموعة البشرية أو قيمتها من الناحية الحضارية[٢]» وكان العرب يستعملون كلمة لسان الدلالة على اللغة[٣] ، وبهذا المعنى وردت فى القرآن الكريم[٤] ،

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، مادة لغا : — ١٥ / ٢٥٠ وما بعدها وطبع بيروت » .

(٢) Les Langues du Monde, Antoine Meillletet Marcel Cohen, Paris 1952, P. 14.

(٣) اللسان والإنسان : د . حسن ظاظا (ط. دار المعارف ١٩٧١) ص ١٣٠ .

(٤) أنظر فى ذلك قوله تعالى فى سورة النحل آية ٥٠٣ ، وإبراهيم آية ٤ والشعراء آية ١٩٥ والروم آية ٢٢ .

ويتحدث الجاحظ عن اللسان فيقول : « أنه ترجمان القلب ، والقلب خزانة مستحفظة للخواطر والأسرار وكل ما يعيه من ذلك عن الحواس من خير وشر وما تولده الشهوات والأهواء ، وتنتجه الحكمة والعلم(١) » .

ويفترض بعض الدارسين أن كلمة لغة من أصل يونانى هو كلمه (flogos) التى معناها الأصلى (كلمة) و (كلام) ، وذكر المختصون من استعمالاتها فى اليونانية الوحى ، والحكم ، أو الحكمة ، أو المثال ، أو القصة ، أو المقال ، أو القضية المنطقية ، أو التعريف ، أو التفكير ، وكل هذا كما ترى يحوم حول التعبير اللفظى عن الفكر(٢) .

ويرى العالم اللغوى الفرنسى البير دوزا (Albert Duya) فى كتابة «حياة الكلام » : — « أن اللغة كأى كائن حى تتطور خلال حياة تطول أو تقصر ثم تموت فى النهاية أما بموت الأمة التى كانت تتكلمها واندثارها ، وأما لأن تلك الأمة قد غيرت لسانها ، والصراع على الحياة كما هو قائم بين الكائنات الحية يقوم ايضا بين اللغات ، بل بين الألفاظ فى داخل اللغة الواحدة(٣) » . ولكن هل من الممكن بناء على هذه الحقيقة ، أن نتساءل عما إذا كان يمكن القول بأن لكل لغة طفولة ، ثم سنا معينة تصل فيها إلى أوج القوة والصحة والجمال ، ثم تصيبها أمراض الكبر وغضونه إلى أن تموت ؟... الحق أن هذا السؤال صحيح إلى حد ما ، وفى ذلك يذكر « دوزا » أن علماء الأدب يجيبون عنه بالاثبات ، أما فقهاء اللغة فانهم يرفضون هذا القول » ، بينما يقول علماء زيما .

---

(١) رسالة كتمان السر وحفظ اللسان : رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) ١ / ١٤١ .

(٢) اللسان والإنسان : د . حسن ظاظا ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٣) اللسان والانسان : ص ١٢٥ .

وفى اللغة العربية يذكر بعض الدارسين « أن الأدب الجاهلى يبدو أشبه بالطفولة الفكرية للأمة العربية ، أما دور الشباب والاكتمال والجمال فهو من نزول القرآن الكريم إلى تلك الأيام التى جاءت بأمثال جرير ، وأبى نواس ، وأبى تمام والبحترى ، والمتنبى ، والجاحظ ... وغيرهم ، ثم تأتى الشيخوخة مع قرون الانحطاط التركى . ولولا المعجزة التى حافظت على هذه اللغة لما أتيحت لها انتفاضتها الأدبية الحديثة ، وبعثها من على سفا القبر ، ولكانت فى عداد اللغات الميتة(1) » .

ولا نبالغ كثيرا فى القول بأن الحياة اللغوية فى المجتمع العباسى خلال عصر الجاحظ ، تمثل أصدق تمثيل صورة ما رأيناه فى الباب السابق من سمات تميز بها البناء الاجتماعى لهذا المجتمع ، ولما كانت عليه أحوال طبقاته وطوائفه وفئاته الاجتماعية ، ذلك أن هذه السمات تركت آثارها فى الحياة اللغوية فى هذا المجتمع من خلال ما تحمله من مؤثرات تاريخية وثقافية واقتصادية واجتماعية وجنسية ، وان كانت هذه المؤثرات ذات أثر واضح فى الحياة اللغوية ، بمعنى أننا إذا كنا قد وقفنا فى هذا المجتمع على حقيقة تشعبه بسبب هذه المؤثرات إلى ثلاث طبقات اجتماعية : عليا ، ووسطى ، ودنيا فاننا نستطيع أن نميز بوضوح سمات ظاهرة للحياة اللغوية لأفراد هذه الطبقات وهى سمات تختلف من طبقة إلى أخرى ومن طائفة إلى أخرى ومن عنصر من عناصر الأمة إلى عنصر آخر . وتؤثر فى هذه السمات جملة من العوامل والمؤثرات التاريخية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والجنسية تلقى ظلالها على تكوين البناء الاجتماعى للمجتمع العباسى نفسه .

ومن المسلم به « أن شيوع لهجة فى شعب أو أمة دون غيرها من الهجات

---

(1) أنظر « اللسان والانسان » : د . حسن ظاظا ص ١٢٥ وما بعدها .

لابد أن تقترن به زعامة سياسية أو روحية أو حضارية تمكن لها من هذا الشيوع بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة(١) » ، ومن الحق أن اللغة العربية توفر لها في المجتمع العباسي كل ما جعلها لغة الفكر والشعور للدولة الاسلامية ، فهي لغة القرآن الكريم ، ومن ثم أصبحت جزءا لاينفصل في شعور المسلمين ، كذلك عمل العباسيون على تأكيد هذه المكانة العربية حتى أصبح امتلاك ناصيتها من الأمور الباعثة على الرقي الاجتماعي سواء للفرد أو للجماعة(٢) فقد وجد في المثل الأعلى للثقافة العربية طريق يرفع من شأن الفرد أو الجماعة في سلم الارتقاء الاجتماعي ، حتى إن الفرس الذين عظم سلطانهم إذ ذاك لم يكونوا يستطيعون التفكير في رفع أحدى اللهجات الايرانية لتكون لغة الدولة(٣) ، ولم يكن غريبا أن نرى الكتاب والشعراء من الفرس في هذا العصر إن ألفوا أو أشعروا أو كتبوا اتخذوا العربية لغتهم العلمية والأدبية ، وإنما كانت حياة الفارسية عند التكلم العادي في بعض الأوساط وخاصة في أوساط الديانة المجوسية(٤) ومن الحق أن هذه المكانة التي تهيأت للغة العربية في العصر كان من نتيجتها أن تدهورت أمامها لغات البلاد المفتوحة من مثل السريانية واليونانية ، بعد أن نقل ما فيها من نتاج أصحابها الأدبي والعلمي إلى العربية ، وكسبت من ذلك « أنها أصبحت في تآليفها وأدبها وعلومها نتاج كل هذه الأمم ، تلبس كل أفكارها ،

---

(١) البحث الأدبي : د . شوقي ضيف ص ٥٠ .

(٢) أنظر « العربية » : يوهان فك ترجمة د — عبد الحليم النجار (ط . دار الكتاب العربي ١٩٥١) ص ٥٠ .

(٣) المصدر السابق وصفحته .

(٤) ضحى الاسلام : الأستاذ أحمد أمين (الطبعة السابعة ١٩٦٤) ٢٩٤/١ :

وتعبر عن قرائحهم ، وكسبواهم منها ما لها من ثقافة إسلامية وأدبية(١) » ، ومن ثم أصبحنا أمام صورة لغوية مثالية تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة حين يصدرون عن كل ما يمثل الفكر والحضارة فى عصرهم ، ونعنى صورة اللغة الفصحى المكتوبة والمسموعة باعتبار أنها صورة اللغة الأدبية ولغة الفكر والثقافة والحضارة فى العصر .

ومن المؤكد أن اللغة العربية الفصحى لم يلحقها الضيم بانهيار دولة الأمويين، فالثابت أنها أخذت طريقها إلى الازدهار ببزوغ نجم العباسيين ، مما أدى إلى نشاط الدراسات اللغوية وما اتجهت إليه من جمع هذه اللغة وتدوينها ، ووضع قواعدها النحوية ، وراوية الشعر والأخبار التى تحفظها ، وتنقيحها من عوارض الفساد ، وساعد على ذلك ما توفر لها من حرص بنى العباس على المحافظة على اللغة العربية ، ودرء خطر الفساد والانحلال الذى يتهددها فى مواقعها الجديدة ، بعد أن تركت البوادى وحلت فى الحواضر . وكان هذا الحرص مصاحبا لما تحقق فى العصر لنهضة ثقافية بلغت ذروتها فى عصر المأمون بوجه خاص حتى شملت مختلف النواحى فى الشعر وعلوم اللغة والدين والكلام .

وإن كان العباسيون قد بعدوا عن حياة البدو بعدا كبيرا ، كما لم يفعل أموى أيا كان فان الطوائف الاسلامية الجديدة غير العربية الأصل التى وصلت إلى الحكم فى عهد العباسيين كانت — دون شك — أقل شعورا بالصلة النفسية الداخلية بحياة العرب وطبيعتهم ، فهم لم يكونوا يستطيعون — حتى لو استخدموا العربية — أن ينطقوا كما كان البدو ينطقون ، بل صبوا أفكارا حديثة فى قوالب اللغة القديمة ، وملأوها على هذا النحو بمادة جديدة . وما كان

---

(١) المصدر السابق وصفحته .

اعتباطا أن يأتى فى طليعة الأدب العربى لذلك العصر « عصر المحدثين فى أول الدولة العباسية إثنان من الفرس : ابن المقفع ، وبشار بن برد وعلى الرغم من قوة نزوعهما إلى الشعوبية لم يفكر واحد منهما فى إستخدام لغته الأصلية ، وإقامة وزن لها من الوجهة الأدبية ، بل اعتمدا على اللغة العربية »(١) .

ونستطيع رسم صورة اللغة العربية الفصحى فى هذه الأزمنة من خلال ما تفيض به كتابات الجاحظ ، من آراء لغوية له ولمعاصريه وسابقيه ممن أسهموا فى الحياة اللغوية فى المجتمع العباسى ، وإن كان بعض الدراسين قد ذهب الى أن الجاحظ وزع ملاحظاته « حسب الفروق التى كانت قائمة بين الأسلوب الصحيح والأسلوب الخاطىء فى صور الكتابة (٢) » ، وقد تكون هذه الآراء أكثر دقة بالنظر فى الأساليب البلاغية التى قررها الجاحظ وشيوخه من المعتزلة ، أما فيما يخص القواعد النحوية للغة العربية فنظن أنه لم يشغل نفسه بشىء منها فى كتاباته ، إذ كان رأيه أن ما يجب أن يفهم من هذه القواعد هو القدر المؤدى إلى سلامة اللغة من فاحش اللحن ، بإعتبار أن قواعد النحو لا يضطر إليها فى أمور الحياة اليومية ومن ثم رأيناه ينصح المعلمين بهذا الرأى حين يروضون الصبى يقول : « أما النحو فلا تشغل قلبه (الصبى) إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوامل فى كتاب كتبه ، وشعر إن أنشده وشىء ان وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ومذهل عما هو أرد عليه منه من زاوية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع ، وإنما يرغب فى بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج إلى تعريف جسيمات الأمور والاستنباط

---

(١) العربية : يوهان فك ص ٥٤ — ٥٥ .

(٢) العربية : يوهان فك ص ١١٧ — ١١٨ .

لغوامض التدبير لمصالح العباد والبلاد والعلم بالأركان والقطب الذى تدور عليه الرحى ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه ، وعويص النحو لا يجرى فى المعاملات ولا يضطر إليه بشىء»(1) .

ومنهج الجاحظ فى هذا الباب لايخفى عن نظر الباحث أثر اللغويين والنحويين فى صون اللغة العربية بحرصهم على تعليم أصولها ومقاييسها فى الاشتقاق والاعراب وبما كانوا يشفعون به روايتهم للشعر القديم وآى القرآن الكريم من شروح تبين الخصائص التعبيرية والأسلوبية لما يروون بقصد استنباط الأصول الاشتقاقية والنحوية للغة العربية ، وبما كانوا ينثرون من ملاحظات قيمة تتناول بلاغة الكلام وصوره البيانية والتعبيرية مما يدل على دقة نظرهم فى فحص مايروون ومايفسرون .

والذى لاشك فيه أن صورة اللغة الفصحى ، باعتبارها لغة الفكر والشعور فى المجتمع العباسى ، تأثرت بآثار التحول الحضارى وما نجم عن ذلك فى فكر المجتمع ، بما يحويه من أقوام وأجناس متعددة يموج بعضها فى بعض . وكان لهذا التحول الحضارى ، واستمرار إرتقاء العرب من طور البداوة إلى حضارة المدن أثره الواضح فى الحياة اللغوية ، وأن كانت العربية الفصحى عند البدو تعد فى مطلع العصر العباسى القدوة المثلى ، والمثل الأعلى من جميع الوجوه ، حتى احتذاها المثقفون فى كلامهم وكتاباتهم إلا أن لغة الأدب اختلفت اختلافا كبيراً ، من حيث صوغ القوالب ، وتركيب الجمل ، والمادة اللغوية ، وطرق التعبير ... ولكن عربية الدولة هذه احتفظت بالتصرف الاعرابى وبقواعد الاعراب والتصريف احتفاظا تاماً ، ولم تزل من حيث بناؤها الحقيقى —

---

(1) من رسالته فى المعلمين : هامش الكامل للمبرد : ٢٦/١ — ٢٧ .

على الرغم من بعض السمات المولدة — تعد من اللغة الفصحى»(١) .

وتعد كتابات الجاحظ فى حد ذاتها صورة لعربية العصر الفصحى ، يتجه فيها إلى بسط العبارة وجمالها حتى إنه يقول فى وصف كتابه (الحيوان) وماسلكه فى أسلوب تأليفه واختيار لغته : — «أنه كتاب يحتاج إليه المتوسط العامى ، كما يحتاج إليه العالم الخاصى»(٢) » ، ثم أنظر إليه يفصل هذا الوصف بعبارات أكثر تحديدا تصور صنيعه فى بسط معانيه وتنقيح ألفاظه وتصفيتها وإسقاط الوحشى الغريب منها ذلك أن الكتاب ليس «إلى شىء أحوج منه إلى افهام معانيه ، حتى لايحتاج السامع لما فيه من الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الاعراب ووحشى الكلام» وأنظر إليه يقول فى صفة أحد تصانيفه فى موضوع (الامامة) ، وكيف أنه كتبه بلغة يفهمها الخاص والعام ، حرص فيها على استقصاء المعانى دون غموض يطمس أغراضها يقول : — «هذا كتاب لايحتاج إلى حضور صاحبه ، ولايفتقر إلى المحتجين عنه ، قد جمع استقصاء المعـــانى ، واستيفاء جميع الحقوق ، مع اللفظ الجزل والمخرج السهل ، فهو سوقى ملوكى وعامى خاصى(٣) » .

ويحدثنا الجاحظ عن وجوب مراعاة مطابقة الكلام لمن يلقى إليهم ، فكما أن الناس على طبقات إجتماعية فكذلك لغتهم ، وفرق بين نوع ما يلقى إلى خاصتهم من كلام ، وبين ما يلقى إلى العامة والسوقة ، أنظر إلى مثل قوله مرددا هذا

(١) أنظر «العربية» : يوهان فيك ص ١٠٠ .
(٢) الحيوان : ١ / ١٠ .
(٣) البيان والتبيين : ٣ / ٣٧٥ .

المعنى فى بيانه ، يقول : « كلام الناس فى طبقات ، كما أن الناس أنفسهم فى طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا(١) » .
ثم انظر إليه يزيد من تفصيل هذه النظرة التخصصية للغة ، وينبه إلى أن لكل طائفة سماتها اللغوية الخاصة لها وجدير بمن ينتمى إلى طائفة ما أن يدقق فى فهم سمات لغتهم من حيث ألفاظها ومعانيها ، فهذا الذى ينتمى إلى طائفة المتكلمين يلزمه أن يحسن اختيار ألفاظ المتكلمين فى كل ما يصدر عنه من عمل أدبى سواء كان خطبة أم رسالة ، وعليه أن يراعى المطابقة بين ألفاظ كلامه والمعانى التى يقصدها وبين أقدار السامعين ، ومن ثم فان من العيب حقا أن يأتى فى كلامه إلى رؤوس المتكلمين بألفاظ العامة والسوقة ، يقول : « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلا بينهم وبين تلك الصناعة . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة ، أو فى مخاطبة العوام والتجار ، أو فى مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو فى حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر وكذلك فانه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو فى صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل»(٢) ، ثم يزيد من هذا النظر التخصصى فينبه إلى أن لكل صاحب كلام ناثرا أو شاعرا ما يمكن أن يسمى بمعجمه اللغوى الخاص الذى يردده فى كلامه ، وهو فى ذلك يأتى بملاحظة لغوية طريفة بحق يلائم بين أساليبه وقوالبه اللغوية التى يصوغ فيها أفكاره وثقافته، يقول : — «ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ فى الأرض ، وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر فى الأرض ، وصاحب كلام موزون فلابد أن يكون قد لهج وألف

(١) البيان والتبيين : ١ / ١٤٤ — ١٤٥ .
(٢) الحيوان : ٣ /٣٦٨ — ٣٦٩ .

الفاظا بأعيانها ليديرها فى كلامه ، وأن كان واسع العلم غزير المعانى كبير اللفظ»[1] .

وبالمثل استنكر صنيع من يتشبهون بالبدو والجفاة فى استخدام الآبد الوحشى من الألفاظ ، وحمل حملات شعواء على غرابة الألفاظ ، وضرب على ذلك مثلا بطائفة من نثر حشى بها ، ثم حمل على من يرويه قائلا : — «وان كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدل على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة، وإن كانوا إنما دونوه فى الكتب وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب فأبيات شعر العجاج وشعر الطرماح ، وأشعار هذيل تأتى لهم مع حسن الوصف على أكثر من ذلك[2] » . كذلك أشار الجاحظ إلى حسن صوغ الكلام ، وكمال تركيبه ودقة تأليف لفظه ، وجمال نظمه ، حتى أنه قدم اللفظ على المعنى ، وذلك أن المعانى مطروحة أمام الناس على أصنافهم على خلاف الألفاظ فى حاجة إلى كثرة تدقيق، وجودة انتخاب ، يقول : — «المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى ، وإنما الشأن فى سلامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير[3] » .

ولعله لهذا السبب تنبه إلى أن الناس فى عصره تركوا من ألفاظ الجاهلية ما كان متنافيا مع ذوقهم وحسهم اللغوى ، وهو — دون شك حس يختلف عما كان عليه الحال فى الجاهلية ، يقول : — «ترك الناس مما كان مستعملا فى الجاهلية أموراً كثيرة فمن ذلك : تسميتهم للخراج إتاوة ، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه

(١) الحيوان : ٣ / ٣٦٦ .

(٢) البيان والتبيين : ٣٧٨/١

(٣) الحيوان : ١٣١/٣

الجلاّن والمكس ... ، كما تركوا أنعم صباحا ، وأنعم ظلاما ، وصاروا يقولون: كيف أصبحتم ، وكيف أمسيتم(١) » ، ويظهر أن ذلك كان عاما بين أفراد المجتمع حتى أن العبد ترك أن يقول لسيده « ربى » كما يقول رب الدار ورب البيت ، وكذلك حاشية السيد والملك تركوا أن يقولوا « ربنا » ، وكذلك تركوا أن يقولوا لقوام الملوك « السدنة » ، وقالوا الحجبة(٢) » .

والذى لا شك فيه أن العرب فى هذا العصر واجهوا صعوبة شديدة فى نقل التراث الحضارى المتنوع الأغراض إلى لغتهم العربية ، بل أنهم وجدوا أنفسهم أمام علوم اللغة كالنحو والفقه يواجهون بعلوم من نوع جديد على فكرهم ، وإذا بهم فى دولة إسلامية اتسعت رقعتها ، واختلفت أقاليمها ، وتميز كل أقليم بأنواع نباتاتا وحيواناته ، وكثير من هذه وتلك لم تكن معروفة لدى العرب .

وبالمثل كانت أمامهم أنماطاً من النظم الاجتماعية والاقتصادية والإدارية تختلف عما كانت عليه حياتهم من قبل ، واتسعت وتنوعت هذه الأنماط عما كانت فى العصر الأموى . كذلك أتتهم روافد الحضارة العباسية بألوان التطور والتجديد فى الفنون من مثل ما اخترع فى فن الأغانى من نغمات لم يعرفوها من قبل ، وجاءت إليهم آلات موسيقية فارسية ورومية ، ولكل من الأنغام الجديدة والآلات الوافدة أسماؤها الأجنبية .

وكان العرب ناشرين للدين الاسلامى ودارت بينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى المجادلات والمناظرات مما أحدث امتزاجا بين ثقافة العرب الدينية والتراث العقيدى لأصحاب هذه الديانات . وبالمثل اضطر العرب إلى الوقوف على ألوان المعارف العلمية التطبيقية الأجنبية فى إنشاء المدن ، وضبط الدواوين ، وعمل

---

(١) المصدر نفسه : ٣٢٧/١

(٢) نفس المصدر : ٣٢٩/١

الأساطيل ، وإعداد الجيوش ، والنهوض بالزراعة والتجارة ، ومثل هذا حدث في أسلوب حياتهم في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ، وما وفد عليهم من أسماء البلدان والنباتات والحيوانات والآلات والأمراض ... وغير ذلك مما أصابه من آثار الامتزاج الحضارى نصيب كبير من الألفاظ الوافدة ، كان على العرب أن يواجهوها ويمهدوا لها طريقا في ينابيع لغتهم العربية كتابة وحديثا ولعل ذلك كله كان من أسباب تضخم معجم اللغة العربية في العصر العباسى ، وكنتيجة للتوسع في مدلول الكلمات العربية للاكثار من معانى هذه الكلمات لسد الحاجات اللغوية مما تحتاجه من القوالب اللغوية العربية .

وتفيض كتابات الجاحظ من أمثله هذا التصرف في أبنية الكلمات المعربة ، وابدال بعض حروفها ، وتخفيف بعض مقاطعها ، من مثل ما هو حادث في لفظ « النشاستج »(١) وهو نوع من المطاعم ، لفظه فارسى ، يقول الجواليقى إن أصله « نشاسته »(٢) ، ويظن أدى شير أن اللفظ من أصل آرامى هو « نشاسته » بمعنى نقى وصفى(٣) ، وحين عرب هذا اللفظ حذف شطره تخفيفا كما قالوا للمناول (منا)(٤) ، وبالمثل كلمة « المهندس »(٥) ، وهى فارسية الأصل مشتقة من « الهنداز » ، ويقول الجواليقى « فصيرت الزاء سينا لأنه ليس في كلام العرب زاء بعد دال ، والاسم الهندسة(٦) وعلى هذه المشاكله قالوا « شاهسفوم »(٧) ، وهو نوع من الرياحين

---

(١) البخلاء : ص ٣١

(٢) المعرب : تحقيق أحمد شاكر . طبعة دار الكتب ١٣٦١ هـ . ص ٣٤٠ .

(٣) الألفاظ الفارسية : (طبعة بيروت ١٩٠٨م) ص ١٥٣ .

(٤) شفاء الغليل للخفاجى : (طبعة السعادة ١٣٢٥ هـ) ص ١٩٩ .

(٥) التبصير بالتجارة : ص ٢٦ (٦) المعرب : ص ٣٥٢ .

(٧) الحيوان : ٢ / ٣٠٦ .

يقال له الريحان السلطانى ، يقول الخفاجى : — « إن اللفظ معرب من الفارسية (شاهسبرم) ، والباء الفارسية تبدل فاء لقربها منها فيما عرب قديما »[1] ومن ثم كان تعريب الألفاظ الأعجمية المهاجرة إلى العربية تحكمه عند العلمـــاء ضوابط محددة وواضحة وقف عليها علماء اللغة ، وكان يقوم على نقل هذه الألفاظ الوافدة إما العلماء فى تعريبهم لما وجدوا فى الكتب الأجنبية من هذه الأسماء ، وكان عملهم هذا أقرب إلى الأصل وأقرب لأن يكون على نمط واحد ، أو قل كانت تحكمه ضوابط محددة أشارت إليها كتب اللغة ، أما النقل الآخر فكان يقوم عليه عامة الشعب على حين يسمعون اسم مادة أجنبية أو ما شاكل ذلك فى حياتهم العادية فإنهم كانوا يحكمون سليقتهم فى نطق هذا الاسم ، مما أدى إلى سقوط ألفاظ أعجمية ينطق العـــامة بها فى اللغة العربية الفصحى ، ولدينا فى كتابات الجاحظ اشارات لهذه الظاهرة من مثل حديثه فى الحيوان عن « البنكابات »[2] ، فى آلة لقياس الوقت ليلا ، ويظهر أن العامة فى عصر الجاحظ كانت تنطقها « المنكامات » وهكذا جاءت فى أصل مخطوط كتاب الحيوان ويؤكد الخفاجى أن اللفظ من أصل يونانى ومفردها «بنكام»، عربه أهل التوقيت للدلالة على الساعة .. النجومية من الرمل . ويذكر أن العامة تقلبه « منكاب وهو خطأ »[3] ، وبالمثل جاء فى الحيوان ذكر « الزماورد »[4] وهو من المطاعم الفارسية « كانت العامة تعرفه باسم « الزماورد »[5] مما يدلنا

---

(١) شفاء الغليل : ص ١١٩ .

(٢) الحيوان : ٢ / ٢٩٤ .

(٣) « شفاء الغليل » : ص ٤٥ .

(٤) « الحيوان » : ٧ / ٢٤٩ .

(٥) انظر المعرب للجواليقى ١٧٧ .

على أن هجرة الألفاظ الأعجمية إلى اللغة العربية خضعت لمؤثرات متباينة أثرت على صيغ الألفاظ وتراكيبها حسب ظروف الناطقين بها ، ولا تعجب أن تسقط عند الجاحظ ألفاظ أعجمية لما نطقها عند العامة يخالف النطق الصحيح لها أو المنقولة عنه من مثل ماهو واضح فى المثل الأول الخاص بلفظ « البنكابات » رسمها الجاحظ حسب النطق الشائع الذى هاجرت به إلى اللغة العربية الفصحى فى حديثه عن الأدوات المحددة للمواقيت بينما جاء لفظ « البزماورد » مخالفا لما كان عليه الحال على لسان العامة ، ولا نستطيع القطع بتاريخ محدد يوضح لنا فى أى وقت تنبه الكتاب إلى الخطأ بين النطقين فصار يكتب برسم ويعرف عند العامة برسم ، ولكننا نظن أن شيوع العناصر الفارسية فى هذا العصر كان من وراء مثل هذا التصويب ، ومع ذلك يجدر بنا ألا نحسن الظن فى هذه القاعدة ، ذلك أن كثيرا من الألفاظ الفارسية المهاجرة إلى العربية الفصحى فى عصر الجاحظ قد داخلها كثير من الخلط والارتباك ، ولدينا فى كتابات الجاحظ مايشهد على هذه الظاهرة ، من ذلك ماجاء فى حديثه فى الحيوان عن معتقدات المجوس ذكر جملة من الألفاظ الفارسية يقول عنها الدكتور إبراهيم الهوارى : « إنها محرفة أشد تحريف ، ولم يصح منها غير كلمة (روز سرها) ، قال الجاحظ : — (إن المجوس كانوا يطلقونها على يوم القيامة بمعنى أنه يوم تقوم الجيف(١)) .

ومن الحق أن هذه الكلمات الدخيلة لم تفسد اللغة العربية ، فقد كانت تأتى على هامشها ، وكثيرا ماكانت تعرب بحيث تتفق واللسان العربى ، وقد

---

(١) أنظر « مجلة كلية الآداب » جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٣٦ » ص ١٧٣ .

ألف العرب فيها مصنفات كثيرة تتميز لها وتعريفا بها ، ولم يكونوا يعمدون دائما إلى إستعارة الأسماء الأجنبية لمدلولاتها التى لم يكونوا يعرفونها ، بل كانوا يحاولون فى أحوال كثيرة أن يصنعوا لتلك المدلولات أسماء عربية خالصة أما عن طريق الاشتقاق ، وأما عن طريق التوسع فى مدلولاتها ومعانيها القديمة . وبذلك اتسعت العربية وتحولت من لغة البدو القديمة إلى لغة حضارية مع المحافظة الشديدة على مقدماتها ومشخصاتها وأوضاعها وأصولها الاشتقـــاقية والصرفية والنحوية(١) ، وساعد على ذلك أن العربيه تمتاز بوفرة فى دلالات ألفاظها ، ومايشتق من هذه الألفاظ من صيغ متعددة لما يقابلها من ألفاظ أجنبية ومايشتق منها(٢) ، وذلك أن العربية غنية فى الاشتقاق والمجاز ، وكذلك مافيها من طرق متعددة فى القلب — والابدال بشكل قل أن تحاربها فيها لغة أخرى ، حتى ليقول دى بور : أننا لو قارناها باللغة اللاتينية فى قلة مرونتها ، أو باللغة الفارسية فى فرط أسبابها ، لوجدناها تمتاز عليهما بما فيها من صور كلامية قصيرة تدل على المعانى المجردة ، وهذه خاصة عظيمة النفع فى ممارسة العلوم فنحن نستطيع أن نعبر بهذه اللغة عن أدق الفروق بين المعانى(٣) ، مما حقق لها المرونة التامة لتصبح عن جدارة لغة الدين والحضارة .

وتصور لنا كتابات الجاحظ هذه الظاهرة بشكل واضح ، إذا أننا نستطيع أن نقف فيها على أمثلة كثيرة من الألفاظ الفارسية واليونانية والهندية والآرامية والعبرية من أسماء الأدوات والأطعمة والأشربة وغيرها ، مما عرب وكان

---

(١) العصر العباسى الأول : د . شوقى ضيف ص ٩٢ .
(٢) انظر « ضحى الاسلام » : الاستاذ أحمد أمين ١ / ٢٨٩ ومابعدها .
(٣) تاريخ الفلسفة فى الاسلام « دى بور ص ٣٧ » .

مستعملا فى عصره ، فمن أسماء الأدوات والمعادن والرياحين التى جاء ذكرها فى كتابات الجاحظ وعثرنا على أصلها الفارسى « اللازورد »(١) ، يذكر أدى شير فى نعمته أنه معدن مشهور تعريب الفارسى « لازورد »(٢)، و « الجلاهق »(٣) وهو نوع من أدوات الصيد ، يقول الجواليقى : « هو الذى يرمى به الصبيان البندق ، وهو الطين المدور المنطاق الذى يرمى به القوس » واللفظ فارسى معرب وأصله بالبندق ، وهو الطين المدور المنطلق الذى يرمى به القوس» ، واللفظ فارسى معرب وأصله بالفارسية «جلاهة » الواحدة « جلاهقة »والاثنتان «جلاهقتان»(٤) و « الدستج »(٥) وهى من أنواع الأوانى تحول باليد ، يقول أدى شير إن اللفظ مشتق من الفارسى « دستى »(٦) ،و « بال » وهو لفظ فارسى فسر الجاحظ معناه بأنه المسحاة(٧) ، والشطرنج « وهو من أدوات التسلية المعروفة ، قال الجاحظ : « إن اللفظ مأخوذ من الفارسية وأصله « أشترنج »(٨) وقيل هو عربى من المشاطرة ، ومنهم من جعله أشطرا ، والصحيح أن اللفظ معرب « شدرنك » بمعنى من اشتغل به ذهب عناؤه باطلا ، أو معرب « صدرنك » أى مائة حيلة

---

(١) تاريخ الفلسفة فى الاسلام : دى بورص ٣٧.

(٢) الحيوان : ١ / ٨١

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة : أدى شير ص ١٤١ .

(٤) الحيوان : ٣ / ٢١٩ .

(٥) المعرب : ص ٩ .

(٦) رسائل الجاحظ « نشر هارون » : ١ / ٣٨٣ .

(٧) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٦٣ .

(٨) البيان والتبيين : ١ / ١٩ .

والمقصود التكثير[1] ، ويذهب أدى شير في تفسير هذا اللفظ وبيان أصله الفارسي إلى أنه مأخوذ من الفارسي « شترنك » ، وأصله شاه ترنك ، أي الشاه لطيف أو مركب من شت وهو تخفيف شتل ، ويطلق على الحصة التي يعطيها المقامر بعد نهاية اللعب إلى الذين حضروا المجلس ، ومن رنك ومعناه القمار ، أو مركب من شتر وهو العدو باللغة الهندية ، ومن رنك ومعناه الحيلة والمشية أي حيلة العدو أو مشيته[2] ، والطبرزينات[3] . جمع طبرزين « لفظ فارسي بمعنى فأس السرج[4]،وقيل أصله الفارسي مركب «تبر» بمعنى الفأس و « زين » السرج[5] « سراني »[6] يذكر استينجاس في معجمه أن اللفظ فارسي معناه البوق الذي ينفخ فيه ويزمر[7] ، والبارجين »[8] يجعله الدكتور طه الحاجزي أسم أداة من أدوات الأكل شبيه «بالشوكة» ويظن أنه مأخوذ من المصدر الفارسي «برجندن» ومعناه الالتقاط[9] ، « والبرنبد»[10] وهو اسم لأداة من أدوات صعود النخيل،

---

(١) المصدر السابق نفسه وصفحته .

(٢) أنظر « شفاء الغليل » للخفاجي ص ١١٤ .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٠٠ — ١٠١ .

(٤) مناقب الترك (رسائل الجاحظ) ، تحقيق هارون : ١ / ٢٠ .

(٥) المعرب للجواليقي : ٢٢٨ .

(٦) معجم استينجاس : ٢٧٠ .

(٧) رسائل الجاحظ (هارون) : ٢ / ١٧٩ .

(٨) معجم استينجاس : ٦٧٨ :

(٩) البخلاء : ٦٨ .

(١٠) البخلاء : ٣٣٩ .

جاء في لسان العرب أنه لفظ فارسي بمعنى الرباط[1] و« البربط »[2] وهو الآلة الموسيقية المعروفة باسم العود ، يقول أدي شير إن اللفظ معرب « بربط » وأصل معناه الأوز لأنه يشبهه[3] ، و« الزبرجد »[4] وهو من المعادن الكريمة يقول أدي شير « الزبرجد حجر يشبه الزمرد فارسيته زبرجد قالوا فيه زبرج[5] ، و« الكاغد »[6] وهو من أنواع الورق ، يقول أدي شير : « اللفظ فارسي محض بمعنى القرطاس[7] » ، « الزئبق »[8] وهو المعدن المعروف ، يظن أن أصله الفارسي « الزاووق »[9] ، ويظهر أن زاووق تصحيف « زيوه »[3] ، و و « الآنك »[11] » وهو الرصاص واللفظ فارسي معرب[12]

---

(1) لسان العرب (ط . بيروت) : ١٤ / ٤٤٨ .

(2) التربيع والتدوير (تحقيق شارل بيلا) ٨٢ .

(3) الألفاظ الفارسية المعربة : ١٨ .

(4) التبصر بالتجارة : ٢٨ .

(5) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٧٦ .

(6) التبصر بالتجارة : ص ٢٨ .

(7) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٣٦ .

(8) التبصر بالتجارة : ص ٣٢ .

(9) المعرب للجواليقي : ص ١٧٠ .

(10) الالفاظ الفارسية لأدي شير : ص ٨٢ .

(11) التبصر بالتجارة : ص ١٦ .

(12) جامع مفردات الأدوية لابن البيطار (ط بولاق ١٢٨٦ هـ) : ٢ / ٣٤٠ .

و « البركار »[1] وهو البرجل بالعامية من أدوات الهندسة وأصله الفارسى « بركار »[2] و « نوشاذر »[3] وهو النشادر، يقول ادى شير: « اللفظ ماخوذ من الفارسية نوشادر[4] .

وبالمثل هاجر إلى العربية بعض الألفاظ الأعجمية لأنواع من الأزياء والمطاعم والمشارب ، نثر الجاحظ فى كتاباته طائفة منها ما اشتق من أصول فارسية من مثل « جُرُبّان »[5] وهو جيب القميص أو الدرع ، وجربان الدرع نفسها ، يذكر الجواليقى أن أصله الفارسى « كريبان »[6] و « فنيم »[7] وهو نوع من الفراء غالى الثمن يغطى الصدر ، ويقول الجواليقى : « الفنيم الفرو القصير إلى الصدر ، وقيل نصف فرو بالفارسية ، وقيل يسوى من جلود الأرانب غالى الثمن[8] » ، و « البرنكان »[9] وهو لفظ فارسى معناه الكساء[10] ، ويقال الجمع « برانك»

---

(١) مناقب الترك : رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) : ٦٧/١ .

(٢) شفاء الغليل للخفاجى : ص ٤٠ .

(٣) البيان والتبيين : ٢٨/١ .

(٤) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٥٣

(٥) رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) : ١ / ٣٨٤ .

(٦) المعرب : ص ٩٩ .

(٧) رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) . ٢٩٤/٢ .

(٨) المعرب : ص ٣٣٩ .

(٩) البيان والتبيين : ١٦٠/٨ .

(١٠) أنظر « الجمهرة فى اللغة » لابن دريد : (طبعة حيدر آباد ١٣٥١ هـ : ٣٠٨/٣ .

ويظن أن العرب تكلمت به(١) ، ويقول ادى شير : « البركان والبركانى والبرنكان والبرنكانى الكساء الأسود ، تعريب (بركانه) ومعناها الرقعة واسم ثوب منسوج من الحرير الخشن(٢) ، و « السختيان(٣) » وهو لفظ فارسى لنوع من الجلود المدبوغة ، يقول ادى شير : « هو جلد الماعز إذا دبغ(٤) » ، و « الطيلسان »(٥) وهو معرب من الفارسى « تالسان » وهو الكساء المدور الأخضر لحمته أو سداه من صوف ، يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ(٦) ، ويذكر ادى شير أنه من لباس العجم(٧) ، و « الديباج(٨) » وهو الثوب تكون سداه ولحمته حرير ، يقول الجواليقى ان العرب تكلمت به ، ويجمع على دبابيج ودبابيج وهو معرب من الفارسى (ديوباف) أى نساجه الجن(٩) ، ومثل هذا الرأى ذهب إليه ادى شير ، وذكر أن أصـــل اللفظ فى الفارسية (دیباف) وأنه مركب من مقطعين : « ديو » أى جن و « باف » أى نسيج(١٠)،

---

(١) المعرب للجواليقى : ص ٦٩ .

(٢) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٨٥ .

(٣) البيان والتبيين : ١٤٩/٢ .

(٤) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٨٥ .

(٥) البيان والتبيين : ٣٤٥/٣ .

(٦) « البيان والتبيين » : ٣ / ٣٤٥ .

(٧) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١١٣ .

(٨) التبصر بالتجارة للجاحظ : ص ٢٦ .

(٩) المعرب : ص ١٤٠ .

(١٠) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٦٠ .

و « الفنك »(١) وهو من أنواع الفراء الفاخر ، ويذهب أدى شير إلى أنه لفظ فارسى لاسم حيوان فروته أحسن الفراء وأعدلها(٢) .

ومن أسماء المطاعم المعربة من الفارسية « الجيسران(٣) » ، وهو جنس من التمر ، ويذكر ابن قتيبة أن الأصفر منه أحمد مما أسود(٤) ، يقول أدى شير أن اللفظ مشتق من الفارسى « كيسران » ومعناه الذوائب(٥) ، و « الكامخ »(٦) وهو اسم لما يؤتدم به ، أو لما يشهى الطعام(٧) ، ويذكر استينجاس أن اللفظ معرب من الفارسية « كامة »(٨) و « الشبارقات(٩) ويظهر أنه لون من ألوان اللحم فى الطبائخ ، أو مما يقدم بين يدى الطعام من الأطعمة المشهية(١١) ، ويقول الجواليقى : « أن اللفظ فارسى معرب وهو « الشفارج » لما تقول له العامة « فيشفارج » ، و « بشارج (١٢) ، وكان من أسماء المشارب المعربة من الفارسية

---

(١) التبصير بالتجارة : ص ٢٨ .

(٢) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٢٢ .

(٣) البخلاء : ص ١٩٧ .

(٤) عيون الأخبار (ط . دار الكتب ١٣٤٣ هـ) : ٣ / ٢٩٧ .

(٥) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٤٩ .

(٦) البيان والتبيين : ٤ / ١٢ .

(٧) المعرب للجواليقى : ص ١٩٨ .

(٨) المعجم الفارسى الانجليزى : ١٠٠٩ .

(٩) البخلاء : ص ٢٠٣ .

(١٠) المعرب للجواليقى : ص ٢٣٩ هـ

(١١) المصدر السابق : ص ٢٠٤ .

« آب(1) » وهو الماء بالفارسية ، ويقولون « آب سرد » بمعنى ماء بادر(2) ، و « ميبختج(3) » وهو الخمر المطبوخ من العنب مركب من « مى » بمعنى خمر ، ومن « بختج وهو « بخته » الفارسية بمعنى مطبوخ(4) . و « البخ (5)» وهو الثلج بالفارسية(6) .

ونستطيع أن نقف على جملة من الألفاظ الأعجمية الدالة على أسماء النباتات والحيوانات من ذلك مايرجع إلى أصل فارسى من مثل « باذ ماك(7) » وهو اسم نبات من جنس الصفصاف اسمه بالعربية « خلاف » ، والفارسى — فيما يذكر الجاحظ — يتفاءل بهذا النبات لأن اسمه عنده معناه : « أى يبقى » فهو يجمع النفوس على الوفاق ، و« الزردك »(8) يذكر صاحب القاموس المحيط أنه الاسم الفارسى لنبات الجزر المعروف و « النيلوفر(9) » ويظهر أنه نوع من النباتات المائية ، ويذكر أدى شير : « أنه ضرب من الرياحين وفارسيته « نيلوبر » ، وهو مركب من « نيل » بمعنى الذى يصبغ به ومن « بر » اسم الجناح ، فكأنه قيل مجنح نيل ، لأن الورقة كأنهـــا مصبوغة

---

(1) البيان والتبيين : 1 / 143 .
(2) الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير : ص 6 .
(3) البيان والتبيين : ص 6
(4) الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير : ص 148 .
(5) الحيوان : 5 / 526 .
(6) معجم استينجاس : ص 1528 .
(7) الحيوان : 2 / 457 .
(8) الحيوان : 3 / 456 .
(9) المصدر السابق : 6 / 364 .

الجناحين[1] ، و « الباذروج[2] » فسرها الجاحظ بالحوك ، وقيل أنها بقلة معروفة بطيب الرائحة تنفع من لدغه العقرب وتعرف بالحوك والريحان الروحانى[3] ، و « الخيار » وهو الاسم الفارسى للقثاء حسب تفسير الجاحظ[4] .

ومن أسماء الطيور « الطرزين » و « الدوبرادران »[5] ويظهر أنهما من أنواع الطيردون العقاب ، ويقال فى ترجمة اسم « الدوبرادران » أنه « إذا عجز عن صيدة أعانه أخوه على أخذه »[6] ، « الشاهمركات[7] » ، وهو جنس من الطيور طويل الساقين[8] ، عدة الجاحظ من الحيوانات أكلات الحيات[9] ، والهزاردستان[10] ، وهو الاسم الفارسى لطائر العندليب[11] ، ويذكر أدى شير من أسمائه الفارسية الأخرى « هزار آوا » و « هزاو آواز »[12] ،

(١) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) البيان والتبيين : ص ١ / ٢٠ .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٤ .

(٤) البيان والتبيين : ١/٢٠ .

(٥) الحيوان : ٣/١٨٧ .

(٦) المعرب للجواليقى : ص ١٧٠ — ١٧١ . والألفاظ الفارسية المعربة ص ١٧ .

(٧) الحيوان : ٣ / ٣٣٦ .

(٨) المخصص لابن سيدة (ط بولاق ١٣١٨ ﻫ) : ٨ / ١٥٢ .

(٩) الحيوان : ١ / ٢٨ ، ٦ / ١٢٤ .

(١٠) المصدر السابق ، ٥ / ٢٨٩ .

(١١) شفاه الغليل : ص ٣٠٨ .

(١٢) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٥٧ .

و« السيمرك[1] » وهى العنقاء، كانت ترسم صورتها على بسط ملوك الفرس، ويذكر استينجاس أن أصلها الفارسى « سيمرغ [2] »، ومن أنواع السمك « المارماهى[3] » يظن أنه الجرى[4]، ومن أنواع الحيوان « كاوماش[5] » وهو الجاموس[6]، وقيل أن اللفظ فى الأصل الفارسى « كاوميش » و« كاو» بمعنى بقرو « ميش » الضأن[7]، و« الببر »[8] يقول الجواليقى: «هو جنس من السباع، وهو معرب من اللفظ الفارسى « بفر[9] وقيل هو « الفرانق[10] »، ويذكر أدى شير أن الأصل الفارسى هو ببر بفتح الباء الأولى[11] و« الشبديز[12] »، وهو ضرب من الخيل قاتم اللون أصلا[13]، و« الزنديبل »، قال الجاحظ:

---

(١) الحيوان : ٧ / ١٢٠ .

(٢) المعجم الفارسى الانجليزى : ص ٧١٨ .

(٣) الحيوان : ٤ / ١٢٩ .

(٤) حياة الحيوان الكبرى للدميرى (ط . بولاق ١٢٧٤ ﻫ): ١/ ٥٥ .

(٥) الحيوان : ٥ / ٤٥٩ .

(٦) معجم استينجاس : ١٣٦٢ .

(٧) المعرب للجواليقى : ص ١٠٤ .

(٨) التبصر بالتجارة للجاحظ : ص ١٠ .

(٩) المعرب للجواليقى : ص ٦٢ .

(١٠) شفاء الغليل للخفاجى : ص ٣٥ .

(١١) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٦

(١٢) رسائل الجاحظ (الجد والهزل) تحقيق هارون : ١/٢٥٩ .

(١٣) معجم استينجاس : ص٧٣١

أنه لفظ فارسى يعنى الأنثى من الفيله أو الذكر(١) ، وقيل أنه يركب من «زنده» أى ضخم ومن «پيل» أى فيل(٢) ، و «الكركدن»(٣) وهو الحيوان المعروف بذى القرن فارسيته «كركدن»(٤)

وبالمثل ورد فى كتابات الجاحظ ألفاظ ومسميات أعجمية منها ما يرجع إلى أصل فارسى من مثل «الآزاد مردية»(٥) وهو أسم طبقة الأشراف من الفرس(٦) و «الدهقان»(٧) ويقال «دهقان» والجمع «دهاقين»(٨) ، وفى شفاء الغليل «أن اللفظ فارسى معرب «ده خان» أى رئيس القرية ، ومقدم أهل الزراعة من العجم(٩) ، وذكرادى شير : «أن الأصل الفارسى للفظ هو «دهگان»(١٠)

و «البازيار»(١١) ويقال له «البازدار» لفظان فارسيان بمعنى القائم بأمر

---

(١) البيان والتبين : ١/١٣٠

(٢) الألفاظ الفارسية المعربة : ص٨٠

(٣) التربيع والتدوير : ص٤١

(٤) الألفاظ الفارسية المعربة : ص١٣٤

(٥) مناقب الترك : رسائل الجاحظ تحقيق هارون : ١/١٥

(٦) أنظر مقال د. كراوس فى مجلة الثقافة . القاهرة : العدد ٢٢٤

(٧) الجد والهزل : رسائل الجاحظ تحقيق هارون : ١/٢٤٤

(٨) المعرب للجواليقى : ص١٤٦ .

(٩) شفاء الغليل للخفاجى : ص٨٦

(١٠) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٦٨

(١١) رسائل الجاحظ تحقيق هارون: ١/٢٧٧

البازى ، ويعرب فيقال له « البيزار »(١) ويذكر أدى شير من معانى الكلمة « الأكار » معربة عن « بازيار » وهى تحريف « برزيار » بالفارسية(٢) ، ويقول الجواليقى : « أنها تجمع « بيازرة »(٣)؛ و« شاكر »(٤) والشاكرى الأجير معرب « شاكر » ومعناه « السخرى » ، وهو مركب من «شاه» أى ملك ومن « كار »(٥) أى عمل ، و « الموبذ »(٦) وهو قاضى المجوس ، ورئيس الكهنه(٧) ، يقول أدى شير : « الموبذ والموبذان فقيه الفرس وحاكم المجوس ، فارسيته ، موبذ «وجمعه» «موبدان » (٨) ، و « أشتربان(٩) وهى كلمة فارسية من مقطعتين : « أشتر » بمعنى الجمل و « بان » بمعنى القائد والضابط والحارس (١٠) ، فيصير معناها قائد الجمل وحارسه ، و « البد » (١١) الصنم فارسى معرب

---

(١) الحيوان : ٤/٤٣٠ ، ٦/٤٩٨

(٢) الألفاظ الفارسية المعربة : ص٢١

(٣) المعرب للجواليقى : ص٧٨

(٤) رسائل الجاحظ تحقيق هارون : ٢/٢٥١

(٥) الألفاظ الفارسية المعربة : ص١٠٢

(٦) الحنين إلى الأوطان : رسائل الجاحظ تحقيق هارون : ٢/٤٠٨

(٧) التنبيه والاشراف للمسعودى (ط. الصاوى ١٣٥٧ هـ) : ص٩٠

(٨) الألفاظ الفارسية المعربة : ص١٤٨

(٩) البيان والتبيين : ٢/٨٢

(١٠) الألفاظ الفارسية المعربة . ص٧٨

(١١) البيان والتبيين : ١/١٤٤

والجمع « البددة »[1] . و « برسام »[2] علة يهذه فيها ، ويذكر الجواليقى : « أن الكلمة مركبة من مقطعين : « بر » وهو الصدر ، و « سام » من أسماء الموت ، وقيل « بر » معناه الابن ، والأول أصح ، لأن العله إذا كانت فى الرأس يقال لها « سرسام » و « سر » هو الرأس ، وقيل تقديره « ابن موت »[3] ، و « بستانبان »[4] يعنى بستانى ، ويذكر أدى شير : « أن اللفظ مركب من « بوى » أى رائحة ومن « ستان » أى محل[5] ، و « الفشكار »[6] معرب « پشكارى » بالفارسية بمعنى الزراعة والفلاحه Agriculture, tilage[7]

و « الخورنق »[8] وهو موضع الأكل أو الشرب معرب من الفارسية « خورنكاه » بمعنى موضع الأكل فى رأى أدى شير[9] أو « خرنكاه » بمعنى موضع الشرب فى رأى الجواليقى[10] ، و « الدانق »[11] وهو سدس الدرهم

---

(١) المعرب للجواليقى ص ٨٣ ، وانظر الرد على النصارى تحقيق يوشع فنكل ثلاث رسائل للجاحظ ص ١٢ .

(٢) البيان والتبيين : ٣ / ٦٨ .

(٣) المعرب للجواليقى : ص ٤٥ .

(٤) البيان والتبيين : ٢ / ٢٨ .

(٥) الألفاظ الفارسية المعربة : ص٢٢

(٦) البيان والتبيين : ١ / ٦٠ .

(٧) معجم استينجاس ص ١٧٩ . وانظر الرد على النصارى تحقيق يوشع فنكل ، ثلاث رسائل للجاحظ : ص ١٧ .

(٨) البيان والتبيين : ٣ / ٣٤٦ .

(٩) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٥٤ .

(١٠) المعرب : ص ١٢٦ .

(١١) البيان والتبيين : ٢ / ٢١٩ .

والدينار معرب من الفارسي « دانك »(١) .

و « الديدبان »(٢) بمعنى الحارس من الفارسية : « ديده‌بان » و « ديده » بمعنى العين أو النظر ، و « بان » من اللواحق الفارسية التي تفيد المحافظة والولاية والحراسة(٣) ، و « مرد »(٤) يذكر استينجاس : « أنها من الصفات الفارسية تعني الشجاع »(٥) ، و « الهربذ »(٦) بالكسر واحد « الهرابذة » ، وهم خدام النار ، وقيل حكام المجوس الذين يصلون بهم ، يذكر الجواليقي « أن العرب تكلمت به قديمـــا ، وقالوا في مشيتهم الهربذى » ويجمع « هرابذه » ، و « هرابذ »(٧) ؛ و « كيومرث »(٨) و هو الانسان الأول عند المزدكية « آدم » و « التانبول »(٩) وهو معرب « تنبول » ويذكر أدى شير : أنه تصحيف « تن برور » ومعناه المربي لحمه ، ويقال للكسلان البليد السمين غير القادر أن يتحرك من مكانه ، والكلمة عند العامة تحمل معنى الكسلان(١٠) ، و « الوزار»

(١) المعرب : ص ٧٦ .

(٢) البيان والتبيين : ٣/١٨٩ .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة ص ٦١ ، ومعجم استينجاس ص ٥٥٢ .

(٤) البيان والتبيين : ١/ ١٤٢ .

(٥) المعجم الفارسي الانجليزي لاستينجاس : ص ١١٢١١ .

(٦) البيان والتبيين : ٣ / ١٣ .

(٧) المعرب للجواليقي ٣٥١ .

(٨) التربيع والتدوير : تحقيق شارل بيلا ص ٤٣ وانظر التفسير في Index des noms propresp. 24

(٩) المصدر السابق : ص ٨٥ .

(١٠) الالفاظ الفارسية المعربة : ص٣٦ .

وهى كلمة فارسية بمعنى السوق[1] ، و « شب كور »[2] فسره الجاحظ بأنه يعنى الذى لا يبصر بالليل بعينيه ، ويقابله فى العربية « هدبد » ، ويذكر ادى شير : أن « الشبكرة » هى تعطل النظر ليلا ، مركب من مقطعين : « شب » بفتح الشين ومعناها الليل و « كور » بضم الكاف ومعناها الأعمى[3] ، و « البنادرة »[4] جمع بندار التجار يتجرون فى المعادن ، و يذكر ادى شير : « أن اللفظ من الكلمة الفارسية « بندر »[5] ، و « القربق »[6] « هو دكان البقال ، يقول الجواليقى : « قربق » بمعنى الحانوت » ، ويقال : كربق وكربج والجمع كرابج واللفظ الفارسى كربج[7] ، و « البيمارستانات[8] « ومفردها بيمارستان » ، ويراد بها جمع المرضى أودار المرضى ، لفظ فارسى مركب من : « بيمار » بمعنى مريض ، و « ستان » بمعنى مكان ، ثم اختصرت فصارت « مارستان »[9] .

وبالمثل هناك طائفة من أسماء الأماكن والأعلام الفارسية ذكرها الجاحظ فى كتاباته من مثل : « حوم » ، و « الكاريان » يقول الدكتور إبراهيم أمين

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ٢٠ .

(٢) الحيوان : ٣ / ٥٣٥ .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٩٨ .

(٤) رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) : ١ / ٢٢٥ .

(٥) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ٢٨ .

(٦) البيان والتبيين : ٣ / ٥١ .

(٧) المعرب : ص ٢٩٢ .

(٨) الحيوان : ٥ / ٣٥٣ .

(٩) شفاء الغليل للخفاجى ص ٤٩ ، معجم استينجاس ص ٢٢٤ .

الشواربى أنهما أسمان لبيتين من بيوت النار المجوسية ، ويظن أن لفظة « حوم » « ربما كانت «هوم»، «وهو نوع من الشجر يقدم للنار المقدسة[1]» و « كرديبيدار » يقول الدكتور الشواربى : « أنها تقابل فى الفارسية « كرد أباد » وهى مايقصد بها بلدة المدائن القديمة[2] .

وبالمثل هاجرت إلى العربية جملة من الألفاظ الأعجمية مما يرجع إلى أصول غير فارسية ، من ذلك ما يعرضه الجاحظ فى كتاباته من ألفاظ ومسميات يونانية الأصل من مثل : « المجسطى[3] » وهو أسم كتاب بطليموس ، و« أرتماطيقى[4] » وهو نوع من الحساب اليونانى من وضع «إقليدس»[5] ، ولعل من أظهر الألفاظ اليونانية المعربة « المنجنيق »[6] وهو أسم أداة من أدوات الحرب ، اختلف فى أصل هذا اللفظ يقول الجواليقى : « هو لفظ أعجمى معرب[7] » ويقطع أدى شير بأن اللفظ معرب من اللفظ الفارسى المركب « منك جنك نيك » بمعنى أسلوب جيد للحرب ، أو أصله « منجك نيك » وأن «منجك» معناه الارتفاع إلى فوق[8]

---

(1) مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٣٦ م : ص ١٧٤ ، وأنظر الحيوان ٤ / ٤٨٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٧٢ .

(٣) الحيوان : ٨٠/١

(٤) التربيع والتدوير : « تحقيق شارل بيلا » ص ١٤٧

(٥) المصدر المصدر السابق « الفهارس » ص ١٠٨

(٦) الحيوان : ٢٩٨/٥

(٧) المعرب : ص٣٠٩

(٨) الألفاظ الفارسية المعربة : ص١٤٦ — ١٤٧

ويذهب فكل إلى أن اللفظ من أصل يونانى وأنه مشتق من لفظ Machine بمعنى الآله المشتق من لفظ آخر هو Mangos بمعنى الواسطة[1] و «البرجاس[2]» غرض فى الهواء يعلق على رأس رمح صغير أو نحوه يرمى فيه ، وقيل أن اللفظ فارسى مشتق من « برجاس » ومعناها هدف السهم ، غير أن إدى شير يظن أن أصل اللفظ يونانى[3] ، و « الفلز »[4] بمعنى جواهر الأرض كلها ، يذهب استينجاس فى معجمه إلى أن اللفظ مشتق من أصل يونانى[5] ، و «القرسطونات[6]» ومفردها « قرسطون » وهو نوع من الموازين والقبان، واللفظ يونانى ينسب إلى صاحب هذا النوع من الموازين ويدعى قارسيتون Charistion[8]

ولم تكن هذه الظاهرة فى لغة الكتابة والحديث فحسب إنما كانت لها أصداؤها فى الشعر فأصبحنا أمام كثير من الشعراء يستعملون فى أشعارهم ألفاظاً فارسية حتى فى المناسبات الرسمية من مثل قول العمانى فى مدحة له فى الرشيد :

من يلقه من بطل مسرند ... فى زعفة محكمة بالسرد

تجول بين رأسه و « الكرد »

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ : ص٢٤٣

(٢) مناقب الترك « رسائل الجاحظ تحقيق هارون : ٢١/١

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة :

(٤) الحيوان : ١٠١/٥

(٥) المعجم الفارسى الانجليزى : ص ٩٣١

(٦) التربيع والتدوير « تحقيق شارل بيلا »ص ١٧٢

(٧) المصدر السابق : ص ١٩٥

والشاهد هنا إستخدامة كلمة « الكرد » الفارسية بمعنى العنق ، وأصلها فى الفارسية « كردن »(١) .

وبالمثل يقول العمانى فى القصيــدة عينها :

لما هوى بين غياض الأسد .·. وصار فى كف الهزبر الورد

آلى يذوق الدهر « آب سرد »

والشاهد هنا إستخدامه لفظى « آب سرد » وهما بالفارسية بمعنى ماء بارد(٢) . ويذهب الدكتور الشواربى إلى أن هذه الأشعار « ولو أنها تافهة فى معناها ومبناها إلا أنها منسوبة إلى شاعر عاصر يزيد بن معاوية ، فاذا صحت روايتها كانت أول مثــل للشعر الفارسى الذى ورد إلينا مدونا بعد الاسلام »(٣) .

وبالمثل يذكر الجاحظ بيتين لشاعر آخر فيهما ألفاظ فارسية ، ويقول : ـــ

ودلهنى وقـع الأسنة والقنــــا

و « كافركوبات » لهـا عجر قفـــد

بأيدى رجـال ما كلامى كلامهم

يسومونى مرادا وما أناو« المرد »(٥)

---

(١) انظر المعرب ص ٢٧٩ ، و « معجم استينجاس » : ص ١٠٨٠

(٢) البيان والتبيين : ١ / ١٤٢ .

(٣) مجلة كلية الآداب : جامعة القاهرة . ديسمبر ١٩٣٦ ص ١٨٢ .

(٤) كافربات » هى المقرعة

(٥) « المرد » بالفتح معناه بالفارسية رجل وبطل وشجاع أنظر معجم استينجاس ص ١٢١١ .

ويقول الجاحظ فى ذالك : — « ومثل هذا موجود فى شعر أبى العذافر الكندى وغيره ، ثم يورد مقطوعة لابن أبى كريمة يكثر فيها من إستخدام الألفاظ الفارسية من مثل : « زنكى » بمعنى زنجى،و « مستى » بمنى السكر وإدمانالشراب و « دورباد » بمعنى معاذ الله ، و « خر » بمعنى الحمار أو البليد أو الأحمق و « كفت » بمعنى قال ، و « جفت » بمعنى ثمرة ، و « أندر » بمعنى فى ، و « مكناد » بمعنى لا تهمل ، و « بيهشت » أى فى الجنة ، يقول : —

لوم الفـــرام ثوبى ... بكرة فى يوم سبت
فتمايلت عليهـــم ... ميل « زنكى بمست »(١)
قد حسى الداذى صرفا ... أو عقارا « بايخست »(٢)
ثم « كفتم دورباد » ... ويحكم « أن خركفت »(٣)
أن جـلدى دبغتـه ... أهل صنعاء « بجفت »(٤)
وأبو عمرة عنـــدى ... « أن كوريد نمست »(٥)

---

(١) « بمست » أى ثمل أو بحالة سكر . أنظر د . ابراهيم الشواربى ، مجلة الآداب جامعة القاهرة ، ديسمبر ١٩٢٦ : ص ١٨٣ .

(٢) « دازى » أو «دادى» بمعنى الخمر المديرة ـ «بايخست»أو «باى خسسته» بمعنى موطوءة الأقدام : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٣) « كفتم » بمعنى قلت — « أن » بمعنى ذلك — « خر» بمعنى حمار « كفت بمعنى قال : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٤) « جفت » بمعنى عنقود من العنب : نفس المصدر السابق .

(٥) « كور » بمعنى أعمى — « بد » أو « بود » بمعنى كان ، « نمست » بمعنى ليس ثملا ، فالشطرة معناها كان أعمى وليس ثملا : مجلة كلية الآداب ، ديسمبر ١٩٣٦ ص ١٨٤ .

جالس «أندر مكناد»   أيا محمد «بيهشت»(١)

والحق أن إستخدام الألفاظ الفارسية فى الشعر العباسى كان من قبيل التملح ولا نستطيع أن نرى فيه ظاهرة عامة ، ذلك أننا نجد الشعراء لم يتورطوا فى شىء منه على الرغم من إنتماء كثير منهم إلى أصول فارسية ، ونحن لا نطمئن إلى تفسير هذه النصوص بالصورة المبالغ فيها عند «يوهان فك» حيث أنها تعطينا إنطباعا غير صادق يصور اللغة الفارسية قد أدخلت فى هذا العصر ضيما على العربية أو أنها انتقصت من قدر اللغة العربية فى نفوس العباسيين(٢) وهو ما لم نحس به حتى لدى من كانوا يحسنون الفارسية من مثل أبى نواس . وفيه وفى شعره يقول الجاحظ : «ما رأيت أحدا كان أعلم باللغة من أبى نواس، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة الاستكراه»(٣) .

٢ — اللهجات واللكنات واللحن

كان من أثر الفتوحات الاسلامية أن نزحت القبائل العربية باختلاف لهجاتها إلى الأمصار المفتوحة ، وعمل أهل هذه الأمصار على أن يتعلموا لغة الفاتحين خاصة أنها لغة الدين الجديد ، وبالمثل فان نزوح الكثير من الأعاجم إلى الأمصار العربية سواء قبل الفتح الاسلامى أو بعده كان يضطرهم إلى تعلم اللغة العربية

---

(١) البيان والتبين : ١ / ١٤٣ — ١٤٤ ويقول الهوارى : أن هذا البيت مضطرب وبه تحريف . «أندر» بمعنى فى ، و «مكناد» بمعنى لا تجعل ، «بيهشت» أى فى الجنة : المصدر السابق ص ١٨٤ .

(٢) أنظر «العربية» ، يوهان فك ص ١١٢ .

(٣) أخبار أبى نواس لابن منظور (ط . مصر ١٣٤٣ هـ) ص ٦ .

باعتبارها لغة التفاهم والتعامل . ومن البديهى أن نجد أهل الأمصار المفتوحة فى محاولتهم اكتساب ناصية العربية — يأثرون فيها ويتأثرون بها[1] ، فاذا بهم يصبغون هذه اللغة الجديدة بصبغاتهم اللغوية الخاصة بهم ، وكذلك كان للأعاجم النازحين إلى الأمصار العربية نفس الأثر والتأثر ، ومن ثم رأينا ألفاظا أجنبية كثيرة تسقط إلى العربية — من مثل ما مر بنا من قبل — نتيجة لهذا الامتزاج اللغوى ، كذلك ظهرت فى ألسن أهل الأمصار الاسلامية المفتوحة آثار صعوبة التكيف العضوى لدى بعضهم مع ما تقتضيه أصول النطق بالعربية على النحو الذى ينطقها به أصحابها . ونتج عن ذلك جملة من الظواهر اللغوية من الوجهة النطقية خاصة ، هى : تباين اللهجات بين الأمصار الاسلامية وظهور لكنات فى نطق العربية بين بعض الأعاجم ، وظهور اللحن بين كثيرين من الناطقين الجدد بالعربية . وكان نشوء هذه الظواهر أكثر ما يكون فيما يسميه الجاحظ « كلام المولدين والبلديين » ، وإن كان هذا لا يمنع من ندرة ظهورها فيمن يتكلمون اللغة الفصحى بلسان بين .

وقد أنكر بعض علماء اللغة المحدثين القول بوجود اللهجات ذلك أن من رأيهم « أن الحالة اللغوية التى تنتج من تطور اللغة لا يمكن أن تتصور إلا فى مظهرين : مظهر اللغة ، تلك الوحدة الشاسعة التى تئول إليها صور التكلم المحلية جميعها ، ومظهر صور التكلم المحليه التى إليها تتفتت اللغه[2] ، ولكن هناك لفيفا

---

(١) أنظر فى ذلك « ضحى الاسلام » للأستاذ أحمد أمين : ٢ / ١٨٤ وما بعدها .

(٢) «اللغه» : ج. فندريس: ص ٣١١ - ٣١٢ - ترجمة د. عبدالحميد الدواخلى د . عبد المنعم القصاص ، ط . القاهرة ١٩٥٠ م .

من العلماء يؤكد : ـ « وجود ظاهرة التقسيم اللهجى القائم على المبدأ القائل بأن من حقنا التكلم عن وجود لهجات كلما رأينا عدداً كبيرا من الخطوط التى تفصل بين الخصائص ، ينطبق بعضها على بعض ولو بشكل تقريبى فهناك لهجة محددة فى كل منطقة يلاحظ فيها وجود خصائص مشتركة . وحتى عندما لا يمكن رسم خطوط دقيقة للفصل بين منطقتين متجاورتين ، فانه يبقى أن كلا منهما تتميز فى مجموعها ببعض السمات العامة التى لا توجد فى الأخرى(١) ويكاد يكون من المؤكد فى دراسة التطور اللغوى التدريجى أن أية لغة نعرفها الآن قد بدأت حياتها كلهجة من لغة أخرى أقدم منها(٢) .

وحين ندرس ظاهرة التقسيم اللهجى فى المجتمع العباسى ، فانه يجدر بنا ألا نبالغ فى تقدير اختلاف اللهجات العربيه وتباينها ، ذلك أن حركه الفتوح الاسلاميه حفظت اللغه العربيه ما وحد لهجات البدويين أنفسهم ولم تكن لهجات القبائل البدويه بالجزيرة العربيه « بعيدة الاختلاف من الوجهه اللغويه بحيث لا يمكن التفاهم حتى بين القبائل المتباعدة بعضها عن بعض فى السكنى والجوار ، إذ أن أغلب الفروق ــ فيما يظهر ــ كانت ترجع إلى طبيعة الاختلاف ، والقوالب ، والمفردات أو على الأقل هذه هى الفروق التى لفتت أنظار النحاه واللغويين الإسلاميين الذين نعتمد أخبارهم وحدها فى معارفنا عن الهجات البدوية »(٣) .

والذى لاشك فيه أن الألفاظ الخاصة الدائرة على ألسن طوائف بعينها تحمل

---

(١) المصدر السابق : ص ٣١٢ .
(٢) أنظر فى ذلك : اللسان والانسان : د . حسن ظاظا ص ١٣٢ ــ ١٣٣ .
(٣) « العربية » . يوهان فك (الترجمة) :

بين طياتها سمات لهجات خاصة بأصحابها، لكنها كانت لهجات محدودة الانتشار ذلك أنها كانت محدودة بحدود الطائفة المستعملة لها، أما ما كان بين الأمصار بعضها وبعض من فروق فى المفردات والألفاظ، فانه كان يحمل مظهر اللهجات العامة، ويرى الجاحظ أن هذه الفروق مردها إلى اختلاف لهجات القبائل النازلة فيها يقول: — «وأهل الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف فى ألفاظ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة، والشام، ومصر»(1) ومن المحقق أن هذه الفروق تحمل بين طياتها مؤثرات أجنبية متباينة ظهرت فى سمات لهجات سكان هذه الأمصار، فهناك فى لهجة أهل الكوفة مؤثرات فارسية نشأت بسبب تدفق العناصر الفارسية على الكوفة منذ أيام الفتوح الاسلامية حتى ليقال ان اللغة الفارسية احتلت — خلال القرن الأول — مكان التصدر فيها(2).

ومر بنا من قبل كيف اشترط فى حراس الاسواق اجادتهم الحديث بالفارسية والعربية، وبتطور الحياة الاجتماعية فى الكوفة أخذت بعض العناصر الفارسية الطامحة إلى الرقى الاجتماعى تعمل على امتلاك ناصية العربية(3)، وعمل تزاوج الاجناس العربية بالاجناس الفارسية بفعل السبايا، على ظهور جيل من المولدين يحمل سمات هذه الامصار الخاصة بالمميزات الجسمية والعقلية للعنصرين العربى والفارسى(4) ومن الحق إننا لا نستطيع تحديد زمن ظهور المؤثرات الفارسية

---

(1) البيان والتبيين: 1/19

(2) «العربية»: يوهان فك ص 14.

(3) المصدر السابق: ص13، 88

(4) أنظر «ضحى الاسلام»: الاستاذ أحمد أمين: 1/9 وما بعدها فى أيضاح هذه المسألة.

فى لهجة الكوفة ، وإن كان تأثر هذه اللهجة باللغة الفارسية كان بطيئا تدريجيا مع انتشار العناصر الفارسية[1] . وبالمثل كان بجانب هذه المؤثرات الفارسية فى لهجة الكوفة مؤثرات لغوية نبطية ، لقرب الكوفة من بلاد النبط[2]، ولانتشار المزارعين النبط فيها مما أثر فى حياتها الاجتماعية واللغوية[3] ، حتى إن أبا عمرو ابن العلاء كان يقول لاهل الكوفة : — « لكم حذلقة النبط وصلفهم »[4] .

وبالمثل كان أهل البصرة يحملون فى لهجتهم سمات فارسية ، فكانوا إذا سموا إنسانا بفيل ، فأرادوا تصغيره قالوا فيلويه، كما يحملون عمرا عمرويه، ومحمدا حمدويه[5] ، ويظن أن إضافة مقطع آن إلى أسماء الامكنة المنسوبة إلى الاشخاص فى البصرة من مثل قولهم : — « مهليان ، وأميتان ، وجعفران » كانت هذه الاضافة بسبب تأثر اللهجة البصرية باللغة الفارسية ، وكنتيجة لتغلغل العناصر الفارسية فى النسيج الإجتماعى للبصرة منذ القرن الاول الهجرى[6] .

ويحدثنا الجاحظ عن بعض هذه المؤثرات الفارسية فى لهجة الامصار الاسلامية فى سياق محاورة دارت بين أهل مكه وبين محمد بن مناذر الشاعر ،وكان معاصراً

---

(١) « حياة الشعر فى الكوفة : د . يوسف خليف (الكاتب العربى ١٩٦٨م) ص ١٥٠.

(٢) البيان والتبين : ١٩/١

(٣) « حياة الشعر فى الكوفة » : د يوسف خليف ص ١٥٤

(٤) « البيان والتبين » : ١٠٦/٢

(٥) الحيوان : ٨٥/٢ .

(٦) « العربية » يوهان فك ص ١٤ .

للأصمعى ، وخلف الاحمر ، وأبى العتاهية ، وأبى نواس ، ويظهر فى هذه المحاورة كيف أن الامصار الاسلامية كانت تتنافس فى امتلاك ناصية اللغة العربية الفصحى السليمة الخالية من مظاهر العجمة ، من مثل قول أهل البصرة انهم أصحاب اللغة الفصحى الحاكيه لالفاظ القرآن ، على خلاف أهل الامصار الاخرى فقد عاب لغاتهم ما فيها من ألفاظ فارسية ، وذلك من أثر نزول الفرس فى هذه الامصار واحتكاك اهلهم بلغاتها ، يقول الجاحظ : —

« حدثنى أبو سعيد عبد الكريم بن روح ، قال : — قال أهل مكة لمحمد بن المناذر الشاعر : ليست لكم معاشر أهل البصرة لغة فصيحة ، إنما الفصاحة لنا أهل مكه فقال ابن المناذر : — أما الفاظنا فأحكى الالفاظ للقرآن ، وأكثرها له موافقة فضعوا القرآن بعد هذا حيث شئتم ، أنتم تسمون القدر برمة وتجمعون البرمة على برام ، ونحن نقول قدر ونجمعها على قدور ، وقال الله عز وجل : — « وجفان كالجوابى وقدور راسيات » ؛ وأنتم تسمون البيت إذا كان فوق البيت علية ، وتجمعون هذا الاسم على علالى ، ونحن نسميه غرفة ونجمعها على غرفات وغرف وقال الله تبارك وتعالى : — غرف من فوقها غرف مبنية » ، وقال : — « وهم فى الغرفات آمنون » ، وأنتم تسمون الطلع الكافور والإغريض ونحن نسميه الطلع ، وقال الله تبارك وتعالى : — ونخلا طلعها هضيم فهذه عشر كلمات لم أحفظ أنا منها إلا هذا » ثم أنظر إلى الجاحظ يبين أثر الفارسية فى لغة أهل المدينة والكوفة وتعجب من أن أهل البصرة كانوا أقل تأثرا بها مع قرب منازلهم من بلاد فارس يقول : — « ألا ترى ان أهل المدينه لما نزل فيهم ناس من الفرس فى قديم الدهر علقوا بألفاظ من ألفاظهم ، ولذلك يسمون البطيخ (الخربز) ويسمون السميط (الرزدق) ويسمون المصوص (المزور) ويسمون

الشطرنج (الأشترنج) ، وغير ذلك من الأسماء ، وكذلك أهل الكوفة فانهم يسمون المسحاة (بال) وبال بالفارسية ، ولو علق ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد الفرس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه إذ كان أهل الكوفة قد نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب[1] » ثم يقول في أهل الكوفة :- « ويسمى أهل الكوفة الحوك (الباذروج) ، والباذروج بالفارسية ، والحوك كلمة عربية ، وأهل البصرة إذ التقت أربع طرق يسمونها (مربعة) ويسميها أهل الكوفة الجهارسوك والجهارسوك بالفارسية »[2] ، ويسمون السوق والسويقة (وازار) والوازر بالفارسية ويسمون القثاء (خيارا) والخيار بالفارسيه ، ويسمون المجذوم (ويذى) ، وويذى بالفارسية»[3] ، وبالمثل يذكر الجاحظ :- أن أهل الشام كان إذا أراد أن يقول الواحد منهم انزل قال :- (اطلع) ، ويزيد في تفسير لبيت من أشعار يزيد الناقص ، وهو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان :- « أن أهل الشام أخذوا هذه اللغة من نازلة العرب في أول الدهر »[4] .

وأما الظاهرة والثانية من الظواهر اللغوية من الوجهة النطقية فكانت شيوع لكنات بعض الأعاجم ، على ألسنة العامة بوجه خاص ، وقد أشار الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » إلى هذه اللكنات ، وبين معناها وأثرها في ألسنة

---

(١) « البيان والتبين » : ١ / ١٩ - والسميط هو الآجر القائم بعضه فوق بعض والمصوص لحم ينقع في الخل ويطبخ .

(٢) « البيان والتبين » : ١ / ٢٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) « مناقب الترك » رسائل الجاحظ (هارون) : ١ / ٨٣ .

الأعاجم حين ينطقون العربية ، فمنها ما قد يثقل على ألسنتهم الكلام ، ومنها ما جعلهم يخاصمون حروف لغتهم الأصلية فى حروف العربية ، وكلها تعود إلى ما يتصل بالتركيب العضوى لآلة النطق ومقدار تكيفها بنطق اللغة المكتسبة ، يقول الجاحظ فى معنى اللكنة وأنواعها : ـ « ويقال فى لسانه حبسة ، إذا كان الكلام يثقل عليه ولم يبلغ حد الفأفاء والتمتام ، ويقال فى لسانه عقلة ، إذا تعقل عليه الكلام ، ويقال فى لسانه لكنة ، إذا أدخل بعض حروف العجم فى حروف العرب ، وجذبت لسانه العادة الأولى إلى المخرج الأول . فاذا قالوا فى لسانه حكلة فإنما يذهبون إلى نقصان آلة المنطق وعجز أداة اللفظ ، حتى لا تعرف معانيه إلا بالاستدلال »(١) .

ويذكر الجاحظ أن اللكنات ترجع أساسا إلى ما كان يجده بعض الأعاجم من صعوبة فى التكيف العضوى لمخارج الحروف العربية التى لا توجد فى لغاتهم ، خاصة أن لكل لغة حروفا تدور فى أكثر كلامها من مثل استعمال الروم للسين ، واستعمال الجرامقة وهم من السريانيين للعين(٢) وبالمثل فان بعض اللغات تنفرد بحروف لا توجد فى اللغات الأخرى ، وفى ذلك يقول الجاحظ فى بيانه : « قال الأصمعى : ـ ليس للروم ضاد ، ولا للفرس ثاء ، ولا للسريانى ذال(٣) » .

وقد تحدث اللكنة بسبب تنافر الألفاظ فى اللغة الواحدة إذا جمعها ترتيب

---

(١) « البيان والتبيين » : ١ / ٣٩ — ٤٠ .
(٢) « البيان والتبيين » : ـ ١ / ٦٤ .
(٣) المصدر السابق : ـ ١ / ٦٥ .

بعينه فيسبب ذلك صعوبة فى نطقها نطقا صحيحا (١) وقد تحدث بسبب تنافر حروف الألفاظ نفسها ، فان من الحروف ما إذا اقترن بحروف أخرى سبب ذلك صعوبة فى النطق . وفى ذلك يقول الجاحظ . — « فأما فى اقتران الحروف فان الجيم لا تقارن الظاء ، ولا القاف ، ولا الطاء ، ولا الغين ، بتقديم ولا بتأخير. والزاى لا تقارن الظاء ولا السين ، ولا الضاد ، ولا الذال ، بتقديم ولا بتأخير . وهذا باب كبير (٢) » .

ويلاحظ أن الجاحظ أن اللغة ليست على منزلة واحدة فى صحة النطق بالنسبة لأولئك الذين تلجئهم الحاجة إلى تعلمها والنطق بها ، ويذكر أن من أعون الأسباب على امتلاك ناصية اللغة فرط الحاجة إليها فى المعاملات على وجه الخصوص ، يقول : — « واللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر كثرة العدد وقلته ، وعلى قدر مخارجها ، وخفتها ، وسلسها ، وثقلها ، وتعقدها فى أنفسها ، كفرق ما بين الزنجى والخوزى . فان الرجل يتنخس فى بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم ، ويبايع الخوز ، ويجاورهم زمانا فلا يتعلق منهم بطائل . والجملة أن من أعون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك . وعلى قدر الضرورة اليها فى المعاملة يكون البلوغ فيها ، والتقصير عنها » (٣) .

ونبه الجاحظ إلى أنه من الممكن أن يستدل على جنس المتكلم الاعجمى من مخارج حروف كلماته ، حتى وإن كانت ألفاظه متخيرة منمقة ، ومن ثم ميزت الحروف بين لكنات الأعاجم فكشفت عن أجناسهم ، لأن لكل جنس منهم لكنته النابعة من

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ٦٥

(٢) « البيان والتبيين » : — ١ / ٦٩ .

(٣) « الحيوان » : ٥ / ٢٨٩ — ٢٩٠ :

قدرته اللغوية ، وفى ذلك يقول : « وقد يتكلم المغلاق[1] الذى نشأ فى سواد الكوفة بالعربية المعروفة ، ويكون لفظه متخيراً فاخراً ، ومعناه شريفا ، ويعلم من ذلك السامع لكلامه ومخارج حروفه أنه نبطى » . وكذلك إذا تكلم الخراسانى على هذه الصفة ، فأنك تعلم مع إعرابه وتخير ألفاظه فى مخرج كلامه أنه خراسانى وكذلك أن كان من كتاب الأهواز »[2] . ويلاحظ فى هذا الصدد أن تعلم اللغة فى السن العالية تصحبه صعوبة فى نطق حروفها تسبب لكنات بعض الأعاجم ، من مثل ما هو ظاهر فى لكنات السند والنبط وفى ذلك يقول : — « الا ترى أن السندى إذا جلب كبيرا فانه لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام فى عليا تميم ، وفى سفلى قيس ، وبين عجز هوازن خمسين عاما . وكذلك النبطى القح ، خلاف المغلاق الذى نشا فى بلاد النبط ، لأن النبطى القح يجعل الزاى سينا ، فاذا أراد أن يقول « زورق » قال (سورق) ، ويجعل العين همزة ، فاذا أراد أن يقول « مشمعل » قال (مشمئل)»[3] . ويذكر أن تجار القيان يعرفون هذه الحقيقة ، ولذلك ترى النخاس يمتحن لسان الجارية إذا ظن أنها رومية يزعمون أنها مولدة بأن تقول : — « ناعمة » ، وتقول شمس ثلاث مرات متواليات»[4] . ومع ذلك يفرق الجاحظ بين هذه اللكنات وبين مثيلاتها فى لغة الصبيان قبل تنشئتهم ، أو فى لغة العجائز ، أو فى لغة من ينشأ من العرب مع العجم باعتبار أن لكنات هؤلاء سببها عدم تمام آلة النطق أو ما قد يصيبها من مرض

---

(١) المغلاق : — من يستعصى عليه الكلام .

(٢) « البيان والتبيين : — ١ / ٦٩ .

(٣) المصدر السابق : — ١ / ٧٠ .

(٤) نفس المصدر السابق وصفحته .

مثل استرخاء الحنك أو ارتفاع اللثة مما يمنع بيان الحروف والالفاظ ، أو أن اللكنات قد أصابتهم من التربية في أحضان أصحابها مباشرة فبعدوا عن بيئة النطق العربي الصحيح(١) .

وقد تحدث اللكنات بسبب اللثغة الداخلة في بعض الحروف ومن ذلك يذكر الجاحظ أربعة أحرف تدخلها اللثغة وهي :ـــ القاف ،والسين ، واللام ، والراء وهناك لثغة على الشين المعجمة ، يقول في نعتها : ـــ « أنها شيء لا يصوره الخط لأنه ليس من الحروف المعروفة ، وإنما هو مخرج من المخارج لا تحصى ولا يوقف عليها(٢) » ويقول « أنها ليست لها صورة في الخط ترى بالعين ، وإنما يصورها اللسان وتتأدى إلى السمع(٣) » وليست هذه اللثغات قاصرة على اللغة العربية ، ذلك أنها تدخل في حروف كثيرة من حروف لغات العجم ، ويضرب الجاحظ على ذلك مثلا بلغة الخوز ، ويقول في نعت كلامهم « وفي سواحل البحر من أسياف فارس ناس كثير كلامهم يشبه الصفير » فمن يستطيع أن يصور كثيرا من حروف الزمزمة والحروف التي تظهر من فم المجوس إذا ترك الافصاح عن معاينة ، وأخذ في باب الكتابة وهو على الطعام ؟»(٤) ،ويتحدث الجاحظ عما تحدثه اللغة بحرف السين فتجعله ثاء في قولهم : ـــ « بثم الله » إذا أرادوا « بسم الله » ، وأما اللثغة التي تعرض لحرف القاف فانها تجعله طاء ، فيقولون « طلت له » و « طال لي » ، وأما اللغة التي تدخل في اللام

---

(١) « البيان والتبيين : ١ / ٧١ .

(٢) المصدر السابق : ٣٤/١ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق : ٣٦/١ .

(٤) « البيان والتبيين : ١ / ٣٤ .

فانها تجعله ياء فيقولون « أعتييت ، وحى » بدلا من « اعتللت وحل » أوقد تجعله عند قوم آخرين كافا كأن يقول صاحبها : — « تسكمكة فى هذا » إذا أراد أن يقول : — « ما العلة فى هذا »(١) ، وأما اللثغة التى تدخل فى الراء فإنها تحوله إلى أربعة أحرف فمن أصحابها من ينطقون الراء ياء ومنهم من ينطقها عينا — وهذه أقلها قبحا(٢) ، ومنهم من ينطقها ذالا ، ومنهم من ينطقها ظاء(٣) .

ومثل هذه اللكنات الداخلة فى الحروف بسبب اللثغة ، قد تحدث للفصحاء والبلغاء من مثل ما هو مشهور عن واصل بن عطاء ، إذ كانت به لثغة فى الراء « كان إذا أراد أن يذكر البر ، قال : — « القمح أو الحنطه » والحنطة لغة كوفية ، والقمح لغة شامية . هذا وهو يعلم أن لغة من قال برا فصح من لغة من قال قمح أو حنطة »(٤) ، ويذكر الجاحظ أن اللثغة فى الراء بالغين كانت « أوجدها فى كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم »(٥).

ويذكر الجاحظ أنه « ربما اجتمعت فى الواحد لثغات فى حرفين »(٦) ، ويفصل القول فى مراتب اللثغات ، يقول : — اللثغة التى فى الراء إذا كانت بالياء فهى أحقرهن وأوضعهن لذى المروءة ، ثم التى على الظاء ، ثم التى على الذال(٧)

---

(١) المصدر السابق : ١/٣٤ — ٣٥ .

(٢) المصدر السابق : ١ / ١٥ .

(٣) انظر فى الأمثلة البيان والتبيين : ١ / ٣٥ وما بعدها .

(٤) البيان والتبيين : ١ / ١٥ .

(٥) البيان والتبيين : ١ / ٣٦ .

(٦) نفس المصدر السابق وصفحته .

(٧) نفس المصدر السابق وصفحته .

« وقد يستطيع صاحب اللثغة اليسيرة أن يتغلب على عيبه فى بعض الأحيان ، وفى ذلك يقول الجاحظ عن اللثغة التى فى الراء فتجعلها غينا أنها أيسر اللثغات ، « ويقال أن صاحبها لوجهد نفسه جهده ، وأحد لسانه ، وتكلف مخرج الراء على حقها والافصاح بها ، لم يك بعيداً أن تجيبه الطبيعة ، ويؤثر فيها ذلك التعهد أثرا حسنا[1] » ومثل هذا صنع محمد بن شبيب المتكلم كانت لثغته أن يقلب الراء غينا، فكان « إذا حمل على نفسه وقوم لسانه أخرج الراء على الصحة فتأتى له ذلك ، وكان يدع ذلك استثقالا[2] » ، ويذكر الجاحظ أنه سمع ذلك منه، وأنه قال له مرة : — « إذا لم يكن المانع إلا هذا العـــذر (يعنى الاستثقال) فلست أشك أنك لو احتملت هذا التكلف والتتبع شهرا واحدا أن لسانك كان يستقيم[3] » .

وقد تكون اللكنات عند بعض الأعاجم بسبب قريب مما تحدثه اللثغة ، كأن يقلبوا الجيم زايا ويجعلون الشين سنيا، من مثل ما يرويه الجاحظ فى حيوانه عن عجوز سندية « ركبت ظهر بعير ، فلما أقبل بها هذا البعير وأدبر وطمر فمخضها مرة مخض السقاء ، وجعلها مرة كأنها ترهز ، قالت بلسانها وهى سندية أعجمية : - (أخزى الله هذا الزمل فإنه يذكر بالسر) تريد : - (أخزى الله هذا الجمل فإنه يذكر بالشر) [4] . وقد يحول بعضهم القاف كافا ، من مثل ما هو مشهور عن أبى مسلم الخرسانى مع حسن ألفاظه وجودة معانيه ، فإنه كان إذا

---

(١) نفس المصدر السابق وصفحته .
(٢) المصدر السابق : ١ / ٣٧ .
(٣) البيان والتبيين : ١ / ٣٦ .
(٤) الحيوان : - ٣/٢٩٢ .

أراد أن يقول : ـ (قلت الك) قال : ـ (كلت الك[1] ، ومنهم من كان يجعل الحاء هاء إذ كان يرتضح لكنة فارسية أو لكنة نبطية أو لكنة رومية[2] .

أما الصقلى فإنه « يجعل الذال المعجمة دالا فى الحروف[3] » وقد تحول الجارية القاف كافا ، وتذكر المؤنث ، وتؤنث المذكر لما فى لسانها من لكنة[4] وليس من هذه اللكنات صنيع الحاكية ، فهؤلاء لديهم القدرة على محاكاة جميع اللكنات الخاصة بمخارج الألفاظ ، وما يعتريها من خطأ فى الحركات والسكنات لما وهبهم الله من قدرة فى التقليد والمحاكاة ، يقول فيهم الجاحظ : ـ وأنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئا . وكذلك تكون حكايته للخرسانى ، والأهوازى ، والزنجى ، والسندى ، وغير ذلك من الاجناس . نعم حتى تجد ، كأنه أطبع منهم ، فإذا ما حكى كلام الفأفأ فكأنما قد جمعت كل طرفة فى كل فأفاء فى الأرض فى لسان واحد . . . . وإنما تهيأ وأمكن الحاكية لجميع مخارج الأمم لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين ، وحين فضله على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة ... وهذه القضية مقصورة على هذه الجملة من مخارج الألفاظ ، وصور الحركات والسكون ، فأما حروف الكلام فان حكمها إذا تمكنت فى الألسنة خلاف هذا الحكم[5] .

---

(١) البيان والتبيين : ـ ٧٣/١ .

(٢) نفس المصدر السابق وصفحته .

(٣) المصدر السابق : ٦٥/١ .

(٤) البيان والتبيين : ٧٣/١ .

(٥) أنظر المصدر السابق : ٦٩/١ — ٧٠ .

وكان اللحن هو ثالث الظواهر اللغوية من الوجهة الصوتية في المجتمع العباسى ويذكر شارح القاموس أن لكلمه اللحن سبعة معان : — الغناء واللغة ، والخطأ في الاعراب ، والميل ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى .

ونحن نتحدث هنا عن اللحن باعتباره الزيغ عن الاعراب والخطأ فيه ويعتبر علماء اللغة المحدثون اللحن بهذا المعنى « قسما أو فرعا صغيرا من فروع اللهجة يختص بأقليم معين أو بمدينة أو بشعبة من قبيلة »(١) .

ولكننا نجد في هذا القول تحديدا ضيقا لهذه الظاهرة اللغوية ، ذلك أن اللحن قد يتسع ليشمل طبقة أو طائفة أو فئة أجتماعية بعينها ، ومن ثم فانه قد يأخذ شكلا أوسع انتشارا من حدود اللهجة .

وقد أفرد الجاحظ صفحات من الجزئين الأول والثانى من كتابه « البيان والتبين » للحديث عن اللحن . ونظن أن ظهور هذا اللون من ألوان الفساد اللغوى يرجع إلى عصور الاسلام الأولى ، ذلك أن العرب في جاهليتهم لم يكن الخلاف بينهم في الاعراب ، وإنحراف الألسنة سوى مظهر من مظاهر تباين اللهجات العربية ، أما ما طرأ على العربية بعد ذلك من خطأ في الاعراب مصاحبا لحركة الفتوحات الاسلامية منذ عهدها الأول ، فان ذلك ما يمكن أن نطمئن إلى أنه كان مقدمات ظهور اللحن في الحياة اللغوية العربية ، ويدلنا الجاحظ على مثل هذه المقدمات التى ترجع إلى عصر صدر الاسلام وعصر الأمويين(٢)

ونظن أن من بين أسباب ظهور اللحن في الألسنة ، ما نجم عن طائفة من

---

(٢) « اللسان والانسان » د. حسن ظاظا : ص ١٣٦

(١) « البيان والتبين » : ٢/٢١٠

الكتاب الأعاجم في الأمصار المفتوحة ، وذلك في العهد الأول من الفتح، ذلك أنهم لم يكونوا قد أمتلكوا ناصية العربية الصحيحة ، ومن ثم كانوا يحررون الرسائل بلغة ركيكة(١) .

وبداهة كانت مخالطة الأعاجم مولدة لفشو اللحن من الألسنة من مثل ما حدث لعبيد الله بن زياد ، يقول الجاحظ : ـــ « وكانت في عبيد الله لكنه ، لأنه كان نشأ بالاساورة مع امه (مرجانه) ، وكان زياد قد تزوجها من شيرويه الاساوري »(٢) ويحدثنا الجاحظ عن رجل بالبصرة كان له جارية تسمى(ظمياء) فكان إذا دعاها قال : ـــ ياضمياء بالضاد ويذكر الجاحظ أن ابن المقفع قال لهذا الرجل : ـــ « قل : ـــ ياظمياء ، فناداها ياضمياء ، فلما غير ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له : ـــ هي جاريتي أو جاريتك (٣) ويحدثنا الجاحظ عن قصة أول لحن سمع بالبادية وأنه كان: هذه عصاتي ، والصواب : (هذه عصاي)، وأن أول لحن سمع بالعراق هو : ـــحي على الفلاح ، والصواب فتح الياء المشددة في كلمة (حي) وليس خفضها .

والذى لا شك فيه أن اللحن كان فاشيا في طوائف عامة الشعب من الأعاجم، وممن يصفهم الجاحظ بانهم (الحشوة والطغام)، وعنده أن اللحن على درجات

---

(١) أنظر تاريخ آداب العرب » : الاستاذ مصطفى صادق الرافعي . (مطبعة الاخبار . بمصر ١٩١١م) ١/٢٤٠ وما بعدها فيما ذكره عن نقل الدواوين الرومية والقبطية إلى العربية .

(٢) « البيان والتبين » : ـــ ٢/٢١٠

(٣) المصدر السابق :ـــ٢/٢١١ .

فاقبح اللحن « لحن أصحاب التقعير ، والتقعيب ، والتشدق ، والتمطيط ، والجهورة ، والتفخيم . وأقبح من ذلك لحن الأعاريب النازلة على طرق السابلة ، وبقرب مجامع الأسواق[1] » أما الأعراب فى الباديةفيدلنا الجاحظ على أن لغتهم كانت بعيدة عن فساد اللحن، من ذلك ما يرويه من أن « رجلا من البلديين قال لأعرابى : — (كيف أهلك ؟) قالها بكسر اللام ، قال الأعرابى : — (صلبا) لأنه أجاب على فهمه ، ولم يعلم أنه أراد المسالة عن أهله وعياله[2] » ويذكر حادثة مشابهة وقعت لابن بشير مع أبى الفضل العنبرى ، ذلك أن العنبرى قال لابن بشير : — « أنى عثرت البارحة بكتاب ، وقد التقطته ، وهو عندى ، وقد ذكروا أن فيه شعرا ، فإن أردته وهبته لك ، قال ابن بشير : — « أريده أن كان مقيدا قال : — « والله ما أدرى أمقيد هو أم مغلول » . ويعلق الجاحظ على ذلك بما يفيد أن اللحن قد يدخل فى معنى الألفاظ كما يدخل فى حروفها ، يقول « ولو عرف التقييد لم يلتفت إلى روايته[3] » . ويروى الجاحظ أن الأعراب كانوا لا يزالون يحتفظون بلهجاتهم العربية ولا يفهمون ما قد يلقى عليهم من كلام ملحون ، من ذلك مايذكره من أن بعض الأعراب « كان إذاسمع رجلا يقول:- (نعم) فى الجواب قال : — (نعم وشاء) ، لأن لغته نعم[4] » .

وقد يستملح اللحن من لسان فئات بعينها من مثل : — « اللحن من الجوارى

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ١٤٦ .

(٢) المصدر السابق : ١ / ١٦٣ .

(٣) نفس المصدر السابق وصفحته .

(٤) « البيان والتبيين » : — ١ / ١٦٣ .

الظراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور الغرائر ، وربما استملح الرجل ذلك منهن ما لم تكن الجارية صاحبة تكلف ، ولكن إذا كان اللحن على سجية سكان البلد»(١) .

وبالمثل يفشو اللحن من ألسنة بعض سكان أمصار بعينها ، من مثل ما يرويه الجاحظ عن العامة من أهل المدينة ، يقول : — « ولأهل المدينة ألسن ذلقة ، وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ، واللحن فى عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر فى النحو منهم غالب(٢) . وفى هجائهم باللحن قال الميسانى : —

ولحنكم بتقعير ومد والأم من يدب على العفار(٣)

وإذا كان من البديهى أن يفشو اللحن فى ألسنة العامة من الأعاجم فان من الغريب حقا أن نجد بعض الخاصة لا يسلم لسانه من اللحن من ذلك ما يرويه الجاحظ من وقوع أبى حنيفة فى خطأ اللحن ، يقول: — « قيل لأبى حنيفة ما تقول فى رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل ايقتله ، أتقيده به ، قال : — لا ولو ضرب رأسه بأباقبيس(٤) » . ومثل هذا الخطأ يرويه الجاحظ عن يوسف ابن خالد السمتى ، وهو من أصحاب الرأى ، وأول من جاب رأى أبى حنيفة

---

(١) البيان والتبيين . ١ / ١٤٦ .
(٢) نفس المصدر السابق .
(٣) « البيان والتبيين : — ٢ / ٢١٥ .
(٤) البيان والتبين : ٢ / ١٢ .

إلى البصرة(١) ، يقول . — قال يوسف بن خالد السمتى لعمرو بن عبيد . — ما تقول فى دجاجة ذبحت من قفائها . قال عمرو : أحسن قال : من قفاؤها ، قال عمرو : — ما عناك بهذا ؟ قل : — من قفاها واسترح . ويذكر الجاحظ أن من لحن السمتى : — « أنه كان يقول : — هذا أحمر من هذا ، يريد . — هذا أشد حمرة من هذا »(٢) .

ويذكر الجاحظ شيئا من اللحن فى قراءة القرآن الكريم ، ومثل ذلك ما يرويه عن سابق الاعمى ، يقول : — « كان سابق الاعمى يقرأ : —

« الخالق البارىء المصور » فكان ابن جابان إذا لقيه قال : — « ياسابق ، ما فعل الحرف الذى تشرك بالله فيه ؟ . ويذكر : — أنه قرأ « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » ، قال ابن جابان : — وان آمنوا أيضا لم تنكحهم(٤) .

وبالمثل يذكر الجاحظ طائفة من أصحاب اللحن قال عنهم أنهم من « اللحانين البلغاء » . ذلك أنهم من بلاغتهم . وحسن بيانهم . شهر عنهم فشو اللحن على ألسنتهم(٣) .

ومن الحق أننا يجب ألا نبالغ فى مثل هذه الاخبار . ذلك أن مثل هذه الاخطاء اللغوية لم تكن عامة فى أهل البلاغة . والعلماء أصحاب البيان والثابت

---

(١) « الانساب » للسمعانى (ط . ليدن ١٩١٢م) : ص ٣٠٦ .

(٢) « البيان والتبين » : ٢/٢١٢

(٣) « البيان والتبين » : ٢/٢١٩

(٤) المصدر السابق : ٢/٢٢٠ وما بعدها .

فيهم أن الخصومة قد احتدم بينهم ، ولكن الغلبة فيها لمن يملك ناصية اللغة دون لحن بما يثبت حرصهم على تجنبه ، من ذلك ما يرويه الجاحظ عن الأصمعى أنه قال : — « خاصم عيسى بن عمرو النحوى الثقفى إلى بلال ابن أبى برده ، فجعل عيسى يتتبع الاعراب وجعل الرجل ينظر إليه ، فقال له بلال : « لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليه من ترك الاعراب،فلا تتشاغل به واقصد لحجتك»(١).

٣ — لغات خاصة

كان لتقسيم المجتمع إلى طبقات تتفرع إلى طوائف وفئات، وما تتسم به هذه الوحدات الاجتماعية من تباين أثر — دون شك — فى حياة الأفراد اللغوية باعتبار انها تمثل انعكاسا لفكر هؤلاء الأفراد ، ومن ثم فأن هذا التباين يظهر بوضوح فى فرق ما بين لغة الفكر والحضارة وبين ما يمكن أن نسميه « اللغات الخاصة » الشائعة بين طوائف وفئات المجتمع ، ونعنى بهذه اللغات كل « لغـــة لاتستعملها إلا جماعات من الأفراد وجدوا فى ظروف خاصة »(٢) ، ومن هذا النوع من اللغات مايسميه علماء اللغة « اللغات العامة الخاصة » Les Orgots من مثل لغة الصناع ولغة الأشقياء (٣).

والملاحظ أن مثل هذه اللغات « تشترك فى كونها خاصة بالنسبة للغة مشتركة بعينها ، وباختبار تكونها يتضح لنا أنها تنشأ جميعا عن ميل واحد، وهو ترويض اللغة على مشاغل الجماعة التى تستعملها ، وإن كانت بعض هذه اللغات الخاصة »

---

(١) البيان والتبيين :— ٢ / ٢١٨ :
(٢) اللغة ج . فندريس (الترجمة) ص٣١٤.
(٣) المصدر السابق . ص ٣١٦ ،

تعتبر مختلفة عن اللغة العادية »(١) ، ومن ثم فاننا سنلاحظ ظهور سمات مميزة لمثل هذه اللغات العلمية الخاصة التى ظهرت فى المجتمع العباسى مع ملاحظة وجود وشائج بين هذه السمات وبين ما يميز اللغة الفصحى — وهى اللغة الأم — ولغة الحضارة والفكر فى المجتمع خاصة أن اللغة تلعب « دورا ذا أهمية عظمى فى الجماعة الاجتماعية مهما كان مقدار امتدادها . فاللغة بمرونتها ، وتنوع حياتها ، ولطف صريانها ، واختلاف استعمالها ، وسيلة للاتفاق بين الجماعة وعلامة لأعضاء هذه الجماعة بها يعرف بعضهم بعضا ، ويهرع بعضهم إلى بعض »(٢) ويذكر علماء اللغة أن اللغات الخاصة هى — من حيث المبدأ — « لغات طبيعية كاللهجات تماما ، ولكنها تقوم دائما على مادة لغة مشتركة ، وتظل عادة تستمد منها غذاءها »(٣)، ويشير علماء اللغة إلى وجود تعارض بين اللغة العامة (الفصحى) وبين هذه اللغات الخاصة(٤) . والملاحظ فى اللغات الخاصة ، وهى توجد فى المجتمع بقدر ما يوجد فيه من جماعات متخصصة(٥) ، أن أصحابها يستخدمون مصطلحات بعينها للدلالة على معان محددة ، وعندنا أن ظهورها فى المجتمع العباسى يعد من أوضح مظاهر التأثر بالامتزاج الحضارى فى هذا العصر ، وما صحبه من ألوان الامتزاج الجنسى ، والثقافى ، واللغوى ، والاجتماعى ، ومع ذلك فانه يصعب على الدارس أن يجد لهذه اللغات قواعد محددة تقوم عليها ، من مثل ما مر بنا عند دراسة اللغة الفصحى وسماتها اللغوية الفنية . ولعل من أبرز سمات

---

(٤) « اللغة » : ج . فندريس (الترجمة العربية) ص ٣١٦ .

(٢) المصدر السابق : ص٣١٦

(٣) المصدر السابق : ص ٣٢٥

(٤) المصدر السابق : ص ٣١٦ وما بعدها

(٥) المصدر السابق : ص٣١٦ .

هذه اللغة الظاهرة تحررها من القواعد اللغوية النحوية إذ أخذ يفشو فيها استعمال ما هو ضعيف، أو مستهجن من ألفاظ اللغة الفصحى ومعانيها، وفي ذلك يقول الجاحظ: — «إن العامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا، وتدع ما هو أظهر وأكثر، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ولم يسر ما هو أجود منه، وكذلك المثل السائر»(١).

وبالمثل كان من بين الأخطاء اللغوية الشائعة في لغات الشعب الخاصة مما أشار إليه الجاحظ من استخدام الألفاظ في غير دلالاتها الصحيحة، من ذلك ما يرويه في ثنايا حديثه عن أدب العرب في الطعام، إذ يأتى بأمثلة يدلل بها الأصمعى على هذا الخطأ اللغوى، الذى يظهر أنه لم يكن قاصرا على لغات الشعب فحسب يقول الجاحظ: — «كان الأصمعى يقول: — قد كان للعرب كلام على معان فاذا ابتذلت تلك المعانى لم يتكلم بذلك الكلام فمن ذلك قول الناس اليوم: — «ساق إليها صداقها» وانما كان هذا يقال حين كان الصداق أبلا وغنما . وفى قياس قول الأصمعى أن أصحاب التمر الذين كان التمر دياتهم ومهورهم، كانوا لا يقولون: — «ساق فلان صداقه». «قال: — ومن ذلك قول الناس اليوم: — «قد بنى فلان البارحة على أهله» وانما كان هذا القول لمن كان يضرب على أهله فى تلك الليلة قبته وخيمته، وذلك هو بناؤه، ولذلك قال الأول. —

لو نزل الغيث لأبنين امرءا كانت له قبته سحق بجاد

(١) «البيان والتبيين» ١/٢٠ .

وكان الأصمعى يعد هذا أشياء ليس لذكرها هاهنا وجه ، ثم يقول : — « وكان الأصمعى يقول : — « لا يقول أحدكم : — « أكلت ملة » ، بل يقول « أكلت خبزة » ، وإنما الملة موضع الخبزة . وكذلك يقول فى الرواية والمزارة يقول الراوية — هو الجمـــل — وزعموا أنهم اشتقوا الراوية للشعر من ذلك (١) .

واتسمت هذه اللغات فى بعض الأحوال بركاكة وسماجة وسوقية فى التعبير، وبما ينم عن إستخدام ألفاظ بعينها خاصة بطائفة أو فئة بعينها باعتبار أن لـكل طائفة من الناس معجمها اللغوى الخاص بها(٢) ، وأن شئت أنظر إلى مثل قول امرأة من عامة الشعب لأبى القماقم — وهو من بخلاء الجاحظ — : « ويحك يا أبا القماقم أنى قد تزوجت زوجاً نهارياً ، والساعة وقته ، وليس على هيئة فاشترلى بهذا الرغيف آسا ، وبهذا الفلس دهنا ، فانك تؤجر(٣)، فانظر إلى ركاكة التعبير وسوقيته خاصة أننا نظن أن ما جاء فى أصل المخطوطة من عدم شكل لفظى (آس ، ودهن) فى هذه العبارة هو أقرب إلى الصحة للأئمته لغة الشعب المتحررة من قواعد الاعراب والشكل .

وبالمثل نستطيع أن نلاحظ فى اللغات العامية الخاصة خلوها أحيانا من دقة التمييز بين المفرد والجمع من الألفاظ ، ومن ثم فان اللفظ قد يأتى جمعا فى موقع الافراد أو العكس من مثل ما جاء فى « البخلاء » على لسان معاذ العنبرية ، تقول:

---

(١) « البخلاء » : ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٢) أنظر هذا الرأى فى « الحيوان » . ٣/٣٦٨ — ٣٦٩ .

(٣) « البخلاء » : ص١٢٤ .

«أما المصران فانه لأوتار المندفة، وبنا إلى ذلك أعظم حاجة[1]»، ولم تقل فانها لأن العامة تعتقد أن المصران مفرد، ويجمعونها «مصارين»[2].

والحق أن الجاحظ في بخلائه نبه إلى أنه يفرق في لغة كتابه بين لغة من كان من البخلاء منتميا إلى طبقة عامة الشعب، وبين من كان منهم فوق ذلك مرتبة اجتماعية، ذلك أن لغة العامة من سماتها فشو اللحن في ألفاظها وخلوها من الشكل والضبط، مما قد يجده القارىء منثورا في كتابه، يقول الجاحظ: - «وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب — يبغض هذا الكتاب، ويخرجه من حده إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء المعلمين كسهل بن هارون وأشباهه[3]»، ولعل صنيع الجاحظ هذا كان نتيجة لشدة حرصه على إبراز صورة ما يريد نقله إلى القارىء بأكبر قدر من الواقعية، وإن كان ينبه في بعض الأحوال — على أن المادة الكلامية لا تسعفه في رسم بعض الصور والنوادر بما يريد لها أن تخرج عليه من امتاع للقارىء، ومن ثم رأيناه يتحين الفرصة لاظهار العذر في ذلك، أنظر إليه يقول بعد أن روى في بخلائه إحدى النوادر المضحكة. «وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء، ولا يأتي لك على كنهه.

---

(1) المصدر السابق: ص٣٣.

(2) «الجاحظ والحاضرة العباسية» د. وديعة النجم: ص٢٠٧

(3) «البخلاء» ص ٤٠

وعلى حدود حقائقه (١). ومع ذلك فاننا نلمس فى البخلاء حرص الجاحظ على الصدق فى التصوير، والدقة فى التعبير عن أحوال بخلائه بالقياس إلى قدراتهم الثقافية والاجتماعية مما يعكس أثره على صفاتهم اللغوية، ومن ثم رأينا فى معرض حديثه عن بخيله المكدى، يحرص على أن يخرج الحديث فى أطار السمات اللغوية لفئة الكدية وساق لنا فى نهاية قصة المكدى — من مثل ما مر بنا فى فهم هذا الوضع تفسيرا لما ورد فيها من ألفاظ غريبة(٢). وهو بالمثل صنع فى «البيان والتبين» شيئا من هذا القبيل فى حديثه عن بعض طوائف عامة الشعب، إذ سقطت فى مثل هذه الأحاديث ألفاظ مما يدور على ألسنة أصحاب حرف بعينها فى لغاتهم الخاصة من مثل نقله أحاديث الملاحين، أنظر إلى مثل قول الجاحظ: «وقلت لملاح لى، وذلك بعد العصر فى رمضان: أنظركم بين عين الشمس، وبين موضع غروبها من الأرض قال: «أكثر من (مرديين ونصف)»، ثم ينقل عن ملاح آخر وصفه لبعض اللصوص بمثل قوله. «وقع علينا اللصوص، فأول رجل داخل دخل علينا السفينة كان فى طول هذا (المردى) وكانت فخذه أغلظ من هذا (السكان)، واسود صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا (القير) ثم أنظر إلى مثل هذا الحديث فى قول الجاحظ: «وأردت الصعود مرة فى بعض القناطر، وشيخ ملاح جالس، وكان يوم مطر، وزلق حمارى فكاد يلقينى لجنبى لكنه تماسك فأقعى على عجزه، فقال الشيخ الملاح: «لا اله إلا الله ما أحسن ما جلس على (كوثله)(٣)، وفى هذه الأحاديث يأتينا الجاحظ، بجملة من

---

(١) «البخلاء»: ص٥٨

(٢) المصدر السابق: ٥١ وما بعدها.

(٣) «البيان والتبين» ٢/١٧٦.

الألفاظ الخاصة بفئة الملاحين من مثل كلمة (المردى) ، وهى خشبة يدفع بها الملاح السفينة ، و (الكوثلة) وهى مؤخر السفينة أو سكانها ، ومن الحق أن هذه الألفاظ تشكل جانبا من المعجم اللغوى لهذه الفئة الاجتماعية من عامة الشعب ، ولا ندهش بعد ذلك أن رأينا فى جانب من كتابات الجاحظ بعض الألفاظ العامية من مثل ما جاء فى « البخلاء » من استخدام لفظه (شهرة) ، وتطلق فى لغة الكلام على الطعام الذى لا يطبخ يوميا ، ولفظه (خضرة) بمعنى الحقل الذى تزرع فيه الخضرات خاصة (١) .

وكتابات الجاحظ تساعدنا فى رسم ملامح أكثر وضوحا لصورة اللغات الخاصة فى المجتمع العباسى ، من ذلك حديثه فى رسالته فى « صناعة القواد » إذ أنه يستلهم من ألفاظ اللغات الخاصة ببعض فئات وطوائف الشعب مادة لرسالته ، فيروى لنا جملة من أحاديث وأشعار أناس ينتمون إلى طوائف اجتماعية مختلفة من مثل : — الأطباء ، والحاكة ، والزراع ، والخبازين ، وأصحاب الحمامات ، والكناسين ، وصانعى الأشربة والخمور ، والفراشين القوامين على فرش البيوت وتأثيثها ، وينص الجاحظ على أنه صنف هذه الرسالة إلى أمير المؤمنين المعتصم بالله (٢) ، ويضع له فى صدرها كلاما عما فى اللسان من خصال باعتباره الآلة الدالة على لغة الانسان ، ويبين له فضل العقل والعلم باعتبار أن اللسان أداة لاظهارهما ، ويحذر من عيوب اللسان كأن ينطق به صاحبه كلاما ينافى أصول البيان ، أو كأن يلحن صاحبه فى حديثه ، وعنده أن عيوب اللسان لا يصلحها شىء حتى وإن كان صاحب اللسان غنيا كثير المال ، ويتمثل

(١) « الجاحظ والحاضرة العباسية » : —
د . وديعة النجم ص ٢١١ .
(٢) « رسائل الجاحظ » : تحقيق هارون . ١/٣٧٩ .

الجاحظ ببعض الأقوال الدالة على ذلك من مثل قول شبيب بن شيبة حين رأى رجلا يتكلم فأساء القول : — « يا ابن أخى الأدب الصالح خير من المال المضاعف »(١) ثم يمضى الجاحظ فى رسالته يعرض على المعتصم ما قاله أصحاب المهن والصناعات المختلفة بشأن ما صنعوه فى الحرب فى بلاد الروم ، ثم ينقل عن كل واحد منهم أبياتا من شعره فى باب الغزل ، ويظهر فى هذه الأحاديث تأثر كل واحد منهم بما يستعمله فى صناعته من ألفاظ لغة دخيلة ومولدة ، فهم وإن كان حديثهم يصور موقفا واحدا يعبرون فيه عن معان محددة إلا أنهم اختلفوا فيما بينهم فى تصور هذه المعانى وتشبيهها بما يدور حولهم وما يعيشون فى غماره من مؤثرات بيئاتهم الخاصة ، ثم صاغوا هذه المعانى فى قوالب لفظية متباينة تباين صناعاتهم وتخصصاتهم وفى ذلك يؤكد الجاحظ أن لكل طائفة من الناس معجمها اللغوى الخاص بها وألفاظهم الأثيرة إلى نفوسهم . ويجدر بنا ونحن ننظر إلى هذه الأحاديث والأشعار الواردة فى هذه الرسالة ، ان نلاحظ تصنيفها فى زمن المعتصم حيث بدأ تأثر المجتمع العباسى بظهور الأتراك وغلبتهم على الدولة العباسية مما كان له أثره فى الحياة اللغوية ، ذلك أن الترك فى هذا العصر كانوا « لا يمتون فى الأعم الأغلب بصلة إلى الثقافة أصلا ، كما أسهموا فى خفض المستوى اللغوى فى دوائر القصور ، وببلوغهم مناصب السلطان يبدأ فى تاريخ العربية عصر الانحلال »(٣). ولعلنا نفهم فى ضوء ذلك نصيحة الجاحظ للمعتصم فى الرسالة ، بأن يأخذ أولاده بأن يتعلموا من كل الأدب ، وألا يفردهم بشىء واحد من فنونه فاذا سئلوا

---

(١) « رسائل الجاحظ (فى صناعة القواد) » : ٣٨١/١ .

(٢) « العربية » : يوهان فك : ص ١٢٩٠ .

(٣) « العربية » يوهان فك : ص ١٢٩ .

عن غيره لم يحسنوه (١) ، ونفهم من خاتمة الرسالة أن المعتصم اقتنع بنصيحة الجاحظ حتى إنه « دعا مؤدب ولده فأمره أن يأخذهم بتعليم جميع العلوم » (٢)، وكأن الجاحظ بهذه الرسالة أراد أن يكشف للخليفة ضرورة النظر فى كل العلوم والآداب ، لأن ذلك يكسب الحاكم قدرة على حسن ادراك طوائف شعبه ودقائق حياتهم ، وان كان الجاحظ قد رسم صورة هذه الطوائف بأسلوب تهكمى ساخر فانه حافظ فيه على أن يترك فى نفس القارىء ـ الاحساس الصادق بتباين طوائف المجتمع فيما بينهم تباينا لغويا شأن تباينهم اجتماعيا ، ومن ثم فان صاحب الخيل ترتبط عنده صورة تلاحم القتال مع الأعداء بصورة الاصطبل والدابة ، ونفض التراب عنها والأنابير ، وهو حين يتغزل فى شعره فانه يصوغ معانى الوجد واللوعة والشوق بألفاظ أثيرة لديه يستعملها هو وأقرانه من أبناء طائفته ، فاذا هذه المعانى ترتبط بصورة علف الدواب والسير الذى يكون عليه لجام الدابة ، وما تشد به قوائمها (٣) .

ويصوغ بختيشوع الطبيب مثل هذه المعانى فى قوالب لفظية يستمدها من بيئته الخاصة وما دخل فيها من ألفاظ مولدة ، ومن ثم رأينا صورة تلاحم القتال مع الأعداء ترتبط بصورة (البيمارستان) ، و (المحقنة) ، و (المباضع) ، وما فى جسم الانسان من أوعية دموية مثل (الأكحل) وهو من عروق اليد ، وتصدر أبياته فى الغزل عن تأثر بألفاظ صناعته ، وعنده ترتبط معانى الوجد واللوعة والشوق بصورة الأمراض من مثل (البرسام) ، وهو التهاب يعرض ـ

---

(١) « فى صناعة القواد » : ٣٨١/١ .

(٢) المصدر السابق : ٣٩٣/١ .

(٣) « رسائل الجاحظ » : ٣٨٢/١ .

الحجاب الذى بين القلب والكبد ، يقول ادى شير : — « فارسيته (برسام) وهو مركب من : — (بر) وهو الصدر ، ومن (سام) أى التهاب، والجرسام والبلسام لغتان فيه ، وقالوا فيه برسم ، وبريسم ، وبلسم » (١) ، وبالمثل تفيض فى قوالبه اللفظية أسماء بعض الامراض من مثل : ـ السل والاسهال ، يقول : ـ « لقيناهم فى مقدار صحن البيمارستان ، فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم فى أضيق من حقنة ، فقتلناهم فلو طرحت مبضعا ما سقط الا على أكحل رجل » (٢) وبالمثل ترابط هذه الصور فى حديث جعفر الخياط بصورة الملابس ، وسوقها ، وأشكالها ، وأدوات حياكتها ، ويصوغ قوالبه اللفظية بما يستخدمه من ألفاظ فى صناعته ، من مثل الدرز ، والجربان ، والابرة ووخزها ، والأزرار وعروانها ، والطيلسان ، والسراويل والكستبان ، من مثل قوله : — « لقيناهم فى مقدار سوق الخلقان ، فما كان بقدر ما يخيط الرجل درزا حتى قتلناهم ، وتركناهم فى أضيق من جربان ، فلو طرحت ابرة ما سقطت إلا على رأس رجل » (٣) .

والزارع يصور هذه المعانى بألفاظه الخاصة بصناعة طائفته ، ومن ثم جاءت عنده صورتا القتال والغزل مرتبطتين بصورة الأرض ، وزرعها ، وسمادها وما قد يصيبها من آفات ، وما يستخدمه لزرعها من آلات ، يقول : — « لقيناهم فى مقدار جريبين من الأرض ، فما كان بقدر ما يسقى الرجل مشارة حتى قتلناهم ، فتركناهم فى أضيق من باب ، وكأنهم أنابير سنبل ، فلو طرح فدان ما

---

(١) أنظر الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٩ — ٢٠ .
(٢) « فى صناعة القواد » : ١/٣٨٣ .
(٣) « رسائل الجاحظ » : ١/٣٨٤ .

ما سقط إلا على ظهور رجل[1] » .

وترتبط هذه المعانى عند الخباز بصورة بيت التنور ، والخبز يخبزه فيه والمحراك ، وهو يسمى فى أشعاره الرغيف بلفظه الفارسى المعرب (جردق) يقول : ـ « لقيناهم فى مقدار بيت التنور ، فما كان بقدر ما يخبز الرجل خمسة أرغفة حتى تركناهم فى أضيق من حجر تنور ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلا فى جفنة خباز[2] » .

أما صاحب الحمام فانه يصبغ هذه المعانى بصورة الحمام وما فيه من : ـ أتون ومآزر ، وليف « وزنابيل »[3] ، أنظر إلى مثل قوله : ـ « لقيناهم فى مثل بيت الابار ، فما كان إلا بمقدار ما يغسل الرجل رأسه حتى تركناهم فى أضيق من باب الاتون ، فلو طرحت ليفة ما وقعت إلا على رأس رجل » ثم أنظر إلى أبياته فى الغزل ، يقول : ـ

يا نورة الهجر حلقت الصفا ... لما بدت لى ليفة الصد
يا مئزر الأسقام حتى متى ... تنقع فى حوض من الجهد

---

(١) المصدر السابق : ١ / ٣٨٥ . والمشارة بفتح الميم الديرة ، هي البقعة من الأرض تزرع ، والفدان الذى يجمع بين أداة الثورين فى القران للحرث والآلة التى يحرث بها .

(٢) « فى صناعة القواد » : ـ ١ / ٣٨٥ ـ والمحراك أداة تحرك بها النار ، والجرادق جمع جردق وهو الرغيف الخشن فارسى معرب من (كرده) ومعناها الرغيف المستدير الغليظ ، أنظر معجم استينجاس ص ١٠٨١ .

أوقد أتون الوصل لي مرة ... معك بزنبيل من الود(١)

ثم أنظر إلى الساقي يصور هذه المعاني بصورة ما يقع عليه بصره في بيت الشراب، وما به من كئوس تصفى فيها الخمر، يقول : ـ « لقيناهم في مقدار صحن بيت الشراب ، فما كان بقدر ما يصفى الرجل دنا ، حتى تركناهم في أضيق من رطلية فقتلناهم ، فما رميت تفاحة ما وقعت إلا على أنف سكران(٢)» ويصور الطباخ هذه المعاني بما يراه في المطبخ من : ـ مغارف ، وأوان ، وقدور وما يطبخ فيها من أطعمة ، ويلاحظ أن كثيرا من أسماء الأطعمة من الأسماء المولدة ، يقول : ـ « لقيناهم في مقدار صحن المطبخ فما كان بقدر ما يشوى الرجل حملا ، حتى تركناهم في أضيق من موقد نار ، فقتلناهم ، فلو سقطت مغرفة ما وقعت إلا في قدر »(٣) .

ومن الحق أن متصفح هذه الرسالة يكاد يخرج مطمئنا إلى أن الجاحظ إنما صاغها ، وألفها ، ونظم أشعارها بنفسه قاصدا ـ فيما نحسب إلى أن يضمنها ما جاء

---

(١) الزبيل : القفة ، معرب من الفارسية (زنبيل) ، و (زنبير) لغة فيه بالفارسية ، أنظر الألفاظ الفارسية المعربة لأدى شير : ص ٨٠ .

(٢) « في صناعة القواد » : ـ ١ / ٣٨٨ .

(٣) المصدر السابق : ـ ١ / ٣٩٠ ـ والرطلية نسبة إلى الرطل : وعاء أو كأس يسع رطلا من الشراب .

(٤) « في صناعة القواد » : ـ ١ / ٣٩٠ .

على لسان طوائف الشعب المتباينة من ألفاظ كانت تسقط فى لغاتهم تحت تأثير مهنهم ، لا وظائفهم الاجتماعية ، وقد أسعفته دقة ملاحظته ، وسرعة بديهته فى أن يخرج هذه الرسالة على هذه الصورة الطريفة من الوجهة اللغوية لما تضمنته من ألفاظ غريبة الشكل دون شك جانبا من القاموس اللغوى لفئات وطوائف المجتمع العباسى فى عصر الجاحظ .

الفصل الثانى

الباب الثانى

الحركة العلمية ، وعلم الكلام ، والاعتزال

(١) الحركة العلمية :-

ا : ـ ازدهار الحركة العلمية والأدبية .

ب : ـ النشاط العلمى فى المساجد .

جـ : ـ المناظرات

(٢) علم الكلام والاعتزال :-

ا : ـ المتكلمون .

ب : ـ المعتزلة :

جـ : مسألة خلق القرآن

الفصل الثانى

« الحركة العلمية ، وعلم الكلام ، والاعتزال »

(١) الحركة العلمية

١ : — ازدهار الحركة العلمية والأدبية : —

تمثل لنا الحياة العقلية لأى مجتمع ، ما أصابه هو وأفراده من رقى حضارى وفكرى ، والحد الذى استطاع أن يصل اليه فى مواكبة حضارات المجتمعات المحيطة به والمعاصرة له ، وإلى أى حد استطاع أن يستفيد من حضارات سابقة أحاطت أو امتزجت ببيئته الاجتماعية ، وهى كذلك صورة العطاء الفكرى الذى يمكن أن يقدمه المجتمع للحضارة الانسانية اللاحقة. ومن الحق أن المجتمع العباسى تهيأت له — فيما نحسب — كل عوامل العطاء الفكرى للحضارة الانسانية، فهو مجتمع امتزجت فيه حضارات أرقى الأمم فى هذا العصر، وأتيحت لأفراده كل أدوات الازدهار العقلى والفكرى ، ولم يكن هناك ما يحول بين أن يصل هذا المجتمع إلى حد رفيع من الرقى العقلى — يسمح بقدر عظيم من العطاء الفكرى للمجتمعات الانسانية اللاحقة له ، وكان هذا المجتمع بحق عظيم العطاء بما صب فى روافد الفكر الانسانى من جداول الحضارة والفكر، والعقل. وساعد على ذلك أن الظروف هيأت لظهور حركة علمية واسعة فى عصر الجاحظ، حتى إنه يؤكد فى كتاباته أن « سوق البيان والعلم قد قامت» بعد أن « هبت ريح

العلماء وكسد العى والجهل »(١)، ورأينا التعليم ينهض نهضة شاملة فى هذا المجتمع، ويتخذ حينئذ منهجا واضحا، يجمله الجاحظ على نوعين: الاول يتجه إلى تعليم أبناء الخاصة من الخلفاء والامراء ومن على شاكلتهم، ما يحتاجون إلى معرفته من الانساب، والاخبار، والفقه (٢)، وقد يضاف إلى ذلك شيء من الكتاب، والحساب، وفنون الحرب، والفروسية، والالعاب الرياضية، وعلوم الفلك، والطب (٣). وكان النوع الثانى يتجه إلى تعليم أبناء عامة الشعب مبادىء القراءة والكتابة، وبعض سور القرآن الكريم، وشيئا من الحساب، وبعض الاشعار، والامثال (٤)، وكان بعضهم يتعلم أيضا السنن، والفرائض، والنحو، والعروض (٥)، وهؤلاء كان القصد من تعليمهم أن يتقنوا حرفة يقتاتون بها كأن يصبحوا زراعاً أو تجاراً أو بنائين أو خياطين (٦)، وكان هناك التعليم الخاص بالبنات يؤثرون فيه تحفيظهن القرآن الكريم، وخاصة سورة النور (٧).

وكان الناشىء من أبناء عامة الشعب، فى المجتمع العباسى يبدأ بالتعليم عادة فى الكتاتيب على أيدى طائفة من المعلمين يسميهم الجاحظ « معلمى كتاتيب

---

(١) « الحيوان »: ١/٨٦.
(٢) « البيان والتبيين »: ٣/٢١١.
(٣) « رسالة المعلمين »: اختيارات عبيد الله بن حسان (هامش الكامل للمبرد): ١/٢٣.
(٤) « البيان والتبيين »: ٢/١٨٠ - وهامش الكامل: ١/٢٦، ومابعدها.
(٥) المصدر السابق: ٢/٢١٩.
(٦) « رسالة فى المعلمين »: (هامش الكامل)، ١/٢٣.
(٧) « البيان والتبيين » ١/١٨١.

القرى»(١)، وكان هؤلاء يتقاضون من الناشئة أجوراً زهيدة (٢)، وهم عنده فى مرتبة اجتماعية أدنى من مرتبة معلمى أولاد الخاصة، ويقول فيهم: - «يكون الرجل نحويا عروضيا، وحسابا فرضيا، وحسن الكتاب، جيد الحساب، حافظا للقرآن، راوية للشعر، وهو يرضى أن يعلم أولادنا بستين درهما»(٣)، ولعله يعنى بذلك من كان منهم يعلم أبناء الطبقة الوسطى، وهم بدورهم فى مرتبة اجتماعية أدنى من معلمى ابناء خاصة الخاصة، ونعنى أبناء الخلفاء والامراء والوزراء والقواد والسراة، إذ كان من مثل هؤلاء المعلمين اللغوى، والاخبارى، والفقيه والمحدث، والشاعر، والخطيب، والمقرىء(٤)، ويورد الجاحظ أسماء طائفة من المبرزين منهم مثل: على بن حمزة الكسائى معلم الرشيد، وابنيه الامين والمأمون، وقطرب مؤدب الامين، وأبناء أبى دلف قائد المأمون، وأبى سعيد المؤدب معلم موسى الهادى قبل أن يستخلف(٥). وقد أنشأ الجاحظ رسالة فى المعلمين(٦)، كنا نود أن تصلنا هذه الرسالة كاملة خالية من الاضطراب فى ترتيب فصولها ونصوصها، وما أقحم عليها من نصوص لا تتصل بموضوعها(٧)،

---

(١) المصدر السابق: ٢٥٠/١ — ٢٥١.

(٢) «العصر العباسى الاول»: د. شوقى ضيف، ص ٩٩.

(٣) «البيان والتبيين»: ٤٠٣/١.

(٤) المصدر السابق: ٢٥١/١.

(٥) المصدر السابق: ٢٥٠/١، وما بعدها.

(٦) «هامش الكامل» للمبرد: ١٧/١ — ٣٣.

(٦) أنظر مثلا «هامش الكامل»: ٢٦/١ فى الحديث عن التجار وهو حديث ألصق بالرسالة وأدخل عليها، وانظر ٣١/١ حيث ألصق حديثا فى ذم اللواط، و ٣٣/١ حيث تحدث عن شاعرين جاهليين دون ذكر لاسميهما.

وقد ضمنها رأيه فى أفضل المعلمين وهو ذلك الذى يعلم الناس « المنطق المنثور ككلام الاحتجاج ، والصفات ، والمناقلات من المسائل والجوابات فى جميع العلامات بين الموزون من القصائد والأرجاز من المزدوج ، والأسجاع مع الكتاب ، والحساب وما شاكل ذلك ، ورافقه ، واتصل به ، وذهب مذهبه » (١) ، وقد امتدح فيها بعض المعلمين من مثل عبد الله بن المقفع .

وكانت هناك مراكز للعلم فى عصر الجاحظ ، يرتادها الصبيان والشباب بعد تجاوزهم مرحلة الدرس فى الكتاتيب ، وتتمثل هذه المراكز فى البيئات العلمية التى شاعت فى المجتمع من مثل : المربد فى البصرة ، والمساجد التى أصبحت فى هذا العصر ساحات للعلم لم يكن يشترط لشهود حلقات الدرس والعلم فيها أى شرط سوى الرغبة فى السماع وطلب العلم والاستزادة من المعرفة ، وحلقات العلم والمناظرة التى كانت تعقد فى بيوت السراة ، وساعدت هذه البيئات العلمية المتنوعة على بروز طائفة من العلماء والأدباء امتازوا بتنوع معارفهم تنوعا واسعا ، من مثل ما رأينا فى نشأة الجاحظ نفسه وتكوين شخصيته الثقافية . ومن المحقق أن استخدام الورق فى هذا العصر « كان من أهم الأسباب فى بلوغ الحركة العلمية غايتها من النهضة الواسعة » (٢) إذ ساعد ذلك فى سرعة على ظهور المصنفات الكثيرة التى تحمل كنوز الثقافات الأجنبية والعربية ، وإذا الدولة تقيم منذ عصر الرشيد مكتبة ضخمة هى « دار الحكمة » كانت بمثابة « جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة » ، ورأينا كثيرين من الأفراد يعنون باقتناء المكتبات ، من ذلك مكتبة اسحق بن سليمان العباسى التى حدثنا عنها الجاحظ فى حيوانه (٣) ، وكذا

---

(١) « هامش الكامل » : ١/٢٣ — ٢٤ .
(٢) « العصر العباسى الأول » : د . شوقى ضيف ، ص ١٠٣ .
(٣) « الحيوان » : ١/٦١ .

مكتبة يحيى بن خالد البرمكي التي قيل أنه لم يكن بها كتاب الا ومنه ثلاث نسخ(١) . وغدت الكتب والتأليف في العصر ، أداة المعرفة ، تسجل أمهات العلم وأصوله ، بما لها يفضل — في — رأى الجاحظ — مايتلقى ويؤخذ عن العلماء أنفسهم ، وفي ذلك يقول : « وقد يجهد الرجل يطلب الآثار ، وتأويل القرآن ، ويجلس الفقهاء خمسين عاما ، وهو لا يعد فقيها ، ولا يجعل قاضيا ، فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة ، وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتاب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه فتظن انه من بعض العمال ، وبالحرى أن لا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما « قاضيا » على مصر من الامصار ، أو بلد من البلدان »(٢) .

ويقدم لنا الجاحظ صورة واضحة عن أنواع الكتاب والمصنفات الشائعة في عصره ويذكر أنها حوت كل شيء في العالم من المصنفات والأرفاق والآلات(٣) ، وأنها كانت شائعة بين أيدي أفراد المجتمع ، ونستطيع أن نتصور من حديثه عنها ، ما كان شائعا في العصر من أدوات علمية تعين العلماء في إعداد أبحاثهم وتصانيفهم يقول . « وحسبك ما في أيدي الناس من كتب الحساب ، والطب ، والمنطق ، والهندسة ، ومعرفة اللحون ، والفلاحة ، والتجارة ، وأبواب الأصباغ والعطر ، والأطعمة ، والآلات . وهم (يعني الكتب) أتوكم بالحكمة ، وبالمنفعة التي في الحامات ، وفي الاصطرلابات ، والقرسطونات ، وآلات معرفة الساعات ، وصنعة الزجاج ، والفسيفساء ، والأسرنج ، والزنجفور ، واللازورد ، والأشربة ،

---

(١) الحيوان : ١/٨٠ .
(٢) « المصدر السابق » : ١/٦٠ .
(٣) المصدر السابق : ١/٨٠ .

والأنبجات والأيارجات ، ولكم الميناء ، والنشادر ، والشبه ، وتعليق الحيطان ، والأساطين وردما مال منها إلى التقويم . ولهم صب الزردج ، واستخراج النشاستج ، وتعليق الخيش ، واتخاذ الجمازات ، وعمل الحراقات ، واستخراج الداذي ، وعمل الدبابات »(١).

ومن المحقق أن جهدا عظيما بذل في إخراج هذه المصنفات المنوعة ، وأن الترجمة لعبت دورا هاما في هذا الصدد ، ذلك أن المترجمين نقلوا ما لدى الهند واليونان والفرس من كتب وحكم وآداب(٢) ، وإن كان الجاحظ لا يطمئن إلى قدرة بعض المترجمين الأوائل في نقل العلوم والآداب من الثقافات الأجنبية إلى العربية ، لضعف معرفتهم باللغات التي ينقلون عنها ، واستعمال تصاريف ألفاظها وتأويلات مخارجها ، وهو يضرب على ذلك المثـــل بصنيع ابن البطريق ، وابن ناعمة ، وابن قرة ، وابن فهريز ، وثيفيل ، وابن وهيلي ، وابن المقفع ، وخالد بن يزيد ابن معاوية(٣) ، وهو لذلك يشترط في الترجمان « أن يكون بيانه في نفس الترجمة ،

---

(١) « الحيوان » : ١ / ٨١ — ٨٢ . و « القرسطونات » ضرب من الموازين و « الفسيفساء » ضرب من الخرز لتزيين حيطان البيوت و « الزنجفور » صبغ يتخذ من الزئبق والكبريت ، و « اللازورد » حجر فيه عيون براقة يتخذ من من الخرز ، و « الأنبجات » حمل شجرة بالهند يربب بالعسل على شاكلة الخوخ ، « الأيارجات » معجون مسهل و « الشبه » النحاس الأصفر و « النشاستج » « النشا » ، « الحراقات » سفن فيها مرامي نيران يرمى بها العدو ، و « الداذي » شراب للفساق ، و « الدبابات » آلات تتخذ للحرب فتدفع في أصل الحصن فينقبونه وهم في جوفها — أنظر التعليقات في هامش الحيوان .

(٢) المصدر السابق : ١/٧٥ .

(٣) « الحيوان » : ١/٧٦ .

فى وزن علمه فى نفس المعرفة ، وينبغى أن يكون أعلم الناس باللغة المنقول منها ، والمنقول اليها ، حتى يكون فيهما سواء وغاية »(١) .

والذى لاشك فيه أن هناك جملة من المسائل كانت تشغل بال العلماء والمفكرين فى المجتمع العباسى ، ونستطيع أن نتصور جانبا منها معروضا فى تضاعيف كتابات الجاحظ ، من مثل كتابه « الحيوان » ورسالته الساخرة « التربيع والتدوير » وفى هذه الرسالة الاخيرة نستطيع أن نقف على طائفة من المسائل التى ثار حولها الجدل فى هذا العصر سواء فى المنطق ، أو الفلسفة ، أو فى الكيمياء أو الصنعة ، أو فى الإنسان والحيوان ، أو فى تاريخ الاجناس والامم ، أو فى علوم الفلك والطب والطبيعة ، أو فى الاساطير والعادات ، أو فى الديانات وتاريخ الانبياء ، وغير ذلك من المسائل التى يعرضها الجاحظ على شكل أسئلة طرحها أمام أحمد بن عبد الوهاب الكاتب ليجيب عليها ، وذلك من مثل قوله :

« لو عرفت عقبان خطفة ، ونسور السراة وأحناش الرمل ، وعير العانة ، وورشان الغابة ، وشيوخ اليمامة ، وهرمى فرغانة ، إنك لا تعد عمر نوح عمرا ، ولا النجوم يوما ، وأنك قد فت التاريخات ، وجزت حساب الباورات(١) : واستقلت الاحقاب ، وخرجت من خطوط الهند لما أستطالت بأعمارها ، ولا فرحت بطول أيامها . فياقعيد الفلك كيف أمسيت ؟ وياقوة الهيولا كيف أصبحت

---

(١) الحيوان : ١ / ٧٦

(١) نوع من الحساب الهندى ، تأسست عليه العلوم الرياضية العربية القديمة ، ونظن أن الكلمة هندية الأصل مأخوذة من « بهورى » ، أنظر شارل بيلا ، تحقيق كتاب « التربيع والتدوير » ص ١١ . Glossirer p 113

حدثنى كيف رأيت الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ، وما حبس غراب نوح وكم لبثتم فى السفينة ؟ ومذكم ظهرت الجبال ، ونضب الماء عن النجف ؟ وأى هذه الأودية أقدم : أنهر بلخ ، أم النيل ، أم الفرات ، أن جيحان ، أم سيحان ؟ ، وخبرنى عن هرمس أهو ادريس ؟ وعن أرميا أهو الخضر ؟ ، وعن يحى بن زكريا أهو ايليا ؟ ، وعن ذى القرنين أهو الاسكندر ؟، وخبرنى عن قحطان ألعابر أم لاسماعيل ؟ ، وعن قضاعة ألمعد بن عدنان ، أم لملك من حمير ؟ ، وما القول فى هارون وماروت[1] ، وما عداوة ما بين الديك والغراب ؟، وخبرنى عن بحار نيطس[2] ، وعن قينس ، [3] وعن الأصم[4] ، وعن الساكن ، وعن المظلم[5] ، وعن جبل الماس ، وعن قاف ، وأين كنت عام الجحاف؟ ، ومذكان زمن الفطحل وأين كان ملك الأزد من ملك الاشكان ؟[7] ، وأين كانا ملك بنى ساسان ؟

---

(١) « التربيع والتدوير » ، نشر شارل بيلا ، ص٢٦ وما بعدها ـــ والمعروف أن هاروت وماروت كانا ملكين يعلمان الناس السحر قديما .

(٢) يظن أن بحر نيطس ، أو بيطسن ، وهو الاسم القديم للبحر الاسود ، أنظر شارل بيلا فى كتاب « التربيع والتدوير »

Inde des noms propres p 9

(٣) يقول شارل بيلا : قبيس ، ويظن أنها كلمة من أصل يونانى معناها المحيط أنظر

Index des noms propres p 9

(٤) هو الأسم القديم للبحر المتوسط . المصدر السابق .

(٥) المظلم وقيل المزابب هو المحيط الهندى . المصدر السابق .

(٦) من ملوك الفرس القدماء تولوا الحكم من عام ٦٨٨ إلى عام ٣٣٠ قبل الميلاد . أنظر شارل بيلا « التربيع والتدوير » .

وأين كان خره أردشير من أسناشف ؟ ، وأين كان أبرويز من أنوشروان ؟ ، وخبرنى عن الفراعنة أهم نسل العمالقـــة ؟ ، وعن العمالقة أهم من قوم عاد ؟ »(١) .

وكانت تعقد للعلماء فى عصر الجاحظ ، مجالس علمية لمناقشة مثل هذه المسائل ورأينا دور الخلفاء والسراة تشهد هذه المجالس(٢) ، وأنها كانت لها تقاليدها الموجبة لحسن الاستماع إلى ما يطرح فيها من آراء ، والحرص على سماع أصوبها وفى ذلك يقول : « قال الحسن : إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول ، وتعلم حسن الاستماع ، كما تتعلم حسن القول ، ولا تقطع على أحد حديثه »(٣) ، ويظهر أن كثيرا من العلماء كانوا يدونون ما يستحسنون من أقوال وآراء تذكر فى مجالسهم للانتفاع بها فى أعمالهم وتصانيفهم(٤) ، وكانوا ينصحون من يرتاد مجالسهم أن يكتب كل ما يسمع أممانا فى الفائدة وتماما للمعرفة(٥) ، خاصة أن العلماء هم أهل الثقة فى المجتمع تؤخذ عنهم الأخبار الصادقة التى لا تحتاج إلى استظهار صدقها من أحد(٦) . وكان العلماء يتخصصون فى العلوم والآداب والفنون التى توافق طباعهم وقدراتهم ، ذلك أن التخصص فى العلم كان من الأمور المقررة لدى علماء العصر ، وأن غير ذلك

(١) أنظر « التربيع والتدوير » ، تحقيق شارل بيلا ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) « الحيوان » ٤١٢٤ — و « البيان والتبين » ١/٩١

(٣) البيان والتبين : ٢/٢٩٠—٢٩١ .

(٤) المصدر السابق : ٢/٢٤٠

(٥) الحيوان : ١/٥٨

(٦) المصدر السابق : ٤/١٨٣ — ١٨٤ .

مرفوض بل هو عندهم المرض بعينه، أنظر ما يرويه عن النظام فى حيوانه يقول: «ومن أراد أن يعلم كل شىء، فينبغى لأهله أن يداووه فان ذلك إنما تصور له بشىء أعتراه !! ، فمن كان ذكيا حافظا فليقصد إلى شيئين، أو إلى ثلاثة، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولا يدع أن يمر على سمعه وعلى بصره وعلى ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف فيكون عالما بخواص، ويكون غير غفل عن سائر ما يجرى فيه الناس ويخوضون فيه. ومن كان مع الدرس لا يحفظ شيئا، إلا نسى ما هو أكثر منه، فهو من الحفظ من أفواه الرجال أبعد»(1).

ويظهر أن الغموض والاستغلاق كانا من طابع التاليف عند بعض العلماء، مما جعل الجاحظ يعيب عليهم ذلك، من مثل صنيعه مع الأخفش(2).

(ب) النشاط العلمى المساجد:

لم تكن المساجد فى المجتمع العباسى دورا للعبادة فقط، لكنها كانت بجانب ذلك دورا للعلم والتعليم، تعقد فيها حلقات العلم والمعرفة حتى غدت أشبه بجامعات للعلم والعلماء(3) وكان يعقد فيها أيام الجمع مناقشات حول جيد الشعر وما ينتخب من نظم الشعراء(4)ـ ويظهر أنه صدرت عن بعض هؤلاء العلماء كتب وتصانيف منوعة، قرأ الجاحظ بعضها، وكانت تحوى أخبار ومعارف غير موثقة حتى إنه حين ذكرها فى بيانه عقب عليها بأنه لم يسمعها من عالم، وأنه قرأها فى بعض كتب المسجديين(5)، مما يحمل على الظن بأن حلقات العلم فى المساجد كانت متباينة

---

(1) الحيوان: 591 ــ 60.

(2) البيان والتبين: 24/4

(3) العصر العباسى الأول: د. شوقى ضيف، ص117 ــ 118.

(4) الحيوان: 131/3.

(5) «البيان والتبيين»: 57/3 ــ 58.

من حيث أوجه النشاط العقلى بما يعكس ألوان الحياة الاجتماعية فى هذا العصر، وأثر الامتزاج الحضارى فى المجتمع العباسى .

ولم يكن تنوع ألوان حلقات المسجد إلا صدى للامتزاج الحضارى فى المجتمع العباسى ، ومن ثم رأينا فى هذه الحلقات وجنباتها : العربى، والفارسى، والمرجىء، والعثمانى ، والخارجى ، والشيعى ، إلى غير ذلك من ضروب الاختلاف فى الثقافة والاتجاه العقلى ، وما من شك فى أن هؤلاء كانوا يختلفون فى تقديرهم الاعمال والحكم عليها ، وان شئت انظر إلى حلقات المفسرين فى المسجد الجامع بالبصرة ستجد أنه قد داخلها « تطور أسبغ عليها مظهرا جديدا يختلف كل الاختلاف عن مظهرها الاول ، فلم تعد حلقات القرآن حلقات إقراء وحسب ، بل تفرع منها حلقات أخرى لتفسير الكتاب الكريم ، وفى حلقات مختلفة الالوان ، متعددة المناحى والمذاهب ، تمثل الالوان المختلفة العقلية البصرية محمولة على تفسير القرآن وتأويل آياته »(١) ، ويصور لنا الجاحظ حلقة من هذه الحلقات فى معرض حديثه عن موسى الاسوارى ، وفيه يقول : « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته الفارسية فى وزن فصاحته العربية ، وكان يجلس فى مجلسه المشهور به العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله، ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية »(٢) ، وبالمثل يحدثنا الجاحظ عن أبى على عمرو بن قائد الاسوارى ، وقد جلس للقصص — ستا وثلاثين سنة — « فابتدأ لهم فى تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لانه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما يفسر آية واحدة فى عدة أسابيع ، كأن

---

(١) « الجاحظ » : د. الحاجرى ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٢) « البيان والتبيين » : ٣٦٨/١ .

تكون الآتية فيها ذكر يوم بدر ، وكان هو يحفظ مما يجوز أن يلحق فى ذلك من الأحاديث الكثيرة ، وكان يقص فى فنون كثيرة من القصص ، ويجعل للقرآن نصيبا من ذلك . وكان يونس بن حبيب يسمع منـــه كلام العرب ويحتج به »(١) .

وتلونت بعض حلقات العلم والدرس فى بعض المساجد بما يخدم المذاهب السياسية والدينية ، من مثل ما يذكره الجاحظ عن مجالس أبى عبيدة بما يشير إلى أن الرافضة كانت تجد فى مثل هذه المجالس قضاء لأوطارها فى تقديس هذا والغض من ذاك(٢) ، ورأينا بعض الشيوخ يأبى أن يشهد حلقة من حلقات العلم فى المساجد إلا إذا كان أصحابها يتحدثون عن أخبار الحسن البصرى ، وينشدون أشعار الفرزدق(٣) ، وبجانب ذلك كانت بعض حلقات المساجد تحفل بأصحاب النوادر من مثل بابويه صاحب الحمام ، وكان الجاحظ يشك فيما يرويه عند مشايخ البصرة ممن شهدوا مجلسه فى المسجد(٤) ، وبالمثل قد يظهر فى هـذه الحلقات من يستهترون بالقيم الأخلاقيه فى المجتمع من مثل ما يرويه الجاحظ عن أبى كعب القاص وحيله(٥) .

ويحدثنا الجاحظ عن طائفة من العلماء والأدباء نوعوا معارفهم تنويعا

---

(١) « البيان والتبيين » : ١/٣٦٨ .

(٢) « الحيوان » : ٣/٤٠٢ — ١٠٣ ، فى مجلس أبى عبيدة ، وما يرد فيه من أشعار .

(٣) « البيان والتبيين » : ٢/٦٢٠ .

(٤) « الحيوان » : ٢/١٥٦ .

(٥) « الحيوان » : ٢/٢٤ — ٢٥ .

واسعا ، أطلق عليهم اسم «المسجديين » ، كان لهم حلقات خاصة فى المساجد يسوقون فيها فنونا من الجدال والحوار فى أى شيء يعن لهم ، وقد أبدع فى تصوير جدلهم حول فضائل الاقتصاد والتثمير المالى ، وأفرد لذلك صفحات من بخلائه ، يظهر فيها كيف أن أصحاب هذه الطائفة لم يكونوا من صنف واحد ، بل كانوا خليطا من الناس ، فمنهم الشعراء والرواة ومصطنعى الحكمة وكانوا ـ فيما يظهر ـ يستطرفون الثقافات المنوعة فى مجتمعهم التى كان المسجد يفيض بأصدائها ، فخرجت أحاديثهم منوعة ، تجاذبوا فيها أطراف الرأى فى مختلف المسائل ، مما يمس الأدب حينا ، ويمس الاجتماع حينا آخر ، وقد ينزع جدالهم إلى المزاح والمفاكهة فى أكثر الأحيان . ونستطيع أن نتمثل صورة صادقة لبعض سمات الجدل العقلى فى بعض هذه الحلقات من خلال ما يحدثنا به الجاحظ فى بخلائه عن حلقة خاصة من بين حلقاتهم كانت تسمى حلقة المصلحين ، تحدث عن مذهبهم من مثل قوله فى سبب اجتماعهم ، وأن ذلك يعود إلى اتفاقهم على مذهب الاقتصاد فى النفقات مع تثمير الأموال ، حتى صار ذلك المذهب فى الجمع بينهم ، كالنسب بين الناس يجمع على التحاب ، أو كالحلف بين القبائل والعشائر يجمعهم على التناصر ، انظر إلى مثل هذه المعانى ـ نقلا عن المسجديين أنفسهم يقول الجاحظ « قال أصحابنا من المسجديين . اجتمع ناس فى المسجد ، ممن ينتحل الاقتصاد فى النفقة ، والتثمير للمال ، من أصحاب الجمع والمنع وقد كان هذا المذهب عندهم كالنسب الذى يجمع على التحاب ، وكالحلف الذى يجمع على التناصر ، وكانوا إذا التقوا فى حلقهم تذكروا هذا الباب وتطارحوه وتدارسوه ، التماسا للفائدة ، واستمتاعا بذكره »(١) ، ويظهر أن بعض هؤلاء المسجديين كانوا يسلكون فى

---

(١) البخلاء : ص٢٩ .

حياتهم الشخصية مسالك خاصة يدافعون عنها، من مثل ما يذكره الثورى فى سبب خصفه النعال، وقلب خرقة القلنسوة عند اتساخها، انظر إلى مثل قوله: «أول الاصلاح — وهو من الواجب — خصف النعل واستجادة الطراق وتشحيمها فى كل الأيام. وعقد ذؤابة الشراك من زى النساك لكيلا يطأ عليه انسان فيقطعه. ومن الاصلاح الواجب قلب خرقة القلنسوة إذا اتسخت، وغسلها من اتساخها بعد القلب. واجعلها حبرة فانها عماله مرجوع. ومن ذلك اتخاذ قميص الصيف جبه فى الشتاء واتخاذ الشاة اللبون إذا كان عندك حمار»(١).

وبالمثل ضمت حلقات المسجديين اليها بعض الشخصيات من بين أثرياء — البخلاء، من مثل أبى سعيد المدائنى، كان حسب قول الجاحظ: «اماما فى البخل عندنا بالبصرة، وكان من كبار المعينين ومياسرهم، وكان شديد العقل، شديد العارضة حاضر الحجة، بصير الروية»(٢) كما ذكر من الكلام المأثور عنه، قوله: «من لم يتعرف الاقتصاد تعرف فلا يتعرض له»(٣).

وبالمثل ضمت هذه الحلقات طائفة من المرابين كان يقال لهم: «أصحاب العينة وفى ذلك يقول الجاحظ عدثا عن المدائنى: «وكانت له حلقة يعقد فيها أصحاب العينة (الربا) والبخلاء الذين يتذاكرون الاصلاح»(٤)، ومن الحق أن حلقات العلم والمعرفة والمناظرة تنوعت فى المساجد آنذاك بما جعلها مراكز هامة للاشعاع العلمى والعقلى فى العصر.

---

(١) «البخلاء»: ص ١٠٥.

(٢) «البخلاء»: ص ١٣٧.

(٣) المصدر السابق: ص ١٤٣.

(٤) المصدر السابق: ص ١٣٨.

(جـ) المناظرات :

اتسم عصر الجاحظ باحتدام المناظرات ، واندلاعها خاصة بين المعتزلة ، وطوائف المتكلمين ، وبينهم وبين أصحاب الملل والنحل ، إندلاعا هيأ لظهور كثير من كبار المناظرين في شئون الدين والعقل ، كما هيأ لبسط المعاني ومدها بذخائر جديدة من تولد الأفكار وتشعبها والتعمق في مساربها الخفية . وما من شك في أن المتكلمين ، وقوامهم المعتزلة ، « قد وضعوا في العربية الأسس التي بني عليها بعد ، علم البحث والمناظرة »(1) .

وقد تناولت المناظرات كل جوانب المعرفة ، « وكأنما كانت المناظرات والمحاورات لغة العصر الفكرية ، فدائما مناظرات ومحاورات في كل مكان وفي كل موضوع علمي ، أو فلسفي ، أو أدبي ، والمناظر ينتصر تارة ، وتارة ينهزم في تلك الساحة الفكرية »(2) . ولا نبالغ إذا قلنا أن روح المناظرة أصبحت شهوة من الشهوات العقلية في العصر ، حتى أنها تناولت كل شيء ، ويحدثنا الجاحظ حاكيا عن نفسه أنه كان يخرج هو وفلان من أئمة المتكلمين كأبي إسحق النظام يلتمسون الرياضة ، ويتذاكرون الحديث ، ويتناظرون في مسائل الكلام(3) ، وكان أهل المدن يتناظرون فيما بينهم حول أيها — فوق

---

(1) « ضحى الاسلام » : أحمد أمين ، ٣/٩٥ .

(2) « العصر العباسي الأول » : د . شوقي ضيف ، ص ٥٣٩ .

(3) « البخلاء » ، ص ٣٨ .

الأخرى ناسا وأرضا وطيرا وحيوانا ، وغير ذلك مما يتفاضل به[1] ، وكانت عامة الشعب في المدن يتناظرون فيما بينهم في موضوعات شتى من مثل تناظرهم على أي من « مدينتي الكوفة والمدينة أشد حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم »[2]، وقد يتناظر أصحاب المهن فيما بينهم من مثل تناظر صاحب الضأن مع صاحب الماعز[3] .

ومن الحق أنه شاعت في العصر موضوعات خلاف كان الناس يختلفون ويتناظرون فيها ، وإن شئت أنظر إلى الجاحظ في فاتحة حيوانه ترى جمله من تلك المسائل التي يغلب أن تكون من المسائل التي دارت حولها المناظرات ، واحتلت مكانا كبيرا في أحاديث العلماء والأدباء ، وهي كلها من المسائل الكلامية ، والأدبية والسياسية ، يقول الجاحظ في نعت كتابه « الحيوان » : « وليس هذا الكتاب — يرحمك الله — في إيجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليه المرجيء ، ولا في تفضيل علي فينصب له العثماني ، ولا هو في تصويب الحكمية فيسخطه الخارجي ، ولا هو في تقديم الاستطاعة ، فيعارضه من يخالف التقدم ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام ، ولا هو في تفضيل البصرة على الكوفة ومكة على المدينة ، والشام على الجزيرة ولا في تفضيل العجم على العرب ، وعدنان على قحطان ، وعمرو على واصل ، فيرد بذلك الهذلي على النظامي ، ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة ، ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة ، ولا هو في تفضيل امرىء القيس على النابغة ، وعامر بن

---

(١) « البيان والتبيين » : ٢ / ٩٣ — ٩٤ في مناظرة بين الكوفة والبصرة .
(٢) « الحيوان » : ٣ / ١٦١ .
(٣) « المصدر السابق » ٥ / ٥٢٣ — ٥٢٤ .

الطفيل على عمرو بن معد يكرب ، وعباد بن الحصين على عبيد الله الحر ، ولا فى تفضيل سيبويه على الكسائى ، ولا فى تفضيل ابن سريج على الغريض ولا فى تفضيل الجعفرى على العقيلى ، ولا فى تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية ، وتفضيل قتادة على الزهرى ، فان لكل صنف من هذه الأصناف شيعة ، ولكل رجل من هؤلاء جند وعدد يخاصمون عنهم . وسفاؤهم المشرعين منهم كثير ، وعلماؤهم قليل ، وأصناف علمائهم أقل »[1] .

والذى لاشك فيه أن هذا الاندلاع فى التناظر بلغ شأوا عظيما فى عصر المأمون ، حتى إننا أصبحنا نرى مجالسه تتحول إلى مجالس مناظرة ، من ذلك ماينقله الجاحظ فى بيانه ، من مناظرة دارت بينه وبين خراسانى أتهم بالردة عن الاسلام ، وفى المناظرة قارع الخليفة خصمه الحجة بالحجة حتى أفحمه ولم يجد المرتد حيال ماسقه الخليفة من براهين عقلية إلا أن يعلن إسلامه عن إيمان واقتناع[2] ، ويظهر أن المأمون كان يعقد فى مجلسه مناظرات لمناقشة مايصل إليه من كتب وتآليف ، من ذلك مايرويه الجاحظ عن كتاب فى « تحليل النبيذ » ، وصنفه بشر المريسى كان موضوع مناظرة حول قيمته فى أحد مجالس المأمون[3] ، وهذا الاندلاع فى التناظر لم يلبث أن تعثر تدفقه لعهد المتوكل حين رفض قول المعتزلة بخلق القرآن مما مكن لأهل السنة أن ينشروا آراءهم .

وتمثل لنا كتابات الجاحظ احتدام المناظرات فى عصره ، حتى إن من

---

(١) الحيوان . — ٧/٧ — ٨ .

(٢) « البيان والتبيين » : ٣/٣٧٥ — ٣٧٧ .

(٣) كتاب « فصل مابين العداوة والحسد » رسائل الجاحظ ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . ١ — ٣٤٢ — ٣٤٣

يستعرض هذه الكتابات يحس بمسحة المناظرة والجدل واضحة على كثير منها ، حتى على عنواناتها ، فكثير منها عنون بكلمة الرد أو كلمة النقض ، بما يكشف أن الجاحظ صنف الكتاب ردا أو نقضا لكتاب آخر ، « وكأن المناظرات لم تقف عند المجالس والمحاضرات فى المساجد ، بل امتدت إلى الكتب والمصنفات »(١)، وقد وقف أستاذنا الدكتور شوقى ضيف عند هذه الظاهرة فى تأليف الجاحظ ، وأوضح كيف أن كتاباته اتسمت بهذا اللون من الجدل العقلى ، حتى إنه كسر مجلدا ونصف مجلد من مجلدات « الحيوان » على مناظرة بين معبد والنظام فى فى الكلب والديك أيهما أفضل ؟ ، وله مصنف خصه لافتخار الشتاء والصيف وهو مناظرة واضحة بين الفصلين ، وبالمثل خص جانبا من تآليفه فى المناظرة بين العناصر والاجناس ، من ذلك كتابه « الفخر بين عبد شمس ومخزوم » ، وهو مناظرة بين العشيرتين القرشيتين ، وكتابه « فخر القحطانية والعدنية » ، وهو مناظرة بين اليمنية والمصرية ، ورسالته « فخر السودان على البيضان » ، وهى مناظرة ينتصر فيها الجاحظ للجنس الاسود ، وبالمثل نراه يمدح الشيء فى رسالة ثم يذمه فى أخرى ، وذلك مشهور فى رسائله وتصانيفه ، وكأنه أراد أن يجعل المناظرة على قسمين يفرد لكل منها رسالة بعينها من مثل صنيعه فى رسالته « فى مدح النبيذ » ، ومثل رسالته فى « مدح الكتاب » ، ورسالته « فى ذم أخلاق الكتاب ». وهو قد يجعل المناظرة فى مؤلف واحد من مثل صنيعه فى رسالته .. مدح التجار وذم عمل السلطان »، وكتاب «فصل ما بين النساء والرجال» ورسالته « مفاخرة الجوارى والغلمان » ورسالته « فرق ما بين الجن والانس » وكتاب « فرق ما بين الملائكة والجن » .

---

(٢) العصر العباسى الثانى » : د. شوقى ضيف ، ص ٥٣٩ .

وكان من بين تصانيفه ما جاء على شكل مناظرة كبيرة لا تعتمد على فكرة الرد والنقض أو المدح والذم لكتاب أو رسالة بعينها ، إنما هى موضوع قائم بذاته ، من مثل صنيعه فى كتابه « التربيع والتدوير » ، نراه فيه ينتصر للقصر تارة وللطول تارة ثانية ، وتارة ثالثة للتوسط بين الطرفين المتناقضين ، وينشر بين ذلك كله طرفا من المسائل فى شتى فنون المعرفة تصلح كلها رؤسا لموضوعات مناظرات قائمة بذاتها ، كانت دون شك محل جدال فى عصره .

ونستطيع أن نتمثل صورة صادقة للمناظرات فى العصر ، من خلال المناظرة بين صاحب الكلب ، وبين صاحب الديك فى كتاب « الحيوان » ، وفيها يحدثنا عن غايته من المناظرة ، وكيف أنها تقوم على إبراز حكمة الله ، وصنعه ، وتدبيره فى كل من الكلب والديك ، يقول : « فليس لقدر الكلب والديك فى أنفسهما وأثمانهما ومحلهما من صدور العامة أسلفنا هذا الكلام . . وإنما ننتظر فيما وضع الله عز وجـــل ، فيهما من الدلالة عليه ، وعلى اتقان صنعه ، وعلى عجيب تدبيره ، وعلى لطيف حكمته ، وفيما إستخزنهما من عجائب المعارف ، وأودعهما من غوامض الاحساس ، وسخر لها من عظام المنافع والمرافق ، ودل بهما على أن الذى ألبسهما ذلك التدبير ، وأودعهما تلك الحكم ، يجب أن يفكر فيهما ، ويعتبر بهما « ويسبح الله عز وجل عندهما[1] .

ومن ثم لم يعمد الجاحظ فى المناظرة بين الكلب والديك ، والتمثيل ، والتشبيه بينهما إلى المقارنة بين صفاتهما الخارجية المرئية ، أو إلى ما بينهما من تفاضل بين ضخامة البدن ، أو غلو الثمن ، وإنما غايته أن يستخرج ما خفى من أمرهما يقول :

(١) « الحيوان » : ٢/١٠٩ .

« لكننا إذا أردنا مواضع التدبير العجيب من الخالق الخسيس ، والحس اللطيف ، من الشيء الخفيف ، والنظر في العواقب من الخالق الخارج من حدود الإنس ، والجن والملائكة ، لم نذهب إلى ضخم البدن ، وعظم الحجم ، ولا إلى المنظر الحسن ، ولا إلى كثرة الثمن . . إنما قصدنا إلى شيئين يشيع القول فيهما ، ويكثر الاعتبار مما يستخرج العلماء من خفي أمرهما »(١) .

والملاحظ أننا في هذه المناظرة لانصل إلى خاتمة تظهر لنا غلبة أحد المتناظرين على الآخر ، بل إننا نجد صاحب الكلب ، وهو الذى يحتج على الديك يروى قصة من خصال الديك ومنافعه(٢) ، والمناظرة بهذا الشكل تتحول عند الجاحظ إلى أسلوب أدبى ، يبرز من خلاله ما يعن له من أفكار ، وما يرغب فى سرده من معارفه الموسوعية التى أحاط بها من مصادره المنوعة ، ومنها ما نص عليه فى معرض حديث صاحب الديك عن معايب الكلب ومحاسنه ، يقول : « فإننا حكينا قول من عدد محاسنها . . . بالأشعار المشهورة ، والأحاديث المأثورة ، وبالكتب المنزلة ، والأمثال السائرة ، وعن تجربة الناس لها ، وفراستها فيها ، وبأخبار المتطرفين عنها »(٣) ، وانظر إليه يؤكد هذه المصادر حين يذكر أن صاحب الكلب يبنى احتجاجاته ويؤكدها : « بالأشعار المعروفة ، والأمثال السائرة ، والأخبار الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ، وما أوجد العيان فيها ، وما استخرجت التجارب منها من أصناف المنافع والمرافق ، وحسن مواضع أخلاقها المحمودة ، وأفعالها المرادة »(٤) .

---

(١) المصدر السابق : ٢١١/١ .

(٢) « الحيوان » : ٣٧٤/٢ — ٣٧٥ ، ص ١٠٩ — ١١١ .

(٣) « الحيوان » : ٢٢٣/٢ .

(٤) المصدر السابق : ٥/٢ .

وقد بدأ الجاحظ المناظرة بالحديث عن الكلب، وما قاله معبد في ذمه وما قاله النظام في مدحه، وهو في ذلك يستقصي جميع الوجوه التي تذم بها الكلاب، فيذكر على لسان معبد، وينقضها على لسان النظام، ثم نراه يأتي بمحاسنها، ومحاولات معبد من نقضها، مستعينا في ذلك كله بالاشعار، وبآي القرآن، والحديث، ومعارف العرب، وبمعارف غيرهم، وبنوادهم، ونوادر اليونان، وغير غافل التجربة لتأكيد صحة ما يقول، أو نقض مالا يرى، وهو في تضاعيف ذلك يستطرد الى كثير من المباحث الكلامية والى الحديث عن عادات العرب، من ذلك ما يذكره من ذم صاحب الديك الكلب، وبعض صفاته، ورد صاحب الكلاب عليه، ويصور كيف أن صاحب الديك ثلب الكلب مثالب مختلفة في وفائه لأصحابه، وفي غلظ صوته، وفي نومه بالنهار على الطرق وفي الأسواق، وفي كثرة نباحه وعوائه حين تطؤه دابة، ثم يعرض الجاحظ في المناظرة ما جاء على لسان صاحب الكلب من نقض تلك المثالب فالكلب ينام بالنهار مثل الملوك والسلاطين، وفي الأماكن الجامعة لما يلقى من السفهاء والصبيان حتى يزجرهم الناس، ويذكر أن الكلاب ليست كلها ترقد في الأسواق وأن الرقاد في الأسواق لكلاب الحراسة، فالأسواق على ذلك دورها ومنازلها. وبالمثل يرد صاحب الكلب على القول بأنه لا يفي لأصحابه حين يلقى به لص بكسرة خبز، ويذكر من نقضه لهذا القول بأن الكلب لا يعرف نية اللص، وما أضمر من سرقة أهله ولا يدري أجاء ليأخذ أو جاء ليعطي، وأن احسان اللص للكلب أحدث من احسان أهله اليه، وربما كان أهله يعاملون معاملة سيئة، ويمضي صاحب الكلب في نقض ما جاء على لسان صاحب الديك من مثالب الكلب، ويذكر أن سماجة صوته ليست مثلبة، فالبغل أسمج صوتا منه، وكذلك الطاووس مع حسن منظره؛ وأما جزعه من وطء الدواب، وضرب الصبيان له، فربما كان جزع الفرس من ضرب السياط أسوأ من جزعه. ويمضي

صاحب الكلب فى اسقاط جميع المثالب فى صورة تنجلى فيها براعة فائقة فى الحوار وفى الاستدلال والتلطف للبرهان والاحتيال له بالعقل الثاقب مع التأنى والتمكين للحجج ، كل ذلك فى صـــورة أدبية بديعة تتوازن فيها العبارات ، وتتعادل ايقاعاتها تعادلا محكما(١) .

ومن الحق أن هذه المناظرة تدلنا على مدى الرقى الفكرى الذى رقيه العقل العربى فى عصر الجاحظ ، وكيف انها لم تكن تراد لنفسها ، وإنما كانت تراد للبرهنة على عجائب تدبير الله جل جلاله فى خلقه ، وما أودعه فيه من ذخائر الحكمة ، كما كانت تراد للفرق بين مذاهب الدهرية ، ومذاهب الموحدين لافى بحث عجائب الكون فى الحيوان فقط ، بل فى بحث كل صور الوجود أيضا ، وما يتصل بذلك من الآراء الفلسفية العميقة ، ومن أجل ذلك آثر المعتزلة هذا الجدال العقلى على النسك ، والعبادة ، وجعلوه فوق الحج والجهاد(٢) ، واصل ذلك يصور كيف أن الجدل ، وما اتصل به من مناظرة ، فى العصر بسط العقل العربى إلى أبعد غاية بعد أن مدت إليه سيول من المعانى الدقيقة ، والبرهانات الخفية ، فغدى عقلا جديدا ينضب من الأفكار الخبيثة ، ويبعث إلى ساحة المناظرة والجدل دورها الباهرة ، وفى سبيل ذلك صحح أصحاب الفكر والجدل العقلى ما كان مشهورا من أفكار شائعة ، ساعدهم على ذلك اتقانهم الحوار فى كل شىء حتى إن الجاحظ يحدثنا عن شخص يسمى جعفر بن سعيد ، كان يفضل الديك على الطاووس وكأنه يريد أن يعكس ما شاع عند الناس من جمال الطواويس ، ويسوق الجاحظ ما كان يقوله فى ذلك على هذه الشاكلة .

---

(١) أنظر فى مثل هذه المعانى : « الحيوان » : ٢٨٢/١ ، وما بعدها .
(٢) المصدر السابق : ٢١٧/١ .

كان جعفر إبن سعيد يزعم أن الديك أحمد من الطاووس، وأنه مع جماله وانتصابه، واعتداله، وتقامه، وقبح صورته! ومن تشاؤم أهل الدار به، ومن قبح رجليه ونذالة مرآه. وزعم أنه لو ملك طاووسا لألبس رجليه خفا. وكان يقول: «إنما يفخر له بالتلاوين، وبتلك التعاريج. والتهاويل التي لألوان ريشه، وربما رأيت الديك النبطي وفيه شبيه بذلك، إلا أن الديك أجمل لمكان الاعتدال والانتصاب، والاشراف، وأسلم من العيوب من الطاووس» وكان يقول:ـ

«ولو كان الطاووس أحسن من الديك النبطي في تلاوين ريشه فقط لكان فضل الديك عليه بفضل القدو والخرط، وبفضل حسن الانتصاب، وجودة الاشراف أكثر من مقدار فضل حسن ألوانه على ألوان الديك، ولكان السليم من العيوب في العين أجمل لاعتراض من تلك الخصال القبيحة على الطاووس في عين الناظر إليه. وأول منازل الحمد السلامة من الذم.. والعامة لا تبصر الجمال، والفرس رائع كريم أحسن من كل طاووس في الأرض، كذلك الرجل والمرأة. وانما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه فقط، ولم يذهبوا إلى حسن تركيبه، وتنصبه، كحسن البازي وانتصابه. ولم يذهبوا إلى الأعضاء، والجوارح، والشيات والهيئة والرأس، والوجه الذي فيه. وكان يقول: «لما لم يكن في الطاووس إلا حسنه في ألوانه، ولم يكن فيه من المحاسد ما يتزاحم ذلك ويجانبه، وينازعه، ويشغل عنه ذكر وتبين نظر. وخصال الديك كثيرة وهي متكافئة في الجمال»[1] وعلى هذه الشاكلة يدلنا الجاحظ في هذه المناظرة على قدرة بارعة في الجدل، وفي سوق الحجج والأدلة، مما يصور لنا ما أصاب العقل العربي في العصر من رقي، وقد نحس في تضاعيف هذا الجدل والتناظر بكثير من السفسطة مما يدل على ترف

---

(١) «الحيوان»: ٢/٢٤٣.

العقل، وارتفاعه، عن الآراء الشائعة، ويظن أن هذا النمط الجلي من استحسان الأشياء المستقبحة، وتقبيح الأشياء المستحسنة من آثار الأدب الفهلوي القديم، تأثر العباسيون بها في أدبهم، يقول أستاذنا الدكتور شوقي ضيف: «نحن لا ننفي ذلك، وانما نلاحظ أنه حتى إن صح فإن العباسيين توسعوا في هذا الاتجاه بتأثير مناظرات المتكلمين وماداخلها من سفسطة أحيانا بحيث أصبح هذا التحسين والتقبيح نمطاً من أنماط التفكير العباسي»(١).

ومن الحق أن الجاحظ قدم لنا صورة دقيقة لاندلاع المناظرات في عصره، ولعل ايمانه القوي بالجدل العقلي كان من ابرز العوامل التي ساعدت على ظهور صورة المناظرات واضحة في كتاباته غالبة عليها. وكان كل شيء مطروحا للمناظرة والاحتكاك العقلي وكان العصر يعيش مباراة فكرية تناولت كل جوانب المعرفة بقصد توليد الأفكار والتعمق في مساربها الخفية بحثا وراء الحقيقة التي يرضاها العقل الواضح المستنير، ولم تكن هناك لغة يمكن أن تحقق مثل هذا الهدف سوى لغة المناظرات العقلية التي أصبحت بحق لغة العصر في المجتمع العباسي.

(ب) المتكلمون، والمعتزلة:

حين يريد الباحث أن يقف على قدرة العقل والفكر في أي مجتمع. ومبلغ ما وصله من رقي، نظن أن من خير ما يدله على ذلك استقراء مناهج المفكرين في هذا المجتمع، وتقويم قدراتها على الاستنباط العقلي السليم، وذلك ما نحاوله

---

(١) «العصر العباسي الأول»: ص٤٦٣.

فى هذا الفصل ، وإن كنا نظن أن استنباطنا من كتابات الجاحظ سيكون قاصرا ، على الرغم من سعتها وشمولها .

وتقوم محاولتنا على بيان منهج المتكلمين فى التفكير والنظر العقلى ، وأهم ما كان يشغل بالهم من مسائل فكرية ، ثم نقف عند أهم فرقة من فرقهم وهى المعتزلة لبيان ما كان بين رؤسائها ، وبين أصحاب الفرق والمذاهب الأخرى من جدل يوضح قدراتهم على الاقناع العقلى فى المسائل العقيدية ، ثم كيف أن منهجهم كان قاصرا فى بعض هذه المسائل فلم يصلوا فيها إلى مرادهم . ورأينا أن نختم هذا الفصل بالحديث عن أبرز مسألة فى تاريخ المعتزلة ، وهى مسألة خلق القرآن ، بقصد محاولة بيان رأى الجاحظ فيها ، وموقفه من الناهضين لها .

١ - المتكلمون :

لم يصبح لفظ « الكلام » اصطلاحا فنيا دالا على البحث فى العقائد بالأدلة العقلية ، وما يستتبع ذلك من جدل دينى فى الأصول العقيدية عند جميع الملل والنحل ، إلا فى عهد الخليفة المأمون(١) ، إذ كان « البحث عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم » كان هذا البحث يعرف من قبل هذا العهد باسم «علم التوحيد»(٢)

---

(١) « الملل والنحل » للشهرستانى : (ط ليبتزج ١٩٢٣م) ص١٨ .

(٢) « رسالة التوحيد » للامام محمد عبده : (الطبعة العاشرة ، ط . عيسى البابى الحلبى بمصر) ص٥ .

ثم سمى النظر فى الدين بأحكامه وعقائده « فقها » ، ثم خصت الاعتقاديات باسم « الفقه الأكبر » ، وخصت العمليات باسم «الفقه» ، وسميت مباحث الاعتقاديات علم التوحيد أو الصفات « تسمية له بأهم مسائله ، ذلك أن المتكلمين شغلتهم كثيرا مسائل التوحيد خاصة ، حتى ليقول الجاحظ : « إنه لم يكن لهم صناعة أو تجارة إلا النظر فى التوحيد ، وفى نفى التشبيه ، وفى الوعد والوعيد ، وفى التعديل والتجوير ، وفى تصحيح الأخبار ، والتفضيل بين علم الطبائع والاختيار »(٢) ، فهو قد جعل النظر فى التوحيد على رأس ما كان يشغل المتكلمين من مسائل ، ثم جاءت تسمية هذا العلم « بعلم الكلام » . ويظن أن المعتزلة هم الذين أطلقوا على هذا العلم اسم « علم الكلام »(٣) وأن ذلك كان بعد أن نقلت إلى العربية كتب الفلسفة اليونانية أيام المأمون ، يقرر الشهرستانى : « ثم طالع بعد ذلك شيوخ المعتزلة كتب الفلاسفة حين نشرت أيام المأمون ، فخلطت مناهجها بمناهج الكلام ، وأفردتها فنون العلم ، وسمتها باسم الكلام(٤) .

ومن الحق أن علم الكلام اتسع فى عصر الجاحظ اتساعا ظاهرا ، بعد أن اتسعت دائرة المشتغلين بأبحاثه ومسائله ، وأصبح اسم المتكلم فى هذا العصر يشتمل ما بين الأزرقى ، والغالى ، وعلى ما دونهما من الخارجى ، والرافضى ، بل على جميع الرافضة ، وأصناف المعتزلة ، بل على جميع المرجئة ، وأهل

---

(٢) الحيوان : ٢١٨/١ .
(٣) ضحى الإسلام : ١٠/٣ .
(٤) الملل والنحل : ص١٨ .

المذاهب الشاذة (١) . ومن ثم رأينا الوصف بالمتكلم يضاف إلى بعض الرافضة. من مثل هشام بن الحكم. وشيطان الطاق(٢)، وإلى أهل الحجاج من المسيحيين(٣) بل إلى أهل الجدل من المنانية الثنوية(٤). وإلى بعض النابتة ، والحشوية ، والمجبرة(٥) .

وكان طبيعيا بسبب هذا الاتساع فى اطلاق اسم « المتكلمين » على طوائف متباينة ألا يكون الجميع فى منزلة واحدة من حيث المكانة العقلية .ومن ثم رأينا الجاحظ يحدثنا عن طائفة من المتكلمين وصفهم بأنهم مريبون مراءون(٦) ، هؤلاء كان نسكهم التحلى برمى الناس بالريبة . والتزين باضافة ما يجدون فى أنفسهم إلى خصومهم خوفا من أن يكون الخصوم قد فطنوا لمواطن الريبة فى هؤلاء الادعياء ، فهم يسترون ريبهم برمى الناس به ، حتى ان الجاحظ يقول: « اذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ، ظن أنه قد حول ريبته الى خصمه، وحول براءة خصمه اليه (٧) وهو بذلك يكشف أسلوب هذا الصنف من الادعياء .

---

(١) فضل صناعة الكلام : (مخطوط مختارات فصول الجاحظ)،ص٢٩٥

(٢) رسائل الجاحظ . (السندوبى) ص١٤٨ .

(٣) ثلاث رسائل الجاحظ : ص٢٠

(٤) الفهرست : لابن النديم ، فى الحديث عن النعمان بن المنذر . واسحاق بن طالوت . ص٣٣٨ .

(٥) الانتصار : لأبى الحسن الخياط . ص١٨ . ٢٧ . ٤٩ .

(٦) الحيوان : ٢٩١/١

(٧) الحيوان : ١ / ٢٢٠

وكان هذا الجدل الديني معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، ومن ثم كان طبيعيا أن يمتزج بمناهج الفلسفة اليونانية[1] ، والتي كان المتكلم يتسلح بها في دفاعه عن عقيدته ، حتى ليقول الجاحظ في نعت المتكلم : « ولا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام ، متمكنا في الصناعة ، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلاسفة[2] » والذي لا شك فيه أنه كان من بين ما أداهم الى النظر العقلي ما نشب بينهم وبين أرباب الملل الأخرى من يهودية ، ونصرانية ، ووثنية من جدال وحوار في المسائل العقيدية ، وهؤلاء لم يكن يكفيهم في الاقناع أن تذكر لهم آية من القرآن أو الحديث بسبب ما أصاب عقولهم من تفلسف جعلهم يلحون في الجدال في قضايا تستند على القدر المشترك من العقل ، مما اضطر المتكلمين الى أن يؤلفوا الأدلة العقلية على وجود الله ، ولعل من خير ما يمثل لنا هذا المسلك صنيع الجاحظ في كتابه « حجج النبوة[3] » ،ذلك أنه مضى في سوق حجج إثبات النبوة على العموم ، وإثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام على الخصوص ، مما يدل على وجود قوم بينهم كانوا يجحدون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم[4] ، فدخل المتكلمون معهم في جدال حاد ، وفلسفوا أدلتهم ، كما فلسف المخالفون أدلتهم ، فكان منهج المتكلمين في اثبات مايقولون يقوم على المعارضة ، والموازنة ، والمكايلة ، وقرع الحجة بالحجة والخبر بالخبر ، ولا يقوم على الانكار أو الاقرار لأن الإنكار ليس بمعارضة ، وليس بحجة ، ومثل ذلك يصح في الاقرار ، يقول الجاحظ : — « انما المعارضة مثل الموازنة ، والمكايلة ، فمتى قابلونا بأخبار في وزن أخبارنا ، ومخرجها ، ومجيئها فقد عارضونا ، ووازنونا ، وكايلونا

---

(١) ضحى الاسلام : ٣/٩ . (٢) الحيوان : ٢/١٣٤
(٣) رسائل الجاحظ ، (السندوبي) ، ص ١١٧ ص ١١٥ .
(٤) « الجاحظ » (السندوبي) : ص ١١٨ .

وقد تكافينا وتدافعنا . فأما الانكار فليس بحجة كما أن الاقرار ليس بحجة ولا تصديقنا النبي صلى الله عليه وسلم حجة على غيرنا ، ولا تكذيب غيرنا له حجة علينا ، وانما الحجة في المجيء الذي لا يمكن في الباطل مثله(١) » .

ورأيناه من بعد تقرير هذا المنهج العقلي يخضع له ما جاء على لسان النصارى، والمجوس والزنادقة من أخبار أجمعوا عليها على الرغم من أنها كاذبة من مثل قول النصارى بألوهية عيسى عليه السلام ، ومن مثل زعم المجوس في آيات وعلامات زرادشت(٢) ، ومن طريف ما يذكره الجاحظ حديثه عن دلائل النبوة عامة ، وكيف أن أمارات كل نبي كانت من ضروب الاعجاز المستحكمة في زمنه، وهو بذلك يحاول أن يضع نبوة محمد عليه الصلاة والسلام في اطار من الاقناع العقلي يعتمد على المقارنة بين الظروف التاريخية لظهور كل نبي من أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام ، ذلك أنه « لما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر ، ولم يكن أصحابه في زمان أشد استحكاما فيه منهم في زمانه بعث الله موسى عليه السلام على ابطاله ، وتوهينه ، وكشف ضعفه ، واظهاره ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم ، ولمن نشا على ذلك من السفلة والطغام ؛ لأنه لو كان أتاهم بكل شيء، ولم يأتهم بمعارضة السحر، حتى يفصل بين الحجة والحيلة لكانت نفوسهم إلى ذلك متطلعة ، ولأفتتن به أصحاب الأشغال ، ولشغلوا به بال الضعيف ، ولكن الله — تعالى جده — أراد حسم الداء ، وقطع المادة ، وأن لا يجد المبطلون متعلقا ، ولا إلى اختداع الضعفاء سبيلا ، مع ما أعطى الله موسى عليه السلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات(٣) » .

وعلى هذه الشاكلة يعرض الجاحظ لدلائل وحجج نبوة عيسى عليه السلام . وكيف أن زمنه « كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب ، وكانت عوامهم تعظمهم على خواصهم فأرسله الله عز وجل بإحياء الموتى ، إذ كانت

---

(١) حجج النبوة : (رسائل الجاحظ ، نشر السندوبي) ، ص ١٣١ .

(٢) « « : ص ١٣١ وما بعدها . (٣) حجج النبوة : ص ١٤٥ .

غايتهم علاج المرضى ، وإبراء الاكمه ، إذ كانت غايتهم علاج الرمد ، مع ما أعطاه الله تعالى عز وجل من سائر العلامات ، وضروب الآيات ؛ لأن الخاصة إذا نجعت بالطاعة ، وقهرتها الحجة ، وعرفت موضع العجز والقوة . وفصل ما بين الآية والحيلة . كان أنجع العامة ، وأجدر أن لا يبقى فى أنفسهم بقية(١) ، وكذلك يعرض لحجج النبى محمد عليه الصلاة والسلام من حيث أنها مناسبة لزمنه ، ولمن بعث فيهم . يقول : — وكذلك دهر محمد صلى الله عليه وسلم ، كان أغلب الأمور عليهم . وأحسنها عندهم . وأجلها فى صدورهم حسن البيان ونظم ضروب الكلام . مع علمهم له . وانفرادهم به ، فحين استحكمت لغتهم ، وشاعت البلاغة فيهم ، وكثر شعراؤهم وفاق الناس خطباؤهم ، بعثه الله عز وجل فتحداهم بما كانوا لا يشكون أنهم يقدرون على أكثر منه ، فلم يزل يقرعهم بعجزهم على نقصهم ، حتى تبين ذلك لضعفائهم ، وعوامهم ، كما تبين لأقويائهم ، وخواصهم ، وكان ذلك أعجب ما أتاه الله نبيا قط ، مع سائر ما جاء به من الآيات ، ومن ضروب البرهانات .

ولكل شيء باب ، ومأتى ، وإختصار ، وتقريب ، فمن أحكم الحكمة إرسال كل نبى بما يفحم أعجب الأمور عندهم ، ويبطل أقوى الأشياء فى ظنهم(٢) ، وقد بين فى موضع آخر من رسالته هذه الحجة من حجج نبوة محمد عليه الصلاة والسلام مؤكدا أنها « علامة لها فى العقل موقع ، كموقع خلق البحر من العين(٣) » ، ولعله بذلك يشير إلى الاطار العقلى الذى صاغ فيه حججه ، ودلائله على هذه النبوة .

---

(١) حجج النبوة . ص١٤٦

(٢) حجج النبوة : — ص١٤٦ .

(٣) « المصدر السابق » : ص ١٤٣ .

٢ — المعتزلة :

وكان المعتزلة — دون شك — أهم فرقة يدين لها علم الكلام بما أثارت من مسائل ، ووضعت من أصول ، وقد حسن مركزهم منذ عهد المأمون ، إذ كان معتزليا فى مبادئه ، وتصرفاته ، وكذلك فى أيام المعتصم ، والواثق(١) ، وتحقق لهم آنذاك مكانة مرموقة ، ونصبوا من أنفسهم مدافعين عن العقيدة الاسلامية ، وما يتصل بها من أصول وحجج ، ناظروا فيها أصحاب الملل والنحل الموجودة فى مجتمعهم ، وملئوا بجدالهم ساحات المناظرات فى المساجد والمنتديات ، حتى ليطلق أستاذنا الدكتور شوقى ضيف على هذه الحقبة من الزمن « عصر الاعتزال » ، إذ بلغ من ازدهاره أن استولى على صولجان الحكم وأن وجهه حسب مشيئته ، وربما كان ذلك هو الخطأ الذى إرتكبه أصحابه ، فانهم وضدوه ووضعوا معه محنة خلق القرآن على رقاب الناس ، فكان ذلك سبب سقوطه من حالق(٢) » ، فكان أن انصرف المتوكل عن المعتزلة ، وانصرفوا عنه ، وكاد لهم ، وكادوا له ، لكن هذا لا ينفى أن المعتزلة كان قد تحقق لهم مركز مرموق ، وانتشروا فى البلدان(٣) .

وكان المعتزلة أصول خمسة ، متعارف عليها يشتركون فيها جميعا ، وإن انفرد بعض رؤسائهم بأصول خاصة بهم ، ويحدثنا الخياط عن أصول الاعتزال ، يقول : « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة :ـ التوحيد والعدل ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) « مروج الذهب » للمسعودى : ٢٧٨/٢ .
(٢) العصر العباسى الأول : ص ١٣٣ .
(٣) أنظر قصيدة صفوان الأنصارى : البيان والتبيين ٢٥/١

المنكر ، فإذا اكملت فيه الخصال فهو معتزلي(١).

وفي كتابات الجاحظ ما يشير إلى هذه الأصول ، ومعناها عند المعتزلة في عصره فأما التوحيد فارادوا به تنزيه الله عن مشابهة المخلوقين، فهو يخترع الأجسام اختراعا ، حي لا بحياة ، وعالم لا بعلم ، لا ينقسم ، وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق ، ولا يحصره المكان ولا الزمان ، يقول الجاحظ :ـــ

« نعتقد أن لنا ربا يخترع الأجسام اختراعا ، وأنه حي بحياة ، وعالم ، لا بعلم ، وأنه شيء لا ينقسم ، وليس بذي طول ولا عرض ولا عمق ، وأن الأنبياء تحي الموتى(٢) » ، أما العدل وما ينطوي عليه من فكرة خلق العباد لأفعالهم ، وأنهم أحرار في إرادتهم ، ومن ثم يثابون ويعاقبون على أعمالهم دون أن يظلمهم الله مثقال ذرة ، فاننا نجد أصداء هذه المعاني في حديث الجاحظ عن الاستطاعة لدى الانسان واستخدامه لها ، ذلك أن الإنسان في نظره يملك قدرة اختيار الأشياء ، والموازنة بينهما ، ومعرفة فرق ما بين الخير والشر ، وهذه الاستطاعة في التمييز بين الأشياء والموازنة بينها تعد عادة قائمة لدى العارفين العاقلين ، يقول :ـــ « والعادة القائمة ، والنسق الذي لا يتخطى ولا يغادر ، والنظام الذي لا ينقطع ولا يختلط ، في ذوي التمكين والاستطاعة ، وفي ذوي العقول والمعرفة أن أبدانهم متى أحست بأصناف المكروه والمحبوب ، وازنوا وقابلوا ، وعايروا وميزوا بين أتم الخيرين ، وأنقص الشرين ، ووصلوا كل مضرة ومنفعة في العاجل بكل مضرة ومنفعة في الآجل ، وتتبعوا مواقعها ، وتدبروا مساقطها ، كما

---

(١) الانتصار ص ١٢٦

(٢) الحيوان :ـــ ٤/٩٠

يعرفون مقاديرها وأوزانها واختاروا بعد ذلك أتم الخيرين ، وأنقص الشرين[1] » ، وهذه الاستطاعة وحرية الاختيار محققة قبل الفعل[2] ، وفى رأيه أيضا أنه « من المحال أن يجمع بين وجود الاستطاعة ، وعدم الدواعى ، وجواز الفعل[3] » ، وقد خص الله بها الإنسان وهى مرتبطة عنده بوجوب وجود العقل والمعرفة ، ليكون التمييز بين الأفعال صحيحا، يقول . — « وفى وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة ،وليس يوجب وجودهما الاستطاعة»[4]

وأما الوعد والوعيد وكيف أن الله صادق فيما وعد من ثواب ، وأعد من عقاب فإن الجاحظ يقول فى ثواب الله وعقابه ، والعدل فى الجزاء : — « ثم أقام (الله) الرغبة والرهبة على حدود العدل ، وموازين النصفة ، وعدلهم تعديلا متفقا، فقال : — «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره»[5] ،ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[6] ، ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل فى تدبيرة الخالق ، ولا جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده وواعده ، فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة . فاطرد التدبير ، واستقامت السياسة . لموافقتهما ما فى الفطرة . وأخذهما بجامع المصلحة[7] » وعلى الرغم من ذلك كان الله عز وجل

---

(١) الحيوان : — ١٤٥/٢

(٢) الحيوان . — ١٩٠/٢ .

(٣) الحيوان : — ٨٨/٤ .

(٤) الحيوان : — ٥٤٣/٥ .

(٥) آية ٧ من سورة الزلزلة .

(٦) آية ٨ من سورة الزلزلة .

(٧) المعاد والمعاش» :رسائل الجاحظ تحقيق الأستاذ هارون ١٠٤/١ — ١٠٥

يقبل توبة التائب . ذلك أنه «لو تقصى على خلقه لعذبهم» ولذلك قال تعالى: — «ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة»(١) . ولكنه قبل التوبه . وأقال العثرة . وجعل بالحسنة أضعافها(٢)» وأما القول بأن منزلة مرتكب الكبيرة بين منزلتين ، فهو ليس بمؤمن ولا بكافر . بل هو فى منزلة بين الايمان والكفر ، وليس فى الآخرة إلا الفريقان : فريق فى الجنة ، وفريق فى النار ، فمرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو خالد فى النار ، لكنه يخفف عنه العذاب ، وتكون منزلته فوق منزلة الكفار . فيدلنا الجاحظ أن المعتزلة فى هذا القول يخالفون رأى الخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر ، ويجب حربه وقتله(٣) ، وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فهما واجبان على سائر المسلمين كل حسب أستطاعته : حتى ليقول الجاحظ لابن عبد الوهاب ناصحا : «قل معروفا فإنا من أعوانك وانتصر فأنا من أنصارك(٤)» .

والحق أن المعتزلة أطلقوا العقل العنان فى البحث عن جميع المسائل من غير أن يحده أى حد ، فهم « من الناحية العقلية جريئون ، يقررون ما يرشد اليه (العقل) فى شجاعة واقدام ، وهم أمام النقل يسلمون بما يوافق البرهان العقلى ،

---

(١) آية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) « المعاش والمعاد » . — رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) ١٠١/١

(٣) « الحيوان » : — ٤ /٢٧٨ أذ يذكر الجاحظ أنكار الخوارج المنزلة بين المنزلتين

(٤) التربيع والتدوير . (تحقيق شارل بيلا) ص٢٤

ويؤولون ما يخالفه »(١) ، وقد استمدوا هذا السلطان للعقل مما جاء في الكتاب العزيز من حث على التفكير ، وفي ذلك يقول الجاحظ : — « إن الله عز وجل لم يردد في كتابه ذكر الاعتبار ، والحث على التفكير ، والترغيب في النظر ، وفي التثبيت ، والتعرف ، والتوقف، الا وهو يريد أن تكونوا علماء من تلك الجهة، حكماء من هذه التعبئة »(٢) ، وعنده أن هذا الاستنباط العقلي هو الذي يجعل للأدلة العقلية معناها الحقيقي ، يقول : — « ولولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى ، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان اوضع الدلالة معنى »(٣) .

وقد خاض المعتزلة معارك جدلية في الدفاع عن الاسلام، والرد على الملحدين، وفيما اشتجر بينهم وبين الفرق والمذاهب الأخرى من مناظرات وخصومات مما نجد أصداءه في كتابات الجاحظ من مثل خصومتهم مع المحدثين بسبب اختلاف المنزعين ، فان كان المعتزلة ينزعون إلى النظر العقلي فان المحدثين كانوا ينزعون إلى الرواية والحفظ ، وفي طبيعة الرواية ، والاتساع فيها الحد من سلطان العقل، كما أن الحفظ عدو الذهن، حتى إن الجاحظ يقول:— « كرهت الحكماء والرؤساء وأصحاب الاستنباط والتفكير ، جودة الحفظ لمكان الاتكال عليه، واغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا :— الحفظ عدو الذهن، ولأن مستعمل الحفظ لا يكون الا مقلدا ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين ، وعزة الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود »(٤) .

---

(١) « ضحى الاسلام » : — ٦٩/٣ .
(٢) « الحيوان » : — ١١٥/٢ والتعبئة بمعنى الاعداد .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) كتاب « المعلمين » : — هامش الكامل للمبرد ، ١٩/١ .

وكان من شأن منهج المعتزلة وتحكيمه النظر العقلي التضييق في دائرة الرواية ، والغض من قيمتها ، ومن ثم رأينا «النظام» يحكم العقل في الاحاديث، وبيان ما في بعضها من تناقض، من ذلك انكاره للاحاديث المروية في مدح القط، وذم الكلب، وتفضيل الأول على الثاني، انظر اليه يحكم عقله في هذه الأحاديث، ويعقب على ذلك مخاطبا المحدثين بمثل قوله: — «لقد قدمتم السنور على الكلب، ورويتم أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الكلاب، واستحياء السنانير، وتقريبها، وتربيتها كقوله عند مسألته عنها: — «انهن الطوافات عليكم»، وكل منفعة السنور إنما هي أكل الحار فقط . . . ، وهو مع ذلك يأكل حمامكم وفراخكم، والعصافير التي يتلهى بها أولادكم، ويأكل الطائر الذي يتخذ لحسنه وحسن صوته ، فان هو غف عن أموالكم لم يعف عن أموال جيرانكم ، ومنافع الكلب لا تحصيها الطوامير . ثم السنور مع ذلك يأكل الأوازع ، والعقارب ، والخنافيس ، والحيات ، وكل خبيثة وكل ذات سم ، وكل شيء تعافه النفس ؛ ثم قلتم في سؤر السنور ، وسؤر الكلب ما قلتم ، ثم لم تروا صوابه حتى أضفتموه إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم »[1]، ومن مثل نقدهم الحديث وأخضاعه لحكم العقل تناول الجاحظ لحديث الحجر الاسود ، وأنه كان أبيض فسوده المشركون فيقول معلقا على ذلك بأنه «كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا[2] » ، فهو ينكر مثل هذا الحديث إيمانا منه بقيمة النظر العقلي « فما الحكم القاطع إلا للذهن وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل[3] ، وكثيرا ما نرى المعتزلة يرمون بعض المحدثين بالجهالة ، ويلقبونهم بالحشوية ،

---

(١) «كتاب الحيوان : — ٥٣/٢ — ١٥٤ .

(٢) أنظر تأويل مختلف الأحاديث لابن قتيبه : — ص ٧٢

(٣) رسالة «التربيع والتدوير» (مجموع رسائل الجاحظ) : ص ١٩١

يقول الجاحظ فى معرض حديثه عن طائفة منهم : — « وليس هؤلاء من يفهم تأويل الأحاديث ، وأى ضرب منها يكون متأولا ، وأى ضرب منها يقال أن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل »[1] . ومن الحق أن المعتزلة وقفوا كثيراً أمام طائفة من الأحاديث واخضعوها لحكم العقل من مثل ما يذكره الجاحظ فى « الحيوان » من تأويل للاحاديث المروية فى قدرة الناس على رؤية الجن والشياطين[2] ، إذ نراه ينكر مثل هذه الأحاديث التى لا توافق الحكم العقلى ، وهو من أجل هذا يستهجن إيمان العامة بها ، فمن شأن ذلك فساد العقل وكساده ، وليس أدل على هذا الفساد من تلك المزاعم الكاذبة التى تزعمها العامة من مثل زعمهم : — « أن الله تعالى قد ملك الجن ، والشياطين والعمار ، والغيلان أن يتحولوا فى الأرض فى أى صورة شاءوا إلا الغول، فانها تتحول فى صورة المرأة ولباسها ، إلا رجليها ، فلا بد أن تكونا رجلى حمار »[3] .

وبالمثل أنكر المعتزلة بعض مزاعم المفسرين ، كانوا يرفضونها ويستهجنونها بسبب أنها لا توافق العقل ، وان هذه المزاعم وان كانت تستند إلى بعض آى الذكر الحكيم فان الخطأ يكمن فى سوء فهم كلام الله عز وجل ، ومن ثم لجأ المعتزلة إلى تأويل مثل هذه الآيات الكريمة بما يقبله النظر العقلى ، من ذلك رفض الجاحظ زعم بعض الناس فى قوله تعالى : - « إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم[4] . طلعها كأنه رؤس الشياطين[5] » أن رؤس الشياطين ثمر شجرة

(١) « الحيوان » . — ٢٧٩/٤ .
(٢) « الحيوان » : — ٢٢٠/٦ .
(٣) « الحيوان » : — ٢٢٠/٦ .
(٤) آية ٦٤ من سورة الصافات .
(٥) آية ٦٥ من سورة الصافات .

تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، يقول مستهجنا هذا الزعم ، والرد على من يؤيده من أصحاب الطعن والخلاف ، مبينا أن حجته تقوم أساسا على حكم العقل فى فهم وتأويل كلام الله عز وجل باعتبار أن القرآن إنما نزل على من ثبت فى طبائعهم بغاية التثبيت ، يقول : - « وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ، ولا صور رؤسها لنا صادق بيده ، ففى إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك فى مكانين ، أحدهما أن يقولوا : — « لهو أقبح من الشيطان » ، والوجه الآخر ان يسمى الجميل شيطانا ، على جهة التطير له كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء ، والمرأة الجميلة صماء ، وقرناء ، وخنساء ، وجرباء ، وأشباه ذلك على جهة التطير له ففى إجماع المسلمين والعرب ، وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان ، دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من كل قبيح . والكتاب إنما نزل على هؤلاء الذين قد ثبت فى طبائعهم بغاية التثبيت(١) » . والجاحظ يرفض التأويل الخاطىء لبعض أى الذكر الحكيم لأنه يقوم على مايخالف العقل ، وعنده أن مثل هذا التاويل يؤدى إلى الهلاك ، يقول: — « وتأولوا قوله تعالى »:- «وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا»(٢) ، ويذكر أن بعض هذا التأويل يستند إلى الصحابة من مثل مايرويه العامة من أن «ابن مسعود ، رضى الله عنه رأى رجلا من الزط ، فقال : — «هؤلاء أشبه من رأيت بالجن ليلة الجن »(٣) .

وبالمثل فانهم يتأولون قوله عز ذكره : — « وشاركهم فى الأموال

---

(١) « الحيوان » : — ٢١٣/٦ .
(٢) آية ٦ من سورة الجن .
(٣) الحيوان : ٢٩٠/٦ .

والأولاد »[1] وقوله عز وجل : — « لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان »[2] قالوا : — « فلو كان الجان لم يصب منهن قط ، ولم يأتهن ، ولا كان ذلك مما يجوز بين النساء الآدميات ، لم يقل ذلك »[3] . ويعقب الجاحظ على مثل هذه الاقوال بما يشير إلى رفضها ، ورفض التأويل فيها ، وعنده أنه « لم يهلك الناس كالتأويل »[4] ، ويذكر أن الاعراب يتزيدون فى هذا الباب من التأويل ، وان اشباه الاعراب يغلطون فيه وبالمثل فان بعض أصحاب التأويل يجوّز فى هذا الباب مالا يجوز فيه ، ويذكر أنه قد أشار إلى ذلك فى كتابه « النبوات »[5] ..

وبالمثل شغل المعتزلة بالرد على الرافضة والزيدية . حتى إن الجاحظ صنف فى ذلك كتابا « فى مقالة الزيدية والرافضة »[6] بجانب ما أشار إليه فى كتاباته عن عن آرائهم من مثل « استحقاق الامامة » ، ويعد موضوع الامامة من جوهر الموضوعات التى ثار الجدل حولها بين المعتزلة وبين الرافضة والزيدية ، وهو من الموضوعات السياسية التى اشتجرت حولها الاهواء والعقول فى هذا العصر ، وعلى وجه الخصوص فى زمن المأمون من مثل ما مر بنا من قبل ، ويعرض لنا الجاحظ فى كتابه « استحقاق الامامة » آراء الزيدية ، والرافضة فى هذا الموضوع

---

(١) من آية ٦٤ ، من سورة الاسراء ،

(٢) آية ٧٤ ، من سورة الرحمن .

(٣) « الحيوان » : — ٢٠١/٦ .

(٤) « الحيوان الحيوان : — ٦ /١٦٤ .

(٥) « هامش الكامل » المبرد : — ٢/١٩١ .

(٦) « هامش الكامل » للمبرد : — ٢/٢٩٢ وما بعدها ، أنظر رسائل الجاحظ (السندوبى) : — ص ٢٤١ — ٢٦٠ .

باعتبار أنهما أعلم فرق الشيعة وأن غيرهما « بدد لافهام لهم »(١) ، ويذكر ان علماء الزيدية يقولون بأن الفضل فى الافعال يقوم على أربعة أقسام : — « أولها : القدم فى الاسلام حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله تعالى وإليه ، ثم الزهد فى الدنيا فان أزهد الناس فى الدنيا أرغبهم فى الآخرة ، وآمنهم على نفائس الاموال ، وعقائل النساء ، وإراقة الدماء ، ثم الفقه الذى به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم ، ثم المشى بالسيف كفاحا فى الذب عن الاسلام ، وتأسيس الدين وقتل عدوه ، وإحياء وليه . فليس وراء بذل المهجة ، واستفراغ القوة غاية يطلبها طالب أو يرتجيها راغب . ولم نجد فضلا خامسا فنذكره ، فمتى رأينا هذه الخصال مجتمعة فى رجل دون الناس كلهم وجب علينا تفضيله عليهم ، وتقديمه دونهم »(٢) ، ويبين الجاحظ اختلافهم حول من تجتمع فيه هذه الصفات ليكون أحق بالخلافة على المسلمين وأنه كان فريق منهم أجمع على تفضيل على رضى الله عنه وتقديمه على غيره ، وأنه « كان أولاهم بالخلافة » ، وأن الذى حال بينه وبينها أن الناس « كانوا على غيره أقل فسادا واضطرابا ، وأقل طعنا وخلافا ، وذلك أن العرب وقريشا كانوا فى أمره على طبقات » ، حتى إنه « كان أقرب الامور إلى محبتهم إخراج الخلافة من ذلك المعدن ترفيها عن أنفسهم من ألم الغيظ وكمد الحسد(٣) » . ثم أنظر إليهم

---

(١) « استحقاق الامامة » : (رسائل الجاحظ « السندوبى ») ص ٢٤١ .

(٢) « أستحقاق الامامة » : (رسائل الجاحظ السندوبى) ص ٢٤١ .

(٣) « أستحقاق الامامة » : (رسائل الجاحظ السندوبى) ص ٢٥٩

يشترطون فى إمام المسلمين أن يكون أفضل أهل دهره وما ذلك إلا بالعقل الراجح وشدة الفحص، وقوة الحزم، والأخذ بسيرة الرسول عليه الصلاه والسلام وعندهم أن الامام يجمع بين مرتبة الامامة، ومنزلة الخليفة، أنظر إليه يقول فيمن يختار أماما للمسلمين :ـ «أن يكون أقوى طبائعة عقله، ثم يصل قوة عقله بشدة الفحص وكثرة السماع، ثم يصل شدة فحصه وكثرة سماعه بحسن العادة، فاذا جمع إلى عقله علما وإلى علمه حزما، وإلى حزمه عزما، فذلك الذى لابعده، وقد يكون الرجل دونه فى أمور وهو يستحق مرتبه الامامة ومنزلة الخلافة، غير أنه على حال لابد من أن يكون أفضل أهل دهره، لأن من التعظيم لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يقام فيه إلا أشبه الناس به فى كل عصر، ومن الاستهانة به أن يقام فيه من لا يشبهه وليس فى طريقته، وإنما يشبه الامام الرسول بأن يكون أخذا بسيرته منه، فأما أن يقاربه أو يدانيه، فهذا مالا يجوز ولا يسع تمنيه والدعاء به»(1).

وبالمثل كان بين المعتزلة والدهريين جدال عقلى، ينشر لنا الجاحظ طرفا منه، من مثل جدلهم حول قدم العالم، وحدوثه، ونهاية الأجسام، ولا نهائيتها وقد وجه المعتزلة حججهم للدفاع عن الأصل الأول للأديان جميعا، وهو وجود الله، وإثبات ضرورة وجود علة للكون مستقلة عنه، سابقة عليه، بينما كان الدهريون ينكرون هذا الأصل إنكارا قاطعا، مما صبغ هذا الجدل بأصباغ الفلسفة الطبيعية، وقواعد المنطق، وأساليب الحوار.

---

(1) «استحقاق الامامة»: (رسائل الجاحظ السندوبى) ص٢٥٩

وتفرع من هذا الأصل دفاع عن بعض الجزئيات التي جاء بها الإسلام أو أقرها لأنها متصلة بالغيبيات التي ينكرها الدهريون من أساسها ، مما أدى المعتزلة إلى أن ينبروا لأحقاقها وبيان وجهها ، ورد الإعتراض عليها ، في حدود منهجهم العقلي ، وبقدر ما تتيحه لهم طبيعة المسألة التي يدافعون عنها ، وإن شئت أنظر إلى هذا الجدل العقلي حول أركان العالم ، وقول بعض الدهرية بأن العالم من أربعة أركان هي : — حر ، وبرد ، ويبس ، وبلة ، أو هي عند طائفة أخرى منهم : أرض ، وهواء ، وماء ، ونار ، وعدوا هذه الأركان أجساما تولدت منها جميع الأشياء في العالم ، ومنها نتجت وركبت ، وساقوا الأمثلة على هذا التوليد والتركيب ، والنتاج ، وقالوا إن من بين الأشياء ما هو ثمار لهذه الأجسام الأربعة مثل سائر الاراييج ، والألوان ، والأصوات ، وأن ذلك يكون على قدر الاخلاط قلة وكثرة ورقة وكثافة . وقدرد « النظام » على هذه المزاعم بما يتسم به من « قوة منطقه ، واعتداده بالعقل وحده ، وقدرته على إفحام الخصم بأيسر الكلام »(١) ، وهو يكشف في رده « مذهب أنباذوقليس » ، فيجعله من مذاهب الدهرية ، ذلك أن « النظام » كان يتناول هذه المسائل من الناحية الطبيعية العقلية لا الناحية الدينية ، فهو يناقشهم عقليا فيما تدركه الحواس من الظواهر الطبيعية من مثل : — الهواء ، والضياء ، والأصوات ، وان شئت أنظر إلى هذه الصورة من الجدل العقلي ، يعرضها لنا الجاحظ في حيوانه ، يقول « قال أبو أسحاق : — قالت الدهرية في عالمنا هذا بأقاويل : فمنهم من زعم أن عالمنا هذا من أربعة أركان : — حر ، وبرد ويبس ، وبله ، وسائر الأشياء : نتائج ، وتركيب ،

(١) النظام : د. عبد الهادى أبو ريدة ص٥٥

وتوليد ، وجعلوا هذه الأربعة أجساما . ومنهم من زعم أن هذا العالم من أربعة أركان : من أرض ، وهواء ، وماء ، ونار . جعلوا الحر ، والبرد . واليبس ، والبلة أعراضا فى هذه الجواهر . ثم قالــوا فى سائر الأراييح ، والألوان والأصوات : ثمار هذه الأربعة على قدر الأخلاط ، فى القلة والكثرة ، والدقة ، والكثافة . فقدموا ذكر نصيب حاسة اللمس فقط ، وأضربوا عن أنصباء الحواس الاربعة . . . قال (النظام) : فكيف وقع القول منهم على نصيب هذه الحاسة وحدها ونحن لم نر من البلة ، أو من اليبس نفعا ولاضرا ، تنفرد به دون هذه الأمور[1] ، قال : — والهواء يختلف على قدر العوامل فيه من تحت ومن فوق ومن الاجرام المشتملة عليه والمخالطة له . وهو جسم رقيق ، وهو فى ذلك محصور وهو فوار سريع القبول — وهو مع رقته يقبل ذلك الحصر ، مثل حمل الريح والزق ، فانها تدفعه من جوانبه ، وذلك لعلة الحصر ، والقطعه عن شكله . والهواء ليس بالجسم الصعاد ، والجسم النزال ، ولكنه جسم به تعرف المنازل والمصاعد[2] . . .

ومن مثل هذا الجدل أيضا ما نراه من إنكار الدهريين لأمر الحسد وقدرد عليهم المعتزلة فى هذه المسألة ، وأدخلوا الحسد فى المسائل الطبيعية وباعدبينه وبين المسائل الغيبية مما وراء الطبيعة ، وتحدثوا عن ذلك الفاصل الذى ينفصل من عين المستحسن إلى بدن المستحسن ، حتى يكون ذلك الداخل عليه هو الناقض لقواه ويدافع الجاحظ عن نظرية الفاصل مستخدما التنظير بين الحسد وبين غيره مما

---

(١) أنظر النظام .—(د. عبد الهادى أبو ريدة)ص٥٦

(٢) الحيوان : —٥/٤٢

يحدث تحت أعيننا ولا نجد له تفسيرا إلا بافتراضنا ذلك الفاصل ، وإن كان مما لا يرى[1] . ويؤكد المعتزلة دفاعهم فى هذه المسألة بالإحالة إلى الخبر والعيان . ذلك أن الخبر لا سبيل إلى رده لمواترته ومرادفته ولأن العيان قد حققه . وصحت إليه التجربة والخبر والعيان مما لا تنكرره الفلسفة الطبيعية[2] أما إذا كان منكرا لأنه لا يعلل ، ومالا يعلل لا يقبل ، إذ لابد لكل شىء من علة تحدثه ، فان المعتزلة يقدمون ذلك الفاصل وهو علة افتراضية ما أكثر ما يحتاج العلم والفلسفة لها — باعتبار أنه فرض ضرورى لا فى موضوع الجسد وحده بل فى أمور أخرى لا نزاع فى حدوثه ورده . وقد ساق الجاحظ أمثلة كثيرة من الحياة الواقعية ، يرى أن تفسير وقوعها لا يتأتى إلا بفرض الفاصل[3] .

والمثل أنكر الدهريون وجود آله خلق هذا الكون على خلاف رأى المعتزلة ، فالكون عندهم متناه محدود فى مساحته ، وذرعه (إمتداده) ، مسايرين فى ذلك رأى أرسطو[4] ، والكون عند المعيزلة ليس متناهيا فى جرمه فحسب ، بل هو متناه فى ركنه أيضا ، فان له أولا إبتدىء منه خلافا الدهرية الذين انكروا اختراع الله الأجسام فى هذا العالم ، وإنه عز وجل حى بلا حياة عالم بلا علم ، لا ينقسم ، ولا يستطيع الانسان القول بأن الله عز وجل طولا ، أو عرضا أو عمقا ، وفى ذلك يقول الجاحظ ، عارضا ما يؤكد وجود الله عز وجل مستشهدا على ذلك بما جاء فى الكتاب العزيز من دلائل الربوبية : — « وقد علم الدهرى أننا

---

(١) أنظر بيان ذلك فى الحيوان : ٢/١٣٣ — ١٣٤

(٢) الجاحظ : — (د . الحاجرى) ص ٦٥

(٣) « الحيوان » : ٤/٩٠ .

(٤) أنظر « النظام » : — (د . عبد الهادى أبوريدة) ص ١١٢ .

نعتقد أن لنا ربا يخترع الأجسام إختراعا ، وأنه حى لا بحياة ، وعالم لا بعلم ، وأنه لاشىء لاينقسم ، وليس بذى طول ، ولا عرض ، ولا عمق ، وأن الأنبياء تحيى الموتى . وهذا كله عند الدهرى مستنكر ، وإنما كان علينا سبيل لو لم يكن الذى ذكرنا جائزا فى القياس ، واحتجنا إلى تثبيت الربوبية ، وتصديق الرسالة ، فاذا كان ذلك جائزا ، وكان كونه غير مستنكر ، ولا محال ، ولا ظلم ، ولا عيب ، فلم يبعد له إلا أن يسألنا عن الأصل الذى دعا إلى التوحيد وإلى تثبيت الرسل »(١) ، ثم يمضى فى رده بالاستشهاد على وحدانية الله وقدرته بما جاء فى القرآن الكريم من مثل ذكره تعالى قصة موت نبيه سليمان بن داود عليه السلام ، ومافيها من دلائل ، وكيف أنه وحدث ماحدث من موته ، فلما لم يشعروا (يعنى أهله، وخدمه من الجن والانس والشياطين) به كانوا على مالم يزالوا عليه . فعلمنا أن الجن، والشياطين كانت توهم الأغبياء ، والعوامل ، والحشوة ، والسفلة ، أن عندها شيئا من علم الغيب — والشياطين لا تعلم ذلك — فأراد الله أن يكشف من أمرهم للجهال ما كان كشفه للعلماء . فبهذا وأشباهه من الأمور نحن إلى الاقرار به مضطرون بالحجج الاضطرارية فليس لخصومنا حيلة إلا أن يوافقونا (٢) ، وينظروا فى العلة التى اضطرتنا إلى هذا القول ، فان كانت صحيحة ، فالصحيح لا يوجب إلا الصحيح . وإن كانت سقيمة علمنا إنما أتينا من تأويلنا »(٣) .

وبالمثل أنكر الدهريون إثبات الرسل ، وطعنوا فى ذلك وجادلهم المعتزلة فى هذا القول ، وردوا اعتراضاتهم ، واستشهدوا فى ردهم بما جاء فى الأثر من أخبار

---

(١) « الحيوان » ٤/٩٠ .

(٢) الموافقة : — هى أن يقف المرء مع غيره فى خصومة ، ومجادلة .

(٣) (الحيوان) : ٤/٩٢ .

بالرسل[1] ، وكان الجاحظ فى معرض رده على الدهريين فى هذه المسألة يضرب المثـــل من التاريخ الدينى على أن لله تدبيرا لا يعرف البشر كنهه ، وتسخيرا لا يملكون رده ، ويقول : — « فان كان الدهرى يريد من أصحاب العبادات والرسل ، ما يريد من الدهرى الصرف الذى لا يقر الا بما أوجده العيان ، وما يجرى مجرى العيان ، فقد ظلم[2] » . والملاحظ أن رد المعتزلة فى هاتين المسألتين: مسألة إثبات وجود الله ، ومسألة إثبات الرسل ، يقوم أساسا على ما جاء فى الأصول الدينية من آثار ، مما جعل مثل هذا الرد يبدو فى بعض جوانبه صورة من صور الصناعة الجدلية يتوارى فيها الطابع العقلى لدى المعتزلة وذلك بسبب ما قد يلحق بهذا الطابع — على قوته — من قصور إزاء بعض المسائل الدينية ، إذ ليس من المعقول أن تتحول جميع المسائل الدينية إلى قضايا عقلية وبراهين منطقية ، لأن من هذه المسائل ما يتطلب شعورا حيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية ، وقد يعجز النظر العقلى للتدليل على ما يحس بالشعور ، والعاطفة ، ولعلنا لا نبالغ إن قلنا أن مثل هذا القصور كان بسبب غلو المعتزلة فى تقدير العقل ، والتقليل من قيمة العاطفة .

ولا يستطيع الدارس للحياة العقلية فى المجتمع العباسى ، ودور المعتزلة فى نمو هذه الروح الجدلية العقلية أن يغفل أثر ذلك على الشعر والشعراء فى العصر ، حتى إننا أصبحنا أمام طائفة من الشعراء خصوا شعرهم للدفاع عن آراء المعتزلة أنفسهم من مثل : — صفوان الأنصارى ، تلميذ واصل بن عطاء [3] ، وكان

---

(١) الحيوان) : — ٨٥/٤ ، وما بعدها .

(٢) « الحيوان » : ٨٥/٤ ، وما بعدها .

(٣) « البيان والتبيين » : — ٢٥/١ ، وما بعدها .

بشر بن المعتمر شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم شاعرا ، وروى له الجاحظ بعض قصائده(١) ، وفيه وفى المعتزلة يقول الجاحظ : — « وروت المعتزلة المذكورون كلهم رواية عامة الأشعار ، وكان بشر أرواهم للشعر خاصة(٢) » ، وبالمثل كان النظام شاعراً ، وله شعر منثور فى كتب التراجم ، ومن خير ما يمثل بيئة المعتزلة وما كان يشتجر فيها من خلافات ومناظرات عقلية ، واعتمادهم فى محاوراتهم على العقل فى الرد على أصحاب المقاولات ، والنحل ، وتفسير قدرة الله فى خلق الكائنات ، قول بشر بن المعتمر : —

فكم ترى فى الخلق من آية ... خفية الجسمان فى قعر
أبرزها الفكر على فكرة ... يحار فيها وضح الفجر
لله در العقل من رائد ... وصاحب فى العسر واليسر
وحاكم يقضى على غائب ... قضية الشاهد للأمر
وإن شيئا بعض أفعاله ... أى يفصل بين الخير والشر
لذى قوى قد خصه ربه ... بخالص التقديس والطهر(٣)

والحق أن كثيرا من الشعراء تأثروا ببيئة المعتزلة ، ورأيناهم يستخدمون

---

(١) « البيان والتبيين : — ١ / ١٢٠ ، ٢٢٠ — و ٣ / ٥٣ — و ٤ / ٥٦ والحيوان : ٣ / ٦٣ و ٤٨٣ .

(٢) أنظر مثلا (الحيوان) : — ٦/٦٢ و ٩٠و٢٨٤ وما بعدها — البيان والتبيين : — ١/١٣٥ ، وما بعدها .

(٣) « الحيوان » : — ٦/٤٠٥ .

(٤) « الحيوان » : — ٦/٢٩٢ .

فى أشعارهم بعض ألفاظ المتكلمين ، ومصطلحاتهم[1] ، من مثل صنيع أبى نواس فى نعت « جنان » جارية آل عبدالوهاب الثقفى ، إذ يذكر فكرة التولد ، وهى الفعل الذى ينشأ عن فعل آخر دون قصد ، فى مثل قوله :

وذات خـد مورد ... فوهيـة المتجـرد
تأمل العـين فيها ... محاسنـا ليس تنفد
فبعضهـا قد تناهى ... وبعضهـا يتولـد
والحسن فى كل عضو ... فيها معاد مردد[2]

وبالمثل ردد أبو نواس فكرة الجزء الذى لا يتجزأ ، أو فكرة الجوهر الفرد[3] الذى كان « النظام » ينكره ، وتجادل فيه طويلا مع نظرائه من المعتزلة يقول أبو نواس متغزلا : —

يا عاقد القلب منى ... هلا تذكرت حلا
تركت منى قليلاً ... من القليل أقـلا
يكاد لا يتجزأ ... أقل فى اللفظ من لا[4]

ويقال أن « النظام » لما سمع من أبى نواس هذه الأبيات ، قال له : — « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى ، والجزء الذى لا يتجزأ منذ دهرنا الأول

---

(١) أنظر فى ذلك ما جاء فى العصر العباسي الأول : —
(د . شوقى ضيف) ، ص ٤١٥ .

(٢) « البيان والتبين » : ١/ ٢٠٨ — ٢٠٩ .

(٣) أنظر « العصر العباسى الأول » : (د . شوقى ضيف) ، ص ١٥٥ .

(٤) « البيان والتبيين » : ١/٤٤١ .

نخوض فيه ما خرج لنا فيه من القول ما جمع أنت فى بيت واحد(١) ، وبالمثل رأينا هذه الأصداء العقلية فى هجاء صفوان الأنصارى ، وسليمان الأعمى لبشار ابن برد ، بعد أن دان بالرجعة ، وانقلب على واصل بن عطاء ، وصار يهجوه ، وقد روى الجاحظ أبياتا لصفوان يذكر فيها فضل واصل بن عطاء ، وكيف أن تلاميذه ودعاته من أولى العزم ، طوفوا الآفاق ، وفاضوا على ربوعها بعلمهم ونورهم ، من هؤلاء التلاميذ : عمرو بن عبيد ، وعيسى بن حاضر ، وغيرهما مما تلقاهم فى المدينة ، أو فى إقليم السوس الأدنى ، أو فى غير ذلك من البلدان ، وأن هؤلاء الدعاة لم يقف أمامهم من أجل تحقيق غايتهم التى تطوعوا لها برد الشتاء أو قيظ الصيف ، وهم من أجلها تكلفوا استطاعتهم فى هجرة الأوطان ، وركوب أخطار الرحلة ونصب السفر ، قد بانوا على خصومهم بما ميزهم عليهم من قوه الحجة ، وقدرة الإقناع ، وصبر فى الجدال والنقاش ، فهم أصحاب علم التشاجر ، والتنازع ، والاختلاف فى الخصومات ، ومن أقدر على ذلك من أولئك الدعاة الذين دربوا على النزاع الكلامى ، وامتازوا بحسن البيان فى الحديث والخطاب ، غايتهم تحصين دين الله من كل كافر ، وإعلان كلمة الحق فى كل مواطن ، أنظر إلى مثل هذه المعانى فى هجاء صفوان الأنصارى ، لبشار ابن برد ، وفى نعته لواصل بن بن عطاء وأصحابه ، يقول : —

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر(٢)

---

(١) أنظر « أخبار أبى نواس » : (ابن منظور) ، ص ١٣ .

(٢) السوس الأقصى : كورة بالمغرب مدينتها طنجة — والسوس الأدنى : بلدة بالأهواز .

رجال دعـــاة لا يفل عزيمهم تهكم جبار ولا كيدماكر(١)
وأوتـــادأرض الله فى كل بلدة وموضع فتياها وعلم التشاجر(٢)
يصيبون فصل القول فى كل موطن كما طبقت فى العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رؤسهم على عمة معروفة فى المعاشر
وفى قصى هداب وإحفاء شارب وكور على شيب يضى لناظر(٣)
وعنقه مصلومة ولنعالــــه قبالان فى ردن، رحيب الخواصر(٤)
فتلك علامات تحيط بوصفهم وليس جهول القوم فى علم خابر(٥)

٣ — مسألة خلق القرآن :

لا يستطيع الدارس للحياة العقلية فى المجتمع العباسى خلال عصر الجاحظ أن يغفل مسألة خلق القرآن ، ذلك أنها كانت أبرز شىء فى تاريخ المعتزلة ، لما أتصل بها من أحداث تاريخية ، واجتماعية ، وسياسية ، وهذه المسألة وإن كانت

---

(١) العزية ، والعزيم ، والعزم ، والمعزم ، بمعنى واحد — والتهكم : التكبر ويقال تهكم عليه إذا أشتد غضبه .

(٢) التشاجر . التنازع والاختلاف فى الخصومات (أراد النزاع الكلامى)

(٣) الكور . لوث العمامة ، إدارتها على الرأس

(٤) العنقة . ما بين الشفة السفلى والذقن .

(٥) « البيان والتبيين » ١/٢٩ — ٢٦

ذروة تأثيرها — قد ظهرت فى خلافة المأمون ، وما وليه من خلفاء إلى عهد المتوكل ، إلا أن ظهورها فى الحياة العقلية الاسلامية يرجع إلى ما قبل ذلك ، إذ يظن أن أول ظهورها كان بأخرة الخلافة الأموية ، ويقال فى هذا الصدد أن أول من تكلم بها كان الجعد بن درهم معلم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية(١) . ومن هذا العهد ظل الحديث فى مسألة خلق القرآن ينمو ، وأخذت تؤلف فيها الكتب ، ويدور حولها الجدل ، وتتسع فيها المناظرة ، ويعرف عن جهم بن صفوان أنه كان من أبرز الداعين إلى القول بخلق القرآن ، ومثله بشر ابن المريسى ، ويظن أنه من أصل يهودى ، كان يقول بخلق القرآن فى أيام الرشيد وظل يدعو إلى ذلك نحواً من أربعين سنة ، ويؤلف فى ذلك الكتب ، ولعل ذلك كان مما حمل على الظن بأن القول بخلق القرآن من أصداء المؤثرات اليهودية .

واتخذت مسألة خلق القرآن ، مذهبا رسميا للدولة فى عهد المأمون ، وأصبحت منذ هذا العهد تكاد تكون شاغل المعتزلة الاساس خاصة أنها تقوم على أكبر أصل من أصولهم وهو التوحيد ، وعدم تعدد صفات الله ، ثم أن دائرة الجدل فيها اتسعت اتساعا شديدا أخرجها من طابع المناظرة بين العلماء المؤيدين والمعارضين إلى طابع المسألة العامة يناقشها جميع أفراد الامة ، وينشد فيها كل طرف تأييد الرأى العام لوجهة نظره ، فغاب عن أذهان الكثيرين لب الخلاف فى المسألة ، وتفرعت إلى فروع شتى ، وتاهت فى دروب الحياة بالوانها الاجتماعية والسياسية ، مما ألحق بالدولة من مشاكل وآثار كادت تعصف بها

---

(١) سرح العيون . ص١٥٩

حتى أن المتوكل لم يجد حسما للامور ، وبعد أن رأى من قوة الرأى العام ضد الاعتزال إلا أن يبطل القول بخلق القرآن ، بل إنه أتجه إلى الجانب المعارض للمعتزلة فى هذه المسألة ، فأظهر الميل للمحدثين ، ووقف بجانبهم (١) .

وحين نتجه إلى كتابات الجاحظ الحصول على تصور معقول لجوانب المسألة ، وبيان ما اتخذه المعتزلة من أدلة عقلية ونقلية لتأكيد قولهم ، وما كان يصدر عن المعارضين من آراء وأقوال يناهضون بها آراء المعتزلة ، وإلى أى حد بلغ تأثير هذا الجدل على الحياة العقلية ، وما تبع ذلك من مؤثرات سياسية واجتماعية خاصة بعد أن اتخذ المأمون القول بخلق القرآن مذهبا رسميا للدولة ، وحقيقة الدوافع التى كانت من وراء صنيع المأمون ، وكيف تبدل الحال فى عهد المتوكل . فإننا لا نستطيع القول بأن الجاحظ كان غائبا عن دائرة الجدال فى هذه الحقبة من الزمن ، فالثابت أنه بلغ منذ عهد المأمون الغاية فى المركز الأدبى والاجتماعى من مثل ما مربنا من قبل ، وبالمثل كتب واستكتب راضيا راغبا فى هذه المسألة ، وخلال هذه الحقبة ، فهو قد صنف فى « خلق القرآن » كتابا ضاع من يد الزمن ، ولم يعد تحت أيدينا منه سوى صفحات قليلة مضطربة (٢) ، والحق أن هذه الصفحات لا تسعف الباحث فى تمثل الصورة الدقيقة لمسألة خلق القرآن ، وما أحاط بها من ظروف حولتها إلى محنة حاقت بالمجتمع العباسى الحقبة من الزمن .

ونفهم من سياق الكلام فى هذه الصفحات أن أبا الوليد محمد بن أحمد بن أبى دؤاد طلب من الجاحظ تصنيف هذا الكتاب ، ولعل ذلك كان فى عصر

---

(١) « تاريخ الخلفاء » للسيوطى : ص ١٣٨ .

(٢) « رسائل الجاحظ » : (نشر السندوبى) ، ص ١٤٧ — ١٥٤ .

المعتصم ، بقصد أن يجمع شتات الآراء فى هذه المسألة بعد أن طرأ على موقف المعتزلة شىء من مظاهر الاختلاف فى وجهات النظر خاصة أن خصومهم استشعروا من نفسهم قوة وغلبة لصمودهم فى وجه سلطة الدولة المظاهرة للمعتزلة ، وكان هؤلاء الخصوم قد نجحوا فى أن استمدوا من بعض المناهج والمذاهب الاعتزالية ما يصيب آراء المعتزلة أنفسهم بشبهة الخطأ خاصة أن هؤلاء الخصوم اكتسبوا بمنا ظرة المعتزلة وقراءة كتبهم مزيدا من الفطنة ، وبراعة فى الجدل ، وتوجيه القول ، وأخرج بعضهم مذهبا فى القرآن ، وأنه مخلوق على المجاز لا على الحقيقة[1] ، وكان للحشوية ، والنابتة ، والرافضة فى هذا الباب شأن خطير أفزع أبا الوليد ، وقد كان يرى نفسه الممثل الرسمى للمعتزلة ، ومن ثم رأيناه يستنفر الجاحظ ، ويحثه على تصنيف كتابه « فى خلق القرآن » ، ونحن نحس بهذا الاستنفار من فاتحة الكتاب ، وفيها يشير الجاحظ إلى أنه لولا هذه الشبهة التى استمدها بعض الرافضة من بعض المذاهب الاعتزالية ، لما كان يعنى بالكتابة فى خلق القرآن ، خاصة أن عنايته بالكتابة فى هذا الباب إنما مقصدها كل من يضع العلم فى موضعه السليم ، ويعطى النظر حقه وقدره [2] ، وقد عرض فى كتابه لهذا المذهب الذى استغله خصوم المعتزلة ، واتخذوه وسيلة للنيل منهم ، ولكننا نفتقد من الكتاب ما ذكره هذا الصدد[3] ، وإن كنا نحس من بقاياه أنه كان صريحا فى أنكار ذلك المذهب ،

---

(١) أنظر فى تفصيل هذا المذهب « الانتصار » ص ٥٧ — و « الملل والنحل » على هامش الفصل لابن حزم (ط . الفتوح الأدبية ١٣١٧ هـ) : ٨٤/٨٣/١ .

(٢) أنظر « رسائل الجاحظ » : (نشر السندوبى) ، ص ١٤٨ .

(٣) « رسائل الجاحظ : ص ١٥٠ .

وكان يخالفهم فى ذلك صراحة ، حتى إنه يقول عنهم فى صدر كتابه : « إعلم أن القوم يلزمهم ما ألزموه أنفسهم ، وليس ذلك إلا لعجزهم عن التخلص بحقهم ، وإلا لذهابهم عن قواعد قولهم ، وفروع أصولهم ، فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أصل مقالتهم ، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم ، فرب قول شريف الحسب ، جيد المركب ، وافر العرض ، برىء من العيوب ، سليم من الآفن ، قد ضيعه أهله ، وهجنه المفترون عليه ، فألزموه مالا يلزمه ، وأضافوا إليه مالا يجوز عليه »(١) .

ويعرض الجاحظ فى هذا الكتاب لبعض وجوه الخلاف بين المعتزلة وغيرهم ، حول خلق القرآن ، من المعتزلة كانوا يعدون القرآن ، وكل الكتب المنزلة ، تحوى كلام الله الذى هو عبارة عن أصوات وحروف يخلقها الله فى غيره فتصل إلى النبى عن طريق ملك ونحوه ، وأنما سمى كلام الله لأنه خلق الله من غير واسطة ، وفى ذلك يكمن الفرق بينه وبين كلامنا وألفاظنا التى تنسب إلينا ، وليس كذلك القرآن فانه من خلق الله مباشرة ، ومن ثم كان معنى كون الله متكلما أنه خالق الكلام وفاعله ، وإذ كان الكلام بهذا المعنى ليس شيئا أكثر من أن يفعل المتكلم فعلا يدل به المخاطب على العلم الذى فى نفسه ، فانه يترتب على ذلك أن الله بهذا المعنى متكلم ، بمعنى فاعل ما يدل به المخاطب على ما يريد ، والمفعول والمجعول مخلوق ، ولم يكن هذا القول فى صفة الكلام وخلق القرآن مقبولا من جميع طوائف المسلمين ، فعارضوه ، وكان من رأى فريق من المعارضين أن الله وصف نفسه بصفات : من قدرة ، وارادة ، وعلم ، وكلام ، وسمع ، وبصر ، ووصف نفسه أنه على العرش ، وأن مثل هذه الصفات

---

(٣) « فى خلق القرآن » للجاحظ : ص ١٤٩ .

يجب قبولها والايمان بها كما جاءت فى النصوص دون أن نتعرض لتأويلها وشرحها، وأن نقيم فى فهمها والايمان بها ما جرت عليه ظواهر النصوص الواردة بشأنها دون تأويل، وأن نفوض معانيها إلى الله، ونجرى فى شأنها على نهج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ترك التعرض لمعانيها . وكان من شأن هذه المعارضة أن يرفض الجاحظ مثل هذا النظر باعتبار أن ما جاء على لسان المعارضين من تسليم بظواهر النصوص معناه الحد من النظر العقلى ، وبث الكراهية للجدل والخصومة ، والمناظرة ، والتأويل ، وكل ما من شأنه أن يمنح العقل البشرى السلطة والسعة ، وكل ما يمكنه من إقامة البرهان حتى على ما يتعلق بالله جل وعز ، ومن ثم رأيناه يعارض هؤلاء المناهضين ويخطىء زعمهم أن القرآن هو الجسم دون الصوت ، والتقطيع ، والنظم ، والتأليف محاولا نفى كل ما من شأنه أن يشير إلى صفات جسمية للخالق وهو ما يرفضه المعتزلة ، انظر اليه يرد على المعارضين ويذكر أن أقوالهم من شأنها أن تشبه الخالق بالمخلوق ، وهذا هو عين الخطأ ، يقول : « والذين خالفوا فى العرش أنما أرادوا نفى التشبيه فغلطوا ؟ والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساما وأجراما غلاظا فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطئوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر ، وقولهم بعد ظهور الحجة تشبيه الخالق بالمخلوق ؟ فبين المذهبين أبين الفرق »(٢).

ومن طريف ما يعرضه لنا فى هذه البقايا المضطربة من كتابه ، مشهد من مشاهد امتحان المعارضين للقول بخلق القرآن ، وفى هذا المشهد يصور لنا امتحان أحمد بن حنبل أمام الخليفة المعتصم ، وقد شهد هذا الامتحان جمع من الفقهاء ،

---

(١) « فى خلق القرآن » الجاحظ : ص ١٥٠ .

والمتكلمين، والقضاة وعلى رأسهم أحمد بن أبى دؤاد . والحق أن مشهد الامتحان يصور لنا صلابة إبن حنبل فى موقفه ، وأنه كان حريصا على التمسك بالنصوص وظواهرها رفضا لتأويلها، ولكل ما من شأنه أن ينحرف بها عن ظواهرها، معارضا فى ذلك أسلوب المعتزلة ، فهو لا يؤمن بأسلوبهم فى مناقشة مثل هذه الأمور الدينية ، ونحن لا نستطيع من استعراضنا لرواية الجاحظ لهذا المشهد ، أن نستدل على حقيقة موقف إبن حنبل من القول بخلق القرآن ذلك الموقف الذى كان من شأنه أن قلب الرأى العام فى عصره ضد الدولة والمعتزلة مما دفع المتوكل إلى منع القول بخلق القرآن ، وأن يتحول إلى جانب المحدثين ، ويميل عن المعتزلة ميلا شديدا ، ولا ندرى إن كان الجاحظ قد سجل فى كتابه هذا أو غيره من كتبه ما كان يلاقيه أحمد بن حنبل وغيره ممن أمتحنوا فى القول بخلق القرآن ، من ألوان الضيم والعذاب من مثل الضرب بالسياط الذى أشار اليه الجاحظ فى روايته لمشهد الامتحان ، لكننا لم نحصل من الجاحظ على أثر هذا الضيم على المعارضين وكيف أنه كان يشكل ألوانا من القهر على فكرهم أيا كان هذا الفكر مناهضا لما كان ينادى به المعتزلة ، ولذلك فإننا نرى أن ما جاء هنا فى كتب الجاحظ يصور لنا إبن حنبل فى صورة الرجل المتعنت ولاشك أن مثل هذه الصورة لا تمثل واقع الأمر فى شخصية ابن حنبل .

ولعلنا نذكر كيف أن الجاحظ كان يتحول من حال إلى حال فى بعض المواقف بسبب خشيته من الضيم والقهر من مثل ما مر بنا فى محنته بعد مقتل إبن الزيات ، ويشفع للجاحظ عندنا فى هذا المجال أنه :

أولا : أراد بكتابة هذا الدفاع عن رأى المعتزلة ، ومن ثم كان موقفه معارضا تماما لـــموقف المعارضين للقول بخلق القرآن وعلى رأس فريق منهم ابن حنبل .

وثانيا : أن كتبه في مسائل الاعتزال بصفة عامة لم تصل الينا كاملة ، وبعضها من مثل ما مر بنا من قبل ، لم يحفظ لنا الزمن سوى عنواناتها .

ونعود بعد ذلك لنتمثل جانبا من حركة إمتحان المعارضين للقول بخلق القرآن ونمضى مع الجاحظ فى تصويره لمشهد من إمتحان إبن حنبل حيث تستوقفنا فى تضاعيف هذا المشهد بعض من الأدلة العقلية والنقلية التى كان المعتزلة يسوقونها تأكيدا لقولهم ، من مثل ما ذكره الجاحظ من أن أحمد بن أبى داود قال لابن حنبل :ـ

أنه إذا كان الله جل وعز قد نص فى القرآن على نسخ بعض الآيات ، وأن مثل هذا النسخ لا يتصور إلا فى الحادث ، لأن القديم ليس عرضة لذلك، ومن ثم يتأكد لنا بالدلائل النقلية المتمثلة فى الآيات الدالة على هذا النسخ ، خلق القرآن، ويظهر من رواية الجاحظ أن إبن حنبل كان فى امتحانه عاجزا على الرد على أدلة الممتحنين، حتى أنه فى بعض اجاباته يكتفى بكلمة لا، أو أنه ليس من المتكلمين، أو أن ذلك الأمر لم يرد فيه نص ا مما حمل المعتصم على مقته أشد المقت؟وأمر بضربه بالسياط ا يقول الجاحظ : ـ « وقال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء ، والمتكلمين ، والقضاة ، والمحصلين ، اعذارا وانذارا : امتحنتنى وأنت تعرف المحنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : « أخطأت بل كذبت . . ا وجدت الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يخفك على الاسلام ما عرض لك ا فسؤالى اياك عن نفسك ليس من المحنة، ولا من طريق الاعتساف ولا من طريق كشف العورة ، إذا كان حالك هذه الحال ، وسبيلك هذا السبيل وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا اقراره ،

ويعانوا انقطاعه ، فينقص ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم ؟ فأبى أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم . . . ، ويقول : « لأن استحييك بحق ، أحب إلى من أقتلك بحق » . حتى رآه يعاند الحجة ، ويكذب صراحا عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه وأنكر الحق وهو يراه ، وأن أحمد بن أبى داود قال له : « أليس لا شىء إلا قديم أو حديث ؟ قال : نعم ، قال : أو ليس القرآن شيئا ؟ قال : نعم ، قال : أو ليس لا قديم إلا الله ؟ قال : نعم ، قال : فالقرآن إذا حديث ! قال : ليس أنا متكلما . فلا هو قال فى أول الأمر لا علم لى بالكلام ، ولا هو حين تكلم فبلغ موضع ظهور الحجة خضع للحق . فقته الخليفة ، وقال عند ذلك : « أف لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة » .

وأما الموضوع الذى فيه واجه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقحة ، وقلة الاكتراث ، وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبى داود : « أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ » قال : « لو سمعت أحدا يقول ذلك لقلته » ، قال : « أفما سمعت ذلك قط من حالف ، ولا سائل ، ولا من قاص ، ولا فى شعر ، ولا فى حديث ؟ » قال : « فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة» . وأحمد بن أبى داود — حفظك الله — أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة يعتمد عليها فى مثل تلك الجماعة ، ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب ، كما كشف لهم جرأته فى المعاندة . فعند ذلك ضربه الخليفة(١) » .

ومما يلفت النظر فى بقايا كتاب الجاحظ نصه على أن أبا الوليد طلب منه أن يكون كتابه خاليا من التطويل ، ومن التعميق والتعقيد ، بعيدا عن التكلف الظاهر فى كتب أكثر المتكلمين ، ويظهر أن الغاية من وراء ذلك أن يكون

---

(١) « رسائل الجاحظ » (نشر السندوبى) ص ١٥٠ وما بعدها .

الكتاب أشبه ببيان رسمى يقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى صلاح القلوب، وإلى معتلجات الشكوك ، وخواطر الشبهات[1] ، وأن الحاجة لمثل هذا الكتاب الواضح الحجة كانت ماسة ، خاصة أن معارضى المعتزلة ، وخصومهم اتجهوا إلى العامة يستميلونهم ضدهم على المعتزلة ، وقد حاول فى بعض فصول من كتابه أن يكشف هؤلاء المعارضين وخاصة الرافضة ممن خاطبوا أهواء العامة بما كانوا يبثون من أقوال خاطئة يأباها العقل ، من مثل قولهم : « أن للقرآن منكبا ، وسناما ، ولسانا ، وشفتين » ، وغيرذلك من صفات جسمية لا يجوز تصورها[2] .

والحق أن ما ضاع من هذا الكتاب مع غيره من كتابات الجاحظ فى هذا الموضوع كان من الممكن أن يجعل أمام الدارس لكتاباته من مسألة خلق القرآن صورة لحوار خطير بين العقل والعاطفة فى بحث بعض المسائل الدينية التى شغلت بها الدولة العباسية لحقبة طويلة من الزمن شاء القدر أن يحياها الجاحظ ، ويكون قريبا بدرجة شديدة لمواقع الحوار على تنوع مستوياته ، ولكن شيئا ما حدث جعلنا أمام صورة قاصرة بحق لهذه المسألة ، ذلك أن بقايا هذه الكتابات لا توضح تفصيلا وجهة نظر المعتزلة فى خلق القرآن ، وبيان حججهم العقلية ، وأدلتهم النقلية فيها ، وبالمثل لا تمثل لنا هذه الكتابات وجهة نظر المعارضين ، والمناهضين للمعتزلة ، خاصة وأن من هؤلاء المناهضين من لم يستسلموا لأى لون من ألوان القهر والارهاب ، وظلوا على مواقفهم ، حتى أجبروا الدولة على التخلى عن وجهة نظر المعتزلة فى أخطر مسائلهم العقلية .

---

(1) « رسائل الجاحظ » : ص ١٤٧ .

(2) « رسائل الجاحظ » : ص ١٥٣ — ١٥٤ .

الفصل الثالث

العادات والتقاليد

١ ـ أحوال البلدان والدور .

٢ ـ العادات .

٣ ـ المطاعم .

٤ ـ المشارب .

٥ ـ الأزياء .

الفصل الثالث

« العادات والتقاليد »

يتناول هذا الفصل دراسة ما يصور جوانب الحياة الإنسانية للناس فى بلدانهم ودورهم ، والنظر فيما بينهم من صلات وثيقة فى الصور والأخلاق وفى المكاسب والصناعات ، وهو ما يمكن أن نسميه بتأثير البيئة فى الانسان ومن ثم تتناول الدراسة أحوال الناس فى طرائق حياتهم المادية فى بلدانهم ودورهم ، وبيان جانب من عاداتهم فى تزاورهم ، وتزاوجهم ، وفى مد موائدهم والدعوة إلى الطعام ، وعلى صحبة الولاة ومخاطبتهم ، وطرف من معتقداتهم الشعبية ، ثم كيف كانت أحوال مطاعمهم ، ومشاربهم ، وأزيائهم ، وإلى أى حد كانت هذه الأحوال صورة للامتزاج الحضارى فى المجتمع العباسى .

(١) أحوال البلدان والدول :

يهمنا فى الحديث عن أحوال البلدان والدول صورة الحياة فى الأمصار العراقية التى كان لها شأن فى هذا العصر ، حتى انه كان من المتعارف عليه إلى ذلك العهد أنهم كانوا يصنفون هذه المدن والأمصار على أساس سياسى (١) وفى كتابات الجاحظ (٢) ما يشير إلى هذا التقسيم السياسى للأمصار الاسلامية

---

(١) « الحضارة الاسلامية » : — ميتز (الترجمة العربية) ٢/٢٦٢ .
(٢) « مناقب الترك » : — رسائل الجاحظ ١/٢٦ .

ويدلنا الجاحظ على أنهم كانوا — فيما يظهر — يفضلون أن تبنى مدائنهم على شواطىء الأنهار وقرب مجارى المياه ومواطن الرعى والمحتطب، يقول الجاحظ :- « قالوا لا تبنى المدن إلا على الماء والمرعى والمحتطب » (١) . ويذكر الجاحظ أن هذا القول إنما جاء مصداقا لقول الله عز وجل : « والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها » . وعلى ذلك جاء قول الحكماء : « إنما تبنى المدائن على الماء والكلأ والمحتطب » ما هو إلا المقصود من قول الله عز وجل: «أخرج منها ماءها ومرعاها » (٢) . وكان من أقوالهم فى سمات المدن المعمورة : « أن يكون بها نهر جار وسوق تروج فيها المعاملات ، وقاض يحكم بين الناس بالعدل والقسطاس »، يقول الجاحظ : « لا تقيموا ببلاد ليس فيها نهر جار، وسوق قائمة، وقاض عادل » (٣) .

وكانت السفن تنقلهم وأمتاعهم بين البلدان الواقعة على الأنهار ومجارى المياه، وكانوا فى مرافىء هذه البلدان يستخدمون الحيوان فى نقل الأحمال بين السفن وبين الخانات الخاصة لنزول المسافرين والوافدين على البلدان ، ومن بين ما استخدموا من حيوان الثيران والأبقار ، وكانوا يسمون صاحب هذه الأبقار يكرونها منه لأحمالهم البقار (٤) . وبالمثل استخدموا الحمير فى قضاء حوائجهم والتنقل بها بين الأماكن ، حتى ان الثورى وهو من بخلاء الجاحظ كان يقول:-

---

(١) « الحيوان » : ٥/٩٩ — البيان والتبيين ٢/١٩٣ .
(٢) « البيان والتبيين » : ٣/٣٣ .
(٣) « البيان والتبيين » : ٢/١٩٣ .
(٤) « الحيوان » : ٣/٣٥٦ ، ٣/٤٥٢ ، وما بعدها فى رحلة النظام إلى قصبة الأهواز .

« واتخاذ الحمار الجامع خير من غلة ألف دينار ، لأنه لرحالك ، وبه تدرك البعيد من حوائجك، وعليه تطحن فتستفضل ما يربحه عليه الطحان ، وتقل عليه حوائجه وحوائجك، حتى الحطب وتستسقى عليه الماء »[1] ، وربما انتفعوا بالبغال والأبقار والإبل في الطحن، وان كان طحن البغال هو الأكثر ربحا ، يقول الجاحظ : « وقالوا طحن الحمير والبغال والبقر والابل لا يجىء إلا مع تغطية عيونها ، ومنافع الطحن عظيمة جدا ، وطحن البغال أطيب وأربح ، وكيل ما تطحن أكثر ، وطحين أرحاء القرى لا يكون له طيب ، لأن أرحاء الماء التى هى أرحاء القرى تحدّق الدقيق ، وتفسد الطعم . فهذه المنفعة الكثيرة للبغال فيها ما ليس لغيرها »[2] .

ويحدثنا الجاحظ عن الدور ، ويذكر أنهم عنوا فى بعضها بتربية أنواع من الطير من مثل الدجاج[3] ، وان كان بعضهم كره ادخاله بيوتهم ، ونهوا عن ذلك[4] ، وولع كثير منهم بتربية الحمام فى دورهم ، وعنوا بذلك عناية خاصة ، فاتخذوا له فى دورهم أجنحة تخرج من الحوائط ، وجعلوا له الأرفف والسقائف فى داخل الدور ، وكان يقال لهذه الأجنحة والأرفف (الكنة)[5]، وقد يتخذ للحمام فى دورهم بيتا من قصب يقال له (الشريجة)[6] ولعل هذه

---

(١) « البخلاء » : — ص ١٠٥
(٢) كتاب « البغال » : — رسائل الجاحظ (هارون) ٢/٣٥٣
(٣) « الحيوان » : — ٣/١٧٠ .
(٤) « الحيوان » : — ٣/١٤٧ .
(٥) « الحيوان » : — ٢/٣٣٥ .
(٦) نفس المصدر ونفس الصفحة .

العناية بتربية الحمام جعلت طائفة منهم يعرفون أساليب إنتخاب الحمام (١)، وأدواوئه وعلاجه (٢)، وتعليمه وتدريبه (٣)، وإستئناسه وإستيحاشه (٤)، وطريقة إستكثاره (٥). وبالمثل قد يربى بعضهم الحبارى (٦)، ومنهم من قد يربى فى داره النعامه، وإن كان ضررها شديدا على أهل الدار، ذلك أنها وربما رأت فى أذن الجارية أو الصبية قرطا فيه حجر رأت وحبة لؤلؤ، فتخطفه انتاكله ... وربما رأت ذلك فى لبة الصبى أو الصبية فتضربه بمنقارها فربما خرقت ذلك المكان (٧)».

وعلى هذه الشاكلة عنوا فى دورهم بتربية أنواع من الحيوان وكان على رأسها الكلاب والسنانير، إذ كانت الكلاب تتخذ لحراسة الناس وأموالهم ومواشيهم، حتى ليقول الجاحظ: — «كان أكثر أهل البيت عيالا على كل كلب» (٨) أما السنانير فكانت نساؤهم خاصة يدللنها، وقد يخضبنها بالحناء، ويضعن لها الشنوف والأشرطة، إمعانا فى تدليلها وإتحافها (٩).

---

(١) نفس المصدر: — ٣ / ٢٧٠.

(٢) نفس المصدر: — ٣ / ٢٧٢.

(٣) نفس المصدر: — ٣ / ٢٧٤، ٢٨٠.

(٤) نفس المصدر: — ٣ / ٢٨٠.

(٥) نفس المصدر: — ٣ / ٢٨٣.

(٦) نفس المصدر: — ٣ / ١٧٠.

(٧) نفس المصدر: — ٤ / ٣٣٤.

(٨) «الحيوان»: — ٢ / ١٧٨.

(٩) المصدر السابق: — ٥ / ٣٣٧، ٣٣٨.

وبالمثل فانهم — فى دور الخلفاء والأمراء والسراة خاصة — قد يربون الأسماك من مثل مايك كره الجاحظ عن أم جعفر بنت جعفر بن المنصور زعموا أنها « حصرت فى حوض لها ضخم ، أو بركة كبيرة عددا كثيرا من الزجر والبنى ، وأنها لم تخلط بهما غيرهما فما أكثره ، وبقيت بقية كانت الصميم فى القرة ، وفى احتمال تغيير المكان ، فلم تحمل البيض حينا ، ثم أنها حملت بالحبابيط »(١) .

وكانت دورهم تضاء ليلا بالقناديل الزجاجية(٢) ، والمسارج الخزفية ، واستخدموا لهذا الغرض الزيوت فى القناديل ، والدهون فى المسارج(٣) ، وبالمثل عرفوا فى دورهم كيف يستخدمون الأشنان والصابون(٤) ، واتخذوا لتنانير(٥) والمطابخ لطهو الطعام ، وربما جعلوها فى العلالى على ظهور أسطح الدور(٦) وبالمثل اتخذوا الخون مع الموائد ليوضع عليها الطعام(٧) ، وكانت من أوانى طعامهم الجامات ، وهى آنية من الفضة ، والسكرجات(٨) ،

---

(١) المصدر السابق : ١٤٩/١

(٢) المصدر السابق : ٣٣٥/٣ — والبخلاء ص ٢١

(٣) « البخلاء » : — ص ٢١

(٤) المصدر السابق : — ص ٦٣

(٥) المصدر السابق : ص ٥٦ ، ٨٣ ، ١٤٠

(٦) « البخلاء » : — ٨٣

(٧) المصدر السابق : — ص ٣٦ ، ٥٤ ومواضع أخرى

(٨) مفردها سكرجة ، وقيل اسكرجة ، ذكر الجواليقى أنها من الألفاظ الفارسية المعربة ، وترجمتها : — « مقرب الخل » انظر المعرب ص٢٧ ، ٢٩٧ .

والطبق[١] ، أما التمر فكانوا يضعونه في الجلال وهي أوعية تتخذ من الخوص[٢] ، وكانت عندهم أوعية يغسلون فيها ثيابهم يقال لها اجانات[٣] ، واتخذ العظماء والأجواد في دورهم قدورا بلغ من ضخامتها ان شبهها الشعراء بالنعامة[٤] ، وجعلوا لدورهم الأبواب يحكم غلقها بالأقفال والرزات[٥] ، وعرفوا كيف يرشحون ماءهم في الجرار الراشحة[٦] ، وكيف يبردونها صيفا في المزملات[٧] ، ويضعونه في الحبب[٨] ، وكان لديهم الخدم في الدور يعنون بتصفية الماء وتبريده وتزميله[٩] ، ويعرفون وظائف الثلج والريحان في الدور[١٠] .

---

(١) « البخلاء » : — ص ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق : — ص ١١٣ .

(٣) « الحيوان » : — ٣/٣٤٩ .

(٤) المصدر السابق : — ٤/٣٣١ .

(٥) « البخلاء » : — ص ٨٢

(٦) المصدر السابق : — ص ٧٣

(٧) المزملات : جرار يبرد فيها الماء ، وتوضع عليها لفائف ثياب خشنة وتغشى بجلد أو ثوب مزين حسن المنظر ، ويجعل من تحتها مرفعا من عود أو حديد ترتفع به عن الأرض ، أنظر في ذلك شرح مقامات الحريري ، (ط . بولاق ، ١٣٠٠ هـ) ٢/٢٩١ .

(٨) « البخلاء » : — ص ١١٣ — والحب مفردها حب ، هو وعاء كبير للماء

(٩) المصدر السابق : — ٣٦ .

(١٠) المصدر السابق : — ص ٢٠٥ .

واتخذوا لنومهم أسرة، وكان بعضهم يحتال فى هيئة سريره ليناسب الأحوال المناخية من مثل ما يرويه الجاحظ فى بخلائه عن أسد بن جانى الطبيب «كان يجعل سريره فى الشتاء من قصب مقشر، لأن البراغيث تزلق عن ليط القصب، لفرط لينه وملاسته. وكان إذا دخل الصيف وحر عليه بيته، اثاره حتى يغرق المسحاة، ثم يصب جرارا كثيرة من ماء البئر ويتوطؤه حتى يستوى فلا يزال ذلك البيت باردا مادام نديا، فاذا أمتديه الندى، ودام برده بدوامه اكتفى بذلك التدبير صيفته وإن جف قبل إنقضاء الصيف، وعاد عليه الحر، عادعليه بالاثاوة والصب»[1]، وبالمثل فانهم إتخذوا نوعا من الجواسق[2].

أما الحامات فإنها كانت فى الدور من إمارات أهل الشرف والبيوتات[3]. وكانوا يفرشون دورهم بالحصر[4]، وأنواع الطنافس والبسط[5]. واتخذوا فى مجالسهم الوسائد والمرافق المغطاة بالمفارش[6]، وكانوا يطلون حوائط دورهم

---

(١) «البخلاء»: – ص١٠٢.

(٢) المصدر السابق: – ص١٧٨ – والجوسق فيما يظهر نوع من القصور، واللفظ فارسى معرب، وهو تصغير قصر «كوشك» أى صغير، أنظر المعرب للجواليقى ص٢٥٦ – وشفاء الغليل للخفاجى ص٥٨، ويذكر أدى شير، أن الأصل الفارسى لهذا اللفظ هو كوچك بمعنى صغير، أنظر الألفاظ الفارسية المعربة ص ١٣٠ فى تفسيره لكلمة «القوس».

(٣) المصدر: ص٢٠٥.

(٤) نفس المصدر: ص١٠٤، ١٣٤.

(٥) نفس المصدر: ص١٤٠.

(٦) «الحيوان»: – ١٦/٢.

بالجص والجبسين (١) وقد يبلطونها ويفرشونها بالآجر (٢) ، ويظهران بعض طوائف أهل الحرف والصناعات كانوا يتخذون لأنفسهم دورا ومحال متقاربة من مثل ما أتخذه البزازون ، والحـــدادون ، والعطارون فى بعض المدن الفارسية (٣).

وأتخذوا فى دورهم بالوعات لتصريف الفضلات الانسانية ، ومياه الأمطار ، وكان هناك رجال يكثرون يقومون على تنقيتها (٥) ، وعرفوا كيف يستفيدون من نفاياتها(٦).

ويحدثنا كذلك فى كتاباته عن أحوال بلدان بعينها ، كانت لها مكانة خاصة فى عصره ، من مثل البصرة ، والكوفة ، وبغداد . ولدينا فى كتابه « الأوطان والبلدان » مناظرة طريفة فى فرق ما بين الكوفة والبصرة وبغداد من سمات ، من مثل ما بانت به البصرة منذ عهدها القديم بكثرة مالها ، ولم تكن كذلك الكوفة ، وفى ذلك يستشهد بنعت زياد بن أبيه للمدينتين ، يقول :

« قال زياد : الكوفة جارية جميلة لامال لها ، تخطب لجمالها ، والبصرة عجوز شوهاء ذات مال ، فهى تخطب لمالها »(٧)، وبالمثل يستشهد الجاحظ بأقوال

---

(١) « البيان والتبين » : — ٦٨/٣ .

(٢) « المصدر السابق » :— ١٩٢/١.

(٣) « الحيوان »:— ٢٩/٣

(٤) « البخلاء » :— ص٨٢

(٥) المصدر السابق : ص١١٣ .

(٦) المصدر السابق : ص١٤٢ — ١٤٣ .

(٧) مخطوط مختارات فصول الجاحظ : ثانى ص٢١٤ .

وأشعار فى علو منزلة البصرة على الكوفة من مثل قول الاحنف لأهل الكوفة : « نحن أعلى منكم برية وأكثر منكم سرية ، وأكثر منكم ذرية » . ومن مثل قول جعفر بن سليمان فى فضل البصرة ومربدها على كل مواقع الدنيا ، وأن داره فيها أفضل دار ، يقول جعفر بن سليمان : — « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة، ودارى عين المربد»[1]، ثم أنظر إلى الجاحظ يفند زعم أهل الكوفة، إن البصرة أسرع الأرض خرابا،وأن ترابها خبيث ويصعب ريها، وفى ذلك يسوق الجاحظ ما يدل على عمار البصرة ، وكثرة دورها، وطول أعمار أهلها ، ورجاحة عقولهم ، وبراعتهم فى جميع الصناعات ، مما قدمهم على جميع الناس ويذكر طيب ترابها ، ويمتدح عذوبة مائها وليست كذلك الكوفة ، أنظر إلى مثل قوله: « زعم أهل الكوفة أن البصرة أسرع الأرض خرابا وأخبثها ترابا ، وأبعدها من السماء ، وأسرعها غرقا ، ومغيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم ، وكيف يعرف وهم لايستطيعون أن يوصلوا ماء الغيض إلى حياضهم إلا بعد أن يرتفع ذلك الماء فى الهواء الاثنين ذراعا فى كل ساقية بعينها لابحوض بعينه »[2] ، ثم أنظر ما جاء فى رده على هذه المزاعم، يقول فى البصرة وأهلها : « ويدل على صلاح مائهم ، وكثرة دورهم ، وطول أعمارهم وحسن عقولهم ، ورفق أكفهم ، وحذقهم لجميع الصناعات ، وتقدمهم فى ذلك لجميع الناس ؛ وتستدل على كرم طينهم ببياض كيزانهم، وعذوبة الماء البائت فى قلالهم ، وفى لون آجرهم كأنما سبك من مح بيض ، وإذا رأيت بناءهم وبياض الجص الابيض بين الاجر الاصفر لم تجد لذلك شبها أقرب من الفضة بين تضاعيف الذهب ، فاذا كان زمان غلبه ماء البحرفان مستقاهم من العذب الزلال

---

(١) مخطوط « مختارات فصول الجاحظ : ثانى ص٢١٥ .

(٢) المصدر السابق : ثانى ص٢١٦ .

الصافى النمير فى الأبدان ، على أقل من فرسخ ، وربما كان أقل من ميل ؛ ونهر الكوفة الذى يسمونه : إنما هو شعبة من أنهار الفرات وربما جف حتى لا يكون لهم مستقى الاعلى رأس فرسخ ، وأكثر من ذلك حتى يحفروا الابار فى بطون نهرهم وحتى يضر ذلك بخضرهم وأشجارهم، فلينظروا لما أضر وأيما أعيب(١)

ويذكر الجاحظ . — أن من بين ما بانت به البصرة على الكوفة ، طيب نخلها وإستقامة عوده مع طول عمره ، حتى أن النخلة تبقى عشرين ومائه سنة وكأنها قدح ، وليس يرى من قرب القرية التى يقال لها النيل إلى أقصى أنهار الكوفة نخلة طالت شيئا إلا وهى معوجه كالمنجل . ثم لم ترغارس نخل قط فى أطراف الأرض يرغب فى فسيل كوفى لعلمه بخبث مغرسه ، وسوء تهوئه ، وفساد تربته ولؤم طبعه (١) » ، وبالمثل كان مما بانت به البصرة على الكوفة بهاء ليالى رمضان فى مسجدها العامر ، وليس كذلك حال مسجد الكوفه بمناره الذى هو على هيئة أبراج الكنائس ، ومن غريب الأمر أنك تجد فى الكوفه مسجدا ظلله الخراب وآوى الكلاب ، مع أنه يضاف إلى على بن أبى طالب، مما يدل على فساد أهلها ، يقول الجاحظ: «وليس لليالى شهر رمضان فى مسجدهم عمارة ولا بهاء، وليس منار مسجدهم على صورة منار البصرة، ولكن على صورة منار الملكانية واليعقوبية، ورأينا بها مسجدا خرابا تأويه الكلاب والسباع، وهو يضاف إلى على بن أبى طالب رضوان الله عليه ، ولو كان بالبصرة بيت دخلة على بن أبى طالب مارأ لتمسحوا به ، وعمروه بأنفسهم وأموالهم (٢) » ، ثم أنظر اليه يصف خراب الكوفة وأسواقها ، وبغض أهلها للبصرة والبصريين ، يقول :

---

(١) مخطوط « مختارات فصول الجاحظ » : — ثانى ص ٢١٦.

(١) المصدر السابق : — ثانى ص ١١٦ .

(٢) مخطوط « مختارات فصول الجاحظ » : — ثانى ص ٢١٧ .

« وخبرني من بات بها (الكوفة) أنه لم يركوا كبها زاهرة قط ، وأنه لم يرها إلا ودونها هفوة ، وكأن في مائها مزاج دهن ، وأسواقها تشهد على أهلها بالفقر ، وهم أشد بغضا لأهل البصرة من أهل البصرة لهم ، وأهل البصرة هم أحسن جوارا وأقل بذخا ، وأقل فخرا [1] » .

وعلى هذه الشاكلة كان أهل بغداد يعيرون أهل البصرة ، وأنهم كانوا مع أهل الكوفة يأخذون على البصريين إستعمال السماد في الأرض والنخيل ويرد الجاحظ على أهل بغداد ، ويصف إتخاذهم العذرة لتسميد بقولهم ، واضرب اللبن ابناء دورهم ، يقول : — « ثم العجيب من أهل بغداد وميلهم معهم [2] ، وعيبهم إيانا في إستعمال السماد في أرضنا ونخلنا ونحن نرهم يسمدون بقولهم بعذرة اليابسة صرفا ، فإذا أطلع وصار له ورق ذروا عليه من تلك العذرة اليابسة حتى يسكن في خلال ذلك الورق ، ويريد أحدهم أن يبني دارا فيجيء إلى مزبلة فيضرب منها لبنا ، فان كانت داره مطمئنة ذات قعر حشاها من تلك المزبلة التي لو وجدها أصحاب السماد عندنا لباعوها بالاموال النفسية ، ثم يسجرون تنانيرهم بالكساحات التي فيها من كل شيء ، وبالابعار عذره ، فلا يصيبوا لها مكانا ، فيحفرون لذلك في بيوتهم آبارا حتى ربما حفر أحدهم في مجلسه وفي أنبل موضع من داره فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيب البصريين بالتسميد [3] » .

ومن الحق أن الجاحظ — وهو بصري — كان شغوفا بالحديث عن بلدته ، ومن ثم رأيناه في مواضع متفرقة من كتاباته يذكر البصره وأحوالها ، ويدلل

---

(١) المصدر السابق ونفس الصفحة

(٢) يعني أهل الكوفة .

(٣) مخطوط « مختارات فصول الجاحظ : ثاني ص ٢١٧ — ٢١٨ .

على علو منزلتها (١) ويذكر أنها فى عهدها الأول فى خلافة عمر بن الخطاب كيف أنه رضى الله عنه كره أن تتخذ فيها دور تبنى باللبن ، ويقيم فيها المسلمون وأنه لم يكن راضيا فى إتخاذهم الضياع فيها فى ذلك العهد الأول من الفتوحات الاسلامية ، يقول الجاحظ . « ولما بنى عتبه بين غزوان وأصحابه بالبصره بناء اللبن ، كتب اليهم عمر « قد كنت أكره لهم ذلك فإذا فعلتم فعرضوا الحيطان ، وإرفعوا السمك وقاربوا بين الخشب» . ولما بلغه أنهم قد إتخذوا الضياع ، وعمروا الأرض كتب اليهم : «لا تنهكوا وجه الارض ، فإن شحمتها فيه (٢)» .

ويظهر أن الصواعق كانت تدهم دور البصريين ، ومن ثم فانهم كانوا «لا يدعون فى صحون دورهم وأعالى سطوحهم ، شيئا من الصفر إلا رفعوه ، لانها عندهم تنقض من أصل مخارجها ، على مقدار من محاذاه الأرض، ومقابلة المكان ، فإذا كان الصفر لها ضاحيا ، عدلت اليه عن سننها » كما يذكر الجاحظ أنه رأى البحريين بالبصره والأبلة يستعملون ذلك(٣) .

وكانت بعض بيوت البصره تتخذ من القصب ، وكانوا يسمونها الاخصاص ويظهر أن هذه الاخصاص ، كانت تضمها رقعة واحده عرفت باسم « اخصاص البصره كان يخطب بينها الحسن البصرى (٤) ، واشتهر من أنهار البصره نهر

---

(١) البيان والتبيين : ١ / ١٠٠ — ١٠١ ، ص ٢٤٢ .
(٢) البيان والتبيين : - ٢ / ٢٨٦ .
(٣) البيان والتبيين : - ٤ / ٣١٦ .
(٤) « البيان والتبيين » : - ١ / ٣٩٨ .

أم عبد الله المنسوب إلى أم عبد الله بن عامر[1]، وكان منافعه لأهل البصرة أنهم كانوا يعلمون صبيانهم فيه السباحة ، ويكون لسقياهم ، وسيول مياههم ، وتأتيهم فيه ميرتهم ، وكان من ضرره عليهم أنه كان ينز منه دورهم ، وتغرق فيه صبيانهم ، ومن أجله يكثر بعوضهم[2] .

وأما طيورها فيذكر الجاحظ منها الحبارى ، كانت تصاد هناك[3] والغربان يقول في نعتها : — انها أوابد غير قواطع ، وهي تفرخ عندنا في رءوس النخيل الشامخة العالية »[4] ، وأما حيوانها فانها عرفت بطيب لحوم جدائها حتى إنهم كانوا يضربون بها المثل[5] .

٢ — العادات :

يلفت نظر الباحث في الحياة الاجتماعية للمجتمع العباسي شيوع جملة من السنن والنزعات المتقابلة ، كانت تحكم مظاهر السلوك الاجتماعي للافراد ولاشك أن هذه السنن والنزعات تعكس صورة ما كان عليه الامتزاج بين عناصر المجتمع، ذلك أن الدارس لها يجدها خليطا بين ما هو متوارث عن الآباء والأجداد العرب وغير العرب ممن ينحدر منهم أفراد المجتمع، وبين ما هو حديث ناتج عن مؤثرات اجتماعية بعينها ، ومن الحق أن كتابات الجاحظ تصور لنا هذه السنن والنزعات، وما تنطوي عليه من أهمية بالنسبة للحياة الاجتماعية ، وسنفرق في هذه الدراسة

---

(١) « معجم البلدان » : - ٨/ ٣٣٦ .

(٢) « البيان والتبيين : - ١ / ٣٩٤ - ٣٩٥ .

(٣) الحيوان : — ٧/ ٦٠ .

(٤) المصدر السابق : — ٢/ ٣١٩ .

(٥) « الحيوان » : — ٥/ ٤٨٧ .

بين السنن باعتبار أنها تمثل ألوان العادات والتقاليد والاعراف ، وبين النزعات باعتبار انها تمثل الظواهر الاجتماعية ، وسنخصها بالحديث فى الفصل التالى .

وقد تباينت السنن الاجتماعية فى المجتمع العباسى بتباين فئاته وطبقاته ، وبتباين عناصره وأجناسه ، ذلك انها وإن كانت ناجمة عن سلوك الناس الذى حدث فى الماضى ، إلا انها تدخل فى تشكيل سلوكهم فى الحاضر وفى المستقبل ، والانسان يجد نفسه مضطرا إلى تقبلها ، والتمسك بها ، والتصرف بمقتضاها ، دون أن يدرك أو يشعر بتلك الخاصة القاهرة أو الملزمة التى تعتبر من أهم خصائص هذه السنن Folkways (١) .

ومن الحق أن طائفة من هذه السنن تكون « مدونة فى صدور الأفراد وراسبة فى تكوينهم ، وتمثل دعامة جوهرية من دعائم تراثهم الاجتماعى ، مما يضفى عليها قدرا من التقديس والاحترام ، ويؤكد ثباتها واستقرارها ، ويوسع نطاق عموميتها ، وانتشارها بين سائر أفراد المجتمع » (٢) . لكن هذا لا ينفى ان من السنن الاجتماعية ما يعد خاصا بطائفة بعينها ، أو طبقة خاصة يؤمن أفرادها بألوان من التقاليد والأعراف تحكم سلوكهم الاجتماعى. ومن المحقق أن أفراد المجتمع العباسى من غير العنصر العربى كانوا يتمسكون إلى حد بعيد بما تأصل فى نفوسهم من سنن متوارثة ، ونجدهم يصبغون الحياة الاجتماعية بألوان من السنن لم تألفها البيئة العربية الخالصة من قبل ، ومع ذلك يجدر بنا ملاحظة أن الانسان يمكنه أن يحور فى هذه السنن ، ويغير فى الحدود التى تجيزها وفقا لثقافته ومبلغ تطوره ، وتطور بيئته ، وهذا لا يعد خرقا فى المجتمع وأوضاعه

---

(١) أنظر Tolkways, W. G. Mentor Books, 1960, 1. P 103.

(٢) « دراسة المجتمع » : — د. مصطفى الخشاب ص ٥٠ .

بقدر ما هو مسايرة للتطور ، واستجابة مع الأوضاع المستحدثة (١) ومن ثم فان صور السنن التى تحكم سلوك الأفراد فى المجتمع العباسى ، لم تكن على شاكلة صورتها فى المجتمعات غير العربية التى ذاب أفرادها فى المجتمع العباسى ، وإنما تمتزج فيها ملامح الصور السابقة بمراتب متفاوتة من حيث القدرة على التأثير ، والتأثر فى الحياة الاجتماعية .

١ ــ عيادة المرضى والتزاور :

وقد نثر الجاحظ فى كتاباته ما يصور لنا بعض هذه السنن المتقابلة من مثل حديثه عن عيادة المرضى ، وأنهم كرهوا ان تكون فوق القدر ، يقول : « قال بعضهم : عيادة النوكى الجلوس فوق القدر ، والمجىء فى غير وقت » (٢) ، وبالمثل كرهوا أن يحدث المريض فيمن اعتلوا بعلته ، أو أن ينعى اليه الموتى ، يقول :ـ « عاد رجل رقبة بن الحر ، فنعى بذلك اليه نفسه ، فقال له رقبة : إذا دخلت على المرضى فلا تنع اليهم الموتى ، وإذا خرجت من عندنا فلا تعد الينا » (٣) ، وهم كرهوا أن تكون زيارة الزائر مملة ، وان يكون مكثه طويلا ، خاصة عند الامراء ، وفى ذلك يقول الجاحظ « قال الاصمعى :ـ دخل حبيب بن شوذب الأسدى على جعفر بن سليمان بالمدينة فقال :ـ أصلح الله الامير ، حبيب بن شوذب ، واد الصدر ، جميل الذكر ، يكره الزيارة المملة ، والقعدة المنسية » (٤) ، وكرهوا أن ينظر الزائر

---

(١) « دراسة المجتمع » . د. مصطفى الخشاب ص ٥

(٢) « البيان والتبيين » :ـ ٢٥٣/٢ .

(٣) نفس المصدر السابق .

إلى أهل بيت مضيفه ، وعدوا ذلك صنيعا مشينا ، حتى ليقول الشاعر ، وهو أبو عطاء السندى ، وقد رأى زائرا له يومىء إلى امرأته :

كل هنيئا وما شربت مريئا ∴ ثم قمْ صاغرا فغير كريم
لا أحب النديم يومض بالعيـ ∴ ـن إذا ما خلا بعرس النديم(١)

٢ — من الموائد والدعوة الى الطعام :

وكانت لهم عادات بعينها فى تناول طعامهم ومن موائدهم ، من مثل كرههم ان يزيد الخبز على الموائد عن المقدار ، واستحسنوا وضع أصناف الطعام على قدر الأكل فى أطباق نظيفة منمقة ، وان يقوم على تقديمها فى دور السادة خدم نظاف . وأما الفاكهة فكانوا يستحسنون وضعها على أطباق مزدانة بالمناديل النظيفة ، يقول الجاحظ فى مثل هذه المعانى على لسان محمد بن المؤمل : ـ « والخبز إذا كثر على الموائد ورث ذلك النفس صدودا ، وكل شىء من المأكول وغير المأكول إذا ملأ العين ملأ الصدر ، وفى ذلك موت الشهوة وتسكين الحركة ، ولو ان رجلا جلس على بيدر تمر فائق ، وعلى كرسى كمثرى منعوت ، وعلى مائة قنوموز موصوف ، لم يكن أكله إلا على قدر استطرافة ، ولم يكن أكله على قدر أكله إذا أتى بذلك فى طبق نظيف ، مع خادم نظيف ، عليه منديل نظيف » (٢) ، وكانوا يكرهون شرب الماء على الطعام ، وان كان ذلك ليس من رأى البخلاء ، من أمثـــال ابن أبى المؤمل (٣) ، وأطلقوا على سىء المؤاكله « الجردبيل » ، وهى من الألفاظ الفارسية الأصل المعربة ، بمعنى الذى يضع يده

---

(١) البيان والتبيين ٣٤٧/٣ .

(٢) « البخلاء » : — ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق : — ص ٩٨ .

على الطعام لئلا يتناوله غيره ، أو الذى يأكله بيمينه ويمنع بشماله (١) ، وعدّ من العادات السيئة عند الطعام « الزمزمة » (٢) ، ومن مثل هذه العادات السيئة عند الطعام ما ذكره الجاحظ فى تفسيره لكلام أبى فاتك فى بعض ما ذمه وشنعه فى الطعام بين طوائف السفلة ، ووصفه لهذه الخصال وصفادقيقا (٣) ، وقد وقف الجاحظ عند كلام أبى فاتك ليفسر ما جاء فيه من ألفاظ فى نعت هذه العادات والخصال (٤) ، من مثل قولهم :

النشال ، للذى يتناول من القدر ، ويأكل قبل النضج ، وقبل أن تنزل القدر، ويتم القوم، والمرسال للذى إذا وضع فى فيه لقمة هريسة أو حيسه أو أرزة ، أرسلها فى حلقة إرسالا، والمكام الذى فى فيه اللقمة، ثم يلكمها بأخرى قبل إجادة مضغها أو ابتلاعها و « المصاص » للذى يمص جوف قصبة العظم، بعد أن استخرج مخــه، واستأثر به دون أصحابه ، و « النفاض » الذى إذا فرغ من غسل يده فى الطست نفض يديه من الماء ، فنضح على أصحابه ، « المقور للذى يقور الجراذق (٥) ، ويستأثر بالأوساط ، ويدع لأصحابه الحروف ، و « المغربل » للذى يأخذ وعاء

(١) «البخلاء» : — ص ٦٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه — وانظر القاموس حيث ذكر فى معنى «الزمزمة» ما يفيد أنها نوع من تراطن العلوج ، والعلوج جمع علج بكسر فسكون هو الرجل من كفار العجم .

(٣) « البخلاء » : — ص ٦٧ ، وما بعدها .

(٤) المصدر السابق : ص ٧٦ — ٧٨ .

(٥) الجرذقة : ـ الرغيف الغليظ ، أنظر شفاء الغليل للخفاجى ص ٥٨ - والمعرب للجواليقى ص ٥٧ .

الملح فيديره إدارة الغربال ليجمع أبازيره، يستأثر به دون أصحابه ، لا يبالى أن يدع ملحوم بلا إبراز، « والمحلقم » الذى يتكلم واللقمة قد بلغت حلقومه ، و« المسوغ » الذى يعظم اللقم، فلا يزال قد غص ، ولا يزال يسوغه بالماء ، والنشاف الذى يأخذ حرف الجرذقة ، فيفتحه ثم يغمسه فى رأس القدر، ويشرب به الدسم ، يستأثر بذلك دون أصحابه واللطاع ، الذى يلطع أصبعه ، ثم يعيدها فى مرق القوم أو لبنهم أو سويقهم وما أشبه ذلك والنهاش للذى ينهش اللحم كما ينهش السبع ، و « المداد » الذى ربما عض على القصبة التى تنضح « وهو يمدها بفيه ، ويمده بوترها له فربما قطعها بنترة ، فيكون لها انتضاح على ثوب المؤاكل وهو الذى إذا أكل مع أصحابه الرطب أو التمر أو الهريسة أو الأرزة ، فاتى على ما بين يديه مد ما بين أيديهم إليه، والدفاع « للذى إذا وقع فى القصعة عظم، فصار مما يليه نحاه بلقمة من الخبز حتى تصير مكانه قطعة من لحم ، وهو فى ذلك كأنه يطلب بلقمته تشريب المرق ، دون إراغة اللحم ، والمحول الذى إذا رأى كثرة النوى بين يديه ، إحتال له حتى يخلطه بنوى صاحبه (١) .

وبالمثل حدثنا الجاحظ عن ضروب من الأطعمة إعتادوها فى مناسباتهم يعينها من مثل : العرس وهى وليمة الزواج ، « والخرس » وهو ما يولم عند الولادة ، و« الأعذار » وهو وليمة الختان ، و « الوكيرة » وهى وليمة تقام عند اتمام البناء ، و « النقيعة » وهى طعام يصنع للقادم من سفره ، أو طعام الرجل ليلة زواجه ، أو كل جزورة تجزر للضيافة (٢) .

و« العقيقة » وهى دعوة على لحم الكبش الذى عن الصبى (٣) .

(١) البخلاء : — ص ٧٦ — ٧٨ .

(٢) « البخلاء : — ص ٢١٣ .

(٣) المصدر السابق : ص ٢١٥ .

كذلك ذكر ان أسلوب الدعاء إلى هذه الأصناف من الطعام كان منه المذموم، ومنه الممدوح ، يقول : « أما الدعاء إلى هذه الأصناف فمنه المذموم ، ومنه الممدوح ، فالمذموم « النقرى » والممدوح « الجفلى » (١)، وذلك ان صاحب الدعوة وولى الدعوة إذا جاء رسوله والقوم فى احويتهم وأنديتهم فقال : « أجيبوا إلى طعام فلان ، فجعلهم جفلة (٢) واحدة، وهى الجفالة (٣)، فذاك هو المحمود، (٤) وإذا انتقر فقال :

« قم أنت يا فلان ، وقم أنت يا فلان، فدعا بعضا و ترك بعضا فقد انتقر ». وكان بعض كبرائهم وأدبائهم ، وعلمائهم إذا أراد أن يدعو بعض من يجرى مجراة فى سلطان أو أدب ، إلى مأدبة أو ندام ، أو خروج إلى منتزة أو بعض ما يشبه ذلك أن يجعل دعوته هذه مكتوبة ، لأن « الكتاب فى ذلك أسرى وأنبه وأبلغ من مشافهة الرسول » (٥) .

٣ — صحبة الولاة ومهاداتهم :

واستنوا سننا بعينها فى صحبة الولاة والجلوس فى مجالس الساده ، فكان لا يتربع أحد فى مجلس الوالى ثم يمد رجليه ، وكره بعض الخلفاء فيمن يسايرهم ان يكون على محاذاتهم (٦) ، وبالمثل كرهوا قيام الخدم بالمذاب والأشربة على

---

(١) الجفالة : الجماعة من الناس .

(٢) « البخلاء » : — ص ٢١٥ .

(٣) « الحيوان » : — ١/٩٧ — ٩٨ .

(٤) « البخلاء » : — ص ٢٠٥ .

(٥) « الحيوان » : ١/٩٧ — ٩٨ .

(٦) البيان والتبيين : ٢/٢٥٤ — ٢٥٥ .

رءوسهم وهم يأكلون ، مخافة النفس والعين ، وكانوا يأمرون « بإشباعهم قبل أن يأكلوا (١) .. » .

ويظهر أن خلفاءهم كانوا يفضلون النوم بالنهار والسهر بالليل ، وأن بعضهم ذهب إلى تناول الشراب ، وسماع الصوت الحسن في الليل، لأنه استر وأجدر أن يتم به التدبير (٢) ، وكان مما يهدى إلى الخلفاء بعض أنواع العصافير (٣) ، وبالمثل كان من أهل الشرف من اجازه الشعراء بالدجاج ، إذا كان الدجاج مما يتهادون به (٤) ، وبالمثل كان خلفاؤهم إذا جاءتهم الخرائط بالظفر غرزوا فيها قوادم ريش سوداء (٦) . وحرصوا في مجالسهم أن يجلس الجالسون كل حسب مرتبته الاجتماعية، وذلك من قبيل حرصهم على أن يكون القوم في المجالس حسب أقدارهم ، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يحوطون صدر مجالسهم باطار من الاحترام والهيبة ، حتى انه كان يقال : ـــ « إياك وصدر المجلس وان صدرك صاحبه ، فانه مجلس قلعة (٧) » ، وكانوا لا يأنفون أن يقوم المرء عن محله لابيه ، أو أن يخدم ضيفه ، أو أن يخدم عالما (٨) . وبالمثل كانوا في صحبة الخليفة في موكبه يقولون :

---

(١) الحيوان : ١٣١/٢ — ١٣٢ .

(٢) « البيان والتبيين » : — ٢٠٠/٢ .

(٣) « الحيوان » : — ٢٤٣/٥ .

(٤) المصدر السابق : ٢٧٧/٢ .

(٥) المصدر السابق : ١٥٦/١ .

(٦) « الحيوان » : ٤١٨/٣ .

(٧) « البيان والتبيين » : — ٢٠٠/٢ .

(٨) المصدر السابق : ٧٤/٢ — ٧٥ .

« ينبغى لمن ساير خليفة أن يكون بالموضع الذى إذا أراد الخليفة أن يسأل عن شىء لا يلتفت اليه ، ويكون من ناحية إن التفت لم تستقبله الشمس » (١) .

٤ — الزواج والختان :

ويحدثنا الجاحظ عن سنن بعينها فى زواجهم وختانهم لأولادهم وحفلات الولادة ، من ذلك أنهم كانوا يشددون فى اختيار نسائهم (٢) وكانوا فى خطب النكاح يخطبون قعودا(٣)، واستحبوا فيها أن يطيل الخاطب، ويقصر المجيب(٤) وكان يقال للخاطب إذا كان مرغوبا فيه : « ذاك الفحل الذى لا يقرع أنفه (٥) » ، وسمحوا للمرأة المعنسة « أن تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك(٦)».

وكذلك يحدثنا عن سنتهم فى ختان أبنائهم ، وينقل عن أطباء النصارى زعمهم : — « أن اليهود يختنون أولادهم فى اليوم الثامن ، وان ذلك يقع ويوافق أن يكون فى الصميمين (٧) ، كما يوافق الفصلين ، وانهم لم يروا قط يهوديا أصابه مكروه من قبل الختان ، وأنهم قد رأوا أولاد المسلمين والنصارى مالا يحصى ممن لقى المكروه فى ختانه إذا كان ذلك فى الصميمين من ريح الحمرة (٨) »

(١) المصدر السابق : ٢/٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٢) المصدر السابق : ٣/٢٧٦ .

(٣) البيان والتبيين : ١/١١٨ .

(٤) المصدر السابق ١/١١٦ .

(٥) المصدر السابق : ٣/٨٤ .

(٦) كتاب القيان : رسائل الجاحظ (هارون) ، ٢/١٥٧ .

(٧) يراد بالصميمين : الصيف والشتاء فى أشد حالاتهما ، أنظر الحيوان / ٢/٢٣٥ .

(٨) الحمرة : داء يعترى الناس فيحمر موضعه ، وهو من جنس الطواعين .

ومن قطع طرف الكمرة ، ومن أن تكون الموسى حديثة العهد بالاحداد وسقى الماء ، فتشيط (١) عند ذلك الكمرة ، ويعتريها برص (٢) كما يقول : « ان الصبى ابن ثمانية أيام أعسر ختانا من الغلام الذى قد شب وعدن وقوى » وقد لاحظ أن أولاد العامة والفقراء يختن منهم : « الجماعة الكثيرة فيؤمن عليهم خطأ الخاتن ، وذلك غير مأمون على أولاد الملوك وأشباه الملوك » ، وهو يعلل ذلك : — « لفرط الاجتهاد ، وشدة الاحتياط ، ومع ذلك يزمع (٣) ، ومع الزمع والرعدة يقع فى الخطأ ، وعلى قدر رعدة اليد ينال القلب من الاضطراب حسب ذلك (٤) » . وكان من عادتهم فى ختان صبيانهم ألا يحضر الختان من يهاب ، وجعلوا من حسن التدبير فى الختان أن يحضره مع الخاتن سفلة الخدم (٥) .

ويذكر الجاحظ أن « سنة الختان فى العرب ، فى النساء والرجال ، وانها فيهم من لدن ابراهيم وهاجر ، وانهم كانوا يرون فى ختان النساء صونا لعفافهن (٦) ، حتى إن نساء الهند والروم وفارس إنما صار الزنا وطلب الرجال فيهن أعم ، لأن شهوتهن للرجال أكثر ، ولذلك اتخذ الهند دورا للزنا ، وان ذلك كله يرجع الى « عدم ختانهن » (٧) .

---

(١) شاط ، يشيط : هلك ، واحترق .

(٢) الحيوان : ٧/٢٥ — ٢٦ .

(٣) أن يزمع الخاتن ، والزمع : الدهش ، ورعدة تعترى يد الانسان إذا هم بأمر .

(٤) الحيوان : ٧/٢٦ — ٢٧ .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق : ٧/٢٧ .

(٧) المصدر السابق : ٧/٢٨ — ٢٩

٥ — معتقدات شعبية :

واتخذوا سننا بعينها ، كانت تشكل جانبا فى معتقداتهم الشعبية ، من مثل تحريم بعض الأعمال لارتباطها فى أذهان العامة بقوى مؤثرة فى طبيعة الحوادث، من ذلك ما يرويه الجاحظ فى حيوانه من « أن الأصمعى ، وأبا الحسن ، نقلا عن بعض المشايخ قوله : « ثلاثة أشياء ربما صرعت أهل البيت عن آخرهم : أكل الجراد ، ولحوم الابل ، والفطر من الكمأة (١) » ، وان غيرهما قال فيما يضر من الأشياء : — « شرب الماء يورث الخبل ، والنظر إلى المحتضر يورث ضعف العقل والاطلاع فى الابار العادية ينقص التركيب ، ويسول مصارع السوء ... » ، قالوا : ومما يقتل « الحمام على الملأة (٢) ، والجماع على البطنة والاكثار من القديد القابس (٣) . وقال الآخر : — « شرب الماء البارد على الظمأ الشديد — إذا عجل الكرع ، وعظم الجرع ، ولم يقطع النفس — يقتل . قالوا : وثلاث تورث الهزال ، شرب الماء على الريق والنوم على غير وطاء ، وكثرة الكلام برفع الصوت » والجماع على الامتلاء من الطعام ودخوله ، وربما خيف عليه أن يكون قاتل نفسه » ، وقالوا : « أربعة أشياء تسرع إلى العقل بالافساد : الاكثار من البصل ، والباقلا (٤) ، والجماع ، والخمار (٥) .

وعلى هذه الشاكلة نستطيع أن نضع بين هذه المعتقدات عزوف العامة عن

(١) الحيوان : ٥/٥٧٠ .

(٢) الملاءة بالكسر : الامتلاء .

(٣) القديد : ما قطع من اللحم وشرد اى بسط فى الشمس، واللحم المملوح المجفف فى الشمس .

(٤) الفول .

(٥) الحيوان : ٥/٥٧٠ — ٥٧١ - والخمار هو صداع الخمر وأذاها .

قتل الذباب الكبير الحديد الطنين حين سقط اليوم : ـ « انه يبشر بقدوم غائب وبرء سقيم ، صاروا إذا دخل المنزل وأوسعهم شرا لم يهاجمه أحد منهم »[1] وبالمثل « انه إذا أصاب المطر باب الدار الذى من شق العراق كان الخصب والمطر فى تلك السنة فى شق العراق ، وإذا أصاب الذى فى شق الشام ، وإذا عم جوانب البيت كان المطر والخصب عاما فى سائر البلدان »[2] .

وكان فى عرف العامة : الاعتقاد فى طب القوابل ، والعجائز ، وفى ذلك يقول محمد بن الجهم : ـ « لا تتهاونوا بكثير مما ترون من علاج القوابل والعجائز فان كثيرا من ذلك إنما وقع اليهن من قدماء الأطباء »[3] .

٣ ـ المطاعم :

تنوعت ألوان المطاعم فى المجتمع العباسى تنوعا ظاهرا ، واختلفت من بلد إلى بلد ، ومن طائفة اجتماعية إلى أخرى ، وغدت فى تنوعها صورة واضحة لامتزاج العناصر المتباينة فى المجتمع . وأصبحنا فى هذا العصر أمام آداب بعينها فى مد الموائد والدعوة إلى المطاعم ، وتباينت عادات القوم فى مآكلهم ، وتفضيل صنف من الأطعمة على آخر ، حتى غدا لكل بلد من البلدان لون بعينه من الطعام عرفت به ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « سئل بعضهم عن حظوظ البلدان فى الطعام ، وما قسم لكل قوم منهم فقال : « ذهبت الروم بالجشم والحشو ، وذهبت فارس بالبارد والحلو » ، وقال عمر : « لفارس الشفارج والحوض » ، فقال دوسر المدينى « لنا الهرائس والقلايا ، ولأهل البدو اللبأ والسلاء ، والجراد والكمأة ،

---

(١) الحيوان : ٣/ ٣٢٠ .
(٢) المصدر السابق : ٣/١٤٠ .
(٣) « الحيوان » : ٣/٣٢٢ .

والخبزة في الرأب ، والتمر بالزبد »[1] .

ومن الحق أن طعامهم تنوعت أصنافه ، ودخلها كثير من الأصناف الفارسية وقد نثر الجاحظ في كتاباته وفي بخلائه - على وجه الخصوص - طائفة من أسماء الأطعمة نسوق طرفا منها من مثل : الشبارقات[2] » ، يقول الجواليقي في نعتها : « هي ألوان من اللحم في الطبائخ ، وأصلها بالفارسية « شفارج » وتسميها العامة « فيشفارج وبشارج [3] وقد تكون « مما يقدم بين يدى الطعام من الأطعمة المشهية له [4] » ، ومن طعامهم الفارسي الأصل « السكباج [5] » ، وهو نوع من المرق يعمل من اللحم والخل ، ويذكر ادى شير ان اللفظ معرب « سكبا » المركب من : « سك » أى خل ، ومن « با » أى طعام [6] ، وكان من هذه الشاكلة « الطباهج » ، وهو طعام مثل الكباب تسميه العرب « الصفيف [8] » ، وذكر ادى شير ان اللفظ فارسيته ، « تباهة » ، وقال : « انه طعام من بيض وبصل ولحم [9] » ، وكان من بين فطائرهم نوع فارسي هو « البستندود » [10] قال

---

(١) « البخلاء » : ص ١٧٩ .

(٢) البخلاء (تحقيق د : طه الحاجرى) ص ٢٠٣ .

(٣) المعرب — الجواليقى ص ٢٠٤

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٩ .

(٥) البخلاء ص ٢٣ ، ورسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) : ١٨٢/١ و ٣٩١ .

(٦) الألفاظ الفارسية المعربة : (ادى شير) ، ٩٢ .

(٧) البخلاء : ص ٢٣ .

(٨) شفاء الغليل — للخفاجى : ص ١٢٩ .

(٩) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١١١ . (١٠) البخلاء : ص ٩٣ .

عنه فان فلوتن فى « الملاحظات والايضاحات » بأنه ذلك النوع من الفطائر المحشوة endcut (Pata) [1] ومن حلوائهم : الفانيذ [2] » ، يقول ادى شير فى نعته : « الفانيذ معرب بانيذ ، وهو نوع من الحلواء ، يصنع من السكر ، ودقيق الشعير والترنجبين [3] وبالمثل كان من حلوائهم الفارسية الأصل « الجوزينج [4] » ، وفارسيته « كوزينه » ويظهر انه كان ضربا من الحلوى يعمل من الجزر [5] ، ومنها أيضا « الخشكانان » [6] يقول دوزى فى معجمه ، « ان أصل اللفظ « خشكننج » ، ويعنى نوعا من الخبز المصنوع بالزبد ، والسكر ، والجوز ، والفستق ، ويكون على هيئة الهلال [7] ، ومنها نوع من الحلواء يقال له « الفالوذق [8] » ، يقول الخفاجى : « ان الفالوذ والفالوذق معربا اللفظ الفارسى « بالودة » [9] ، وقيل فى نعته هو « فتات البر ، بلعاب النحل ، بخالص السمن » [10] ، وكان من دقيقهم « الخشكار » [11] ، وهو ماخشن من الطحن ،

---

(١) البخلاء : (ط . ليدن) — ص ١١ .

(٢) « البخلاء » : ص ٣١ .

(٣) الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٢١ .

(٤) رسائل الجاحظ (تحقيق عبد السلام هارون) ٢٦٦/١ .

(٥) الألفاظ الفارسية المعربة (ادى شير) ص ٤٨ .

(٦) البخلاء : ص ١٣١ .

(٧) Supplement Aux Dicitionaires Arabes, Dozzy Leide, : 1881, 1/373.

(٨) البخلاء : ص ١٣١ .

(٩) شفاء الغليل : ص ١٤٧ .

(١٠) عيون الأخبار : (ابن قتيبة) ، ٢٠٣/٣ .

(١١) رسائل الجاحظ (تحقيق هارون) : ٢٦٦/١ .

وفارسيته « خشكار » (١) ، وقد يكون من دقيق الشعير يحشى فيه الجوز والسكر ومن خبزهم « الجردق (٢) » وهو لفظ معرب من الفارسية وأصله « كرده » ، يقول الجواليقى : « انه الغليظ من الخبز » (٣) . وقد يقال فى تعريبها « جرذق » بالذال ، ولكن الأول أجود (٤) ، ويقول استينجاس فى تفسير معنى اللفظ الفارسى (كرده) انه « يعنى الرغيف المستدير الغليظ (٥) » .

وكان من الطعام الممدوح عند العرب خاصة :ــ « الحيس والخبز ، وكان من عادتهم أن يقدموا اللحم على اللبن ، وعلى التمر ، وعندهم « ليس يكون فوق عقر الإبل ، واطعام السنام شيء (٦) » وبالمثل كان من طعامهم لحوم الطير من مثل :ــ الديكة ، والبط ، والدجاج ، والدراج ، كانوا يذبحونها من أول الليل ليسترخى لحمها (٧) ، وأما الخلفاء والأشراف فكانوا « لا يرغبون فى شيء من الحمام رغبتهم فى الدجاج ، وهم يقدمونها على البط ، والنواهض ، والقبج ، والدّراج ، لهم وعلى الجداء ، والأعنق والحمر من بنات الصفايا ، وهم لا يعرفون طبعها ، وسوء قوتها ، وهم مع ذلك يأكلون الرواعى كما يأكلون المسمنات » (٨) ،

---

(١) الألفاظ الفارسية المعربة (ادى شير) ، ص ٥٥ « ومعجم (استينجاس » ص ٤٠٢ .

(٢) البيان والتبيين : ٣/٢٢١ .

(٣) المعرب (الجواليقى) : ص ٧٥ .

(٤) المعرب للجواليقى : ص ٩٥ .

(٥) المعجم الفارسى الانجليزى (استينجاس) ، ص ١٠٨١ .

(٦) البخــلاء : ص ٢٣٠ .

(٧) الحيــوان : ٢/٢٩٩ .

(٨) المصدر السابق : ١/٢٣٣ .

ويظهر أنه كان للجدى مكان ممتاز في موائد الطعام ، حتى إنه كان من أحسن الطعام عند خلفائهم وكانوا يحرصون عليه حتى في أسفارهم(١) ، وفي مثل ذلك يقول الجاحظ على لسان محمد بن المؤمل في بخلائه : — « . . . وكانوا يعلمون أن إحضار الجدى إنما هو شيء من آيين الموائد الرفيعة ، وإنما جعل كالعاقبة ، والخاتمة ، وكالعلاقة لليسر والفراغ(٢) » ، وكانت الجداء المذكورة عندهم « جداء البصرة ، وجداء كسكر » ، وهى عندهم أفضل من الضأن في الشواء ، ولذلك صار الخبازون الحذاق قد تركوا الضأن ، لأن « المعز يبقى شحمه ولحمه ، فيصلح لأن يسخن مرات فيكون أربح لأصحاب العرس(٣) » ، وكانوا يشوون روسها وروس الضأن ، يقول الجاحظ : — « ورأس الضأن المشوية هى الطيبة المفضلة ، رؤوس الماعز ليس عندهم طائل(٤) » ، وان كان الجاحظ يذكر في بيانه قولا على لسان يونس النحوى أنهم لا يأكلون الأدمغة(٥) ، ويظهر أن الروس كانت تباع في يوم بعينه يسمى « يوم الروس(٦) » ، وعند قصابين بعينهم ، كانوا يتخذون أماكنهم قرب المساجد من مثل مسجد ابن رغبان(٧) ، ويظن أن هذا اليوم كان يوم السبت(٨) ، ويظهر أن اللحم كان يباع في أيام بعينها ،

(١) المصدر السابق ٠ ٤٨٢/٥

(٢) البخـــلاء : ص ٩٧ ٠

(٣) الحيـــوان : ٤٥٧/٥ — ٤٥٨ ٠

(٤) المصدر السابق ، ٤٥٧/٥ ٠

(٥) البيان والتبيين : ١٠٩/٣ ٠

(٦) البخـــلاء : ص ١٠٨ ٠

(٧) المصدر السابق : ص ١١١ ٠

(٨) المصدر السابق : ص ١١١ — ١١٢ ٠

من ذلك ما يذكره فى حيوانه من أنه « كان بالبصرة بعض المواضع يبتاع فيها اللحم أيام الجمع ، قبل صلاة الغداة ومن هذه المواضع : « دارجارية[1] » .

وأعجب البحريون خاصة بأكل « الزق » والكوسج ، وهو اسم سمكة ، ويظن أن اللفظ معرب كوسه ، ويقال كوسق[2] ، و « البلبل » وهو اللحم الذى فى جوف الأصداف[3] وبالمثل انتفعوا بأكل الأرنب ، ووصفوه بالطيب لاسيما أن جعل محشيا ، فانهم كانوا يشتوونه[4] ، ومنهم من أكل العصافير واتخذ لها (طباهجات وقلايا) ، تدعى « العصافيرية[5] » .

ويظهر أنه كانت فى أسواق مدن العراق حوانيت تعد أنواعا من الأطعمة يبتاعها الناس ، وكانت هذه الحوانيت تعرف باسم « الكرابج[6] » ، وبالمثل كان السمك من طعامهم[7] ، حتى قيل « أن البصرى لايصبر على السمك[8] » ، وكانوا يرون فى « الشبوط » أرفع السمك ثمنا[9] ، وأجوده طعما[10] .

---

(1) الحيـــوان : ١٢١/٢ .

(2) شفاء العليل : ١٢١/٢ .

(3) الحيـــوان : ٤٥/٤ .

(4) الحيـــوان : ٣٥٩/٦ .

(5) المصدر السابق : ٢٢٢/٥ .

(6) البيان والتبيين : ١٥/٣ — يقول الجواليقى فى تفسير هذا اللفظ أنه جمع (كربج) ، وهو دكان البقال ، وقد يقال فرتق ، وكرتق — أنظر المعرب « الجواليقى ، ص ٢٩٢ .

(7) النخلاء : ص ٦٩ .

(8) المصدر السابق : ص ١٠٠ .

(9) الحيوان : ٢٣١/١ — ٢٣٤ .

(10) المصدر السابق ٥٦/٥ .

وأكلوا « الجراد » ، وكان يطيب عندهم حارا ، وباردا ، ومشويا ، ومطبوخا، ومنظوما فى خيط ، ومجعولا فى الملة[1] يقول الجاحظ فى ضروب الجراد المأكول : « ومنه الأهوازى ، ومنه المذنب ، وأطيبه الأعرابى ، وأهل خراسان لا يأكلونه[2] » .

ويحدثنا أيضا عن الطعام المذموم عندهم ، ويذكر أنه على ضربين « أحدهما طعـــام (المجاوع[3]) ، و (الحطمات[4]) ، و (الضرائك[5]) و (السباريت[6]) ، و (اللئام) ، و (الجبناء) ، و (الفقراء) ، و (الضعفاء) ومثل هذه الضروب تقوم على أكل أصناف بعينها من الأطعمة عد منها الجاحظ (الفث[7]) ، و (الدعاع[8]) ، و (الهبيد[9]) ، و (القرامة[10])

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الحيوان : ٥/٦ .

(٣) المجادع : ـــ جمع مجاعة :

(٤) الحطمة : السنة الشديدة الجدب

(٥) الضريك : الفقير الهالك ، والانثى ضريكة ، والجمع ضرائك وضركاء

(٦) السبروت (السبريت) : ـــ المحتاج المقل المفلس .

(٧) الفث : ـــ نبت يختبز حبه ، ويؤكل فى الجدب ، وتكون خبزته غليظة .

(٨) الدعاع : جمع دعاعة ، وهى حبة سوداء يأكلها فقراء البادية إجدبوا .

(٩) الهبيد : الحنظل يكسر حبه ، وينقع لتذهب مرارته ، ويتخذ منه طبيخ يؤكل عند الضرورة .

(١٠) القرامة : الجليدة المنطوعه من الف البعير .

و(الـقرة(١)) و (العسوم(٢)) و (منقع البرم(٣)) ، و (القصيد(٤)) ، و (القد(٥)) و (الحيات (٦)) . أما الضرب الثانى من الطعام المذموم عندهم، فنه : ـــ (الخزيرة) التى تعاب بها مجاشع بن دارم ، وكنحو (السخينة) التى تعاب بها قريش(٧) ، وبالمثل كانت تهجى الانصار ، وعبدالقيس ، وعذرة ، وكل من كان يقرب النخل بأكل التمر(٨) ، وكانت تهجى أسد بأكل الـكلاب ، وبأكل لحوم الناس(٩) ، وعيرت كلب ، والقين بأكل الخصى(١٠) » .

وكان لبعض فئات المجتمع طعامها الخاص بها من مثل ما يحدثنا به الجاحظ عن طعام الشعوبية ، والازادمردية ، أكلوا الطيب وعرفوه ، من مثل : ـــ (الحوارى) ، و (الفالوذق (١١)) ، وكانوا يهجون العرب بأكل : ـــ

---

(١) القرة : مالصق بأسفل القدر .

(٢) العسوم : الخبز اليابس .

(٣) البرم : جمع برمة وهى ثمرة العضاة أو السلم ، انظر المصباح) ، وفى (اللسان : ـــ) العضاة كل شجر له شوك والواحدة عضاهة .

(٤) القصيد : اللحم اليابس .

(٥) القد : جلد السخلة ، وهى ولد الضأن والماعز ساعة تولد ، تقال للذكر والانثى ، وجمعها سخل وسخال وسخلان ، انظر (المصباح) .

(٦) انظر فى هذه الاصناف : البخلاء ، ص ٢١٦ .

(٧) المصدر السابق : ص ٢٣٣ .

(٨) البخلاء : ص ٢٣٤ .

(٩) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(١٠) المصدر السابق : ص ٢٣٧ .

(١١) المصدر السابق : ص ٢٢٩ :

ذلك[1] . وأما أهل القرى فكان من طعامهم : (الكرات) ، والبصل حتى (العلهز[2])و(الفث) ، و (الدعاع) ، و (الهبيد) ، و (والمغافير)[3] ، واشباه ذلك ، [4] وأما أهل القرى فكان من طعامهم : (الكرات) والبصل حتى ان نواجذهم اخضر لونها ، ومن ذلك جاء قولهم . « اخضر النواجذ » ، يقول الجاحظ فى تفسير ذلك : — (إنما يريدون أنه من أهل القرى ممن يأكل الكرات والبصل[5]) ، وتنبه الجاحظ إلى أن الانسان قد يعتريه مرض بعينه من أثر طعام بعينه ، من مثل ما قد يعترى الإنسان من « البوص » من شرب اللبن ، وأكل التمر[6] .

٣ — المشـــارب :

لم يتحدث الجاحظ تفصيلا عن أنواع المشارب ، ولايلقانا منها فى كتاباته إلا النذر اليسير ، من مثل : — (الجوارشن[7]) ، وهو دواء كانوا يتداوون به يقول ادى شير فى نعتها : — « انها عند الأطباء نوع من الادوية ، معربة من اللفظ الفارسى (كوارشن) ومعناها (الهضام)[8] . وعلى الرغم من ذلك فانه تلقانا فى كتاباته احاديث مسهبة عن أنواع خاصة فى مجالس اللهو والمجون

---

(١) فى « اللسان » : — العلهز وبر يخلط بدماء اللحم ، كانت العرب فى الجاهلية تأكله .

(٢) المغافير . صمغ العرفط والرمث ، حلو يؤكل .

(٣) الحيوان : ٤٤٢/٥ — ٤٤٣

(٤) الحيوان ٤٤٢/٥ — ٤٤٣

(٥) المصدر السابق . ٢٤٨/٣

(٦) العرجان والبرصان . الجاحظ : ص ٥٠

(٧) البخلاء : ص ٣٥ .

(٨) الالفاظ الفارسية المعربة : ص ٨٠

خلال العصر حتى أصبح الولع بشرب الخمر ، والأدمان عليه ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن عنها وحضه على اجتنابها(١) ، وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها أن ادى إجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الانبذة : كنبيذ التمر ، والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ، ونبيذ العسل والبر والتين(٢) ، ولعلنا نستطيع ان نفهم فى ضوء هذا صنيع الجاحظ فى بعض كتاباته التى صنفها فى مديح النبيذ ، ووصفه شاربيه ، والقول فى تحليله دون سائر الخمور ، من مثل رسالته إلى الحسن بن وهب فى « مدح النبيذ وصفة أصحابه(٣)» ، يحدثنا فيها عن شرف النبيذ على غيره ، وفيها نرى النبيذ شرابا يدخل على النفس السرور ، ويظهر أنهم كانوا يشربونه فى كل وقت وفى أى مكان ، فهم قد يستملحون شربه فى السفر ، والترحال ، أو فى المقام والاستقرار ، وتقبله النفس فى الليل والنهار صيفا وشتاء يقول الجاحظ فى صفة النبيذ : « أنه يبعث إلى سرور النفس بأيسر الجرم وأقل الثمن ثم يعطيك فى السفر مايعطيك فى الحضر ، وسواء عليك البساتين والجنان ، ويصلح بالليل كما يصلح بالنهار ، ويطيب فى الصحو كما يطيب فى الدجن ، ويلذ فى الصيف كما يلذ فى الشتاء ، ويجرى مع كل حال ، ولكل شىء سواه فانما يصلح فى بعض الأحوال (٤) » . ويظهر أنهم كانوا يستمرئون بشربه الغذاء ، وقد يتداوون به من بعض الامراض ، وفى هذا المعنى يقول : « ويستمرأ به الغذاء ،

---

(١) العصر العباسى الأول : د. شوقى ضيف ص ٦٥ .

(٢) ضحى الاسلام : الاستاذ أحمد أمين ، ١/١١٩ .

(٣) « هامش الكامل » للمبرد . ١/٩٨ ، ومابعدها — ورسائل الجاحظ. (نشر السندوبى) . — ص ٢٨٥ ، وما بعدها .

(٤) رسائل الجاحظ (نشر السندوبى) : — ص ٢٨٩ .

ويدفع به ثقل الماء ، ويعالج به الأدواء ، ويحمر به الوجنتان ، ويعدل به قضاء الدين ، أن إنفردت به ألهاك ، وأن نادمت به ساواك (٢) » ؛ وقد لا يحتاج الطاولة بشيء من مثل الثلج لقلة احتياجه إلى غيره على خلاف الخمور (٣) ، واستغناء النبيذ بنفسه، وقلة احتياجه إلى غيره حتى أن جميع ماسواه من الشراب يصلحه الثلج ومن ثم ظهر فضل النبيذ على جميع الأشربة حتى أنه كان أحباب المؤنسين ، ولا يحدث في النفس من الاسكار واماتة الحس ماتحدثه الأشربة الاخرى ، يقول الجاحظ : «وخير الأشربة ماجمع المحمود من خصالها وخصال غيرها، وشرابك هذا قد أخذ من الخمر دبيبها في المفاصل وتمشيها في العظام، ولونها الغريب، واخذ برد الماء ، ورقة الهواء ، وحركة النار ، وحمرة خدك إذا خجلت ، وصفرة لونك إذا فزعت ، وبياض عارضيك إذا ضحكت (٤) » ويظهر أنهم كانوا يتهادون بالنبيذ ، ويتنافسون فيه . (٥) .

ويحدثنا في رسالة من رسائله في الشارب والمشروب(٥) » ، عن تحليل النبيذ دون الخمر ، ويقول في الرد على من ينكر تحليل الانبذة : — « وما ينكر ما خالفنا في تحليل الانبذة ، مع أقراره بأن الأشربة المسكرة الكثيرة لم تزل معروفة بأسمائها ، وأعيانها ، واجناسها ، وبلدانها ، وأن الله تعالى قصد للخمر

---

(١) رسائل الجاحظ : (السندوبي) ، ص ٢٨٩ .

(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٣) رسائل الجاحظ (نشر السندوبي) ص ٢٩٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٩١ .

(٥) هامش الكامل . — ٢/٥٢ م ، وما بعدها — ورسائل الجاحظ . — السندوبي ص ٢٧٦ — ٢٨٤ .

من بين جميعها فحرمها، وترك سائر الأشربة مطلقاً مع أجناس سائر المباح والدليل على تحريم ذلك أن الله تعالى ما حرم على الناس شيئاً من الأشياء فى القديم والحديث إلا أطلق لهم من جنسه، وأباح من سنخه ونظيره وشبهه ما يعمل مثل عمله أو قريبا منه، ليغنيهم الحلال من الحرام، أعنى ما حرم بالسمع دون المحرم بالعقل(١).

وكانت الأنبذة عندهم على أنواع، يذكر الجاحظ طائفة منها (٢)، ويذكر أن منها ما كان يعتق فى الأوعية أو الجرار، ومنها ما كان نقيعا أو مطبوخا، وبعضها كان مسكرا، وبالمثـــل كان من أنواع انبذتهم :ــ نبيذ العسل، والمقرطبات ونبيذ المشمش، وكان لونه لون زمردة خضراء صافية، والتين وعصير الكروم، ونبيذ عسل مصر، ونبيذ الاهواز، وهو نبيذ يتخذ من زبيب الداقياز، والدوشاب البستانى، ويتخذ من الرطب الجنى الرتيلى، وأنبذة التمر، ونبيذ الجزر(٣).

وأما الخمور فكان أجودها عندهم ما كان لونها ذهبيا(٤) أو أن تكون فى حمرتها أحسن من حمرة اللون، ومن لون الغزال(٥)، وفى مثل هذا المعنى جاء قول أبى نواس :

فجاء بها زيتية ذهبية فلم نستطيع دون السجود لها صبرا(٦)

(١) رسائل الجاحظ : (السندوبى)، ص٢٨٣ .

(٢) المصدر السابق : ص٢٧٦.

(٣) المصدر السابق : ص٢٧٦ ــ ٢٨١ .

(٤) الحيوان : ٢/٢٣٨ .

(٥) الحيوان : ٢/٢٣٨ .

(٦) أنظر أخبار أبى نواس : لابن منظور : ص٢٠٨

وكانوا يستملحون أن يكون بائعها على غير الاسلام ، أو أن يكون شيخا لا يفصح العربية (١) ، ويظهر أنه كان يقوم على بيعها أهل الذمة من المجوس ، واليهود ، والنصارى ، يقول الجاحظ في بائع الخمر : « وأعجب من هذا أن الذى لابد منه أن يكون أسمه أن كان مجوسيا (شهريار) ، و« ماشيار » وما أشبه ذلك مثل : (أدبر) ، و(أردان) و (يازان) ،فان كان يهوديا فاسمه (مانشا)، و(أشلوما) ، وأشباه ذلك ، وإن كان نصرانيا فاسمه(يوشع) ، و (شمعون) ، وأشباه ذلك(٢).

وكان لهذه المشارب مجالسها التى تفنن الشعراء في وصفها ، ومن ترفهم في مثل هذه المجالس أنهم كانوا ينثرون الرياحين في قاعة الشراب ، وكانوا يحملون كئوس الخمر بالرسوم الفارسية الخلابة ، ويزينون رؤسهم بأكاليل الزهور ، فهم قد وفروا في مجالس مشاربهم كل ما يضفى عليها مظاهر البهجة ، وفي مثل هذه المعاني يقول أبو نواس :

أحسن عندى من انكبابك بالسـّ ... فهر ملحًا به على وتد
وقوف ريحانه على أذن ... وسير كأس إلى فم بيد (٣)

ويحدثنا الجاحظ عن أحوال أصحاب هذه المجالس ، وكيف ان من الناس من يأخذه السكر دفعة واحدة ، ويغلب عليه حينئذ النوم ، ومنهم من يعتريه غير ذلك من مظاهر السكر كأن يسلم على الجالسين أو يقبل رؤوسهم ، ومنهم من كان يرقص ويثب حين تدور الخمر برأسه ، وفى ذلك يقول :

---

(١) الحيوان : ٢/٣٣٩ .
(٢) المصدر السابق ونفس الصفحة .
(٣) البيان والتبيين : ٣/ ٢٤ .

« ومن الناس من تراه يتحدث وهو يشرب فلا تنكر منه شيئاً ، حتى يغلب عليه نوم السكر بالعبث ، ويطبق عليه النوم ، ومنهم من يأخذه بالعبث لا يعدوه ، ومنهم من لا يرضى بدون السيف ، والا بأن يضرب أمه ، ويطلق امرأته ، ومنهم من يعتريه البكاء ، ومنهم من يعتريه الضحك ، ومنهم من يعتريه الملق ، والتفدية ، والتسليم على المجالس ، والتقبيل لرؤوس الناس ، ومنهم من يرقص ويثب ، ويكون ذلك على ضربين : أحدهما من العرض، وفضل الاشر (المرح)، والآخر تحريك المرارة ، وهى علة الفساد ، وهيجان الآفة (١) » .

٤ ـ الأزياء :

تنوعت الأزياء فى عصر الجاحظ تنوعا يعكس تباين طبقات المجتمع العباسى واختلاف عناصرها ، وأصبحنا أمام تخصص كل قوم بزى يميزهم عن غيرهم، ومن ثم رأيناه يقرر هذه الظاهرة فى «البيان» حيث يقول : ـ « لكل قوم زى، فللقضاة زى ، ولأصحاب القضاة زى، وللكتاب زى، ولكتاب الجند زى(٢)»، وبالمثل كان لحرائر النساء زى يخالف زى الاماء والمملكين والعبيد (٣) ، فكل زى طائفة بعينها يعكس مكانتها الاجتماعية ، ولا يجوز أن يتساوى فى هذه المكانة القاضى مع من يتصلون به من كتاب وأصحاب ، ولم يكن هذا التنوع فى الأزياء قاصرا على تنوع الطوائف، بل ان أفراد الطائفة الواحدة تتنوع أزياؤهم حسب تنوع الأحوال والمناسبات ، فان التجار كان لهم زى خاص بهم ، لكنهم كانوا يتخذون للسفر ثيابا خاصة بجانب هذا الزى المتمثل فى العمائم، والقلانس،

---

(١) الحيوان : ٢/٢٢٥ ـ ٢٢٦ .

(٢) البيان والتبيين : ٣/١١٤ .

(٣) البيان والتبيين . ٣/٩٦ ـ ٩٧ .

والاكسية (١) ، بالمثل كان لسكان بعض البلدان زيهم الخاص ، من ذلك أن أهل خراسان كانوا يحرصون على أن تكون ثيابهم سوداء اللون باعتبار انهم أهل الدعوة العباسية ومخرج الدولة، وان السواد هو شعارها (٢)، وكأنهم أرادوا ان يكون زيهم معبرا عن اتجاههم السياسى .

وتميز الخلفاء بزيهم الخاص ، ومن ذلك انهم كانوا يتخذون « العمائم على القلانس (٣) » « وكانت قلانسهم مميزة على قلانس العامة ، يقول الجاحظ فى نعت قلانس الخلفاء : — « فان كانت القلانس مكشوفة زادوا فى طولها وحدة رؤوسها ، حتى تكون فوق قلانس العامة (٤) » ، وكان من يدخل عليهم يتخذ زيا خاصا ، يتفق مع ما للخلفاء من تعظيم واجلال ، وانهم كانوا يستحسنون فيمن يدخل عليهم الوقار فى زيه ، وتجنب كل ما يبعث إلى التبذل والاستهتار ، ويظهر ان هذا التقليد كان متبعا كذلك عند الدخول على السادة والعظماء من أفراد الطبقة العليا ، وان ذلك كان من تقاليد مجالسهم ، ونراه يقول فى ذلك : « وقد يلبس الناس الخفاف ، والقلانس فى الصيف ، كما يلبسونها فى الشتاء ، إذا دخلوا على الخلفاء والأمراء ، وعلى السادة والعظماء ، لأن ذلك أشبه بالاحتفال، وبالتعظيم والاجلال ، وأبعد عن التبذل والاسترسال ، وأجدر أن يفصلوا بين مواضع أنسهم فى منازلهم ، ومواضع انقباضهم (٥) » ، وبالمثل حرص الخلفاء

---

(١) البخلاء : ٢٢

(٢) كتاب البغال : رسائل الجاحظ (هارون) : — ٢/٣٦٤ .

(٣) البيان والتبيين : — ٣/١١٧ .

(٤) المصدر السابق ونفس الصفحة .

(٥) البيان والتبيين : ٣/١١٦ .

ان يكون زى مجالسهم فى الشتاء والصيف « فرش الصوف » (١) .

ويحدثنا أيضا عن زى الشعراء فيقول : — « وكانت الشعراء تلبس الوشى والمقطعات (٢) ، والأردية السود ، وكل ثوب مشهر (٣) » ، وتميز بشار بن برد من بين الشعراء بزى خاص ، وكان على غير عادة الناس لا ينزع قميصه من جهة رأسه ، يقول الجاحظ : « وكان لجربان (٤) قميص بشار الأعمى ، وجبته لبنتان ، فكان إذا أراد نزع شيء منها أطلق الأزرار فسقطت الثياب على الأرض ، ولم ينزع قميصه من جهة رأسه قط » (٥) ، وبالمثل كان الشعراء يتخذون زيا خاصا حين كانوا ينشدون بين يدى الخلفاء ، وكان يميز هذا الزى عمامة عظيمة الكور ، وخف مستدير أملس ، ويظهر ان بعض الخلفاء كان يتشدد فى الأخذ بهذا التقليد ، ومر بنا من قبل ما يذكره الجاحظ عن الرشيد والعمانى الراجز ، يقول : « وأخبرنى ابراهيم السندى قال : دخل العمانى الراجز على الرشيد ، لينشد شعرا ، وعليه

---

(١) البيان والتبيين : — ١١٥/٣ .

(٢) المقطعات : شبه الجباب ونحوها من الخز ، وقيل كل ما يفصل ويخاط ، من قميص وجباب .

(٣) البيان والتبيين : ١١٥/٣ .

(٤) جربان : جيب القميص ، معرب من اللفظة الفارسية « كريبان » — أنظر معظم استينجاس ص ١٠٨٦ ، ويذكر الجاحظ : أن جعفر بن يحيى كان أول من عرض الجربانات لطول عنقه أنظر البيان والتبيين ٣٥٦/٣ — ويذكر الجواليقى أن لفظ جربان يعنى الدرع ، وجربانها « جيبها » وأن اللفظ معرب ، الفارسى « كريبان » المعرب ص ٩٩ — ولعل اللفظ فى عصر الجاحظ أطلق على جيوب القمصان وخلافه .

(٥) البيان والتبيين : ١١٦/٣ .

قلنسوة طويلة ، وخف ساذج ، فقال : إياك أن تشهدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان دمالقان » (١) . واتخذوا لرؤوسهم القلانس والعمائم ، وكان الرشيد فيما يظهر لا يميل إلى القلانس على خلاف المنصور أمر بلبسها (٢)، ومع ذلك فانهم اتخذوا فوق رؤوسهم « القلانس العظام في حمارة (٣) القيظ » (٤) ، لتقيهم شدة الحرارة ، وان لم تكن هذه القلانس في منزلة العمائم، ذلك ان العمائم عربية الأصل، سئل عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : « تيجان العرب(٥) وحين سئل أعرابي عن سبب كثرة لبس العمامة ؟ قال : - « ان شيئا فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من الحر والقر (٦) . ومن الحق انهم أحسنوا استخدام العمامة ، وكانوا ربما جعلوها لواء ، وربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة وإذا طالت « العقبة (٧) » ، وبالمثل كان لهم أسلوبهم الخاص في الاعتمام (٨). ولم تكن عمائمهم على هيئة واحدة ، يقول الجاحظ : « للخلفاء عمة ، وللفقهاء عمة، وللبقالين عمة ، ولأصحاب التشاجي عمة (٩) » . وكان من تقاليد خطباء العرب

---

(١) البيان والتبيين : ٩٥/١ .

(٢) الحضارة الاسلامية : متميز (الترجمة) ، ٢١٩/٢ .

(٣) حمارة : شدة .

(٤) البيان والتبيين : ١١٧/٣ .

(٥) البيان والتبيين : ٢٨٧/٢ .

(٦) البيان والتبيين : ١٠٠/٣ .

(٧) البيان والتبيين : ١٠٥/٣ .

(٨) البيان والتبيين : ١٠٣/٣ .

(٩) البيان والتبيين : ٨٤/٣ .

« لزومهم الصمائم في أيام الجوع [1]، ويظهر ان هذا التقليد استمر لعصر الجاحظ يقول : «وقد لا يلبس الخطيب الملحفة ، ولا الجبة ولا القميص ، ولا الرداء ، والذي لا بد منه العمة ، والمخصرة [2] » .

كذلك يحدثنا عن اتخاذهم المناديل ، ومن بين ما اتخذوها له : انهم كانوا يلفون فيها طعامهم [3] ، ويمسحون فيها أيديهم [4] ، ويزينون بها أطباقهم [5]، وبالمثل كان منهم من يتخذ من الملاءة رداء وملحفة ، وقد يقطعها فيجعل منها طيلسانا أو جبة ، أو يظهر بها جبته [6] .

واتخذوا النعال والخفاف ، وان كانت العرب تلهج بذكر النعال ، والفرس تلهج بذكر الخفاف [7] .. » ، وفي الحديث المأثور . « ان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر ، والصفر ، ويقولون : هو من زينة نساء آل فرعون [8] ، وكان بعضهم يدهن النعـال بالشحم لتقويتها ولإلانتها [9] . ويظهر ان صنفا خاصا من النعال كان يأتيهم

(١) البيان والتبيين . ٣:٦٠ .
(٢) البيان والتبيين : ٣/٩٢ .
(٣) البخلاء : ص ٢٤ .
(٤) البخلاء : ص ٧٦ .
(٥) البخلاء : ص ٩٥ .
(٦) البخلاء : ص ١٠٥ .
(٧) البيان والتبيين : ٣/١٠١ .
(٨) البيان والتبيين : ٣/١٠٦ .
(٩) البخلاء : ص ١٠٥ .

من السند ، تميز بثخانته ، وان له صريرا عند المشى به (١) ، ويظهر ان هذا الصنف من النعال كان غير مشرك (٢) ، وكانوا إذا ادخلوا إلى الخلفاء ينزعون نعالهم خارجا (٣) ، وقد شبه بعضهم النعال بالخلاخيل ، وفى ذلك يقول الجاحظ « قال الأحنف . « استجيدوا النعال فانها خلاخيل الرجال (٤) » .

ويظهر انهم كانوا يتخذون تحت الدروع أردية خاصة من مثل الخفاتين ، والأقبية (٥) .

وانتفعوا فى أزيائهم بفراء الثعالب ، وكان أندره عندهم هو فراء « الثعلب الاسود » ، وإن كان الاعم عندهم فراء « الثعلب الخلنجى (٧) » ، وبالمثل انتفعوا بجلد الأرنب ووبره (٨) ، واتخذوا من جلود الحيات قمصانا ، وكان

---

(١) رسائل الجاحظ (السندوبى) ص ٢٣٠ .
(٢) البخلاء : ص ١٠٤ .
(٣) البيان والتبيين : ٣/١١٠ .
(٤) البيان والتبيين : ٣/١١٠ .
(٥) الحيوان . ٥/٣٢٢ — والخفاتين يذكر ادى شير فى تفسيرها : انها ثياب من القطن تلبس فوق الدروع ، وهو لفظ فارسى معرب ، منه التركى (قفطان) ، أنظر « الألفاظ الفارسية المعربة » ص ٥٦ ، أما الأقبية فهى جمع قباء بالفتح ، سمى بذلك لاجتماع أطرافه .
(٦) الحيوان : ٢/٢٩١ .
(٧) الحيوان : ٦/٣٠٥ .
(٨) الحيوان : ٦/٣٩٥ .

يقال . لا ثوب ولا جناح ، ولا ستر عنكبوت ، الا وقشر الحية أحسن منه ، وارق واخف وانعم واعجب صنعة وتركيبا (١) وكان يقال فى أمثالهم إذا مدحوا الخف اللطيف ، والقدم اللطيفة . ــ «كأنه لسان حية (٢)» .

---

(١) الحيوان : ١٧٧/٤ .

(٢) الحيوان : ٢٥٠/٩ .

الفصل الرابع

نزعات اجتماعية

« الشعوبية ، والزندقة ، والمجون ، والزهد »

١ ــ الشعوبيه .

٢ ــ الزندقه .

٣ ــ المجون .

٤ ــ الزهد .

الفصل الرابع

نزعات اجتماعية

الشعوبية ، والزندقة ، والمجون ، والزهد

يحدثنا الجاحظ في كتاباته ، عن ضروب من النزعات الإجتماعية المتقابلة نستطيع أن نقول عنها باطمئنان أنها كانت من بين الظواهر الإجتماعية المميزة للمجتمع العباسي ، باعتبار أن الظاهرة الإجتماعية هي: «كل ضرب من السلوك، ثابتا كان أم غير ثابت ، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجي على الأفراد»(1) وهذه النزعات الإجتماعية تبدو في صورة مجسدة لبعض المعاني الانسانية ، سواء كانت هذه المعاني فطرية أو مكتسبة ، أو تبدو تطبيقات متنوعة لهذه المعاني وما يحكمها من ظروف العلاقات المتبادلة بين أفراد المجتمع بتنوع فئاتهم الإجتماعية واختلاف عناصرهم الجنسية . وما من شك في أن بعض هذه النزعات من النوع السليم يصدق عليها وصف الظاهرة الإجتماعية السوية : Faits Normans بينما اتسم بعضها بسمات الظواهر الاجتماعية المرضية أو المعتلة Faits Morbes,our Patagohipues(2) ونستطيع أن نتمثل جانبا من سمات هذه

---

(1) أنظر « قواعد المنهج في علم الاجتماع » : أ . دوركايم ، ترجمة د. محمود قاسم (النهضة المصرية 1941 م) : ص ٦٧ — ٦٩ .

(2) انظر في فرق مابين الظواهر الاجتماعية السليمة والمعتلة : قواعد المنهج في علم الإجتماع » : ص ١٣٦ ومابعدها .

النزعات فى المجتمع العباسى بدراستنا لنزعات الشعوبية ، والزندقة ، والمجون ، والوهد ، وما لحق بهذه النزعات من ألوان السلوك الاجتماعى مما نجد أصداءه فى كتابات الجاحظ .

١ — الشعوبية : —

لانبالغ كثيرا إذا قلنا أن « الشعوبية » كانت من أخطر الظواهر الاجتماعية فى المجتمع العباسى ، وأن ظهورها فى هذا العصر كان أمرا طبيعيا نتيجة لما تحقق لطوائف الموالى من ارتقاء طبقى إجتماعى ، نقلهم من الطبقة الدنيا فى المجتمع الاموى إلى أعلى المراتب الاجتماعية فى المجتمع العباسى ، وكان لهذا التغير أثره المباشر فى بروز ظاهرة الشعوبية ، وهى ظاهرة قامت على أساس ، مفاخرة الشعوب الأعجمية — وعلى رأسها الشعب الفارسى — العرب مفاخرة تستمد مقوماتها من حضارتهم ، وما كان العرب فيه من بداوة ، وحياة خشنة غليظة .

وينبنى هذا القول على أساس أن المجتمع العباسى كانت تسوده فيه ثلاث نزعات : الأولى تذهب إلى أن العرب خير الأمم ، والثانية تذهب إلى أن العرب ليسوا أفضل من غيرهم من الامم ، ولا أية أمة أفضل من أى أمة والثالثة تميل إلى الحط من شان العرب ، وتفضل غيرهم من الامم عليهم(١) ، وكان لكل من أصحاب هذه النزعات حججهم وأسانيدهم ، ومن الحق أن « الشعوبية » يصدق عليها وصف الظاهرة الاجتماعية ، فهى لم تكن عقيدة محددة التعاليم ، ذات شعائر بعينها شأنها شأن المذاهب الدينيه ، لكنها فى نظرنا — ضربا من السلوك الجمعى استند دعاته إلى ما كان فى تعاليم الاسلام من مساواة بين المسلمين وعدم تفضيل شعب على شعب ، أو جنس على جنس ، ذلك أن العقوبة أو المثوبة

---

(١) انظر فى ذلك تفصيلا : « ضحى الاسلام » للاستاذ أحمد أمين ١/٤٩-٥٧ .

فى ظل الاسلام إنما تقوم على الأعمال مهما كان جنس أصحابها(١) ، ثم تحول هؤلاء الدعاة بفعل الارتقاء الاجتماعى لطوائفهم وفئاتهم الاجتماعية فى المجتمع العباسى إلى نوع من القهر الخارجى على أفراد المجتمع العباسى ، وكان لهذا القهر أساليبه المتنوعة، وبالمثل كان له نتائجه المتباينة الأثر على المجتمع وأفراده، خاصة أن سلوك الشعوبيين كان مؤزراً بالنزعة الوطنية، والعصبية الدينية لدعاتهم، ومن ثم رأينا الكثير ممن ينتمون إلى عناصر غير عربية من العلماء ، والأدباء ، والشعراء يصدرون عن روح شعوبية واضحة ، من مثل ماهو مشهور عن أبى عبيدة اللغوى الاخبارى ، بلغ من فساد طويته أن طعن فى بعض أنساب الرسول(٢) ، صلى الله عليه وسلم . وممن كانوا يصدرون عن روح الشعوبية من الأدباء : سهل بن هارون الفارسى، كان ممن تعصبوا على العرب تعصبا مسرفا، ويذكر الجاحظ فى بخلائه : أنه لم يعلم أحد جرد كتاباً فى البخل والدعوة إليه ، والاحتجاج له الاسهل بن هارون ، والثورى(٣) ، ويظن أن هذا الكتاب هو عين الرسالة التى أفتتح الجاحظ بها كتاب البخلاء(٤) ، وهذ القول محل نظر وشك عند بعض الدارسين ، حتى أنهم يزعمون أن هذه الرسالة للجاحظ ، نحلها لسهل ، ووضعها عليه، وتكلم فيها بلسانه ، كما يتكلم القصاص بلسان أبطالهم..،

---

(١) أنظر فى ذلك خطبة الوداع : « البيان والتبيين » : ٢/٢٣.

(٢) « البيان والتبيين »: ١/٣٠٨ـــ والفهرست ص ٨٠.

(٣) « البخلاء » : ص١٠٦ .

(٤) « معجم الأدباء » . ١١/٢٦٧ ـــ وأنظر « العقد الفريد » (ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩ م) ٦/٢٠٠ ـــ ونهاية الأرب » (ط . دار الكتب ١٩٢٤ م) ٣/٢٢٦ .

ودلائل نسبتها إليه قوية غالبة ظاهرة (١) ، ومن الحق أن هذه الرسالة أتخذ منها الجاحظ مدخلا لما جاء في بخلائه من تهكم على البخلاء وتندر بأحوالهم ، مستفتحا ذلك بنوادر البخلاء من غير العرب ، من مثل ماجاء من أحاديث في بخل أهل خراسان عامة ، والمروزيين منهم خاصة (٢) . وتشهد الرسالة بأن سهلا اتخذ لنفسه مذهبا اقتصاديا كان يدعو إليه ، ويروج له ، ويدافع عنه، وعرف به ، يمتدح فيه البخل ، ويغض من قيمة الكرم ، ولا يقر العرب في أن الكرم مأثرة ويجرى مجرى بنى جنسه من الفرس فيما اشتهروا به من بخل .

ويظهر أن العناصر الأجنبية في المجتمع العباسي ، شاركت في هذه النزعة الشعوبية ، وأذكت جذوتها ، كل على قدر ما أتيح له من مؤثرات تلائم ظروفه السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعقلية ، وأن كان مسلك فريق من الشعوبية ازاء العرب اتسم بالاعتدال ، فان جانبا منهم اتسم مسلكه بالتطرف والتنقص من قدر العرب وتصغير شأنهم ، وهؤلاء كانوا طوائف مختلفة: فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوضوا دولهم ، وهى مشاعر مازالت تحتدم في نفوس الفرس حتى احيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد ، ومنهم مجان أعجبتهم الحضارات الأجنبية ، وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة . وأشد من كل هؤلاء عنفا وغيظا من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة » (٣) .

---

(١) د. الحاجرى في تعليقه على البخلاء : ص ٢٠٠ .

(٢) « البخلاء » : ص ١٧ وما بعدها .

(٣) « العصر العباسى الأول » د . شوقى ضيف : ص ٧٥ .

وقد ألف الجاحظ كتبا نظن أنها كانت فى الرد على مطاعن الشعوبية (١) ، منها كتابه فى « الشعوبية » أشار إليه وأحال عليه فى مواضع من بخلائه ، من مثل قوله فى معرض حديثه عن أصناف الأطعمة عند العرب الممدوح منها والمذموم ، « وهذا الباب يكثر ويطول ، وفيما ذكرنا دليل على ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات فان أردته مجموعا فاطلبه فى كتاب « الشعوبية » فانه هنالك مستقصى »(٢) ولم يرد ذكر هذا الكتاب بين ما ذكره ياقوت فى فهرسته من كتب الجاحظ ، ونظن أن مادة هذا الكتاب كانت تتناول مطاعن الشعوبية على العرب والرد عليها ومناقشتها شاكلة ماجاء ذكره فى « البيان والتبين » وأن كنا لا نملك تأكيد هذا الظن ، إلا أن الجاحظ حين تحدث فى بخلائه عن طعام الشعوبية ، وقابل بينه وبين ما لدى العرب من طعام مذموم وممدوح فى بخلائه كان يقصد بهذا الحديث رد مطاعن الشعوبية على العرب فى طعامهم المذموم كالخزيرة والسخينة ولحوم الكلاب ، ولحوم الناس ، وأن ذلك لم يكن من الطعام الممدوح عند العرب ، وغاية الأمر : « أن العرب إذا وجدت رجلا من القبيلة قد أتى قبيحا ألزمت ذلك القبيلة كلها ، كما تمدح القبيلة بفعل جميل وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منها »(٣) ومن ثم يسقط دعوى الشعوبية بأن هذه الأطعمة المذمومة كانت من شائع طعام العرب . وبالمثل فاننا نجد الجاحظ يعرض فى كتاباته مناظرات شتى بعضها يمثل صورة الرد على مطاعن الشعوبية وتشنيعهم للعرب ، من ذلك أننا نرى من بين غايات مناظرة الكلاب والديك فى « الحيوان » غاية واضحة هى الرد على مطاعن الشعوبية ، ولا نشك أنها كانت مناظرة بين الشعوبية والعرب ، حتى ليقول الدكتور شوقى ضيف : « أما الشعوبية فرمزهم الديك الذى يرى فى قراهم ومدنهم، وأما

---

(١) انظر « الحيوان » : ١/٥ ، حيث يذكر أنه ألف كتابا فى العرب والموالى وآخر فى العرب والعجم .

(٢) « البخلاء » : ص ٢٣٧ . (٣) « البخلاء » ، ص ٢٣٤ .

العرب فرمزهم الكلب الذى لا يفارقهم فى منازلهم ومراعيهم ، وكانت الشعوبية تستقذر الكلب ، وحيوانات الصحراء فدائما الشعوبية تتحرش بالعرب، وتهجن حياتها ، وكل ما اتصل بها » (١).

ولعلنا نفهم فى ضوء هذا القول سبب ما جاء فى « الحيوان » من مناظرة بين البعير والفيل (٢) . فانها هى الأخرى مناظرة بين النزعة العربية والنزعة الشعوبية (٣)، وبالمثل يمكن أن يكون من هذا الباب مصنفه فى « الزرع والنخيل » الذى أهداه ابراهيم بن عباس الموصلى ، ذلك أن الزرع رمز الحضارة والشعوبية ، والنخيل رمز العرب والبادية (٤) ، ومثل هذه الكتابات ظاهرها مناظرات بين كلب وديك ، أو بين بعير وفيل ، أو بين نخيل وزرع وباطنها فى الواقع عرب وشعوبية ، وكان الجاحظ يتعصب للعروبة فى أعماقه بما جعله ينفض عن كل ما يرمز إليها مذامه ومثالبه ، ويضفى عليه كثيرا من المحامد والمحاسن فى حماسة بالغة . ويعرض لنا أيضا فى كتاباته جانبا من مطاعن الشعوبية على العرب ، وكانت مطاعنها تحمل بين طياتها فى بعض الأحوال ، بغضا الدين الحنيف ، وحقدا على العرب ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « ان عامة من ارتاب بالاسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال، فاذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الاسلام ، إذ كانت العرب هى التى جاءت به ، وهى السلف والقدوة (٥) » .

---

(١) انظر « العصر العباسى الثانى » . د. شوقى ضيف ، ٥١٨ .
(٢) « الحيوان » : ١٩٣/٧ .
(٣) أنظر « الجاحظ » : د . طه الحاجرى . ص ٤٠٢ .
(٤) « العصر العباسى الثانى : د . د . شوقى ضيف ص ٧٩٨ .
(٥) « الحيوان » : ٢٢٠/٥ .

وتعد من أهم مطاعن الشعوبية التى وجهوها إلى العرب أنهم كانوا بدوا رعاة أغنام وإبل ، ويرد الجاحظ « بأن هذا المطعن مرفوض ، فإن من أنبياء الله عليهم السلام من يرعى الأغنام ، وأن رعاة الغنم وأربابها أرق قلوبا ، وأبعد من الفظاظة والغلظة[1] » ، ومن هذه المطاعن أنهم عمدوا إلى ما كان يعتز به العرب من ميزة البلاغة ، وقوة الخطابة ، وحضور البديهة فأخذوا ينتقصونهم فى ذلك ، وكانت لهم فى مطاعنهم على العرب فى هذا الباب حجج مختلفة ، من مثل مطاعنهم على خطباء العرب . أنهم كثيراً ما يستعملون فى إشاراتهم المخصرة[2] وأنهم كانوا يشيرون بها فى خطب السلم . وأما فى خطب الحرب فكانوا يشيرون بالقسى . وعابوا عليهم اتكاءهم على القسى فى خطبهم . وتزييهم الخطابة بزى خاص . ومن مثل حرصهم على وضع العمائم الدالة على تأهبهم للخطابة ، يقول الجاحظ : — « تبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ، ومن يتحلى التسوية[3] ، وبطاعنهم على خطباء العرب : بأخذ المخصرة عند مناقلة[4] الكلام، ومساجلة الخصوم بالموزون والمقفى ، والمنثور الذى لم يقفى ، وبالأرجاز عند المتح[5]، وعند مجاثاة الخصم[6]، وساعة المشاولة[7]، وفى نفس المجادلة والمحاورة،

---

(١) المصدر السابق : ٥٠٩/٥ .

(٢) المخصر : ما اختصر الانسان بيده فأمسكه ، ومن عصا أو مقرعة ، أو عكاز أو قضيب ، أو ما أشبه ذلك .

(٣) أى التسوية بين العرب والعجم .

(٤) المناقلة : مراجعة الكلام فى صخب .

(٥) المتح : الاستقساء من أعلى البئر ، والمتح : الاستقساء من أسفلها .

(٦) المجاثاة : الجلوس على الركبتين للخصومة .

(٧) المشاولة : أن يتناول بعضهم بعضا عند القتال بالرماح .

وكذلك الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة[1] ، واستعمال المنثور فى خطب الحمالة [2] . وفى مقامات الصلح وسل السخيمة [3] ، والقول عند المعاقدة والمعاهدة[4] ، وترك اللفظ يجرى على سجيته وعلى سلامته ، حتى يخرج على صنعة ولا اختلاب تأليف ، ولا التماس قافية ، ولا تكلف لوزن ، مع الذى عابوا من الاشارة بالعصى ، والاتكاء على أطراف القسى ، وخد وجه الأرض بها ، واعتمادها عليها إذا اسحنفرت فى كلامها[5] ، وافتنت يوم الحفل فى مذاهبها ولزومهم العمائم فى أيام المجموع ، وأخذ المخاصر فى كل حال ، وجلوسها فى خطب المحالفة ، وحقن حرمة المجاورة ، وخطبهم على رواحلهم فى المواسم العظام ، والمجامع الكبار ، والتماسح بالاكف[6] ، والتحالف على النار ، والتعاقد على الملح ، وأخذ العهد الموكد واليمين الغموس .. [7] ، ويسوق الشعوبية هذه المطاعن على خطباء العرب ويهزاون بهم ، ويتهكمون من مثل هذه العادات ، ويقيمون تهكمهم من العرب على أساس أن قوة الخطابة وبلاغة القول الارتباط بينها وبين مثل هذا العادات ، فأى ارتباط بين الكلام والعصا ، أو بين بلاغة الخطيب والقوس ، بل أن مثل هذه العادات أدعى إلى شغل العقل عن لب

---

(١) المنافرة : المفاخرة بكثرة عدد القوم وعزتهم . والمفاخرة أعم .

(٢) الحمالة : الدية يحملها قوم عن قوم .

(٣) السخيمة : الضغينة والحقد والجمع السخائم ، وسل السخيمة : انتزاعها .

(٤) المعاقدة : المعاهدة والميثاق .

(٥) اسحنفر الرجل فى كلامه : مضى فيه ولم يتمكث .

(٦) التماسح بالأكف : التصافح والتصفيق والتحالف .

(٧) اليمين الغموس : التى لا استثناء فيها . أنظر لسان العرب . (غمس)
« البيان والتبيين » : ٣/٥ — ٧ .

الموضوع ، وصرف الخواطر عن غاية الكلام ، وما القضيب إلا لأصحاب الألحان به يوقعها ويبينها، وما العصا إلا لأصحاب القتال، وما القوس إلا للرامي، يقول الجاحظ : « قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمة : القضيب للايقاع(١) ، والقناة للبقار ، والعصا للقتال ، والقوس للرمي . وليس بين الكلام وبين العصا سبب ولا بينه وبين القوس نسب ، وهما إلى أن يشغلا العقل ، ويصرفا الخواطر ويعترضا على الذهن أشبه ، وليس في حملها ما يشحذ الذهن ولا في الإشارة بهما ما يجلب اللفظ . وقد زعم أصحاب الغناء أن المغني إذا ضرب على غنائه ، قصر على المغني الذي لا يضرب على غنائه . وحمل العصا بأخلاق الفدادين أشبه، وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق(٢)، أشكل ، وبه أشبه(٣) .

ومن الحق أن الجاحظ لم يدع مثل هذه المطاعن تمر دون ردما كانت تقوم عليه من حجج ، وكشف عوراتها ، وهو من أجل ذلك أفرد جانبا من بيانه لما أسماه (كتاب العصا) خصه للرد على مثل هذه المطاعن ، حدثنا فيه عن العصا وكيف أن الأخذ بها مشتق من أصل كريم ، ومعدن شريف، ذلك أن من أنبياء الله ورسله من اتخذها ، من مثل سليمان بن داود صلى الله عليه وسلم ، وهو من أنبياء العجم، كان يتخذها لخطبته وموعظته، ولمقاماته، ولطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب (٤) ، وبالمثل اتخذ موسى عليه السلام العصا، جمع

(١) الايقاع . ايقاع ألحان الغناء .
(٢) أقامة الابل على الطرق : أي توجيهها جهة مستقيمة .
(٣) « البيان والتبين : ٣/١٢ .
(٤) « البيان والتبيين : ٣/٣٠—٣١ .

الله له فيها من البرهانات العظام والعلامات الجسام ، ماعسى أن يفى ذلك بعلامات عدة من المرسلين ، وجماعة من النبيين(١) . ويذكر الجاحظ فى معرض حديثه عن العصا طرفا من الأخبار عمن اتخذها من حكام العرب الجاهليين(٢)، ومن خلفاء المسلمين وحكامهم(٣) ، وما جاء فى استعمالها من أمثال وأقوال مأثورة(٤) . وماجاء ذكرها من معان كثيرة(٥) ، وماقيل فى خصالها(٦) وما يجوز فيها من المنافع والمرافق(٧) ، وماجاء فى ذلك من أشعار وأخبار وأحاديث تبطل مزاعم الشعوبية وأحاجيهم .

وبالمثل كان الشعوبية ينكرون على العرب تفردهم بميزة الخطابة ، ويقولون أنها شىء فى جمع الامم ، حتى إنه كان بين الزنج مع غباوتهم خطباء ، وعندهم أن أهل فارس وليس العرب ، هم أخطب جميع الناس ، وأعذبهم كلاما ، وأسهلهم مخرج حديث ، يقول الجاحظ : قالوا : والخطابة شىء فى جميع الامم، وبكل الاجيال(٨) إليه أعظم الحاجة حتى إن الزنج مع الغثارة(٩) ، ومع فرط

---

(١) البيان والتبيين : ٣١/٣ .

(٢) المصدر السابق : ٣٨/٣ وما بعدها .

(٣) المصدر السابق : ٤١/٣ ومابعدها .

(٤) المصدر السابق : ٣٦/٣ .

(٥) المصدر السابق : ٣٩/٣ — ٤١

(٦) المصدر السابق : ٤٠/٣ ومابعدها .

(٧) المصدر السابق : ٤٩/٣ ومابعدها — وانظر ٦٧/٣ — ٦٩ .

(٨) الجيل : الصنف من الناس ، كالعرب ، والروم ، والترك .

(٩) الغثار . ربما أراد بها الحمق والجهل .

الفهاهة ، ومع كلال الحد ، وغلظ الحس ، وفساد المزاج ، لتطيل الخطب ، وتفوق في ذلك جميع العجم ، وان كانت معانيها أجفى وأغلظ ، وألفاظها أخطل وأجهل . وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس ، وأخطب الفرس أهل فارس ، وأعذبهم كلاما ، وأسهلهم مخرجا ، وأحسنهم دلا ، وأشدهم تحكما أهل مرو ، وأفصحهم بالفارسية الدرية(١) ، وباللغة الفهلوية(٢) أهل قصبة الأهواز . فأما نغمة الهرابذة(٣) ، ولغة الموابذة(٤) ، فلصاحب تفسير الزمزمة(٥) . وهم ينصحون من أحب أن يبلغ الغاية في صناعة البلاغة والكلام ، أن يقرأ تآ ليفهم في صناعة البلاغة ، ومعرفة الغريب ، من مثل (كتاب كاروند) (٦) ، أما من

---

(١) الدرية : وهي معربة من الفارسية (درى) احدى اللغات الفارسية القديمة انظر « معجم استينجاس » ص ٥١٦ .

(٢) الفهلوية : من اللغات الفارسية القديمة — انظر « الفهرست » لابن النديم ص ١٩ و « معجم البلدان » ٦/٤٠٦ — ٤٠٧ .

(٥) الهرابذة : من الألفاظ الفارسية المعربة جمع هربذ واحدة هرابذة المجوس — وهم قومة بيوت النار ، مأخوذ من اللفظ الفارسي (هربد) بمعنى امام خدم نار المجوس ، انظر « الألفاظ الفارسية المعربة » لادى شير ، ص ١٤٨ .

(٦) الموابذة : جمع موبذ ، وهو حاكم المجوس ، وفقيه الفرس ، من اللفظ الفارسي (موبد) ، انظر « الألفاظ الفارسية المعربة » لادى شير ، ص ١٤٨ .

(٧) انظر في تفسير الزمزمة « اللسان » (زمم) — و « البيان والتبيين » : ١٢/٣ ، ١٣

(٨) كاروند : مكون من كلمتين فارسيتين . (كار) ومعناها الصناعة ، و (ند) بمعنى المديح والثناء

أراد العقل والأدب والعلم بالمراتب ، والعبر والمثلات (١) ، وما كرم من الألفاظ وطرف من المعـــانى ، فلينظر فى سير ملوك الفرس ، ثم انظر اليوم يتساءلون : أين العرب من الفرس ، واليونان ، والهند ، وعندهم أن العرب بدو رعاة ابل وغنم حتى إنهم حين تحضروا حملوا معهم آثار بداوتهم فنضحت عليهم فى حياتهم ، على خلاف تلك الشعوب الفارسية ، واليونانية ، والهندية من أصحاب المعانى ، والحكم ، والخطب ، وطرق التفكير ، يقول الشعوبية للعرب: «كنتم رعاة بين الابل ، والغنم ، فحملتم القنا فى الحضر بفضل عادتكم لحملها فى السفر ، وحملتموها فى المدر بفضل عادتكم لحملها فى الوبر ، وحملتموها فى السلم بفضل عادتكم لحملها فى الحرب . ولطول اعتيادكم لمخاطبة الابل ، جفا كلامكم ، وغلظت مخارج أصواتكم ، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصمان » (٢) ، ورد الجاحظ هذه المطاعن وعنده أن العرب وان كانوا أميين لا يكتبون ، ومطبوعين لا يتكلفون ، فان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر ، ويذكر فى معرض رده لمطاعن الشعوبية « ان ما يذكرونه من رسائل للفرس لا يمكن التثبت من صحة نسبتها إليهم ، أو أنها قديمة غير مولدة ، والثابت أن هناك طائفة من الكتاب أمثال : ابن المقفع ، وسهل بن هارون ، وأبى عبيد الله ، وعبد الحميد ، وغيلان كانوا – كما يذكر الجاحظ « يستطيعون أن يولدوا مثل تلك الرسائل ، ويصيغوا مثل تلك السير » (٣) .

وبالمثل عاب الشعوبية على العرب آلاتهم الحربية ، وأن جل قتالهم كان

---

(١) المثلة .. بفتح الميم وضم الثاء . العقوبة والتنكيس .

(٢) « البيان والتبيين » . ٣/ ١٤ — والصمان جمع أصم .

(٣) « البيان والتبيين » . ٣/٢٧ — ٢٩ .

بالعصى[1] ، وسخروا من رماحهم ، ومن عرى خيولهم ، ومن قسيهم الصماء مع الجوفاء أخف محملا ، وأشد طعنة وهزئوا من قلة خبرتهم فى تنظيم جيوشهم ذلك أنهم لم يعرفوا : الميمنة ، ولا الميسرة ، ولا القلب ، ولا الجناح ولا يتقاتلون بالليل ، ولا يعرفون البيات ولا الكمين ، وأنهم كانوا إذا خرجوا للقتال خرجوا متساندين ولم يجتمعوا على راية واحدة وأمير واحد ، وأنهم لم يعرفوا غير ذلك من أدوات الحرب فى الجيش الفارسى[2] ، ودلل الشعوبية على هذه المطاعن بأشعار عربية جاهلية وغير جاهلية . . ورد الجاحظ على هذه المطاعن ، وأثبت ما للعرب من مناقب ومآثر فى الحرب وفنونها[3] مستشهدا على ذلك بطائفة من الأشعار تدل على أن العرب كانوا يقاتلون ليلا مثل قتالهم نهارا[4] ، وأنهم كانوا إذا أجمعوا للحرب دخنوا بالنهار ، وأوقدوا بالليل وعلى ذلك قول عمرو ابن كلثوم فى ذكر وقعة لهم : —

ونحن غداة أوقد فى خزارى ∴ رفدنا فوق رفد الرافدينا[5]

وبالمثل رد الجاحظ طعن الشعوبية على العرب أنهم لم يتخذوا الركب[6] يقول : « ان الركب كانت قديمة ، الا أن ركب الحديد لم تكن فى العرب إلا فى أيام الأزارقة ، وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب

---

(١) المصدر السابق ٣/١٤ .

(٢) المصدر : ٣/١٦ — ١٩ .

(٣) المصدر : ٣/١٩ ومابعدها .

(٤) المصدر السابق : ٣/٢٠ وما بعدها .

(٥) « البيان والتبين » : ٣/٢٢ .

(٦) الركب : جمع ركاب ، وهو مايضع فيه الفارس رجله .

أن تضع أرجلها فى الركب إنما كانت تنزو نزوا »(١) . وبالمثل رد مطاعن الشعوبية على رماح العرب وفى ذلك يذكر صفة رماح العرب ، وطبقاتها ، وأحوال إستخدامهم لكل طبقة منها فرماحهم منها : النيزك وهو الرمح القصير ومنها المربوع وطوله أربعة أذرع ، ومنها المخموس وطوله خمسة أذرع ، ومنها التام ، ومنها الخطل ، وهو الذى يضطرب فى يد صاحبه لافراط طوله(٢) ، ثم انظر إليه يقول فى نعت العرب : « وهم قوم الغارات فيهم كشهرة ، وبقدر كثرة الغارات كثر فيهم الطلب ، والفارس ربما زاد فى طول رمحه ليخبر عن فضل قوته ، ويخبر عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجدته »(٣) . وانظر إلى قوله فى نعت طول سيوف العرب ، وأن ذلك جاء فى أشعارهم(٤) .

---

(١) « البيان والتبيين » : ٣/٢٤ وما بعدها .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق : ٣/٢٦ .
(٤) « البيان والتبيين » : ٣/٢٧

الزندقة

١ — معناها :

« الزندقة » ليست عربية الأصل ، إنما هي : « تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤولون (الأفستا) كتاب داعيتهم « زرادشت » تأويلا ينحرف عن ظاهر نصوصه ، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة « ماني » ومن فتنوا بها من الفرس »[1] ، وكان لفظ « زنديق » يحمل معنى قبيح المذهب والمعتقد عند الفرس قديما ، فقد ورد ذكر الزنادقة في كتاب (الأفستا) حيث قيل : « إننا جعلنا الصلاة .. لكي نحارب الزندة والساحر ونخربها بهما جميلا » فالزنديق أذن في التاريخ القديم ساحر قبيح المذهب[2] ، وعلى ذلك فان ماوصم به الزنادقة من قبح مذهبهم لم يكن بدعا .

والذى لاشك فيه أن كلمة «زندقة » لم يكن معناها واحدا عند أفراد المجتمع العباسى ، حتى أنه بلغ فى عرف العوام أن كانوا يطلقون صفة الزندقة على كل

---

(١) العصر العباسى الأول » : د. شوقى ضيف ص٧٩ .

(٢) « الألفاظ الفارسية المعربة » : أدى شير ، ص٨٠—٨١ ، وهو يجعل لفظ « زنديق » تعريب اللفظ الفارسى « زين دين » أى دين المرأة ، أو تعريب « زنديق » المشتق من « زندى » وهو الذى يعمل بموجب ماهو مسطور بكتاب الزند . وقد اتخذ الفرس المحدثون لفظ « زندى » فتلفظوا به على صورة «زنديك» ومنه اشتق لفظ « زنديق » .

من كان فى داره ديك أبيض أفرق »(١) ، وعندهم أن هذا الرمز هو الشيطان عينه . والحق أن لفظ الزندقة ارتبط فى أول الأمر بكل مظاهر التأثر بالفرس فى عاداتهم ، والاسراف فى العبث والمجون والحرص على اتخاذ عقائد المانوية ، والتمسك بعقيدة الثنوية ، وعبادة الهين اثنين ؛ واتباع تعاليم « مانى »(٢) ؛ واتسع مدلول الكلمة فى العصر العباسى الأول « ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس ، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل الحاد بالدين الحنيف ، وكل مجاهرة بالاثم والفسق »(٣) ، ونستطيع أن نستدل على مثل هذه المعانى من هجائية لأبى نواس فى ابان بن عبد الحميد اللاحقى والزنادقة رواها الجاحظ فى حيوانه ، وفيها يظهر كيف أن الزندقة كانت تهجما على الدين الحنيف ، وانكاراً لوحدانية الله سبحانه وتعالى ، وايمانا بتعاليم المانوية ، حتى أن الجاحظ تعجب من ذكر أبى نواس لحجج الزنادقة ذكر انسان يرى لهؤلاء الملاحدة قدرا وخطرا ومن أبيات أبى نواس قوله مهاجيا أبان :

فقلت : سبحان ربى ! ... فقال : سبحان مانى !
فقلت : عيسى رسول ... فقال : من شيطان !
فقلت : موسى كليم الـ ... ـمهيمن المنان
فقال : ربك ذو مقـ ... ـلة إذا ولسان (٤)

---

(١) « الحيوان » : ٢٠٧/٢

(٢) أنظر فى « مانى والمانوية « الفهرست (ط. الرحمانية ص٤٥٦) ، والملل والنحل ص١٨٨ — و « فجر الاسلام » ص١٢٤

(٣) « العصر العباسى الأول » : د. شوقى ضيف ص٧٩

(٤) أنظر الأبيات فى « الحيوان » : : ٤٤٨/٤ — ٤٥٠

(ب) انتشارها :

ومن الحق أن هذه النزعة الالحادية أخذت فى الظهور منذ أواخر العصر الأموى(١) ، وأن كان أمرها قد أشتد بعد قيام الدولة العباسية ، واستفحل خطرها مما دفع الخليفة المهدى ومن جاء بعده إلى اتخاذ العنف فى درء هذا الخطر، والضرب بشدة على دافعيه ، ونهج المأمون منهجاً خاصاً مع الزنادقة إذ كان إذا سمع بزنديق أو زنادقة أمر بحملهم إليه، وأحضرهم مجالسه، ودفعهم إلى المناظرة مع من كان يشهد هذه المجالس من المتكلمين والعلماء، بقصد إقناع هؤلاء الملاحدة، وردهم إلى الاسلام ، ولم يجد الخليفة غضاضة فى أن يناظرهم بنفسه أحيانا، من مثل ما حدث بينه وبين زنديق كان يكنى بأبى على(٢)

ويظهر أنه كان من وراء فشو هذه النزعة الالحادية وإنتشارها فى المجتمع العباسى بعض عناصر من الفرس وبعض النصارى ممن قاموا على ترجمة كتب النحل الفارسية ، وصنفوا فى الدعوة لها وفى تعاليمها(٣)، وفى ذلك يقول المسعودى :- « أمعن المهدى فى قتل الملحدين فى الدين لظهورهم فى أيامه، وأعلانهم باعتقاداتهم فى خلافته ، لما أنتشر من كتب « مانى » و « ابن ديصان » و « مرقيون » مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره ، وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنف

---

(١) أنظر « الاغانى » : — ٣/١٣٧ — دار الكتب ، حيث ذكر أن عبد الصمد بن عبد الاعلى مربى الخليفة الاموى الوليد ومؤدبه كان زنديقا — وأنظر « الفهرست » (ط . الرحمانية ص٤٧٢) فى الحديث عن جعد بن درهم.

(٢) الحيـــوان : ٤/٤٤٣ .

(٣) العصر العباسى الاول :— د . شوقى ضيف ص٨٠ .

من ذلك « إبن أبى العوجاء » و « حماد عجرد » و « يحيى بن زياد » و «مطيع ابن أياس » من تأييد المذاهب المنانية ، والديصانية ،والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى الناس (١) والجاحظ يرى أن النصارى كانوا من وراء شيوع هـذه النزعة الالحادية فى عصره ،واشار الى ذلك بمثل قوله :

«ولولا متكلمو النصارى واطباؤهم ،ومنجموهم ماصار إلى اغبيائنا وظرفائنا ومجانيننا ، واحداثنا من كتب المنانية ، والديصانية ، والمرقيونية . . . ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ، ومخبأة فى ايدى ورثتها فكل سخفة عين رأيناها فى إحداثنا ، واغبيائنا فمن قبلهم كان أولها(٢) »،ونظن ان نزعة الزندقة والالحاد فى المجتمع العباسى ، كانت تلقى عونا من خارج الدولة ، ذلك ان الجاحظ فى حديثه عن الزندقة ، وبعض من اتهموا بها يذكر ان منهم من كان يتصل بملك الروم ويعرض عليه كتبه من مثل ماذكره فى حديثه عن يونس بن هارون من أنه « كتب لملك الروم فى مثالب العرب ، وعيوب الاسلام بزعمه »(٣) ، والحق أنه كان للزنادقة كتب شاعت بين العامة ، ويحدثنا الجاحظ عن سبب اقبال العامة على مثل هذه الكتب ، وان ذلك كان بسبب مظهرها المنمق مع أنها لاتسالك فى الكتب القيمة من مثل كتب الحكم ، وكتب الفلسفة وكتب المقاييس والسنن أو من مثل كتب الصناعات ، ومانيفع الناس فى معادهم ومعاشهم .

ويذكر ان الزنادقة كانوا ينفقون الأموال فى تنميق كتبهم ، وذهبوا فيها إلى مايعظم ملتهم ، وهو يجعل صنيعهم هذا حاكيا صنيع النصارى إذ كانوا

---

(١) مروج الذهب : ـــ ٢٤٢/٤ .

(٢) ثلاث رسائل دجاحظ : ص ٢٠

(٣) الحيـــوان : ٤٤٨/٤ .

ينفقون أموالهم على صلبان الذهب، أو على شاكلة صنيع الهند إذ كانوا ينفقون أموالهم على سدنه البدنة يقول: ان انفاق الزنادقة على تحصيل الكتب كانفاق النصارى على البيع، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم، وكتب فلسفة وكتب مقاييس وسنن وتبيين، أو لو كانت كتبهم تعرف الناس أبواب الصناعات أو سبل التكسب والتجارات أو كتب إرتفاقات ورياضات أو بعض ما يتعاطاه الناس من العظة والآداب — وأن كان ذلك لا يقرب من غنى ولا يبعد من مأثم — لكانوا ممن قد يجوز ان يظن بهم تعظيم الملة، فانما انفاقهم في ذلك كانفاق المجوس على بيت النار، وكانفاق النصارى على صلبان الذهب، أو كانفاق الهند على سدنة البدنة[1] ». ثم انظر إليه يحدثنا عما كانت تحويه هذه الكتب من موضوعات قصد بها — فيما يظهر — التأثير على عامة الشعب وخلق الاضطراب في عقولهم وأفكارهم، يقول الجاحظ: « ليس في كتبهم مثل سائر، ولا خبر طريف، ولا صنعة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية، ولا تعريف صناعة، ولا إستخراج آلة ولا تعليم فلاحة، ولا تدبير حرب، ولا مقارعة عن دين، ولا مناضلة عن نحله، وجل ما فيها ذكر النور والظلمة وتناكح الشياطين وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود السنخ والاخبار عن شقلون وعن الهامة والهامة، وكل هذر وعي وخرافة وسخرية، وتكذب لا ترى فيها موعظة حسنة، ولا حديثا موفقا، ولا تدبير معاش، ولا سياسة عامة، ولا ترتيب خاصة، فأي كتاب اجهل، وأي تدبير افسد من من كتاب يوجب على الناس إلا الطاعة والنجوع بالديانة لا على جهة الاستبصار والمحبة، وليس فيه صلاح معاش، ولا تصحيح دين[2] ».

---

(١) الحيوان: ١/٥٦ .

(٢) الحيوان: ١/٥٧ — ٥٨ .

وكان بعض هؤلاء الزنادقة يصدر عن روح مفعمة بالحقد والضغينة لتعاليم الدين الحنيف ، وهم من أجل ذلك يثيرون الشكوك حول ماجاء فى التنزيل الكريم ، من مثل مايعرضه لنا الجاحظ فى بيانه عن المناظرة بين الخليفة المأمون وبين واحد من هؤلاء الزنادقة خرسانى كان يدين بالنصرانية ، وتركها ليدين بالاسلام ، ثم أرتد عن الاسلام بدعوى أنه رأى الاختلاف شائعا بين علماء المسلمين حول تعاليم دينهم ، ويرد المأمون بنفسه على مثل هذه المطاعن ويبين أوجه الاختلاف والائتلاف فى أحكام الاسلام، ولا يجد المرتد أمام مايعرضه الخليفة من حجج واضحة إلا أن يعلن إسلامه ، وينال عفو الخليفة(١).

(ج) فشوها بين نفر من الشعراء :

وقد اصطبغت روح طائفة من الشعراء والرواة والكتاب فى هذا العصر بنزعة الزندقة والالحاد حتى إنهم عرفوا بها ، وعد الجاحظ من هؤلاء : « حماد عجرد ، وحماد الراوية ، وحماد بن الزبرقان ، ويونس بن هارون ، وعلى بن الخليل ، ويزيد بن الفيض ، وعبادة وجميل بن محفوظ ، وقاسم ، ومطيع ، ووالبة ابن الحباب ، وإبان بن عبد الحميد ، وعمارة بن حربية »(٢) ويذكر الجاحظ أن هؤلاء النفر من الملاحدة «كانوا يتواصلون ، وكأنهم نفس واحدة ، وكان بشار ينكر عليهم(٣) وروى طائفة من أشعار بعض هؤلاء الزنادقة ، من مثل هجاء حماديى الزبرقان حمادا الراوية ، يرميه فيه بالكفر ، وأنه لايعرف حدود دينه ، ولا يرعاها فهو لايقيم الصلاة فى مواقيتها ، وينكب فى شرب الخمر حتى

---

(٢) — أنظر القصة فى « البيان والتبيين » : ٣٧٥/٣ — ٣٧٧ .

(٢) الحيوان - ٤٤٧/٤—٤٤٨ .

(٣) الحيوان - ٤٤٨/٤ .

أبيض وجهه وبهت لونه ، وان كان هذا البياض سيصبح يوم القيامة سوادا كالحاً ، ويظهر ان ابن الزبرقان قال هذا الشعر بعد ان عاب حماد الراوية بعض أشعاره ، يقول حماد بن الزبرقان :

نعم الفتى لوكان يعرف ربه ∴ ويقيم وقت صلاته حماد
هدلت مشافره الدنان فأنفه ∴ مثل القدوم يسنها الحداد
وابيض من شرب المدامة وجهه ∴ فبياضه يوم الحساب سواد(١)

وبالمثل يروى الجاحظ ابياتا لحماد عجرد فى هجاء عمارة ، يقول :

لوكنت زنديقا « عمار » حبوتنى ∴ أو كنت اعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتنى ∴ كالنضر أو ألفيت كابن المقعد
أو كابن حماد وبيئة دينكم ∴ جبل وماجبل الغوى بمرشد
لكننى وحدت ربى مخلصا ∴ فجفوتنى بغضا لكل موحد
وحبوت من زعم السماء تكونت ∴ والأرض خالقها لها لم يمهد
والنسم مثل الزرع أن حصاده ∴ منه الحصيد ومنه مالم يحصد

ويعقب الجاحظ على هذا الشعر ، بأنه يكشف أمر زندقة حماد ، ويدلل على ذلك بزعم حماد ان الفلك بما فيه من التدبير خلق من نفسه ، وذلك هو زعم الزنادقة(٢) .

وكان الهجاء فى أشعار بعضهم يقوم على قذف من يهجون بتهمة « الزندقة »(٣) من مثل قول أبى الشمقمق فى جميل بن محفوظ :

---

(١) الحيـــوان : ٤/٤٤٥ .
(٢) « المصدر السابق » : ٤/٤٤٢ — ٤٤٤
(٣) المصدر السابق : ٤/٤٤٣

وقد زعموا أنه كافر .·. وان الزندق من شكله[1]

٣ — المجون :

لا يجد الدارس لكتابات الجاحظ مايضع أمامه تفسيرا لظهور نزعة المجون فى المجتمع العباسى ، إلا أنها تبين جانبا من مظاهر هذه النزعة ، وكيف استفحل أمر اللهو واللاهين ، وماتبع ذلك من ضروب متباينة من المجون ، مما كانت لها آثارها الظاهرة فى الحياة الاجتماعية العباسية . ومن الحق ان المجون لم يأخذ شكل « الظاهرة الاجتماعية » إلا بعد مضى طور تأسيس وإقامة الخلافة العباسية وهو طور صبغ الحياة الاجتماعية بالجد والكفاح من أجل توطيد أركان الحكم الجديد ، وقمع محاولات وأده ، مما استغرق حكم أبى العباس السفاح ، وحكم أبى جعفر المنصور ، إنما أخذت أصباغ المجون على الحياة الاجتماعية العباسية تظهر لعهد المهدى[2] ، ذلك أن الحياة الاجتماعية فى عهده تحولت من طور الجد والكفاح إلى طور آخر يناسب حياة فيها سعة فى المال ، وطرف من النعيم ، وألوان من اللهو واللعب . وأدى إلى هذا التحول ماتحقق من استقرار فى مقاليد الحكم العباسى ، وماصاحب هذا الاستقرار من رخاء اقتصادى واجتماعى ، ووفرة فى المال من مثل مامر بنا من قبل ، مما جعل الانهار المتدفقة من الأموال تصب روافدها فى حجور الخلفاء ومن يحوطون بهم من الامراء ، والولاة ، والوزراء ، والقواد ، والعلماء ، والشعراء ، والمغنين .

وبالمثل مكن من نشوء نزعة المجون فى الحياة الاجتماعية بجانب هذا الثراء والرخاء تغلغل العناصر الفارسية فى هذه الحياة ، ذلك ان المجتمع

(١) « الحيوان » : ٤/٤٥٤

(٢) ضحى الاسلام : ١/١٠٤ ومابعدها .

العباسى ورث كل ما كان فى المجتمع الساسانى الفارسى من أدوات لهو ومجون[1] خاصة ان الفرس من قديم يعرفون بالميل إلى اللهو والسرور[2]، حتى اننا لانصل إلى عهد الامين الا ونزعة المجون قد استفحل أمرها، وأمعن اللاهون فى مجونهم، واصبحنا أمام فئات من المجتمع قال فيهم الجاحظ: «أنهم من المستمتعين بالنعمة، والمؤثرين اللذة، المتمتعين بالقيان وبالاخوان، المعدين لوظائف الاطعمة وصنوف الأشربة، والراغبين بأنفسهم عن قبول شيء من الناس أصحاب الستر والسترات، والسرور والمروءات[3]».

وكان من مظاهر اللهو والمجون فى المجتمع العباسى، عشق القيان ويفرق الجاحظ ما بين القيان خاصة وبين الرقيق عامة، من حيث أن عشق القيان جعلهن ارفع ثمنا ومقدارا فى سوق الرقيق، حتى إن هذا العشق والهوى أصبح بمثابة الحسب والنسب الذى يرفع من اثمان القيان[4]. ويحذر الجاحظ من آفة عشق القيان «فانهن على كثرة فضائلهن، وسكون النفس إليهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع فى شيء على وجه الارض، لا تؤمن عاقبة عشقهن، ذلك ان القينة لكونها مكتسبة ومجبولة على الشرك والخدع لا تخلص فى عشقها، وفى ذلك يكشف الجاحظ صنيعها فى فى امتلاك قلب عاشقها وعقله حتى إنها ترسل إليه المراسلات والمكاتبات، تشكو فيها إليه هواه، وتعطر له مكاتباتها بالزعفران، وتبادله الهدايا فى الاحياء

---

(١) «العصر العباسى الأول»: د. شوقى ضيف، ص ٦٥.

(٢) «ضحى الاسلام»: ١/١١١ — ١١٢.

(٣) «كتاب القيان» رسائل الجاحظ (هارون) ٢/١٦٩ — ١٨٠.

(٤) المصدر السابق: ٢/١٦٥.

والمناسبات ، وتحسن التلون بلون حاله أن كان حزينا أظهرت له حزنها ، وإن كان فرحا تصنعت الفرح ، وهي لخاصة التلون فيها ربما تجمع عندها ثلاثة أو أربعة من عاشقيها دون أن ينكشف أمرها أمام اى منهم ، إذ هي تبكى لواحد بعين وتضحك للاخر بالاخرى ، وتبدى لهذا غمزة عين ، وتوهم غيره بانها تخصه بكل سرها وحبها (١) ، ويظهر أن من المناسبات التى كن يتهادين فيها مع عاشقيهن : أيام النيروز والمهرجان ، وقد تهدى القينه لعاشقها السكر ، وأنواع الخواتم ، والفاكهة ، من مثل التفاح ، وقد تنقش بعضهن أسماءهن على ماتهدين من خواتم (٢) ، وقد يتبعهن والجوارى ، بعض الرجال ، ويدلهن إلى دور بعينها يلتقون فيها معهن بالفاحشة ، ويظهر أنه كان من سبب حظوة الرجال بالجوارى على الرغم مما فى عشق القيان والجوارى من آفة ، أن الرجل كان يتأمل كل شيء من الجارية قبل أن يملكها ، وذلك غير مباح له بالنسبة للمرأة الحرة ، يقول الجاحظ : قال بعض من احتج للعلة التى من أجلها صار أكثر الاماء أحظى عند الرجال من أكبر المهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تامل كل شيء منها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فاقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة انما يستشار فى جمالها النساء والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيرا والرجال بالنساء أبصر ، وانما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة واما الخصائص التى تقع بموافقة الرجال فانها لا تعرف ذلك ، وقد

---

(١) ـ « كتاب القيان » :ـ

رسائل الجاحظ : ٢ / ١٧١ ، ومابعدها

(٢) المصدر السابق .

تحسن المرأة أن تقول كأن انفها السيف ، وكأن عينهـــا عين غزال ، وكأن أطرافها المدراة ، وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أخرى بها يكون الحب والبغض (١) » .

وكان فى مقابل فئة العابثين بالقيان والجوارى فئة أخرى من العـــابثين بالغلمان ، وكان لهذا اللون من اللهو الفاسد شعراء خصوا جانبا من شعرهم فى مديح الغلمان دون النساء ، من مثل ما يرويه الجاحظ من أشعار أبى نواس(٢)، وأبى هشام الخراز (٣) .

وبالمثل كان من المظاهر الفاسدة لنزعة المجون فى المجتمع ، الشغف بالخصيان والتلذذ بهم ، ويذكر الجاحظ أن ذلك شىء لا تعرفه الأوائل (٤) ، ومن ثم فهو مثل اللهو بالغلمان ، مما أدخل على المجتمع العباسى من المظاهر الفاسدة غير العربيـــة الأصل ، ومع ذلك فان المجتمع اعترف لهؤلاء الخصيان بشىء من الحقوق ، فنظم بيعهم ، وعتقهم ، واستخدامهم ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « الخصى لا يحرم ملكه ، ولا استخدامه ، بل لا يحل طرده ونفيه ، وعتقه جائز ، وجواز العتق يوجب الملك ، ولو باعه المـالك على غير طلب الزيادة أو لو تاب من الخصاء ، أو استحله مما أتى اليه ، لما حرم على الخاصى نفسه استخدامه .

---

(١) « رسالة فى العشق والنساء : =
رسائل الجاحظ (ساسى) : — ص ١٦٨ .
(٢) « مفاخرة الجوارى والغلمان » : — رسائل الجاحظ (هارون) :
١٠٦/٢ — ١٠٧ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١١٢ ، ١١٣ :
(٣) المصدر السابق : ١٠٩/٢ .
(٤) « رسائل الجاحظ » : — ١٢٢/٢ .

والخصى مال وملك ، واستخدامه حسن جميل ، ولأن خصاءه اياه لا يعتقه عليه ولا يزيل عنه ملكه الا بمثل ما وجب به ملكه (١) » .

وكان يغلب على الخصيان — فيما يظهر — الولع باللهو بالحمام (٢) ، وعمل التكك ، والهراش بالديوك (٣) ، وكان منهم من يلهو بالغلمان (٤) ، وكان يعيب الخصى أنه يعرض له سرعة الدمعة والغضب ، وذلك من أخلاق النساء والصبيان ، ويعرض له حب النميمة ، وضيق الصدر بما أودع من السر (٥) ومن خلق الخصى الشاذ أنه مع الرجال امرأة ، ومع النساء رجل ، وهو من النمائم ، والتحريش ، والافساد بين المرء وزوجه ، على ما ليس عليه أحد وهذا من التماسة والحسد الفحول على النساء . ويعتريه إذا طعن فى السن اعوجاج فى أصابع اليد ، والتواء فى أصابع الرجل (٦) .

ويظهر أنه كان عندهم طوائف من الراقصين والراقصات أضفت على مجالس لهوهم ألوانا من الترف والسرور ، ومن هذه الطوائف طائفة تعرف باسم « الزفانين » ذكرها الجاحظ فى بيانه (٧) .

وبالمثل كان الصيد يشكل مظهرا هاما من مظاهر نزعة المجون فى المجتمع

---

(١) « الحيوان » : — ١/١٦٥ .
(٢) « الحيوان » : — ١/١٠٨ .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) « الحيوان » : — ١/١٧٢ .
(٥) « رسائل الجاحظ » (هارون) . — ٢/١٢٣ .
(٦) المصدر السابق : — ٢/١٢٤ .
(٧) « البيان والتبيين » : — ٢/٢٩٤ .

العباسى ، وهم قد اصطادوا الظباء ، والعصافير ، والحمام ، وأنواع الطير [١] ، والثعالب [٢] . وكانت لهم فى صيد العصافير حيلة خاصة يصيد بها الرجل نحو المئين من العصافير فى اليوم الواحد ، يقول الجاحظ : — « وتصاد العصافير بأهون حيلة ، وذلك أنهم يعملون لها مصيدة ، ويعملون لها سلة فى صورة المحبرة التى يقال لها : — اليهودية المنكوسة الأنبوبة ، ثم ينزل فى جوفها عصفور واحد، فتنقض عليه العصافير ويدخلن عليه، وما دخل منها فانه لا يجد سبيلا إلى الخروج منها ، فيصيد الرجل منها فى اليوم الواحد المئين وهو وادع ، وهن أسرع إلى ذلك العصفور من الطير إلى البوم إذا جعلن فى المصائد [٣] » ، وكانت عندهم أدوات خاصة لصيد الحمام ، وأنواع الطير من بينها : — البابكير ، والقفاعة ، والملقف ، والتدبيق ، والدشاخ ، والجلاهق [٤] ، وقد يضطاد قناص الطير صيدهم فى مساقط الطير على قمم الجبال [٥] .

وبالمثل عنوا بصفة خاصة بكلاب الصيد يصطادون بها الظباء والثعالب

---

(١) « الحيوان » : — ٢/١٩٧ :
(٢) المصدر السابق : — ٥/٢٤٤/٢٤٥ .
(٣) المصدر السابق : —
٣/٢١٨ — ٢١٩ .
(٤) المصدر السابق : — ١/١٤٤ .
(٥) المصدر السابق : — ٢/٢٨٩ .

واتخذوا لها المكلبين يدربونها على الصيد(١)، وكانت « اناث الكلاب السلوقية أسرع تعلما من الذكورة (٢) »، وخيرها جميعا ما كان لونه يذهب إلى ألوان الأسد من الصفرة والحمرة، والبيض (٣)، والحمر (٤)، وكانوا يحبون « أن يكون ذنب الكلب الصائد يابسا ليس له من اللحم قليل ولا كثير (٥) وكان الكلب المدرب « إذا عاين الظباء قريبة كانت أو بعيدة عرف المعتل، وغير المعتل وعرف العنز من التيس. وهو إذا أبصر القطيع لم يقصد إلا التيس، وان علم أنه أشد حضرا، وأطول وثبة، وأبعد شوطا، ويدع العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حضرها وقصر قاب خطوها، ولكنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطا أو شوطين حقب بوله (٦) »، وبالمثل كانوا يعرفون قدرة الكلاب على صيد الثعالب، وأنها لم يكن ينطوى عليها حيل الثعالب وتماوتها، ويروى فى حيوانه ما يدل على نباهة الكلب فى كشف خبث المتماوتين وخدعهم (٧). ومن الحق أن هذا اللون من اللهو كان موضوع أراجيز رائعة من أشعار أبى نواس تعرف باسم « الطرديات» أفرد لها الجاحظ صفحات من حيوانه، وقد أحسن أبو نواس

---

(١) « الحيوان » : — ٣٤٢/٥ — وأنظر فى تدريب الكلاب على الصيد، « الحيوان » : — ١١٨/٢ — ١٢٠ .

(٢) المصدر السابق : — ٢٣١/٢ .

(٣) » » : — ٧٠/٢ .

(٤) » » : — ٨٠/٢ .

(٥) » » : — ١٦٨/٢ .

(٦) » » : — ١١٧/٢ — وحقب بولة، أى تعسر عليه البول .

(٧) » » : — ٢٨٩/٢ — ٢٩٠ .

فى هذه الأراجيز تصوير رحلات الصيد، وأدواته، وكلابه وجوارحه، وإن شئت أنظر إلى مثل قوله :

لما تبدى الصبح من حجابه ... لطلعة الأشمط من جلبابه
وانعدل الليـــل إلى مآبه ... هجناه بكلب طالما هجنابه
خرطة القناص واعتدى به ... يهزه طورا على استصحابه
وتارة يتصب لانصبابه ... فانصاع للصوت الذى يغى به
كلمعان البرق من سحابه(١)

وكانوا فى هذا العصر يتلهون بأجناس من الحيوان والطير أحكم تدريبها على أداء بعض الألعاب، من مثل ماتعرفه اليوم بألعاب «السيرك»، ويعدد لنا الجاحظ بعض أجناس الحيوان والطير مما كان يقبل هذا اللون من التدريب، ويجمل منها: «الفهود، والبوازى، والشواهين، والصقور، والزرق، واليؤيؤ، والعقاب، وعناق الأرض، وجميع الجوارح والوحشيات(٢)»، وكان منها كذلك «البراذين» وكان يقوم على تأديب هذه الأجناس وترويضها رجال يستأجرون لهذه الغاية، يقول الجاحظ : — «وربما استأجروا للطيور رجلا يعلمها . فاما الذى رأيته أنا فى البلابل، فقد رأيت رجلا يدعى لها فيطارحها من شكل أصواتها(٤)»، وبلغ من حذق بعضهم فى ترويض الحيوان، وتدريبه أن اتخذ بعض بنى ضبة كلبا صينيا «كان يسرج على رأسه، حتى يكون القوم هم الذين يأخذون المصباح من رأسه . . . وكان يعلقون الزنبيل والدوخلة، وتوضع فيها رقعة، ثم يمضى

(١) «الحيوان» : ٢ / ٤٠ .
(٢) المصدر السابق : ٤ / ٤١ .
(٣) الحيوان : — ٣ / ٣٣٩ .
(٤) نفس المصدر السابق .

إلى البقال ويجيء بالحوائج[1] » .

وكان في مقابل هذه الضروب من التسلية واللهو ، ضروب أخرى تمثل في بعض جوانبها حالات مرضية تنتاب المجتمع ، والملاحظ أنها انتشرت على نطاق واسع بين بعض الطوائف من عامة الشعب ، من مثل ما يحدثنا به الجاحظ عن بعض ضروب اللهو الغريبة ، من مثل : — التقامر بالبيض[2] والجوز[3] واتخاذ الكباش للنطاح[4] ، وللمهارشة[5] ، وقد يلهون بالهراش بين الأجناس المتفقة من الحيوان والطير : — « كالبرذون والبرذون ، والبعير والبعير ، والحمار والحمار وكذلك جميع الأجناس[6] » ، وقد يقع في بعض أنواع المهارشة القمار ، من مثل هراش الكلب والكلب ، والكبش والكبش ، والديك والديك والسماني والسماني[7] ، ويسلك في هذه الضروب من التسلية لعبهم بالودع[8] ، وبلغ من فساد بعضهم أن اتخذ لهوة قنينة من الزجاج ينشب بداخلها القتال بين العقارب والجرذان[9] ، بينما اتخذ بعضهم للهوه اللعب بالصقور ، والشواهين ، والديوك[10]

---

(١) « الحيوان » : — ٢ / ١٧٩ .
(٢) المصدر السابق : — ٢ / ٢٩٢ .
(٣) نفس المصدر السابق .
(٤) الحيوان : — ٥/٤٧٣ .
(٥) الحيوان : — ٢/١٦٤ — و ٥/٢٤٦ ، ٢٥٨ .
(٦) الحيوان : — ٢/١٦٣ .
(٧) الحيوان : — ٢/١٦٣/ — ١٦٤ .
(٨) البيان والتبيين : — ٢/٢٤٨ ، أنظر الحيوان : — ٥/٢٦٧ .
(٩) الحيوان : — ٥/٢٤٨ .
(١٠) المصدر السابق : — ٢/٢٩٧ .

واللعب بالنرد(١) والشطرنج(٢) ، ومنهم من اتخذ لهوه غناء الفيل ، ذلك أن خرطوم الفيل هو أنفه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ومنه يغني ، وفيه يجرى الصوت كما يجرى الزامر الصوت في القصبة بالنفخ ، ومتى تضاغط الهواء صوت على قدر الضغط ، أو على قدر الثقب(٣) .

٤ — الزهد : —

من الحق أن المجون لم يكن عاما بين طبقات المجتمع العباسي وذلك أن حال اللهو والمجنون من مثل ما مر بنا ، لم يكن حال الناس جميعهم ، ولم يكن المجتمع العباسي منحلا ماجنا ، وإنما كانت نزعة اللهو أكثر حدة بين المترفين ومن حولهم ، فالفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع لم تكن فروقا طفيفة ، حتى إنه كان في مقابل الترف والمجون في بعض طوائف وفئات الطبقتين العليا والوسطى ، حياة يفشو فيها الفقر والبؤس بين فئات عامة الشعب من الفقراء والمعوزين الذين كانت حياتهم حياة تتطلب ما يفوق قدراتهم الاقتصادية والاجتماعية . ولم يكن حال اللهو والمجون مقبولا من كل طوائف المجتمع ، ومن ثم سنحت الفرصة أمام طوائف النساك ، والزهاد ممن عمرت قلوبهم بالايمان الحق ، ليرسموا صورة نابضة بحب الخير والصلاح تقابل ما كان عليه اللاهون من مجون وفساد ، هؤلاء الزهاد ، والنساك لم يكن سلوكهم منطويا داخل نفوسهم ، ذلك أنهم مضوا في غاياتهم يذكرون بالله واليوم الآخر ، ويبشرون الصالحين التقاة بالنعيم المقيم ، ويتوعدون العصاة بالعذاب المهين . ورأينا من هؤلاء الزهاد من يتجه إلى الخلفاء يعظهم ، ويذكرهم بما وضعه الله في رقابهم من أمانة وحسن سياسة الرعية ،

---

(١) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٢) المصدر السابق وانظر الحيوان : — ٣/٢٣ .

(٣) الحيوان : ٣/٣١٦ .

والأمر بينهم بالمعروف ، من ذلك صنيع عمرو بن عبيد فى وعظه للخليفة المنصور وعظه موعظة طويلة مشهورة ، كان من بين ما قاله فيها : — « إن الله قد أعطاك الدنيا باسرها ، فاشتر نفسك منه ببعضها فلو أن هذا الأمر الذى صار إليك بقى فى يدى من كان قبلك لم يصل إليك وتذكر يوما يتمخض باهله لا ليل بعده(١) » ، وبالمثل وعظ صالح بن عبد الجليل الخليفة المهدى ، موعظة ذكره فيها بإيثار الحق ، ونبذ الأهواء ، وكان مما قاله فيها : — « أطلع الله على قلبك ما ينور به القلوب ، من إيثار الحق ، ومنابذة الأهواء ، فانك إن لم تفعل ذلك ير أثرك وأثر الله عليك فيه(٢) » .

وأفرد الجاحظ فى بيانه صفحات للحديث عن هؤلاء الزهاد ، والنساك جملها تحت عنوان « كتاب الزهد » ، عد فيها من النساك ممن كان يجيد الكلام أمثال كلاب بن حرى ، وكليب وهاشم الأوقص ، وأبى هاشم الصوفى ، وهو من قدماء زهاد بغداد ، جلس إليه سفيان الثورى (٣) وهو يذكر بين هؤلاء الزهاد ، والنساء طائفة عدهم من أهله البيان منهم : مورق العجلى ، وبكر بن عبدالله المزنى ، ومطرف بن عبدالله بن الشخير الحرشى (٤) وجاء من بعد هؤلاء : مالك بن دينار ، وحبيب بن أبى محمد ويزيد الرقاشى ، وصالح المرى ، وزيادة مولى عياش ابن أبى ربيعة ، وعبد الواحد بن زيد ، وحيان أبى الأسود ، ودهثم أبى العلاء(٥)

---

(١) « البيان والتبيين » : — ٦٤/٤ — ٦٥ .

(٢) البيان والتبيين : — ٣٤٠/٢ .

(٣) « « : — ٣٦٦/١ .

(٤) « « : — ٣٦٣/١ .

(٥) « « : — ٣٦٤/١ .

وكان من هؤلاء النساك ، والزهاد بعض النساء من مثل : رابعة القيسية العدوية ، ومعاذه العدوية ، وأم الدرداء(١) ، ويذكر من النساك والزهاد من أهل البيان ممن أدركهم : أباالوليد وهو الحكم الكندى ، ومحمد ابن محمد الحمراوى (٢) . ومن هؤلاء من كانوا على قدر كبير من بلاغة القول وحسن البيان فى الكلام والخطاب فارتقوا بمعانيهم واستنبطوا فيها كثيرا من الدقائق التى تمس القلوب والعقول ، ودققوا فى اختيار ألفاظهم ، وعنوا بجمال سبكها وصوغها ، وأداهم ذلك إلى استخدام السجع ، من مثل ماهو معروف عن الفضل بن عيسى الرقاش(٣) ، وفيه يقول الجاحظ : — « كان سجاعا فى قصصه » وأنه « كان من أخطب الناس وكان متكلما قاصا مجيدا (٤) » .

وكان لبعض النساء ، والزهاد حلقات فى المساجد، من مثل مايصوره الجاحظ من حلقاتهم فى مساجد البصرة، وكيف أنهم كانوا يحاولون ابتعاث العاطفة الدينية من غفوتها ، واثار الجانب الروحى من مكمنه ، من مثل حديثه عن جعفر ابن الحسن : « كان أول ، من اتخذ فى مسجد البصرة حلقة ، وأقرأ القران فى مسجد البصرة »(٥) ، وبالمثل كان ممن تعلق من حولهم ، مرتادى مسجد البصرة: أبو بكر الهذلى ، وهو عبد الله بن سلمى . وصفه الجاحظ بالبيان وحسن الخطابة، يقول : « كان بينا خطيبا ، صاحب أخبار » (٦) ويظهر أن العادة فى المساجد

---

(١) البيان والتبين : — ١/٣٦٤ .
(٢) « « : — / ٣٦٥ .
(٣) — « « : — ١ / ٢٩٠ .
(٤) البيان والتبيين : — ١ / ٣٠٦ .
(٥) « « : ١/٣٣٧ .
(٦) « « : ١/٣٣٧ .

من قبل عصر الجاحظ أن يكون لكل مسجد قصاصه من هؤلاء الزهاد ([1])، وقد تتخذ القبائل لمساجدها زهاداً بعينهم ، من مثل ما يذكره الجاحظ في حديثه عن مسجد بني شيبان ([2]) ، وبالمثل قد يلي الابن مكان أبيه في القصص بالمسجد ، ومن هؤلاء الزهاد ، والنساك من كان يطوف بالمساجد ليلا عابدا متنسكا من مثل صنيع الفضل بن عيسى الرقاشي رئيس الفضلية ([3]) ، ومنهم من كان يطوف في الأسواق للوعظ والقصص([4]) ، وكانت حياة بعضهم مثلا للزهد في ملذات الحياة حتى أنه حين قيل لرابعة القيسية العدوية : لو كلمت رجال عشيرتك فاشتروا لك خادما تكفيك مهنة بيتك ؟ « قالت » : والله أني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ »([5]).

وكانت غاية هؤلاء الزهاد ، والنساك ، ذم الدنيا ، وكشف خدع مظاهرها، وكبح جماح شهوة النفس ، وذم التكالب على جمع المال ، أنظر إلى داود بن نصر الطائي أوصى رجلا بمثل هذه المعاني، فقال: « أجعل الدنيا كيوم صمته، وأجعل فطرك الموت فكأن قد، والسلام » وحين سأله الرجل الزيادة في الوصية ، قال: « لا يرك الله عند ما نهاك عنه ، ولا يفقدك عندما أمرك به » ، ثم طلب الرجل الزيادة في النصح والوصية ، فقال الزاهد : أرض باليسير مع سلامة دينك ، كما

---

(١) البيان والتبيين: ٣٣٧/١ .

(٢) « « : ٣٦٨/١ .

(٣) « « : ٣٦٨/١ .

(٤) « « : ٣٠٦/١ وما بعدها .

(٥) « البيان والتبيين » : ١٧١/٣ .

(٦) « البيان والتبيين » : ١٢٧/٣ .

رضى قوم بالكثير مع هلاك دينهم »(١) ، فنحن فى هذه الوصية نجد أنفسنا أمام دعوة إلى الإيمان الخالص بما أمر الله ، وعزوف عما نهى عنه ، والحد من سلطان الشهوات على النفوس ، ومن ثم رأينا الزهرى حين سئل : « ما الزهد فى الدنيا ؟ ، قال: أما أنه ليس بشعث اللمة ، ولا قشف الهيئة ، ولكنه ظلف (منع) النفس عن الشهوة »(٢)، وبلغ من كبحهم جماح شهواتهم أن نظر زاهد إلى فاكهة فى السوق ، فلما لم يجد شيئا يبتاعها به عزى نفسه قائلا : « يافاكهة موعدى وإياك الجنة »(٣) ، وكان أسوأ الناس حالا فى نظر هؤلاء الزهاد ، والنساك : « من قويت شهوته ، ونفدت همته ، واتسعت معرفته ، وضاقت مقدرته »(٤). وكان تصغير شأن الدنيا وتعظيم شأن الآخرة من أهم الموضوعات التى شغلت هؤلاء الزهاد فى قصصهم الدينى ، ووعظهم ، وكان منهم من يدلل على قصر الدنيا بتعليلات طريفة ، إذ — يسقط من حساب حياة الانسان سنوات الليل ، والسكر ، واللهو ، والقيلولة ، « فاذا بمن عاش خمسين سنة لم يعش شيئا وعليه فضل سنتين »(٥).

وتمثل لنا أقوال الزهاد والنساك ، أصدق تمثيل نزعة الزهد فى هذا العصر ، وكيف أنها استخلصت وشائجها من روح الدين الحنيف،فهى رفض لمتاع الدنيا الزائف ، وقصد إلى وجه الله ، وابتغاء رحمته فى الآخرة ، ودعوة إلى الأمر

---

(١) « البيان والتبيين » ، ١٧٠/٣ .

(٢) « البيان والتبيين » : ١٢٢/٢ .

(٣) » » : ١٧٧/٢ .

(٤) » » : ١٦٥/٣ .

(٥) » » : ٢٦/٤ .

بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وحث على العمل الصالح . ولدينا فى كتابات الجاحظ من أقوال الوعاظ ما يصورلنا هذه الروح أصدق تصوير ، من ذلك أن عمرو بن عبيد كان عزوفا عن الدنيا ومظاهرها ، ومن دعائه فى هذا المعنى قوله: « اللهم أعنى على الدنيا بالقناعة ، وعلى الدين بالعصمة(١)، وبالمثل كل من دعائه قوله : اللهم أغننى بالافتقار إليك ، ولا تفقرنى بالاستغناء عنك »(٢).

وقيل أنه لما مات شبيب بن شيبة قال صالح المرى ، وهو من الزهاد القصاص بالمساجد(٣) فى تعزية أهله قولا مأثورا يمتدح فيه حسب الأدب ، والتواضع بمجالسه الفقراء ، ومؤاخاة المساكين ، يقول المرى معزيا : « رحمة الله على أديب الملوك ، وجليس الفقراء ، وأخى المساكين » (٣) ، وفى هذا الزاهد يقول — الجاحظ فى بيانه : « كان صحيح الكلام ، رفيق المجلس » (٤) ، وسمعه سفيان ابن حبيب — أحد كبار المحدثين — فقال : « ليس هذا قاصا ، هذا نذير ! » من فرط إعجابه بحسن حديثه وقصصه (٥) ، كما يصفه الجاحظ فى موضع آخر من بيانه بأنه كان عابدا بليغا ، يقول : « كان صالح المرى القاص العابد البليغ كثيراً ماينشد فى قصصه ، وفى مواعظه هذا البيت :

فبات يروى أصول الفسيل ∴ فعاش الفسيل ومات الرجل (٦)

---

(١) البيان والتبيين » : ٣/٢٧١ .

(٢) » » : ٣/٢٧١ .

(٣) » » : ١/٣٦٩ ، حيث ذكر أنه كان يكنى أبا بشر .

(٤) » » : ١/١١٣ .

(٥) » » : ١/٣٦٩ .

(٦) » » : ١/٣٦٩ .

(٧) » » : ١/١٠٩ .

ومن كلام صالح المرى الذى ذكره الجاحظ أنه مات أبن لعبيد الله بن الحسن قاضى البصرة، فعزاه صالح المرى، فقال: «إن كانت مصيبتك فى إبنك أحدثت لك عظة فى نفسك، فنعم المصيبة مصيبتك، وأن لم تكن أحدثت لك عظة فى نفسك فمصيبتك فى نفسك أعظم من مصيبتك فى أبنك» (١)، ومثل هذا المعنى يذكره صالح المرى حين عزى رجلا فى أخيه فقال: «إن تكن مصيبتك فى أخيك أحدثت لك خشية فنعم المصيبة مصيبتك بأخيك، وأن تكن مصيبتك بأخيك أحدثت لك جزعا فبئس المصيبة مصيبتك» (٢). ويذكر الجاحظ انه كان كثيراً مايردد فى مجالسه من الأقوال والعظات، من مثل قوله: «أعوذ بك من الخسف، والمسخ، والرجفة، والزلزلة، والصاعقة، والريح المهلك، وأعوذ بك من جهد البلاء من شماتة الأعداء» وكان يقول: «أعوذ بك من التعب، والتعذر، والخيبة، وسوء المنقلب، اللهم من أرادنى بخير فيسر لى خيره، ومن أرادنى بشر فاكفنى شره، اللهم أنى أسألك خصب الرحل، وصلاح الأهل» (٣)، وروى الجاحظ من بعض وعظه فى كتاب «الحيوان» قوله: «تغدو الطيور خماصا تروح شباعا واثقة بأن لها فى كل غدوة رزقا لا يفوتها، والذى نفسى بيده أن لو غدوتم على أسواقكم على مثل إخلاصها لرحتم وبطونكم أبطن من بطون الحوامل» (٤)، وهذه كلها أقوال تحمل معنى الزهد فى العصر، من حيث أنه خلاص من الرذيلة، وسعى إلى الفضيلة، وحب فى العمل الصالح، وكراهية لكل مايغضب الله، لا نحس فيها بعزلة ينشدها الزاهد فى صومعته

---

(١) البيان والتبيين: ٢ / ٨٢.

(٢) « « : ٣ / ١٧٢.

(٣) « « : ٣ / ٢٨٨.

(٤) الحيوان « : ٤ / ٤٥٦.

يكفر فيها عن خطأ أرتكبه شأن ما نجد عند رهبان المسيحية ، لكنها مشاركة لحياة الناس ، وتحين الفرص لوعظهم ، وتذكيرهم بحدود الدين ، ومن ثم كانت فى مواساة وتعزية أهل المتوفى ، فرصة للتذكير بزوال زخرف الدنيا ومباهجها ، وما يلبث الانسان أن يجد نفسه بعد الموت أمام حساب يجزى فيه عن عمله الصالح الجزاء الحسن ، وهكذا يمضى الزهاد ، والنساك فى وعظهم وقصصهم وراء كل ما يذكر الناس بالعمل الصالح لما فيه صالح نفوسهم وخلاصها من الرذيلة .

وعلى هذه الشاكلة من ذم الدنيا والزهد فى ملذاتها روى الجاحظ طائفة من أقوال بعض النساك من مثل قول الفضيل بن عياض ، ناصحا ابن آدم بمثل قوله : « يا ابن آدم ، إنما يفضلك الغنى بيومك (١) ، أمس قد خلا ، وغد لم يأت ، فان صبرت يومك أحمدت أمرك ، وضعفت عن غدك . وإن الصبر يورث البرء وإن الجزع يورث السقم ، وبالسقم يكون الموت ، وبالبرء تكون الحياة »(٢) ، وأنظر إلى أحد النساك يعظ الانسان ويذكره أنه فى هذه الدنيا إنما يعيش بفضل الموت ، ويموت من أجل استمرار الحياة ، وتلك هى العبرة الكبرى من الموت والحياة فى هذه الدنيا ، يقول الناسك : « كفى موعظة أنك لا تموت إلا بحياة ولا تحيا إلا بموت » ، وهذا الناسك هو الذى قال ناصحا الانسان أن يختار صاحبه ممن لا يمن عليه صنعه فيه من معروف ، يقول : « أصحب من ينسى معروفه عندك »(٣) ، وكان عبدالله بن المبارك يتمثل بما كتبه عمر بن عبد العزيز

---

(١) أى أن تكون غنيا بيومك عاملا فيه ما يسعدك .

(٢) البيان والتبيين : ٣ / ١٣٩ .

(٣) البيان والتبيين : ٣ / ١٢٦ — ١٢٧ .

إلى الجراح بن عبد الله الحكمى : « إن استطعت أن تدع مما أحل الله لك مايكون حاجزا بينك وبين ماحرم الله عليك فافعل ، فانه من استوعب الحلال كله تاقت نفسه إلى الحرام » (١) ، ولعلنا نحس من هذه الأقوال إلى أى حد كانت دعوة الزهاد ، والنساك فى العصر تنشد تنقية النفس من شرور الشهوات ، وتقصد إلى إبتغاء ثواب الله بالعمل الصالح إذا لم يكن يوهن من أمر الواحد منهم أمام نفسه قدر أن يجد نفسه وقد خرج من الدنيا ، وأقبل على الموت، وهو لم يفى بعد بحق الله عليه ، فلا يجد أمام هذا المصير إلا طلب المغفرة من الله ، أنظر الى عمرو بن عبيد حين حضرته الوفاة يقول فى هذا المعنى : « نزل بى الموت ولم أتأهب له اللهم إنك تعلم أنه لم يسنح لى أمران لك فى أحدهما رضا ، ولى فى الآخر هوى إلا أخترت رضاك على هواى ، فاغفر لى » (٢) وهذه رابعة القيسية العدوية ، قيل لها : « هل عملت عملا قط ترين أنه يقبل منك ؟ قالت : إن كان شىء فخوفى من أن يرد على » (٣) .

ومن الحق أن هؤلاء الوعاظ القصاص ، والنساك كان مسلكهم فى وعظهم وقصصهم يختلف عن مسلك جانب من عامة القصاص ، كانوا يطوفون طرقات أمصار العراق متخذين من حكاية النوادر سبيلا للكسب ، مما جعلهم يقرنون بأصحاب المساخر ، والسفلة من مثل القرادين وقد روى الجاحظ فى حيوانه طرفا من أخبارهم من مثل ماوراه عن أبى كعب الصوفى (٤) وهم بالمثل يختلفون عن

---

(١) البيان والتبيين : ٣ / ١٧٠ .

(٢) « « : ٣ / ١٤٧ .

(٣) « « : ٣ / ١٧٠ .

(٤) الحيوان : ٣ / ١٤ .

طائفة من أصحاب النسك الفاسد المتأثرين بنزعة الزندقة فهؤلاء عاب عليهم الجاحظ فى « الحيوان » سلوكهم وألحقهم صراحة بالزنادقة (١) .

وكان لنزعة الزهد ، وحياة النسك أصداؤها على بعض الشعراء فى العصر ، فصدروا فى جانب من شعرهم معبرين عن مثل هذه المعانى التى رأيناها عند الزهاد ، والنساك ، ومن خير مايمثل لنا ذلك أصدق تمثيل « زهديات أبى العتاهية » ، انظر اليه يتمنى فى أحداها عودة سنى الشباب التى ولت ليتدارك مافاته ، يقول :ــ

عريت من الشباب وكان غضا ... كما يعرى من الورق القضيب
ألا ليت الشباب يعود يوماً ... فأخبره بما صنع المشيب (٢)

وكثيرا ما كان أبو العتاهية ينحى باللائمة على من يطمع فى الدنيا بأكثر مما تستحق ، غافلا عن غرورها وخدعها ، وفى هذا المعنى يقول :

ياخاطب الدنيا إلى نفسها ... تنح عــن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غرارة ... قريبة العرس من المأتم (٣)

وكان يردد فى شعره نصحه بأن لايأمن المرء شر زخرف الدنيا ، وبريق مظاهرها الزائفة ، فطيب العيش فى حلوه ومره ، يقول : ــ

والعيش يصلح أن مزجـ ... ـت غليظه برقيقه
لا يخدعنك زخرف الـد ... نيا بحسن بريقه (٤)

---

(١) الحيوان : ٤ / ٤٥٦ فى حكايته عن راهبين من الزنادقة .

(٢) البيان والتبيين : ٣ / ٨١ .

(٣) البيان والتبيين : ٣ / ١٨٠ .

(٤) البيان والتبيين : ٣ / ١٨١ .

وهو يتحدث عن الهلع الذى يصيب الإنسان عند فراق الحياة ، ويذكر أنه إذا تخيل الانسان بناظريه هذا المصير فان عيناه ان تطرفا أبدا من هول الفراق، ورجفة الحساب ، يقول :

لو أن عينا وهمتها نفسها .·. ما فى الفراق مصور الم تطرف(١)

وينصح صاحب الهوى بان مايدعوه اليه هواه هو عين الضلال والتيه ، وأن الرابح فى هذه الحياة من لا يطيع نفسه على هواها ، إلا فيما كان فيه صلاحه وهداه ، يقول : ـــ

من أجاب الهوى إلى كل مايد .·. عوه مما يضل ضل وتاها
ربما استغلقت أمور على من .·. كان يأتى الأمور من مأتاها (٢)

وبالمثل تلقانا فى أشعار محمود الوراق دعوة الى الزهد فى ملذات الحياة ، والتأمل فى أحوال الدنيا ، وكيف أن المرء مايلبث أن يأتيه المشيب فيسلبه ما مر من حياة الشباب ، يقول : ـــ

أليس عجيبا بان الفتى ... يصاب ببعض الذى فى يديه
فمن بين باك له موجع ... وبين معز مـــعـــز اليه
ويسلبه الشيب شرخ الشباب ... فليس يعز يه خلق عليه (٣) .

وعنده ان صلاح المرء فى هذه الحياة ، يعود بالخير على أهله ، فينصلح حالهم، ولا يذكر المرء بعد موته إلا بافعل من عمل صالح يذكره له الناس دائما، يقول:ـ

رأيت صلاح المرء يصلح أهله ... ويعديهم داء الفساد إذا فسد
يعظم فى الدنيا بفضل صلاحه ... ويحفظ بعد الموت فى الأهل والولد (٤)

---

(١) البيان والتبيين : ٣ / ١٨٤ .
(٢) « « : ٣ ١٨٠ .
(٣) البيان والتبيين : ٣ / ١٩٧ .
(٤) « « : ٣ / ١٥٨ .

خاتمة البحث

خاتمـــة

فى ختام هذه الدراسة أقول : لعلى وفقت فى عرض هذا العمل بصفة علمية واضحة ، وأوفيت بما قطعته على نفسى فى مقدمة البحث وأضفت جديداً إلى ما بذله من سبقنى فى هـذا المجال ، وإذا كان لى أن أبرز بعض النتائج فانى أذكر منها :

أولا : فيما يخص الجاحظ ودرس حياته وثقافته وآثاره

انتهيت إلى أن كتاباته يمكن أن تتخذ صورة صادقة للمجتمع العباسى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى، وأنها تمثل عصره تمثيلا دقيقا، وأنه لم يكن فيها مؤرخا، أو كاتبا سياسيا ، وإنما كان أديبا دقيق الملاحظة يسجل مشاهداته وانطباعاته أمام المجتمع الذى يعيش فيه ، وخلصت إلى ما يلى :

(أ) تمثل الجاحظ ثقافة عصره ، ونهل من روافدها الأجنبية والعربية مما نوع ثقافته ووسمها بسمة « الموسوعية» حتى اننا نستطيع استخلاص برنامج يضم رؤوس المسائل العلمية فى عصره بشىء من التفصيل .

(ب) اتسم منهجه فى البحث بأنه يقوم على ركنين أساسيين : الشك والتجربة أما الشك ، فانتهيت إلى أن الجاحظ كان يتخذ من الشك العلمى منهجا فى البحث عن الحقيقة والوصول إلى اليقين ، إلا أننا نفتقد عنده ما توصل إليه «ديكارت» من منهج يتضمن قواعد تحلل المعضلات المطروحة للبحث إلى اجزاء على قدر

المستطاع ، ثم الأخذ بالتأليف والتركيب بين أبسط هذه الاجزاء وأسهلها معرفة متدرجاً إلى معرفة أكثرها تركيبا ، ثم يخضع ذلك للاستقراء التام ليكون على ثقة من أنه لم يغفل شيئاً في بحثه ، وعلى الرغم من ذلك فان الجاحظ اهتدى إلى حقيقة أن الشك العلمى يعد وسيلة من وسائل البحث والنظر . أما التجربة بقصد الاستنتاج العلمى فكانت عنده تجربة نظرية تلائم بين العقل وبين ما يدركه من أشياء ، ولم تتوافر لديه الآلات التى يمكن أن تخرج من تجربته عملاعلميا يقوم على تحقيق الفروض التى تفسر الظواهر ، ومن ثم يمكن : استخلاص قوانين عامة نتيجة لاختبار هذه الفروض. فهى تجربة تعتمد أساساً على المشاهده والملاحظة ، مبعثها فيما تحسب إيمانه بالشك الحقيقى فى الافكار المعروضة بقصد التيقن من صدقها أو كذبها ، فلو لم يكن هذا الشك لما عرض للتجربة ، ومن ثم فان نزعة الشك عنده مرتبطة بالتجربة ، وكان الشك عنده غاية أما التجربة فكانت من وسائل اليقين الذى يريد الاقتناع به .

(ج) من الصعب على الباحث الوقوف على العدد الصحيح لآثار الجاحظ ، أو تقدير زمن تأليفها بدقة ، وقد أثبت أن بعض الكتابات ألحقت باسمه من مثل كتاب « سحر البيان المحاكى قطع البيان » وكتاب « الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير » ورسالتين فى ذم العلوم ومدحها ، وبعض هذه الكتابات لم ينشر بعد وتحتفظ مكتبة جامعة القاهره بمخطوطات منها .

(د) وقفت عند ظاهرة الاستطراد فى كتابات الجاحظ وعللتها بحرصه على أن يدفع عن القارىء الملل والضجر ، وبأنه تعرض لبحث موضوعات جديدة على الفكر العربى ، إلى جانب أنه كان موسوعى الثقافة والمعارف ، وأنه ألف جانبا منها فى ظروف صحية قاسية .

ثانيا : التقسيم الطبقى للمجتمع العباسى .

لم يكن البناء الاجتماعى للمجتمع العباسى منفصلا عما سبقه من مجتمعات لكنه لم يكن على شاكلتها من حيث تفاصيل وحداته وعناصره وطبقاته . وقد تهيأت الطبقات الاجتماعية ظروف لظهورها ونموها بشكل خالف ما كانت عليه فى المجتمعات السابقة ، وأثبت أن التغير السياسى فى المجتمع العباسى أعقبه تغير اجتماعى فى تقسيم الطبقات الاجتماعية وترتيب منازل فئاتها تبعا لتغير الوظائف الاجتماعية التى تؤديها هذه الفئات والطوائف والطبقات . وحددت طبقات هذا المجتمع بثلاث : طبقة عليا، وطبقة وسطى، وطبقة العامة. وعقدت مقارنة بين هذا التقسيم وبين ما كان عليه التقسيم الطبقى للمجتمع الساسانى والمجتمع الرومانى ، وحددت الفروق بين هذه المجتمعات من حيث توزيع الأفراد على طبقات بعينها ، والحدود الفاصلة بين الطبقات الإجتماعية فى كل منها وأثبت أن الحدود الفاصلة بين الأفراد فى المجتمعين الساسانى والرومانى ، لم تكن ظاهرة فى المجتمع العباسى ، الذى لم يضع أمام طموح أفراده حدودا صارمة تحد من رقيهم الاجتماعى . وخلصت من ذلك أننا أصبحنا أمام قوة جديدة تشد من أزر أولئك الذين كانوا فى قاع المجتمعات السابقة ليسلكوا طريقهم إلى أعلى المراتب الاجتماعية فى المجتمع الجديد .

وبينت العوامل المؤثرة فى تكوين طبقات المجتمع العباسى وحددتها، بعامل مادى يتمثل فيما يمتلكه الفرد من ثروة ، وبعامل مهنى يتصل بمهنة الفرد التى تحدد بالتالى : نوع الطبقة التى ينتمى إليها ، وبعامل يقوم على أساس أن العلم والثقافة يؤثران على المرتبة الاجتماعية للفرد . وناقشت أثر الوظيفة الاجتماعية على التكوين الطبقى فى المجتمع العباسى الذى كان بحق مجتمعا مفتوحا يقسم بتداخل طبقاته الاجتماعية بعضها ببعض تبعا لنوع الحاجات الاجتماعية وتوزيع

الأعمال الضرورية للأفراد والفئات . وقد استطعت أن أحدد ظروف نشأة كل طبقة وتركيبها الاجتماعى، وأيضا السمات الاجتماعية لأبرز فئاتها،وكانت نتائج ذلك كله توضح الحقائق التالية :ـــ

* في دراسة الطبقة العليا :

(أ) غدت الدولة العباسية « عجمية خراسانية » فى طورها الأول ، ومن ثم نشأت الطبقة العليا بتكوين جديد يخالف تكوينها فى المجتمع الاموى ، فامتزجت العناصر غير العربية من الموالى عامة والفرس بخـــاصة مع العناصر العربية فى التكوين الجديد .

(ب) كان الخلفاء على رأس هذه الطبقة ، ولم يكن مقبولا أن يكون للامة غير خليفة واحد . والخلفاء مفضلون على سائر الأمة ، لهم واجبات محددة ، وقواعد بعينها فى اختيارهم الذى كان يتم بمعرفة خاصة الخاصة ، وكان عملهم يورثهم الكد والنصب وعلى الرغم من ذلك كانوا يحيون حياة مترفة إذ اتخذ بعضهم لأنفسهم سمارا ومضحكين،وأحاطوا أنفسهم بالشعراء يقصدونهم بجوائزهم وكان لبعضهم شروط بعينها فى أزياء من ينشدونهم الأشعار ، وبالمثل كانوا يؤثرون أسلوبا خاصا فى توجيه الكلام اليهم بينما أحاط بعضهم أنفسهم بالمغنين والملهين ، واللاعبين بالشطرنج ، وشاركوا فى اللهو بالجارح من الحيوان والطير وغلب على بعضهم الهوى واللعب ، وأنفق كثير منهم أموالا طائلة على بناء القصور ، وقد استأنس بعضهم فى قصورهم الحمر الوحشية والفيلة ، ومنهم من كان مولعا بالخيل وسباقها بجانب حب العلم والعلماء والحكماء .

(جـ) كان الأمراء والولاة والقواد فى منزلة اجتماعية واحدة تلى مرتبة الخلفاء . وعرف عن بعضهم تفوقهم الثقافى ، والولع بالمسائل العلمية والأدبية

حتى غدت دورهم منتديات حافلة بالعلماء والأدباء . واتخذوا حجابا لهم وعدوا ذلك من تمام هيئتهم الاجتماعية . وغلب على بعضهم حب رحلات الصيد، ومنهم من كان يشهد مجالس الشراب ، بينما اعتاد بعضهم مطاعم بعينها ، أما القواد فامتدح فيهم حسن الخطاب والحديث وما يدل على قوة الشخصية وحزم الأمور، والشجاعة في القتال وتدبير الخدع والمكايد للعدو ، وكان منهم من حظى بالشعر والشعراء ، وقد ولى بعضهم منصب الوزارة .

(د) لم تكن منزلة الوزراء عند الخلفاء الأول من بنى العباسى ، واضحة إذ سرعان ما كان الخليفة يقلب ظهر المجن لوزيره فينكل به أشد تنكيل ثم مالبث الوزراء أن وجدوا مكانتهم الاجتماعية وأصبحوا كسادتهم يعيشون حياة مترفة . وكانوا غالبا ما يختارون من بيئة الكتاب ، ومن الفرس بخاصة . وكان لكثير منهم الاقطاعات ، والدور والقصور ، وتجمع على أبواب كثير منهم الشعراء واتخذ بعضهم المراكب الحافلة فى غدوهم ورواحهم ، وتحولت مجالس كثير منهم إلى منتديات علمية وأدبية ، وقد جمع بعضهم فى شخصه آنذاك السلطة العسكرية بجانب الواجبات الأخرى . وكان لبعضهم ألوان خاصة من اللهو من مثل تربية الحمام والتعلق بالجوارى .

* فى دراسة الطبقة الوسطى :

هناك عاملان كانا سببا فى ظهور هذه الطبقة ، أحدهما : اقتصادى يتمثل فى الترف المسرف الذى عاشت فيه الطبقة العليا ، وما أصابها من ارتقاء حضارى استتبع ظهور طبقة وسطى تقوم على أدوات هذا الترف والرقى ، وثانيهما اجتماعى يتمثل فى الارتقاء الاجتماعى لطائفة الموالى بتغير وظيفتها الاجتماعية فدفعت إلى المجتمع الجديد بفئات الكتاب والمؤلفين والأدباء والشعراء وغيرهم ممن الفوا عناصر أساسية فى الطبقة الوسطى بجانب امتزاجهم فى الطبقة العليا .

ومن ثم كانت الطبقة الوسطى مزيجاً من عناصر عربية وغير عربية تميزت طوائفها وفئاتها بسمات اجتماعية، يمكن تحديدها بما يلى :

(ا) كان للتجار وظيفة اجتماعية مرموقة وضرورية، إذ كانوا يقومون على توفير مطالب الترف وأدواته وكل المطالب الأساسية للحياة فى المجتمع ولكن هذه الوظيفة كانت مستهجنة عند بعض الطوائف الأخرى وخاصة كتاب الدواوين لكن الجاحظ أثبت للتجار ما يرد مطاعن خصومهم واستهجانهم لهم. وكانوا يعيشون فى ترف ونعيم ويراعون أصولا بعينها فى مهنتهم إذ كانوا يعترفون بقانون « العرض والطلب » فى تحديد أثمان السلع التجارية ، ويخطون لاستثمار رؤوس أموالهم الخط الاقتصادى السليم ليحقق لهم أكبر عائد ممكن . وكان اعتمادهم على الحواس الخمسة فى النظر فى بضائعهم ، ووقفت عندما كانوا يجلبون من البلدان من طرائف السلع والأمتعة والجوارى والأحجار ، عددا مراتبها ، وأثمانها . وخلصت إلى أن رؤوس الأموال تتباين بتباين أنواع التجارات، وان حركتها أثرت فى رواج الحياة الاقتصادية وانتعاشها ، فرخصت أثمان الأشياء فى البلدان ذات الطابع التجارى من مثل البصرة بمقارنتها بالأثمان فى البلدان الأخرى كالكوفة والاهواز وبغداد ، وعقدت مقارنة تثبت ذلك معتمدا على مخطوط لم ينشر بعد هو فصول من كتابه « البلدان » .

(ب) بلغ من علو المنزلة الاجتماعية للشعراء فى هذا العصر أن رأينا كثيرا منهم يرتادون دور الخلفاء والأمراء والولاه والوزراء ، ينالون عطاياهم ومنحهم مما جعل بعضهم يحيون حياة مترفة ، ورأينا منهم من كان مولعا بالصيد ومن يشهد مجالس الخمر . وكان من أثر الحياة المترفة وما صاحبها من رقى ذوقهم وتحضرهم أن استحدثوا أسلوبا مولدا فى أشعارهم يعتمد على ألفاظ وسط بين لغة البدو الوحشية الكلمات ولغة العامة المبتذلة الألفاظ وسايروا روح العصر

من حب للعلم والمعرفة ، وأحسنوا تصوير — بيئتهم الاجتماعية ، واستحدثوا فنا شعرياجديدا هو الشعر التعليمي وتناولوا فى أشعارهم ما يصف الحياة اليومية المتحضرة .

(ج) كان القضاة فى مرتبة اجتماعية أرفع من مرتبة الولاة فيما يخص النظر فى المظالم ، وكانوا يقومون على خطب الجمعة فى المساجد الجامعة ، واهتدى بعضهم إلى حيل شرعية كان يحتال بها بعض المخالفين — لأحكامهم وألفوا فى ذلك كتبا تكشف هذه الحيل . ونزل بعضهم من الخلفاء منزلة رفيعة ، وكانوا لفرط علمهم وتفقههم فى الدين محل تقدير أفراد المجتمع ، وكان منهم من عمل بالرأى فى اصدار أحكامهم .

(د) غلب الموالى على طائفة كتاب الدواوين ، ومن ثم تأثرت هذه الطائفة بمؤثرات غير عربية من حيث اتخاذ أفرادها كل ما هو فارسى ، مثلا أعلى لهم فى ثقافتهم ومظاهرهم الاجتماعى ، ثم انهم تهجموا على كل ما هو عربى ثقافة ومظهراً ، ومن أجل هذا نشبت بينهم وبين الجاحظ مناظرات جدلية رماهم فيها بالزندقة والالحاد والتهجم على الدين الحنيف ووصفهم بالحمق والزهو بالنفس دون أساس من العلم أو الفضيلة ، وعلى الرغم من ذلك شهد لهم بأثرهم فى نهضة الكتابة الفنية بما كانوا يعنون به من ألفاظهم ومعانيهم .

(ه) كان المغنون على طبقات ومراتب اجتماعية ، وكان يسلك بينهم طائفة من القيان بلغن درجة رفيعة من حيث الأداء الفنى لهذا اللون من الفنون ، وبلغ من رقى فن الطرب والغناء فى هذا العصر أن قعدت له القواعد الأخرى ، وكان الفضل فى هذا يعود إلى الخليل بن أحمد ثم اسحق بن ابراهيم الموصلى .

٤ — الطبقة الدنيا :

هى الطبقة التى تضم الطوائف والفئات الاجتماعية الأقل ثروة وثقافة فى

مجتمعهم والذين يقومون على أقل المهن الاجتماعية شأنا . ومن هذا التعريف الذى حددته للطبقة الدنيا انتهيت إلى تقسيمها إلى ثلاث طوائف وفئات : عامة الشعب ، وأهل الذمة ، والرقيق . وكانت خلاصة دراستى لهذه الطوائف والفئات ما يلى :

(أ) يعد عامة الشعب أقل مرتبة من الخاصة من حيث قدر عقولهم وهم أداة الخاصة ، وحاجة الخاصة اليهم تعدل حاجة العامة إلى الخاصة . وأثبت من دراستى لطوائف العامة وعامة الشعب تنوع الصناع مع تنوع صناعاتهم ، مما جعلنى أقطع بوجود نوع من التخصص بين الصناع حتى بين أفراد المهنة الواحدة وأقمت الدليل على أن هذه الفئات من الصناع قد تأثر نسيجها الاجتماعى بأصباغ غير عربية من أثر الامتزاج فى المجتمع العباسى واختلاط العناصر الجنسية بعضها ببعض فى هذا المجتمع . وبالمثل استخلصت من دراسة بعض فئات عامة الشعب أن هذه الفئات تتشابه طباعهم فى كل بلدة ، وفى كل عصر . وبينت أن المجتمع العباسى كان كغيره من المجتمعات الانسانية يضم بين ثنايا فئاته وطوائفه الاجتماعية أولئك الذين كانوا سببا فيما يعتور حياة الجماعة من قلق واضطراب من مثل ما حدث من فئة (الخناقين) وهم من روافض الشيعة ، وفئة اللصوص وفئة الساسانية أو من أسماهم الجاحظ بالمكدين وانتهيت إلى أن أفراد هذه الفئة يمتون بوشائج قوية لجماعات « الغجر » الرحل أى من عناصر غير عربية أصلا .

(ب) تخيرت من أهل الذمة طائفتين : النصارى واليهود . أما النصارى فخلصت إلى أنهم كانوا يتمتعون بحرية لا تشوبها شائبة وتوثقت صلتهم بكل طبقات المجتمع ، وكان منهم كتاب الخلفاء وأطباء الأشراف والصيارفة وعلى الرغم من ذلك فانهم كانوا يظاهرون الروم على المسلمين ، وكانوا ضالعين فى بث الفرقة بين المسلمين ساعدهم على ذلك ما امتازوا به من جدل ، وما أتيح لهم

من حريات فى مناقشة كل المسائل حتى المسائل الدينية وهم فى رأى الجاحظ لا كلمة لهم ولا بيان ، وهم الذين أظهروا فى المجتمع العباسى الزندقة وأشاعوا المذاهب الفاسدة من مثل الدهرية ، والمنانية ، والمرقونية والديصانية . وعاب على الدولة تسامحها معهم على الرغم من صنيعهم المريب فى بث الفتنة بين المسلمين . واسترعى نظره من أمورهم أنه مع عزوف رؤسائهم عن الزواج وقيوده غلبوا الأمم بالعدد وكثرة الولد لما طبع فيهم من الأخذ من سائر الأمم دون أن يعطوهم شيئاً ودال على فساد قلوبهم وتحجرها بأنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم .

أما اليهود فهم عند الجاحظ من صغار الناس يعرضون عن الفلسفة وعلوم الكلام ، وكانوا يقومون على المهن الوضيعة فى المجتمع تستهجنهم العامة وتستخف بأمرهم وهو يرميهم بالغى .

(جـ) كان الرقيق تجارة خاصة ، لها قواعدها وأصولها مما يحتاج إليه البائع والمشترى فى أسواقها . وقد تنوعت جنسيات الرقيق ، وغلب الفساد على دور القيان وكان لكل صنف من الرقيق خصاله وأعماله التى يحسنها .

ثالثاً : الحياة الاجتماعية :

فى دراسة ألوان الحياة الاجتماعية عنيت برسم صورة الحياة اللغوية والحياة العقلية ، والعادات والتقاليد ، والنزعات الاجتماعية ، وخلصت فى هذه الدراسة إلى ما يلى :

١ — الحياة اللغوية :

وقفت على سمات ظاهرة الحياة اللغوية من خلال دراسة اللغة العربية الفصحى واللهجات واللكنات واللحن ، واللغات الخاصة ، وكانت هذه السمات فى كل

فصل من فصول هذه الدراسة توضح أموراً بعينها وتنتهى إلى نتائج أبرزها مايلى :

(أ) توفر للغة الفصحى ماجعلها لغة الفكر والشعور للدولة الاسلامية واصبحنا أمام صورة لغوية مثالية تفرض نفسها على جميع الأفراد حين يصدرون عن كل مايمثل الفكر والحضارة فى عصرهم . وهاجرت إلى العربية بعض الالفاظ الأعجمية وكانت هجرتها خاضعة — لمؤثرات متباينة أثرت على صيغ الالفاظ وتركيبها حسب ظروف الناطقين بها . وتأثرت صورة اللغة الفصحى بآثار التحول الحضارى فاتجهت إلى بسط العبارة وجمالها ، ومراعاة مطابقة الكلام لمن يلقى إليهم ، ذلك أن لكل طائفة سماتها اللغوية الخاصة بها . وواجه العرب فى هذا العصر صعوبة شديدة فى نقل التراث الحضارى المتنوع الأغراض إلى لغتهم العربية ، لكن اللغويين وجدوا لهذا التراث طريقها فى ينابيع العربية ، وكان من أثر ذلك أن تضخم معجم اللغة العربية فى هذا العصر ، وفاضت العربية بسيل من الكلمات الدخيلة دون إفساد للعربية ، إذ أن العربية الفصحى كانت تحافظ فى تطورها إلى لغة حضارية ، على مقوماتها و مشخصاتها فى أوضاعها وأصولها الاشتقاقية والصرفية والنحوية . وقد كان لهذه الظاهرة أثرها على الشعر العربى إذ أننا أصبحنا أمام طائفة من الشعراء يستخدمون فى أشعارهم ألفاظا دخيلة من الفارسية وغيرها والحق أن هذه الألفاظ كان استخدامها من قبيل التملح ولا نستطيع أن نرى فيه ظاهرة عامة .

(ب) ظهرت فى ألسنة أهل الامصار الاسلامية المفتوحة آثار صعوبة التكيف العضوى لدى بعضهم مع ماتقتضيه أصول النطق بالعربية على النحو الذى ينطقها به أصحابها ، ونتج عن ذلك جملة من الظواهر اللغوية من الوجهة النطقية خاصة ، وهى : تباين اللهجات بين الأمصار الاسلامية من مثل ما أشار

إليه الجاحظ فى اختلاف اللهجات بين سكان البصرة والكوفة والمدينة ، وظهور لكنات فى نطق العربية بين بعض الأعاجم أسهب الجاحظ فى بيانها وشرح بعض أسبابها ، وظهور اللحن بين كثير من الناطقين الجدد بالعربية وفيمن أسماهم الجاحظ « المولدين والبلديين » ، وان كان هذا لم يمنع من ندرة ظهوره فيمن يتكلمون الفصحى بلسان بين .

(ج) وبالمثل كانت الألفاظ الخاصة الدائرة على ألسنة طوائف بعينها تحمل بين طياتها سمات لهجات خاصة بأصحابها ، لكنها كانت لهجات محدودة الانتشار ذلك أنها كانت محدودة بحدود الطائفة التى تستخدمها ، وذلك ماقصدت إليه باللغات الخاصة ، أما ما كان بين الأمصار بعضها وبعض من فروق فى المفردات والألفاظ فانه كان يحمل مظاهر اللهجات العامة ، وكانت هذه الفروق تحمل بين طياتها مؤثرات أجنبية متباينة ظهرت فى سمات لهجات سكان هذه الأمصار من مثل المؤثرات الفارسية والنبطية فى لهجة أهل الكوفة ، والمؤثرات الفارسية فى لهجة أهل البصرة .

(د) كان من الصعب تحديد قواعد اللغات الخاصة ، وعلى الرغم من ذلك فان من أبرز سماتها تحررها من قواعد الاعراب ، واستعمال ماهو ضعيف أومستهجن من الألفاظ والمعانى ، واستخدام الألفاظ فى غير دلالاتها الصحيحة مع سماجة وسوقية فى التعبير ، وقد امتازت هذه اللغات باستخدام ألفاظ بعينها خاصة بالفئة التى تتكلمها صادرة عن قاموسها الحرفى اللغوى ، وخلت هذه اللغات من دقة التمييز بين المفرد والجمع من الألفاظ ، وفشو اللحن فى ألفاظها وخلوها من الشكل والضبط .

٢ ـ الحياة العقلية

فى تصورى أن الحياة العقلية لأى مجتمع ، تمثل ما أصابه هو وأفراده من

رقى حضارى وفكرى ، والحد الذى حققه فى مواكبة حضارات المجتمعات المحيطة به والمعاصرة له ، ومدى إفادته من حضارات سابقة ، وكذلك صورة العطاء الفكرى الذى يمكن أن يقدمه لحضارة الانسانية اللاحقة . ودراستى للحركة العلمية المزدهرة فى هذا العصر ثم لمناهج البحث العقلى عند المتكلمين والمعتزلة . واوجز فيما يلى أبرز ما تحقق لى من نتائج فى هذا الصدد :

* ازدهار الحركة العلمية :

(ا) هيأت الظروف لظهور حركة علمية واسعة فى عصر الجاحظ ونهض التعليم نهضة شاملة ، واتخذ حينئذ منهجا واضحا فى تعليم أبناء الخاصة وأبناء عامة الشعب وكان هناك التعليم الخاص بالبنات . واستطعت أن أتتبع مراكز النشاط العلمى فى العصر من مثل المربد فى البصرة ، والمساجد ، وحلقات العلم والمناظرة والمنتديات الأدبية والعلمية فى دور السراة ، وذلك بقصد رسم صورة واضحة لأصناف المؤلفات والمصنفات الشائعة فى عصره من حيث موضوعاتها واستخلصت جملة من المسائل كانت تشغل بال العلماء فى المجتمع العباسى بما يمكن أن تعتبر برنامجا للنشاط العلمى فى العصر .

(ب) أن المساجد فى المجتمع العباسى لم تكن دورا للعبادة فقط ، لكنها كانت بجانب ذلك دورا للعلم والتعلم ، وعرضت لصور حلقات العلم والمعرفة المتباينة من حيث أوجه النشاط العقلى بما يعكس ألوان الحياة الاجتماعية فى المجتمع وأثر الامتزاج الحضارى به . ووقفت عند حلقة طائفة المسجديين واثبت تنوع معارفهم وفنون جدلهم وحوارهم فى شتى الموضوعات .

(ج) اتسم عصر الجاحظ باحتدام المناظرات واتضح أن روح المناظرة أصبحت شهوة من الشهوات العقلية فى العصر . وبينت طرفا من الموضوعات

المتناظر فيها وعرضت لهذا الفن فى كتابات الجاحظ وكيف أنه بلغ درجة عاليه من الرقى الفكرى ولا أبالغ إن قلت أن العصر كان يعيش مباراة فكرية تناولت كل جوانب المعرفة بقصد توليد الأفكار، والتعمق فى مساربها الخفية بحثا وراء الحقيقة التى يرضاها العقل الواضح المستنير من خلال لغة المناظرة التى أصبحت بحق لغة العصر فى هذا المجتمع.

علم الكلام والإعتزال :

عرضت لمناهج المفكرين فى هذا المجتمع، لبيان قدرتهم على الاستنباط العقلى السليم، بقصد الوقوف على قدرة العقل والفكر فى هذا المجتمع ومبلغ ما وصل إليه من رقى. وتخيرت لهذا الغرض بيئة المتكلمين والمعتزلة. وانتهت دراستى إلى النتائج التالية :

(أ) اتسع على الكلام فى العصر اتساعا ظاهرا، بعد أن اتسعت دائرة المشتغلين بأبحاثه، وإن لم يكونوا جميعاً فى منزلة واحدة من حيث المكانة العقلية، وكان من بين ما انتهى بهم إلى النظر العقلى ما نشب بينهم وبين أرباب الملل الاخرى من جدال وحوار فى المسائل العقيدية، وهؤلاء لم يكن يكفيهم فى الاقناع أن تذكر لهم آيه من القرآن أو الحديث، بسبب ما أصاب عقولهم من تفلسف جعلهم يلحون فى الجدل حول قضايا تستند على القدر المشترك من العقل، مما اضطر المتكلمين إلى أن يؤلفوا الأدله العقلية على وجود الله وعلى ما يدافعون عنه واخترت لتصوير هذا المنهج مسلك الجاحظ فى بيان «حجج النبوة».

كان المعتزلة — دون شك — أهم فرقة يدين لها على الكلام بالفضل بما أثارت من مسائل ووضعت من أصول. وكان لهم أصول خمسة، متعارف عليها يشتركون فيها، ووجدت فى كتابات الجاحظ ما يشير إلى هذه الأصول.

(ج) ثار بين المعتزلة وبين كل من المحدثين والمفسرين جدل وخلاف ينبنى أساساً على نزوع المعتزلة إلى النظر العقلى وهو ما لا ينزع إليه المحدثون والمفسرن إذ كانوا ينزعون إلى الرواية والحفظ ويضيعون فى ذلك بما يحد من سلطان العقل. أما ما كان بين المعتزلة وبين الرافضة والزيدية فكان فى بعض جوانبه جدلا سياسياً حول موضوع الامامة . وقد امتزج فى هذا الجدل التفكير العقلى بالنزعات السياسية . ولم يكن كذلك الجدل بين المعتزلة وبين الدهرية ، فقد كان جدلا عقليا فى مسائل طبيعة ومسائل غيبية مما وراء الطبيعة ، وحين نظرت فى رد المعتزلة على الدهرية فى مسألة وجود الله ومسألة اثبات الرسل ، ثبت لى أنه يقوم أساساً على ما فى الأصول الدينية من آثار ، مما جعل مثل هذا الرد يبدو فى بعض جوانبه من صور الصناعة الجدلية يتوارى فيها الطابع العقلى لدى المعتزلة وذلك بسبب ما يلحق بهذا الطابع — على قوته — من قصور أزاء بعض المسائل الدينية، إذ ليس من المعقول أن تتحول — جميع المسائل الدينية إلى قضايا عقليه وبراهين منطقية ، لان من هذه المسائل مـــا يتطلب شعورا روحيا أكثر مما يتطلب قواعد منطقية .

(د) تعد مسألة خلق القرآن أبرز مسألة جدلية فى عصر الجاحظ ، أثرت على المعتزلة وعلى الدولة العباسية لفترة من الزمن . وشارك الجاحظ فى مناقشة هذه المسألة حتى أنه كلف بكتابة كتاب يتناولها بالشرح والتفسير المبسط ، ولم تبق من هذا الكتاب سوى صفحات مضطربة لا توضح جوانب المسألة من حيث حجج المعتزلة وحجج المعارضين ، ومن الحق أن ماضاع من هذا الكتاب مع غيره من كتابات الجاحظ فى هذا الموضوع كان من الممكن أن يجعل أمام الدارس لكتاباته من مسألة خلق القرآن صور لحوار خطير بين العقل والعاطفة فى بحث بعض المسائل الدينية التى شغلت بها الدولة العباسية حقبة طويلة من الزمن هذاء

القدر أن يحياها الجاحظ. ولعل من طريف ما عرضه الجاحظ في الصفحات الباقية من كتابه ذلك المشهد الذي تضمن امتحان الامام أحمد بن حنبل في القول بخلق القرآن أمام الخليفة المعتصم بالله ، والذي يصور عمق هذه المسألة الجدلية وأثرها على الحياة العقلية بصفه خاصه والحياة الاجتماعية بصفة عامة في هذا العصر

٣ـ عادات وتقاليد

قدمت في الفصل ما يصور مظاهر السلوك الاجتماعي من حيث حياة الناس في دورهم وعاداتهم وتقاليدهم في مطاعمهم وأزيائهم ومشاربهم. ولعل أبرز ما تحقق لي في هذا الفصل هو أن الامتزاج الحضاري قد أثر على مظاهر السلوك الاجتماعي فاذا دورهم تتوفر فيها كل أدوات الحياة الناعمة المترفه في المأكل والمشرب والنوم والمجالس والزينة والتغلب على الظواهر الطبيعية كحر الصيف مثلا، وإذا بمطاعمهم تتنوع تنوعا شديدا وقد وقفت على طرف من المطاعم فهي العربية وبعضها أصلها وكان في أغلبه فارسيا ، وبالمثل تنوعت أزياؤهم حتى غدا لكل فئة اجتماعية زيها الخاص بها ، وقد اتخذت بعض الفئات عدة أزياء لمناسبات متنوعه وكان ذلك ظاهرا في زي فئة الخلفاء خاصة . ووقفت عند أبرز عاداتهم في تزاورهم وتزاوجهم وختان أولادهم ومد موائدهم ، وبالمثل عرضت للحديث عن مشاربهم وأن كان الجاحظ لم يعرض فيما تحت يدي من كتاباته الا للانبذة والخمور

٤ ـ نزعات اجتماعية

ظهرت في المجتمع العباسي ضروب من النزعات الاجتماعية المتقابلة ، يصدق عليها وصف الظواهر الاجتماعية . وقد قصرت دراستي على أربع نزعات هي : الشعوبية والزندقة والمجون والزهد . وخلصت من هذه الدراسة إلى النتائج التالية :

(أ) الشعوبية

كان ظهور نزعة الشعوبية نتيجة لما تحقق لطوائف الموالى من إرتقاء طبقى اجتماعى أثر فى بروزها بشكل يعد ضربا من السلوك الجمعى مستندا إلى ما كان فى تعاليم الاسلام من مساواة بين المسلمين وعدم تفضيل شعب على شعب أو جنس على جنس . وتحول دعاتها بفعل الارتقاء الاجتماعى لطوائفهم وفئاتهم إلى نوع من القهر الخارجى على أفراد المجتمع . وكان لهذا القهر أساليبه المتنوعة ونتائجه المتباينة . وأوضحت دراستى لهذه النزعة أن كثيرا ممن ينتمون إلى عناصر غير عربية، من العلماء والأدباء والشعراء، كانو يصدرون عن روح شعوبية واضحه. وقد انبرى الجاحظ لرد مطاعن الشعوبية على العرب حتى أن جانبا من كتبه غدا وكأنه مناظرة واضحة بين العرب والشعوبية وكانت بعض مطاعنهم على العرب تحمل من طياتها بغضا للدين الحنيف وحقدا على العرب ، وكان من أهم هذه المطاعن رميهم العرب بأنهم بدو رعاة أغنام وإبل ، وبالمثل انتقصوا من بلاغة العرب وقوة خطابتهم وعابوا عليهم أنهم اعتادوا فى خطبهم عادات لا تمت للخطابه بصلة كأن أشاروا فى خطبهم بالمخاصر وإتكئوا على العصى وتزيوا بزى خاص عند الخطاب . وأنكر الشعوبية تفرد العرب بميزة الخطابة وعابوا عليهم آلاتهم الحربية وسخروا منها . وقد رد الجاحظ على هذه المطاعن ودحض أسانيدها بحجج مقنعة . .

(ب) الزندقة

بلغ فى عرف عامة الشعب فى عصر الجاحظ أن كانوا يطلقون صفة الزندقة على كل من كان فى داره ديك أبيض أفرق . ومن الحق أن مدلول الزندقة شمل فى هذا العصر كل الحاد بالدين الحنيف وإنكار لوحدانية الله وإيمان بتعاليم المانوية . وكان من وراء فشوها بعض عناصر من الفرس وبعض النصارى ، إذ

أثبت الجاحظ وجود صلة قديمة كانت بين الزندقة والنصرانية وبالمثل ثبت أن هذه النزعة كانت تلقى عونا من خارج الدولة ومن ملك الروم بصفة خاصة وكانت الزنادقة كتب منمقة راجت بين عامة الشعب على الرغم من أثرها السىء فى خلق الاضطراب فى العقول والافكار . وغلبت هذه النزعة الالحادية على نفر من الشعراء .

(ج) المجون

كان من مظاهر المجون فى المجتمع العباسى عشق القيان والعبث بالجوارى وبالغلمان والشغف بالخصيان . ووقف الجاحظ عند هذه المظاهر وبين آثارها الفاسدة فى المجتمع . وبالمثل كان الصيد يشكل مظهرا هاما من مظاهر نزعة اللهو والمجون فى هذا العصر وفى كتابات الجاحظ مادة وافرة عن أدوات الصيد ورحلاته وكلابه وطرق صيد الحيوانات والطيور التى كانوا يسعون وراءها . وبين كيف أنهم يتلهون بأجناس من الحيوان والطير أحكم تدريبها على أداء بعض الالعاب من مثل ما نعرفه اليوم بألعاب « السيرك » وكان فى مقابل هذه الضروب من التسلية واللهو ، ضروب أخرى تمثل فى بعض جوانبها حالات مرضية أصابت المجتمع . ولاحظت أنها انتشرت بين بعض الطوائف من عامة الشعب، ومن هذه الضروب التقامر واللهو بالهراش بين أجناس الطير والحيوان .

(د) الزهد

لم يكن المجون عاما بين طبقات المجتمع ، إذ لم يكن المجتمع كله منحلا صاخبا ، وإنما كانت نزعة اللهو أكثر حدة بين المترفين ومن حولهم ، فالفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع لم تكن فروقا طفيفة ، حتى أنه كان فى مقابل الترف والمجون فى بعض طوائف وفئات الطبقتين العليا والوسطى ، حياة يفشو فيها الفقر والبؤس بين فئات عامة الشعب من الفقراء والمعوزين، مما أتاح الفرصة أمام طوائف النساك والزهاد للوعظ. فكان منهم من أتجه إلى الخلفاء لوعظهم،

واتخذ بعضهم حلقات فى المساجد ومنهم من كان يطوف فى الاسواق للوعظ ، وكانت غاية هؤلاء الزهاد والنساك ذم الدنيا وكشف خداع مظاهرها وكبح جماح شهوة النفس وذم التكالب على جمع المال. وكانوا يستخلصون وشائج هذه الغاية من روح الدين الحنيف ، وقد أثرت هذه الروح على طائفة من الشعراء فكان الزهد ورفض الدنيا ومتاعها موضوعا رئيسيا لاشعارهم .

هذه خلاصة سريعة لما انتهيت إليه من نتائج فى هذه الدراسة ولعلى أكون قد حققت شيئا مما كنت آمله .

وما توفيقى إلا بالله ...

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

(١) كتابات الجاحظ.

(٢) المصادر والمراجع العامة

(أ) المصادر القديمة

(ب) المراجع الحديثة

(٣) المراجع الأجنبية

المصادر والمراجع

أولا : كتابات الجاحظ

١ – المخطوطات

(١) رسالة فى ذم العلوم ومدحها ، منسوبة للجاحظ ، مخطوطات مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٩٨٥

(٢) رسالة فى مدح الكتب والحث على جمعها ، منسوبة للجاحظ ، مخطوطات مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٧٠

(٣) سحر البيان، المنسوب للجاحظ، مخطوطات جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٠٠ (مصورة عن الأصل بكبريلى)

(٤) مختارات فصول للجاحظ المحفوظ أصلها فى المتحف البريطانى ومصورتها بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ ، ونخص بالذكر من هذه الفصول مايلى

– من صدر كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة بالله

– من صدر كتابه فى الاوطان والبلد ان وقد نشرت فصول هذا الكتاب فى العرق مؤخراً

– من صدر رسالته فى البلاغة والايجاز

– من صدر كتابه فى النبل والتعقل وذم الكبر .

(٥) العبر والاعتبار ، المنسوب للجاحظ، مخطوط مكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٧٥

(ب) المطبوعات

١ ـ البخلاء

للجاحظ ، وطبع عدة طبعات ، وكان اعتمادنا على ثلاث منها الأولى بتحقيق فان فلوتن G. Van VLOTEN نشر بريل بليدن سنة ١٩٠٠ ، والثانية بتحقيق أحمد العوامرى وعلى الجارم نشر وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٣٧ ، والثالثة بتحقيق الدكتور طه الحاجرى نشر دار المعارف بمصر .

٢ ـ البرصان والعرجان والعميان والحولان

للجاحظ ، تحقيق محمد مرسى الخولى طبع ونشر دار الاعتصام للطبع والنشر (القاهرة ــ بيروت) سنة ١٩٧٢ م

٣ ـ البيان والتبيين

للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٨١ هـ .

٤ ـ التبصر بالتجارة

للجاحظ ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب التونسى ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٣٥ م .

٥ ـ ثلاث رسائل لأبى عثمان بن بحر الجاحظ البصرى

تحقيق فان فلوتن ، طبع ليدن بهولاندا سنة ١٩٠٣ م وتشمل :

ـ رسالة إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك وعامة جند الخلافة

ـ كتاب فخر السودان على البيضان

ـ كتاب التربيع والتدوير

٦ ــ ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

تحقيق يوشع فنكل J. VINKEL

طبع المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٤ هـ ، وتشمل :

ــ المختارات من كتاب الرد على النصارى .

ــ ذم أخلاق الكتاب

ــ رسالة القيان

٧ ــ الحيوان

للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون طبع الحلبى ، القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ

٨ ــ رسائل الجاحظ

نشر حسن السندوبى ، طبع الرحمانية سنة ١٣٥٢ هـ ــ ١٩٣٣ م
وتشمل :

ــ خلاصة كتاب العثمانية وخلاصة كتاب نقض العثمانية لأبى جعفر الاسكافى .

ــ من كتاب فضل هاشم على عبد شمس

ــ من كتاب حجج النبوة

ــ من كتاب التربيع والتدوير

ــ من كتاب استحقاق الامامة

ــ من رسالته فى صناعة القواد

ــ من كتابه فى النساء

ــ من رسالته فى الشارب والمشروب

ــ من رسالته فى مدح النبيذ

— من رسالته فى بنى أمية

— من كتابه فى العباسية

— من رسائله الخاصة ، وهى رسالة إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة ، وأخرى فى ذم الزمان ، ورسالة إلى محمد بن عبد الملك الزيات ، وأخرى إلى أحمد بن أبى دؤاد ، وغيرها لإبراهيم بن المدبر ورسالة أخرى كتب بها معاتبا .

٩ — رسائل الجاحظ

تحقيق عبد السلام هارون ، فى جزأين ، نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة سنة ١٣٨٤ هـ — ١٩٦٤ م ، وتشمل . :

— كتاب مناقب الترك

— المعاش والمعاد

— كتمان السر وحفظ اللسان

— فى الجد والهزل

— فى نفى التشبيه

— كتاب الفتيا

— رسالة إلى أبى الفرج بن نجاح الكاتب فى المودة والخلطة

— فصل ما بين العداوة والحسد

— صناعات القواد

— رسالة فى النابتة إلى أبى الوليد

— كتاب الحجاب

— كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان

— كتاب القيان

— ذم أخلاق الكتاب

— كتاب البغال

— الحنين إلى الاوطان

١٠ — رسالة لم تنشر بعد

للجاحظ تحقيق الدكتور طه الحاجرى منشورة فى مجلة الكاتب المصرى مجلد ٣ عدد ٩ سنة ١٩٤٦ م من ص ٣٨ — ٤٤ .

١١ — العثمانية

للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون نشر دار الكاتب العربى سنة ١٣٧٤ هـ

١٢ — الفصول المختارة من كتابات الجاحظ

اختيار عبيد الله بن حسان ، على هامش كتاب الكامل للمبرد ، طبع التقدم العلمية بمصر فى جزأين ، سنة ١٣٢٣ — ١٣٢٤ هـ وتشمل :

— من كتابه فى الحاسد والمحسود

— من كتابه فى المعلمين

— من رسالته فى مدح التجارة وذم عمل السلطان

— من كتاب التربيع والتدوير

— من رسالته إلى الحسن بن وهب فى مدح النبيذ وأصحابه .

— من كتابه فى طبقات المغنين .

— من كتابه فى النساء .

— من رسالته إلى الفتح بن خاقان فى مناقب الترك .

— من كتابه في حجج النبوة .
— من كتابه في خلق القرآن .
— من كتابه في الرد على النصارى .
— من رسالة إلى أبي الفرج الكاتب في المودة والخلطة .
— من كتابه في استحقاق الامامة .
— من رسالة في استنجاز الوعد .
— من رسالته في تفضيل النطق على الصمت .
— من كتابه في صناعة الكلام .
— صفات الشارب والمشروب .
— من مقالته في الزيدية والرافضة .

ثانيا : المصادر والمراجع العامة

أ — المصادر القديمة :

١ — ابن الآبار : اعتاب الكتاب تحقيق د. صالح الاشتر ط. دمشق ، ١٣٨٠ ه .

٢ — ابن الأثير : أبو الحسن علي بن أبي الكريم محمد الشيباني والملقب بعز الدين ، الكامل في التاريخ ، ط القاهرة ١٣٤٨ ه .

٣ — ابن أرسولا الغساني ، المعتمد ، ط ، اليمنية ١٣٢٧ ه .

٤ — الأشعري ، أبو الحسن علي بن اسماعيل ، مقالات الاسلاميين ، ط ، استنبول ، ١٩٢٩ م .

٥ — البلاذري ، أحمد بن يحيى بن جابر ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، ط ، القاهرة ، ١٩٣٢ م .

٦ — ابن البيطار ، ضياء الدين عبد الله بن أحمد المالقى الساقى ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ط ، بولاق ١٢٨٦ ھ ،

٧ — ابن الجوزى ، أبو الفرج عبد الرحمن بن على ، صفة الصفوة ، ط ، حيدر أباد ، ١٣٥٦ ھ .

المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، تحقيق د. سالم الكرنكورى ، ط ، حيدر أباد ١٣٥٧ ھ .

٨ — ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ط ، بولاق ١٢٨٤ ھ .

مقدمة ابن خلدون ، عدة طبعات أشرت اليها فى الهوامش .

٩ — ابن خلكان ، أحمد بن ابراهيم شمس الدين الأرملى ، وفيات الأعيان وأنباء الزمان بما ثبت بالنقل أو أثبته العيان ، ط ، باريس ١٨٣٨ م .

١٠ — ابن دريد ، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى البصرى ، الجمهرة فى اللغة ، ط ، حيدر أباد ١٣٥١ ھ .

١١ — ابن الزبير ، القاضى الرشيد أبو الحسين أحمد بن القاضى الزبير ، الذخائر والتحف ، باعتناء د. محمد حميد الله ، ط ، الكويت ١٩٥٩ م .

١٢ — ابن سيده ، أبو الحسن على بن اسماعيل المرسى ، المخصص ، ط ، بولاق ١٣١٨ ھ .

١٣ — ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ط ، الموسوعات بالقاهرة ١٣١٧ ھ .

١٤ — ابن عبد ربه ، أحمد بن محمد القرطبى ، العقد الفريد ، ط ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

١٥ — ابن العماد الحنبلي ، أبو الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ط ، القدسي ، القاهرة ١٣٥١ ﻫ .

١٦ — ابن فارس ، مقاييس اللغة ، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ط ، الحلبي ، ١٣٦٦ ﻫ .

١٧ — ابن حجر العسقلاني ، أحمد بن حجر العسقلاني المصري ، لسان الميزان ، ط ، حيدر أباد ، ١٣٣٠ ﻫ .

١٨ — ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، المعارف ، ط ، الاسلامية بمصر ١٣٥٣ ﻫ .

عيون الأخبار ، ط ، دار الكتب المصرية ١٣٤٣ ﻫ .

تأويل مختلف الأحاديث ، ط ، القاهرة ١٣٢٦ ﻫ .

١٩ — ابن المعتز ، عبد الله بن المعتز بن المتوكل ، طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار فراج ، ط ، دار المعارف ١٩٦٨ م .

٢٠ — ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، المصري ، لسان العرب ط ، بولاق ١٩٥٧ ﻫ وطبع بيروت ١٣٧٤ ﻫ .

أخبار أبي نواس ، ط ، الاعتماد بالقاهرة ١٣٤٣ ﻫ .

٢١ — ابن نباته ، جمال الدين ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط ، المدني ١٣٨٣ ﻫ .

٢٢ — ابن النديم ، محمد بن اسحق ، الفهرست ، ط ، الرحمانية بمصر ١٣٤٨ ﻫ .

٢٣ — أبو علي القالي ، الأمالي ، ط ، دار الكتب ١٣٤٤ ﻫ .

٢٤ — أبو الفرج الأصفهاني ، الأغاني ، عدة طبعات أشرت اليها في الهوامش .

٢٥ — أبو يوسف ، الخراج ، ط . السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ .

٢٦ — البحترى ، ديوان البحترى ، ط . أمين هندية ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .

٢٧ — البغدادى ، الخطيب ، أبو بكر أحمد بن على ، تاريخ بغداد ، ط . السعادة بمصر ١٣٤٩ هـ .

٢٨ — البغدادى ، محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادى ، الطبيخ ، تحقيق داود الجلبى ط . الموصل ١٣٥٣ هـ .

٢٩ — البيهقى ، ابراهيم بن محمد ، المحاسن والمساوىء ، ط . السعادة ١٩٠٦ م .

٣٠ — الثعالبى ، عبد الملك بن محمد ، أبو منصور ، يتيمة الدهر ، ط . القاهرة ١٣٥٢ م .

التمثيل والمحاضرة ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ط . الحلبى ١٣٨١ هـ .

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، ط . الظاهر ١٣٢٦ هـ .

الاعجاز والايجاز ، ط . مصر ١٨٩٧ م .

٣١ — الجهشيارى ، محمد بن عبدوس ، الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا عبد الحفيظ شلبى ، الطبعة الأولى ، ط . الحلبى ١٣٥٧ هـ .

٣٢ — الجواليقى ، أبو منصور ، المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم تحقيق أحمد شاكر ، ط . دار الكتب المصرية ١٣٦١ .

٣٣ — الجوهرى ، إسماعيل بن حماد ، تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق أحمد عبد المقصود عطار ، ط . دار الكتاب العربى ١٣٧٧ هـ .

٣٤ — حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، ط . استنبول ، ١٩٤١ — ١٩٤٣ م .

٣٥ — الحصرى ، القيروانى ، أبو اسحق ابراهيم بن على ، جمع الجواهر فى الملح والنوادر ، ط . القاهرة ١٣٥٣ هـ .
زهر الآداب ، تحقيق على البجاوى ، ط . القاهرة ١٩٥٣ م .
٣٦ — الخفاجى ، شهاب الدين أحمد بن محمد الخفاجى المصرى ، شفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخيل ، ط . السعادة ١٣٢٥ هـ .
طراز المجالس ، ط . القاهرة ١٨٦٨ م .
٣٧ — الخوارزمى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف ، مفاتيح العلوم ط . محمد منير ، القاهرة ١٣٤٢ هـ .
٣٨ — الخياط ، أبو الحسين ، عبد الرحيم بن محمد بن عثمان الخياط ، الانتصار بالرد على ابن الراوندى الملحد ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٢٥ م .
٣٩ — داود بن عمر الأنطاكى ، تذكرة أولى الألباب والجمع العجيب والعجاب ، ط . الشرقية ١٣١٧ هـ .
٤٠ — الدميرى ، كمال الدين محمد بن موسى ، حياة الحيوان الكبرى ، ط . بولاق ، ١٢٨٤ هـ .
٤١ — الراغب الأصفهانى ، أبو القاسم الحسين بن محمد ، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ، ط . الشرقية ١٣٢٦ هـ .
٤٢ — الزبيـــدى ، محب الدين أبو الفيض ، تاج العروس من جواهر القاموس ، ط . الخيرية ١٣٠٦ هـ .
٤٣ — السمعانى ، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد التميمى ، الأنساب ، ط . ليدن ، هولاندا ، ١٩١٢ م .

٤٤ — السيوطي ، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، تاريخ
الخلفاء ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط . السعادة ١٩٥٩م
الجامع الصغير ، ط . حجازي ١٣٥٢ هـ .
المزهر ، ط . الحلبي ١٣٦١ هـ .

٤٥ — الشريشي، أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن، شرح مقامات الحريري
ط . بولاق ، ١٣٠٠ هـ .

٤٦ — الشهرستاني ، محمد بن عبد الكريم ، الملل والنحل . طبعتان :
الأولى على هامش الفصل بين الملل والنحل ، لابن حزم ط . الفتوح
الأدبية ١٣٦٧ هـ . والثانية ط . ليبسيك ١٩٢٣ م .

٤٧ — الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك ، نكت الهيمان في نكت
العميان . تحقيق أحمد زكي ، ط . الجمالية ١٣٢٦ هـ .

٤٨ — الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الامم والملوك ، عدة
طبعات أشرت اليها في الهوامش .

٤٩ — عبد القادر الجرجاني ، دلائل الاعجاز ، ط ، السعادة ١٣٣٧ هـ .

٥٠ — الغزالي ، أبو حامد بن محمد ، الاقتصاد في الاعتقاد ، ط ، جريدة
الاسلام ١٣٢٠ هـ .
فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ، ط ، القاهرة ١٣١٩ هـ .

٥١ — الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ، الأحكام
السلطانية والولايات الدينية ، ط ، القاهرة ١٢٩٨ هـ .

٥٢ — المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد الأزدي، الكامل، ط ، ليبسيك
١٨٦٤ م .

٥٣ — المرتضى ، المنية والأمل ، باب المعتزلة، ط . حيدر أباد ١٣١٦هـ.
٥٤ — المرزبانى ، أبو عبيد الله محمد بن عمران ، الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء ، ط . السلفية ١٣٤٣ هـ .
٥٥ — المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين ، التنبيه والاشراف ، ط . الصاوى ١٣٥٧ هـ .

مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٦١ — ١٨٦٧ م .
٥٦ — المنذرى ، الحافظ زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى المصرى ، الترغيب والترهيب، ط . الهند ١٣٠٠ هـ .
٥٧ — النويرى ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ط . دار الكتب ١٩٢٤ م .
٥٨ — الميدانى ، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابورى ، مجمع الأمثال ، ط . ١٣٤٢ هـ .
٥٩ — ياقوت الحموى ، أبو عبد الله الرومى الحموى ، معجم الأدباء ، عدة طبعات أشرت اليها فى الهوامش .
معجم البلدان ، ط . مصر ١٣٢٥ هـ .
٦٠ — اليعقوبى، أحمد بن أبى يعقوب بن واضح الكاتب، تاريخ اليعقوبى ط . النجف ١٩٣٩ م .

(ب) المراجع الحديثة :

١ — أ . أ . ايفانز . بريتشر ، البناء الاجتماعى ، ترجمة د . أحمد أبو زيد ، ط . منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٠ م .
٢ — د. أحمد أبو زيد ، الأنثربولوجيا الاجتماعية ط . منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٦٥ م .

٣ — د. ابراهيم أمين الشوار بى ، بحث فى تأثر الجاحظ بالثقافة الفارسية، مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة ديسمبر ١٩٣٦ م .

٤ — أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، الطبعة السابعة ، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٤ م .

٥ — أندريه جوسان ، طبقات المجتمع ، ترجمة د. السيد محمود البدوى ، ط . الألف كتاب العدد ١٠٥ .

٦ — ادى شير الكلدانى ، الألفاظ الفارسية المعربة ، ط . بيروت ١٩٠٨

٧ — د. توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، الطبعة الثانية ، ط . لجنة التأليف والترجمة ، والنشر ، ١٩٥٤ .

٨ — توماس أرنولد ، الدعوة إلى الاسلام ، ترجمة د. حسن ابراهيم ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٧ م .

٩ — جوستاف لبون ، حضارة العرب ، ترجمة د. محسن عادل ، ط . الحلبى ١٩٤٥ م .

١٠ — د. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسى والاجتماعى ، الطبعة السابعة ، ١٩٦٤ م .

١١ — حسن السندوبى ، أدب الجاحظ ، ط . الرحمانية ، القاهرة ١٩٣١م

١٢ — د. حسن ظاظا ، اللسان والانسان ، ط . دار المعارف ١٩٧١ م .

١٣ — دوركايم (اميل) قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة د. محمود قاسم ط . النهضة المصرية ١٩٦١ م .

١٤ — دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٣١م والطبعة الثالثة ١٩٤٦ م .

١٥ — ديكارت «مقال عن المنهج» ترجمة محمود الخضيرى، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٨ م .

١٦ — شارل بيلا، أثر البيئة البصرية في تكوين الجاحظ، ترجمة د. ابراهيم الكيلاني، ط . دمشق ١٩٦١ م .

١٧ — شفيق جبرى، الجاحظ معلم العقل والأدب، ط . القاهرة ١٩٤٨م.

١٨ — د. شوقى ضيف، البلاغة تصور وتاريخ، ط . دار المعارف ١٩٦٥م

— البحث الأدبى، ط . دار المعارف ١٩٧٢ م .

— العصر العباسى الأول، ط . دار المعارف بدون تاريخ .

— العصر العباسى الثانى، ط . دار المعارف، ١٩٧٣ م .

— الفن ومذاهبه فى النثر العربى، ط . دار المعارف ١٩٦٥ م .

١٩ — د. طه الحاجرى، الجاحظ حياته وآثاره، ط. دار المعارف ١٩٦٩م

٢٠ — د. عبد الحكيم بلبع، أدب المعتزلة، ط . القاهرة ١٩٦٦ م .

٢١ — عبد العزيز الدورى، العصر العباسى الأول، ط . بغداد ١٩٤٥م.

٢٢ — عبد المنعم خفاجى (محمد) ، أبو عثمان الجاحظ، الطبعة الأولى، القاهرة بدون تاريخ .

٢٣ — فندريس، اللغة، ترجمة د. عبد الحميد الدواخلى و د. عبد المنعم القصاص، ط . لجنة البيان العربى، ١٩٥١ م .

٢٤ — كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربى، ترجمة د . عبد الحليم النجار، ط . دار المعارف ١٩٦٢ م .

٢٥ — كريستنسن، ايران فى عهد الساسانيين، ترجمة د. يحيى الخشاب، ط . الدار القومية ١٩٥٧ م .

٢٦ — د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ابراهيم بن سيار النظام وآراؤه الكلامية والفلسفية ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦م.

٢٧ — الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، الطبعة العاشرة ، القاهرة، بدون تاريخ الطبع .

٢٨ — محمد كرد على، أمراء البيان، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٧ م .

٢٩ — د. محمود عبد السلام زناتى ، القانون الرومانى ، ط . القاهرة ١٩٦٤ م .

٣٠ — د. مصطفى الخشاب ، دراسة المجتمع ، الانجلو بمصر ١٩٦٧ م .

٣١ — مصطفى صادق الرافعى، تاريخ آداب العرب، ط ، الأخبار ١٩١١م

٣٢ — ميتز ، الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة ، ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، الطبعة الثالثة ، ١٩٥٧ م .

٣٣ — المعلوف ، معجم الحيوان ، ط . المقتطف ، القاهرة ١٩٣٢ م .

٣٤ — د. وديعة طه النجم ، الجاحظ والحاضرة العباسية ، ط . بغداد ١٩٦٥ م .

٣٥ — د. يوسف خليف ، حياة الشعر فى الكوفة ، ط . الكاتب العربى ١٩٦٨ م .

٣٦ — يوهان فيل ، العربية ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، ط . دار الكتاب العربى ١٩٥١ م .

جـ - المراجع الاجنبية

(1) De Vaux, Carra, Avicenne, Paris 1900 .

(2) » » Les Penseurs de L, Islam, Paris 1921 .

(3) Dozzey, Supplement aux Dictionnaires Arabes, Leide 1889

(4) Gibb, H, AR, Arabic Literature, 2nd. ed. Oxford 1963 .

(5) Landtman, The origin of Iuequality of the Social Classes, ,London 1938 .

(6) Reillet Antoine and Marcel Cohen, Les Langues du Mone Paris 1952 .

(7) Redfield R. The Little Community, Chicago 1930 .

(8) Steingass, Persian English Dictionary, London 1960

(9) Summer, C. W. G. Folkways, Mentor Books 1960 .

الفهرس العام

فهرس البحث

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب
٣٧٠٣ / ١٩٧٧ م
الترقيم الدولى X — ٢١ — ٧٢٥٧ — ٩٧٧

مطبعة دار نشر الثقافة
١١ شارع كامل صدقى — الفجالة
ت ٩١٦٠٧٦